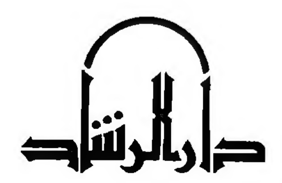
تـاريـخ مـوجـز
للفكر العربى

تأليف :

الدكتور حسين مؤنس



تاريخ موجز

للفكر العربي

الناشـــر : دار الرشاد

العـنـوان : ١٤ شارع جواد حسنى ـ القاهرة

تليـفـون : ٣٩٣٤٦٠٥ ـ ٢٩٩٢٦١٥

رقـم الإيـداع : ٩٦/٢١٠٠

الترقيم الدولى : 2 - 26 - 5324 - 977

طـبـع : آمون

العـنـوان : ٤ عطفة فيروز ـ متفرع من إسماعيل أباظة

تليـفـون : ٣٥٤٤٣٥٦ ـ ٣٥٤٤٥١٧

الجـمـع : آرمس للكمبيوتر

العـنـوان : ٣٢ شارع على عبد اللطيف ـ مجلس الشعب

تليـفـون : ٣٥٦٤٤٠٤

الطبعة الأولى : ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٦م

أعد الفهارس : عادل أبو المعاطى

خطوط الغلاف : محمد حمام

تصميم الغلاف : محمد فايد

مُقَدِّمَـــةٌ

لا أدرى إن كنت أستطيع أن أسمى هـذا كتاباً ؛ لأنـه فى الحقيقة مجمـوعة آراء تكونت داخل نفسى ثم خرجت منها ـ ربما على رغمى ـ شيئاً فشيئاً فى صورة مقالات عن الفكـر العربى ، فأنـا رجل أقرأ كثيراً جـدّاً ، والكتب تملأ حياتى ، وأنـا أحس أحياناً أننى كتاب ، وأننى واحد من كتب مكتبتى ، فإذا أعجبك ، فالحمد لله وإلا فإننى أرجوك ألا تغضب عزيزى القارىء ، وألا تحاول أن تناقشنى ؛ لأننى لن أرد ، فأنا لا أملـك ما أقولـه نظراً لأننى قلت كل مـا عندى فى مـوضوع الفكـر العربى ، وهذه الآراء كلها داخل نفسى وما كان لى أن أخرجها من نفسى ، ولكنها خرجت ، والذى أدهشنى عندما بـدأت أنشـــر هذه الـدراسات أن النـاس رحبوا بها تـرحيباً عظيماً ، وقراء هذا الكتاب زادوا على قراء أى كتـاب آخر لى ، وإلى يومنا هذا يتصل بى ناس بالتليفون ويسألون : أين الكتاب ؟ ! وأنا الآن أقول : هـذا هو الكتاب ، (مبسوطون) ؟

وكل واحد منـا فى ذهنه مثل هـذا الكتاب ، فنحن كلنـا نقرأ ، والفكـر العربى موجود فى صورة مـا فى ذهن كل واحد منا ، ولكن المسألة هنا هى مسألـة كتابة ما فى ذهنك عن الفكـر العربى ، إنها مسألـة تأليف ، والتأليف تسبقـه مسألة تـرتيب ، فكل شىء مـوجود فى ذهنك ، هذا صحيـح ، ولكنه مضطرب غير مـرتب ، ثم إن الموضـــوعات فى ذهنك غير كـــاملـة . فهـى تكـونـت نتيجـة للقـــراءة أو لسماع المحاضرات ، ولكنهـا شىء من الشرق وشىء من الغرب ومعلومات متنـاقضة وغير مرتبـة ، ولكى تكتبها لابـد أن تجلس وتجمع الكتب وتقرأ بعنايـة ما فى ذهنك وتـرتبه وتكمله على قـدر ما تستطيع ثم تأخذ فى الكتابـة ، وما كتبته اليوم تبيضـه فى الغد ، وتظل تكتب وتبيض و لا شـىء مما تكتبـه يعجبك حتى تطلـع روحك ، ومع ذلك فأنت تجد فى النهاية أنك لم تؤلف كتاباً وإنما هو كلام مجموع فى صورة غير لائقة .

ولكننى عندما شرعت فى كتابـة هذا الكتاب لم يكن فى ذهنى أن أسجل ما يجول فى خاطرى ، فإن الذى فى ذهنى عن الفكر العربى قليل ولا يستحق التسجيل ، إنما

لدىَّ فى ذهنى أفكار غريبة عن الفكر العربى ، وقد أردت أن أكتبها فى شكل منظم وأجعل منها كتاباً ؛ لأدخل فى مناقشات مع الناس ، وعندما بدأت الفصول تظهر فى مجلة أكتوبر انهالت علىَّ الرسائل من كل مكان فى العالم العربى ، و معظم هذه الرسائل ليست غاضبة بل هى خطابات مندهشة ، وتبينت مع مرور الزمن أن الناس (مبسوطون) .

والحقيقة أننا فى العالم العربى ليس لدينا تواريخ كافية للفكر العربى ، إنما نحن لدينا تواريخ للأدب العربى مختصرة جدّاً مثل تاريخ الأدب العربى لجورجى زيدان أو مطولة بعض الشىء مثل تاريخ الأدب العربى للدكتور شوقى ضيف ، ومع أن هذه تواريخ طيبة إلا أنها تقتصر أولاً على الأدب العربى ، ثم فيها ثانياً نقص كبير ، ولو أنك رأيت تاريخاً للفكر الإنجليزى أو الفرنسى أو الأسبانى لدهشت ، فإن أنواعها ممتازة ، ثم إنها من كل حجم ، ما بين مجلد واحد وعشرين مجلداً ، ومعنى ذلك ـ بكل صراحة ـ أننا ليس لدينا تواريخ كافية لا للفكر العربى أو الأدب العربى ، وقد تدهش إذا علمت أن التاريخ المحترم الوحيد للفكر العربى هو الذى كتبه الألمانى كارل بروكلمان ، وأنا أعتمد عليه اعتماداً تامّاً .

ولكننى أرجو القارىء ألا يظن أن الآراء التى أسوقها هنا مبادئ أؤمن بها ولا أتنازل عنها ، فهذه فى الحقيقة آراء عامة مما يقع فى الخاطر ولا يصعب التخلى عنها إذا تبين خطؤها ، إنها فى الحقيقة آراء أسوقها إلى القارئ راجياً منه ألا يغضب إذا لم يعجبه شئ ، فأنا مستعد أن أتخلى عن آرائى وأغير منها ، فإن الآراء ينبغى أن تكون قابلة للتغيير ولا معنى أبداً للتمسك بالآراء كأنها عقائد ، إنما أنا أقول لك إنه لا ترضينى قلة الآراء الشخصية الخاصة بالفكر العربى عندنا ، فإن الناس ـ حتى المتخصصين ـ لا يحفظون فى أذهانهم إلا القليل جدّاً من المعلومات عن الفكر العربى .

وأنا أسألك الآن : أنت طبعاً تعرف كتاب « البيان والتبيين » لأبى عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ ، ولكنى عندما أقول لك : اكتب لى صفحتين عن هذا الكتاب فأنت لن تستطيع ؛ لأن الأفكار موزعة فى ذهنك والكثير منها أشبه بالضائع ، والذى أفعله أنا هنا هو أننى أجمع الأفكار التى فى ذهنى وذهنك عن الفكر العربى

وأضعها أمامنا لكى نفكر فيها ، وقد وجدت لذة كبرى فى ذلك وأنت أيضاً ستجد مثل هذه اللذة ، بل ستجد عندك لذة فى أن تقرأ هذا الكتاب أكثر من مرة ؛ لأنه فعلاً طريف ، أحياناً ستحس أنك غير راضٍ عما تقرأ ، ولكنك عندما تقرؤه مرة ثانية ستجد لذة فى إدارة ذهنك فيما تقرأ ؛ لأن الفكر العربى فى الواقع طريف جدّاً ، ولكننا مهملون ، ونحن لا نعنى بأشيائنا ، فحاول الآن أن تقرأ هذا الكتاب أكثر من مرة ، وحاول أن تدير ذهنك فيما تقرأ ، وليس من الضرورى أن تنتهى إلى رأى ، بل المهم أن تدير ذهنك فى الفكر العربى وترجع إلى الكتب وتراجع ما تقرأ مرة ومرتين أو ثلاثة ، فهذا هو الهدف الذى كُتِبَتْ هذه الفصول من أجله .

وبعد ، فهذا الكتاب مقدمة للفكر العربى ، ولا أريد أن أجعل لهذه المقدمة مقدمة طويلة ، فأنا سأتركك الآن لتقرأ الكتاب وتفكر فيه ، ويمكنك أيضاً أن تكتب لى فأنا أحب المناقشة ، فاقرأ وليعنك الله على الاستمرار فى القراءة ، والله سبحانه معك ، وهو سيعينك ، ونحن جميعاً سندخل بهذا الكتاب فى ندوة عن الفكر العربى ، والله سبحانه يعيننا كلنا بإذنه .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . .

المؤلف

د. حسين مؤنس

أَنَا أُفكّرُ ، إذَنْ فَأنَا غَيرُ مَوْجُودٍ !

هذه محاولة لإعادة النظر فى التراث العربى الفكرى كله .

كان لابد أن أقوم بها ؛ لأننى - وأنا من أكثر الناس إنشغالاً بالفكر العربى وتراثه - كنت أسأل نفسى مرة بعد أخرى : هل أنا وريث أعلام الفكر العربى الماضى من امرىء القيس والجبرتى وحسن العطار ؟ إن رجل الفكر الإنجليزى يشعر شعوراً متصلاً بأنه يواصل عمل شيكسبير وستيوارت مِل وبرنارد شو ، ويواصل عملهم على طريقته وأسلوبه ومطالب عصره ؛ لأنهم يعيشون فيه ، فلماذا لا نشعر نحن بأثر الجاحظ وأبى تمام والمتنبى وابن سينا وابن حزم وبقية الأعلام فى نفوسنا وفكرنا ؟ شعورى الخاص أن الباقى لنا من تراث الفكر العربى قليل جداً ، والباقى رماد .

هذا مجرد رأى ، والباب مفتوح ، والفكر حوار ، والحضارة أخذ وعطاء ، والتاريخ كله حوار بين الماضى والحاضر .

كانت أمة الإسلام أيام رسول الله ﷺ أمة رجال أعزّاء بدينهم ، كانوا أمة القرآن الذى أرسله الله إلى قوم يعقلون ؛ أى يفكرون ، ولأنهم كانوا يفكرون فقد كانوا صحابة لرسول الله ، وما أعظم أن تكون لرسول الله صاحباً ! ..كانوا أنصار الله ، وما أعظم أن تكون لله ناصراً ، فلما ذهبت أمة الأحرار والصحابة وأنصار الله ، قامت دولة الخليفة الكسرى القيصر ، وأصبح الحكم للسيف ، والسيف والفكر لا يجتمعان ، وسيف الطاغية هوى على رءوس المفكرين ، وتحولت الأمة إلى رعية .. أى إلى قطيع .

عندما كتب رينيه ديكارت عبارته المشهورة : « أنا أفكر — أو أدرك - إذن فأنا موجود » .. كان يعلم إنه بهذه العبارة القصيرة التى كتبها باللاتينية Cog, To, Ergo Sum قد هدم كل بناء العلم القائم إلى عصره ١٥٩٦ — ١٦٥٠ ، فإن معظم ما كان يتناقله الناس من العلم إلى أيامه فى العالم الكاثوليكى كان يقوم على التسليم بالموروث فى كل ميادين المعرفة : التسليم بكل ما وصل إلى أهل العصور الوسطى من علم أرسطو ، والتسليم بكل ما كان يردده أهل الطب والنجوم وما إليها مما كان يدخل فى نطاق العلوم .

والتسليم بكل مـا ورد فى الكتاب المقدس : أسفـار بنى إسرائيل والأناجيـل الأربعة التى أقرتها الكنيسة ورسائل بولس وكتابات آباء الكنيسة ، وكل ذلك مكتوب فى لاتينية عسيرة على الفهم ، مغلقة إلا على الراسخين فى علوم الدين .

ثم التسليم بكل ما وصل إليهم من قرارات المجامع وأقوال البابوات ، والتسليم بأن جميع البابـوات معصومون من الخطـأ والغلط أو الوقوع فى أيسر الخطـايا ، والتسليم بسلامة كل ما كان قائماً إذ ذاك من نظم السياسة والمجتمع .

أمـام هـذا الجدار الهائل الأصم من التسليم المطلق وقف ديكـارت وقـال : إن كل شىء ينبغى أن يوضع موضع الشك de omnilus dubitando ومن الشك ينتقل الإنسان بـالفكر والبحـث والدرس ليصل إلى اليقين ، وجـود الإنسان نفســه يحتاج إلى دليل ! وعبارة ديكـارت التى ذكرتها هى فى الحقيقـة جواب على سؤال أطـال هو التفكير فيه ، هو : وما الدليل على أننى كائن أو موجـود ! الدليل على أننى موجود هو أننى أفكر وأدرك الأشياء من حولى ، فإن الذى يجعلك تشعر بوجودك هو فكرك ، أو تحرك ذهنك ، والحيوان يعيش ويتحرك ويأكل دون أن يشعر بوجود نفسه ، لأنه لا يملك الذهن الذى يتحرك ويدرك .

والتسليم بالموجود القائم ينتهى بالذهن إلى الركود .

وأنت عندما تسلم بكل شىء تكون غير مـوجود ، وعندما تسكن وتصمت والحياة تتدفق من حـولك ، فإنك غير موجـود ، وقد قرأت كلمـة جميلة فى إحـدى مقالات أنيس منصور الأخيرة ، فقد ذكر أن (جيته) قال فى ختام حوار ممتع بينه وبين بيتهوفن : إذن فنحن أحياء فقط عندما نتكلم ! والمراد : عندما نقول كلاماً صادراً عن فكر .

وإذا كان التسليم المطلق يعنى إلغاء الفكر والإحساس بالوجود ، فإن التفكير يعنى الحياة بـالنسبة للإنسان ، وأول حـركة للفكر هى الشك حتى فى الوجـود نفسه ، وعن طـريق الشك يصل الإنســـان إلى اليقين ، واليقين فى شىء ينقلك إلى الشك فيما يليـه . فأنت إذا أيقنت بوجودك وجدت نفسك تسأل : ولماذا أنا موجود ؟ وتتصل حركة ذهنك ، فتنتقل من شك إلى يقين ، ومن يقين إلى شك ، ومن شـك إلى يقين ، وهكذا يـرتفع بنـاء العلم اليقينى الذى لا يتوقف ، وعلى العلم اليقينى وحده يقـوم بناء حضارات العمران ،

أما الأوهـام والتخيلات والفـروض والمسلَّمات فلا يقـوم عليها بنـاء حضارى نـافع ، وحضارة الأنكا مثلاً ركدت ثم تحجرت ؛ لأنها قامت على أوهام ومخاوف وتخيُّلات .

وهذا مثل واحد من حضارات أخرى كثيرة قامت على أوهام وخرافات وعاشت على الأوهام والخرافات . وماتت تحت ركام الأوهام والخرافات .

ديكارت إذن أيقن أنه موجود عندما أدرك أنه يفكر .

وعلى هذه البـداية الصغيرة قـام بناء الفلسفة الكـارتية كلهـا ، وعلى قاعـدة الفكر الكارتى قام الفكر الغربى الذى دخل فى دور الحركة المتصلة من ذلك الحين ، وعلى الفكر المتحرك دائماً من الشك إلى اليقين قـام بناء الحضارة الغربية كلهـا ؛ لأنهم تعلموا كيف يبنـون كل أشيائهـم على أساس الفكـر المنظم والعلم الـدقيق النـافع ، وديكارت كـان لاهوتياً ، ولكنه كان كذلك ريـاضياً وصاحب علوم ؛ لأن الغرب تَعَلَّمَ منه كيف يصل إلى اليقين فى أى شىء يفكرون فيـه عن طريق الشـك فيه ، فإذا انتهى إلى اليقين فى أمـر بدأ الشك يساوره فيما يليه ، وكل جواب عندهم يصبح سؤالاً عن شىء يليه ، وذلك هو سر الحيوية والقوة فى فكر الغرب وحضارة الغرب .

وكـلاهما يقـوم على منهج علمى يطبقـونـه على كـل شىء ، والمنهج أو النهج هـو الطريق ، ومن هنـا فقد أصبحت الحيـاة عندهم نهجاً أو منهجـاً بلا نهايـة ، فاتسعت رحـابها وامتدت آفـاقها حتى تخطت حـدود عـالمنا الشمسى ، وبـالأمس فقط وصلت مـركبة فضـائية أطلقهـا الأمريكيـون من أحـد عشر عامـاً إلى أقصى عالمنـا الشمسى وخرجت منه وانطلقت فى فضاء الله الشاسع وهى نابضة بالحياة ، ولا تزال ترسل لهم الإشارات والصور عن عوالم أخرى ، وهذا كله بدأ من عبارة ديكارت التى ذكرناها .

ويستوقف انتباهنا أن منهج ديكـارت : منهج الوصول إلى اليقين عن طريق الشك موجـود عندنا منذ أن أكرمنـــا الله بالقرآن ، ولكننـا لم نحسن تطبيقه ولم نطق الصبر عليه .

وهذا هـو السبب فى ركود الفكـر العربى وتـوقفه بعـد حقبة من الـزمان طـويلة ، والقرآن نفسه يقـول : إن الله يحب عبده الذى يصل إلى اليقين عن طـريق الشك ، وكلنا نذكر آيات سـورة الأنعام التى ترينا كيف أن إبراهيم ـ عليـه السلام ـ وصل إلى اليقين

عن طريق الشك المتجدد ، ففى بحثه عن خالق الكون رأى كوكباً فظنه ربه ، ثم وجده يأفل فشك فيه ، وشكه جعله يتجه نحو القمر حاسباً إياه ربه ، فلما أفل عاوده الشك واتجه إلى الشمس ، فلما رآها تأفل فَطِنَ إلى الحقيقة الكبرى ، وهى أن ربه لا بد أن يكون خالق هذا الكون كله ، وهنا استقر قلبه ووصل إلى اليقين فقال فى لفظ القرآن : « الأنعام ٦ / ٧٨ ـ ٧٩ » . ﴿ **قَالَ يَاقَومِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا من الْمُشْرِكِينَ** ﴾ .

واقرأ معى هذه الآيات البينات من « سورة الحجر ـ ١٥ / ٩٧ ـ ٩٩ » ﴿ **وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * واعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ** ﴾ .

والمراد : حتى يأتيهم اليقين بعد الشك والتكذيب .

بل إننا لنجد مصاديق منهج الوصول إلى اليقين عن طريق الشك فى السيرة النبوية ذاتها ، فعمر بن الخطاب كان قبل إسلامه من أشد الناس إنكاراً لحقيقة الإسلام ، وهو عندما أراد الله له أن يصل إلى اليقين دفعته حميته الجاهلية إلى أن يذهب ليعصف بأخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل عندما بلغه نبأ دخولهما الإسلام ، وبالفعل ضرب أخته وشجَّها شجًّا قبيحاً ، فلما رأى دمها يسيل رق قلبه لها ، وبدأ شكه وحيرته من أمر هذا الإسلام ، عندما وجد أن ضربه إياها زادها ثباتاً على إيمانها ، والشك أول الطريق إلى اليقين ، فطلب أن يطلع على الآيات التى كانا يقرآنها عندما دخل عليهما ، فلم تعطه إياها إلا بعد أن يتطهر ، ثم تناول الصحيفة فإذا فيها الآيات الأولى من « سورة طه » وهنا انتهى به الشك إلى اليقين ، وأدرك بذهنه وقلبه أن هذا لا يمكن أن يكون كلام بشر ، فأخذ طريقه إلى دار الأرقم ، ودق الباب على رسول الله وأصحابه ، ثم دخل فأسلم وآمن إيمان يقين .

ولم يمنعه إيمانه بعد ذلك من أن يناقش رسول الله فيما لم يقتنع به ؛ لأن يقين عمر كان يقيناً متجدداً ، وبفضل هذا اليقين المتجدد أصبح عمر قوة دافعة متجددة الابتكار داخل جماعة الإسلام ، وجداله مع رسول الله ﷺ فى حديث الحديبية يدل على أن إيمان عمر لم يكن إيمان تسليم مطلق دون تفكير ، فهو لا يسلم إلا بما يقتنع به ، ورسول الله أحب هذه الخصلة فى عمر ، فهو لم يغضب عليه حين جادله ، بل تركه حتى

يقتنع بنفسه ، فمثل عمر لا يسلم دون اقتناع ، وبهذا الطراز من الإيمان على أساس الإقناع أصبح عمر من أكابر بناة أمة الإسلام ، فهو إيمان رجل يفكر ، ولا يسلم إلا بما يهتدى إليه عقله ، ومع ذلك فلم يكن عمر عنيداً أو لجوجاً إذا تبين له خطأ رأيه ، وما أكثر المواقف التى أخذ فيها عمر برأى أبى بكر ، وما أكثر مواقف الجدل بينه وبين إخوانه من الصحابة أثناء خلافته ، وما أكثر ما كان عمر يترك رأيه ويأخذ برأى مجادليه إذا تبين له أن هذا هو الصواب .

وإنه ليستوقف نظرنا أن رسول الله ﷺ لم يطلق على من دخل الإسلام وأصبح عضواً فى أمة الإسلام اسم الأتباع بل الأصحاب أو الصحابة ، فهم صحابته لا أتباعه أو رعاياه ، ولزمهم هذا اللقب بعد أن قامت أمة الإسلام واشتد عودها فى المدينة ، والصحبة تعنى الألفة والمودة والصداقة والمساواة ، فلم يرض رسول الله ﷺ لهم إلا المساواة بنفسه الكريمة برغم أنه كان نبيهم وهاديهم ورائدهم ، ولو شاء أن يكون أميرهم أو سيدهم لكان ، ولما وجدوا فى أنفسهم غضاضة ، لأن إيمانهم كان إيمان يقين ، وكانت معاملة الرسول لأصحابه معاملة الصاحب ، فكان يأخذ منهم ويعطى ، وكان يستمع إليهم ويقبل الجيد الصالح من آرائهم ، وعلى طول حياته ﷺ كان الحوار ممتدًّا بينه وبين أصحابه ، بل لقد أطلق رسول الله على أعضاء جماعته من أهل المدينة لقب الأنصار ، وهو لقب فيه إعزاز وتكريم ورفعة ؛ لأن نصيرك هو أخوك وصاحبك عند الشدة ، وبروح المساواة والأخوة ، وبروح الصحبة والمحبة والحوار والمشورة وتبادل الرأى ؛ بلغت أمة الإسلام فى المدينة ذروة قوتها على عهد الرسول ﷺ وصاحبيه من بعده ، وعندما فقدت أمة الإسلام روح الصحبة والأخوة ، وانقطع الحوار بين الخليفة عثمان بن عفان والأمة ، دخل العنف والقهر أمة الإسلام ، وتغيرت روحها ودَبَّ فى كيانها الوهن لأنها خرجت عن منهجها الذى رسمه لها الله سبحانه وتعالى وطبقه رسوله الكريم ، وبعد أن كانت أمة الإسلام أمة حرة تتكون من أصحاب مؤمنين أحرار أصبحت (رعية) يسوسها راع بعصاه هو الخليفة الذى أصبح ملكاً ، ويغفل فقهاؤنا عن هذه الحقيقة الكبرى ، ويغيب عنهم أن أمة الإسلام كانت أول أمرها وفى عصر قوتها « أمة من دون الناس » كما ورد فى نص « الصحيفة » ثم انحرفت بعد ذلك عن منهج الله ؛ فأصبحت أمة من الأمم يجرى عليها ما يجرى على غيرها من الأمم من ظلم وقهر وذل وهزيمة .

وهنا بالتحديد عندما تتحول أمة الإسلام من جماعة من الأخوة والأصحاب الأحرار المتساوين الذين يجمعهم الإيمان ، إلى رعية يحكمها ملك هو سيدها وصاحب حق الحياة والموت فى أهلها ، لم تعد أمة الإسلام بل أمة ورثت الإسلام فيما ورثت دون أن تحس به وتعرف قدره ، وهذه حقيقة غفل عنها رجال من طبقة ابن خلدون ؛ لأنهم لم يتعمقوا حقيقة الإسلام وما أراد الله أن يميز به أمته عن غيرها من الأمم ، لتكون بهذه الميزات فتحاً فى تاريخ البشر ، فغابت هذه الحكمة عنهم ونظروا إلى الإسلام نظرتهم إلى أى أمة أخرى وأرَّخوا لها على أنها أمة لايميزها عن غيرها شىء ، والأسوأ من ذلك أن المسلمين أنفسهم لم يفطنوا إلى ما أراد الله من أمتهم ، فساروا فى سياسة أمور جماعتهم على نفس القواعد التى كانت تسير عليها الدول قبل الإسلام ، واعتبروا أمة الإسلام دولة أو مملكة أو سلطنة ، وما داموا قد نظروا إلى أمتهم هذه النظرة فقد خرجوا بها عن منهج الله أى عن المنهج الذى رسمه لها الله ، وأصبحوا دولة كغيرها من الدول التى ينشئها الناس من نصر وهزيمة وضعف وتفكك وفساد وعز وذل .

وانطبق عليهم قول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (آل عمران : ٣/ ١٤٠) وقد قالها الله سبحانه فى سياق كلامه عن معركة أحد ، وهى معركة خرج فيها المسلمون عن نهج الله ، فأصبحوا ناساً كغيرهم يداول الله الأيام بينهم كما يداولها بين غيرهم من الناس .

أما فى معركة بدر فقد ثبتوا على منهج الله فنصرهم الله وهم قلة وأذلة ، أعزهم إيمانهم وبه نُصِروا على الكثرة ، وأتى فقهاء القرن الثالث الهجرى وما بعده فوجدوا ملكاً قائماً ودولة تقوم على القهر والقوة والسلطان ، فكان كل همهم أن يوجدوا لأنفسهم مكاناً ووظيفة فى هذا الملك القائم ، فجعلوا أنفسهم سدنة النظام القائم وسلموا بما فيه واجتهدوا فى تحليله وإضفاء صبغة الدين عليه ، وأصبحوا بهذا جزءً من ذلك الملك القائم على الظلم لا على منهج الله سبحانه .

فى ذلك العالم الدنيوى الخالص لم يعد أفراد الأمة صحابة بل رعية ، وتلاشت قيمة الإنسان فانحدر من صاحب وأخ إلى فرد من أفراد رعية أو قُلْ : إلى رأس من رؤوس الغنم أو الماشية التى يرعاها الملك الغاشم الذى سمَّوْهُ إماماً أو خليفة أو سلطاناً أو ملكاً . وفى هذا البناء الشامخ تضاءل قدر الفكر وصاحب الفكر وتدهور حتى

أصبح مواطناً غير مرغوب فيه ؛ لأن المواطن المطلوب أو المرغوب فيه فى هذا البناء السياسى غير الإسلامى هو المواطن الذى يعتبر نفسه رأس غنم ويتصرف على أنه رأس غنم !!

وإذا كانت القيمة فى أمة الإسلام فى العصر النبوى والنصف الأول من العصر الراشدى للفرد ، كلها للإنسان المؤمن الذى يعتز بإيمانه وشخصيته ويجتهد فى الارتفاع بقدر نفسه بالبذل فى سبيل الجماعة والاجتهاد فى خدمتها ، أصبحت القيمة كلها فى عصور الخلفاء السلاطين ـ بداية من خلافة معاوية بن أبى سفيان ـ للإنسان الضعيف الطائع المستسلم الذى لا يفكر ولا يتحرك إلا بما شاء السلطان ، وفى قصره فى دمشق جلس معاوية بن أبى سفيان البدين المترهل على عرشه يحيط به جند اختارهم من أجلاف العرب يضع فى كف الواحد منهم مائة دينار ويشير بأصبعه فيهوى بسيفه على من أشار إليه ، والويل لمن يبكى على القتيل ، ومكة مهد الإسلام الأول أصبحت ضيعة من ضياع معاوية ، يتولاها له رجل من بيت أبى سفيان يسمى عتبة أو عنبة بن أبى سفيان ، وهو أخو معاوية ، ثم يخلفه عليها خالد بن العاص بن هشام المخزومى من قوم أبى جهل ، أما المدينة فلا يحكمها لمعاوية إلا مروان بن الحكم طريد رسول الله ، ثم يخلفه عليها رجال من بيت أبى سفيان أو بيت مروان ، وكذلك الأمر فى بقية نواحى الدولة .

وكان معاوية قد أمر المغيرة بن شعبة واليه على العراق ألا يخطب على المنبر مرة إلا سب علىَّ بن أبى طالب ولعنه ، يقول الطبرى : فأقام المغيرة ـ وهو من الصحابة ـ عاملاً على الكوفة لمعاوية سبع سنين وأشهراً ، وهو من أحسن شىء سيرة وأشده حباً للعافية ، غير أنه لا يدع ذم علىّ والوقوع فيه والعيب لقتلة عثمان واللعن لهم ، والدعاء لعثمان بالرحمة والاستغفار والتزكية لأصحابه ، فكان حجر بن عدى إذا سمع ذلك قال : بل إياكم ذم الله ولعن ! ثم قام فقال : إن الله عز وجل يقول : ﴿ **كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لله** ﴾ « النساء : ١٣٥ » وأنا أشهد أن من تذمون وتعيرون لأحقُّ بالفضل ، وأن من تُزَكُّون وتطرون أولى بالذم .. فيتغاضى عنه المغيرة ، وحجر بن عدى كان رجلاً حرًّا من كندة ، كبر عليه أن تستعمل منابر الإسلام فى معصية الله ، فقام يعلن رأيه . كان رجلاً ذا فكر وعقل وقلب وإحساس بحقيقة الإسلام ودعوته ، فيأبى

عليه إسلامه أن يدع سب ابن عم رسول الله وصهره وفارسه يجرى على منابر الإسلام فيقوم ويحتج عليه ، واجتمعت عليه جماعة من أصحابه من الأحرار صاروا يفعلون فعله ، ومعاوية مع ذلك لا يرعوى ولا يزال يأمر رجاله أن يسبوا على بن أبى طالب على المنابر ، ويضيق صدره بهذه الحفنة من الأحرار ، فيولى العراق بعد موت المغيرة بن شعبة رجلًا من خلصائه هو زياد ابن أبيه ، وزياد كان طاغية ظالماً دخيلاً ألحقه معاوية بأهله واستعمله لإذلال الناس وكانت قاعدته البصرة ، واستمر فى سب علىّ على المنابر ، ويظل حجر وأصحابه على احتجاجهم على هذا الظلم ، ويبلغ ذلك زياداً فيقبل إلى الكوفة ويصعد منبرها ويخطب ويطيل ، ويسب عليًّا وأصحابه فيكثر ، وطال الوقت حتى كاد وقت الصلاة يفوت ، فرمى حجر زياداً بكف من الحصى ونهض للصلاة ونهض معه الناس ، فنزل زياد وصلى بالناس .

وكتب زياد إلى معاوية فى أمر هذا الرجل الحر وأصحابه ، فكتب إليه معاوية : أن شده فى الحديد واحمله إلىّ ، فلما جاء كتاب معاوية أراد قوم حجر أن يمنعوه ، فقال : لا ولكن سمع وطاعة ! فشد فى الحديد وحُمل إلى معاوية ، فلما دخل عليه قال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمته وبركاته ، فقال له معاوية : أمير المؤمنين ! أما والله لا أقيلك ولا أستقيلك ! أخرجوه فاضربوا عنقه ! فأخرج من عنده فقال حجر للذين يلون أمره : دعونى حتى أصلى ركعتين : فقالوا : صلِّ ! فصلى ركعتين خفف فيهما ثم قال : لولا أن تظنوا فىَّ غير الذى أنا عليه لأحببت أن تكونا أطول مما كانتا ، ولئن لم يكن فيما مضى من الصلاة خير فما فى هاتين خير ، ثم قال لمن حضره من أهله : لاتطلقوا عنى حديداً ، ولا تغسلوا عنى دماً .. فإنى ألاقى معاوية غداً على الجادة ، ثم قدم فضربت عنقه .

قال محمد : فلقيت عائشة معاوية فى مكة فقالت : أين كان حلمك عن حجر ! فقال لها : يا أم المؤمنين ، لم يحضرنى رشيد .. يريد أنه لم يجد حوله رجلاً رشيدًا يرده عن هذه الجريمة .

قال ابن سيرين : فبلغنا أنه لما حضرته الوفاة جعل يغرغر بالصوت ويقول : يومى منك ياحجر يوم طويل .

هى قضية فكر ورأى إذًا ، فحجر بن عدى لم يكن منافساً سياسيًّا بل هو لم يخلع

طاعة ولا فـر أو استخفى ، إنما هو رجل أَبَى أن يكون رأساً من الغنـم فقام يعلن رأيه وثبت عليـه حتى الموت ، إنه رجل قـال : أنـا أفكر . فقـال لـه الطاغيـة : إذن فأنت غير موجـود ! ولا يجوز لك أن توجد ؛ لأن الذى يـريد أن يعيش أو يوجـد معنا لا ينبغى أن يكون له رأى أو فكـر أو حتى إحسـاس إنسان ! وتأمل والله أمر معـاوية الذى يستحل دم رجل وأصحابه لمجرد أنه يحتج على شىء بالغ السخف هو لعن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ على المنابر ، ولكنه الطغيان والغـرور بالدنيا والعمى بالسلطان ، وهذا كله بعيد عن الإسـلام وأمة الإسلام ، فأين والله عصر أمة الصحـابة والأخوة واحترام قدر الإنسان وعقلـه وفكره ؟ لاعجب أن يقول رجل من حكماء العرب عنـدما بلغه مقتل حجر وأصحابه : والله ما زالت العرب تقتل بعد ذلك أبدًا !

والغريب أن الطبرى عندما يسوق هذا الخبر بروايات شتى وينتهى إلى موت حجر لا يقف عند موته لحظة ولا يرثيه بكلمة ، كأن حجراً كان سفاكاً أو خارجاً على القانون ، والطبرى كـان رجل فكر ورأى ، ولكنـه كان يكتب فى النصف الثـانى من القرن الثـالث الهجرى / التـاسع الميلادى ، وكـانت قاعـدة : أنت تفكر .. إذن فـأنت غير موجـود قد استقرت وتبلد عليها إحساس الناس .

والطبرى نفسه ضُـرِبَ ورُمِىَ بيته بـالحجارة على أيسر من مقـالة حجـر ، وكان الذين رموا بيتـه بالحجارة هم العامة الـذين درجوا على الظلم وكراهة الفكـر وأصحابه حتى قامـوا يقتلون أهل الفكـر بأيديهم ؛ لأن الـوجود مع الطغـاة أصبح مقصوراً على الطغاة ، أما من عداهم فقد ثبت فى أذهـانهم أنهم كالأنعام أو أضل سبيلاً ، واعترفوا هم بذلك حتى قاموا بأنفسهم يقتلون من قال منهم : إنه إنسان ذو فكر وكرامة !

وقصة رجل آخـر من رجال الفكـر نهض يعلن رأيه ويتمسك بـرأيه ويـذود عنه ، فأبت الـدولة إلا أن تطـارده وتحرمه حق الـوجـود ، وهو قطـرى بن الفجاءة الفـارس الخارجى التميمى الشاعر .

وقطرى كـان رجلاً نجـداً ذا فكرٍ ورأى ، وكـان يرى الخوارج الأزارقـة وهم أشد الخوارج على أهل السنة والجماعة .

ونحن نسميهم الخوارج ولكننا لا نعلم إن كـانوا هم الخوارج أم نحن . ثم نسأل : خوارج على من ؟ والجواب : على طـواغيت بنى أمية :السفيـانيين أولاً ثم المروانيين بعد

ذلك ، أولئك المسمون بالخوارج يرون أن الإمامة تكون فيمن يرضاه المسلمون ويجتمع رأيهم عليه ، ولا يعترفون بهذا الحديث الذى لا تثبت صحته : الأئمة من قريش ، وليس فى القرآن أو الحديث الشريف الصحيح ما يدل على أن رسول الله قال هذه المقالة ، وبماذا تفضل قريش غيرها من بنى آدم ؟

ولماذا تكون الإمامة فيها دون غيرها من الناس ؟ وأول ما سمعنا هذه المقالة يوم السقيفة إذ احتج بها فيما يقال أبو بكر فى مناقشته للأنصار ، وقد أنكر الخوارج ذلك بل أنكروا أن يكون للمسلمين إمام أشبه بالملك ينفرد بالحكم ويستبد هو وآله بالأمور ، وإذا نحن قرأنا السيرة قراءة تدبر وتعمق وقرأنا كتب الرسول - ﷺ - إلى رؤساء العرب فى الجزيرة وجدنا أنه كان يقر على رياسة الناس فى نواحى الجزيرة من يرضاه الناس فى كل ناحية وتحمد سيرته فيهم على أن يظل مسلماً ، صحيح الإسلام ، عضواً فى جماعته ، مشاركًا بنفسه ومن استطاع من قومه فى الجهاد مع أمة الإسلام .

أما أن يكون لأمة الإسلام كلها رئيس واحد مطلق السلطان فى كل ركن من أركان دار الإسلام يولى على كل ناحية من يشاء ويعزل من يشاء ويجبى أموال الناس جميعاً ويتصرف فيها تصرف كسرى فى أموال رعاياه ، فأمر ليس لدينا على ضرورة وجوده على رأس أمة الإسلام من النصوص دليل واحد ، وعمر رضى الله عنه كان يرى نفسه رمزاً لوحدة الأمة وكان يترك سادات العرب على نواحيهم ما أقاموا على الولاء للأمة وبعثوا إليه بصدقاتهم يستعين بها على الجهاد وندبوا الناس من أقوامهم للاشتراك فى جيوش الإسلام .

إنما كان سلطان عمر يتمثل فى ميادين الجهاد والأراضى المفتوحة وثغور الإسلام أما داخل دار الإسلام فعمر - رضى الله عنه - كان الأب الشفيق والرائد الصالح ، وكان لا يطلب من الناس إلا طاعة الله ورسوله ، أما طاعة عمر فى ذاته فلم يطلبها من أحد ، وهذا هو الخليفة حقاً .

أما الإمام الواحد المتفرد بالأمر فى كل دار الإسلام ، فأمر لم يظهر إلا مع قيام دولة معاوية بن أبى سفيان ، وتحول أمة الإسلام إلى كسروية ساسانية أو قيصرية رومية ، وأصبح المتسمى بالخليفة فى دمشق يصر على أن يذل الناس ويستعبدهم ولو كانوا على الطاعة لله ورسوله ، فلم يكونوا يرضون منك بأن تكون مسلماً صادقاً وعضواً صالحاً

فى الجماعـة فحسب ، بل لا بد أن تكـون إلى جـانب ذلك رعية لهم ولأهل بيتهم ، ذليـلاً تعتبر نفسك رأس غنم ! وهل ننسى حديث عبـد العـزيز بن موسى بن نصير ؟ لقـد كان عبد العزيز والياً صـالحاً ، وفاتحًا نجدًا ، خلفه أبوه موسى بن نصير على الأندلس ، فتم فتح ما بقى منها ، وأصبح بذلك ثالث فـاتحى الأندلس بعد طارق وموسى ، فيأبى السخيف سليمان بن عبد الملك إلا أن يدس عليـه من يقتله ؛ لأنه لم يكن ذليلاً ولا رأس غنم ، ويلقى عبد العـزيز بن مـوسى مصرعه بسيف الغدر فى غبـش الصبح وهو ذاهب لصلاة الفجر ، وتغرق الأندلس فى الفتنة والدماء ويبلغ الخبر أباه موسى فيبكيه ويقول رحمه الله ما عرفته إلا مصلياً قائماً ، وصدق موسى فى دعائه لابنه فلا يطلب من المؤمن إلا أن يكون مصـــلياً قائماً بدين الله ، أما أن يكون عبداً لسليمان بن عبد الملك فلا ، كل ذلك بأمر رجـل بغيض أعجف قبيح الوجه هـزيل البدن مـا وقعت عين جاريـة عليه إلا أشاحت بوجههـا عنه ونظرت إلى غيره فتمتلئ نفسه حقـداً على غيره من الرجال وغيرةً منهم ، وهــذا سبب حقده على قتيبـة بن مسلم البـاهلى العظيم ، وكـان فارسـاً ذا بأس وشكل وهيئة .



إثْنَــان لاَ يَجْتمِعَــان
رَجُــل الفِكْــرِ .. والطّــاغِيةُ

حقيقة أدركها الجاهليون قبل الإسلام : أن الشاعـر ـ وهو المفكر الأديب الفنان ـ لسان قومه وضمير قبيلته ، وإذا نبغ فى القبيلة شاعراحتفلوا به وفاخروا به غيرهم ، فقد وجدوا مـن يعبر عن ضميرهم ، وقالـوا : أحسن الشعر أصـدقه ! وعنـدما قامـت دولة الطغاة بعد الإسلام ، أصبح الهم الأول للطاغيـة ورجاله قتل ضمير الأمة وقطع لسانها المعبر ؛ لأن الطاغيـة والفكر الحر لا يجتمعان أبداً ، بـدأت مذبحة الفكـر والمفكرين على طول تاريخنا إلى حين قريب ، وأصبحت القاعدة أحسن الشعر أكذبه ! .

نكمل خبر قطـرى بن الفجاءة لندخـل بعد ذلك فى مـوضوع هذا الجزء الثـانى من دراستنا .

نقـول : أن قطرى بن الفجـاءة كان من رءوس المسمين بـالخوارج الذين طـاردهم الحجاج بن يـوسف والمهلب بن أبى صفرة وأنفقـا فى قتالهم أضعـاف ما أنفقـا فى قتال الكفار ، وكان أمر الخوارج الأزارقة قد وهن وضعف بطول الحرب وهلاك رجالهم واحدًا بعد واحد ، فاكتفوا من الدنيا بقطعة أرض صحـراء قاحلة تمتد من أصفهان إلى كرمان ، وهى جزء من دشتى لـوط التى كان العـرب يسمونها بالمفـازة لوعورتها وقلـة خيرها ، وكان الخوارج قد ولوا على أنفسهم قطرى بن الفجاءة بعد أن قتل زعيمهم الزبير بن أبى الماحوز سنة ٦٨ هجرية ، فظل الرجل يقاتل عن قطعة الصحراء التى بقيت له حتى سنة ٧٧ هجريـة ، والحجاج لا يكف عن إرسال الجيـوش إليه ، فخرج فى قلة من الـرجال إلى جبال طبرستان يحتمى فيها ، وطبرستان هى الأقليم الجبلى جنوبى بحر قزوين ، وفيها اليوم طهـران وهو الاسم الحديـث لبلدة الـرى القديمـــة ، وإختلـف أمر الخوارج على قطرى ، فانحاز معظمهم إلى زعيم منهم يسمى عبـد ربه الكبير ، وفى النهاية بقى قطرى وحده ليس معه إلا سيفه وحصانه .

فهل تركـوه ؟ لا والله ! ومـادام يعتز برأيـه وفكره فـلا يمكن أن يكون لـه وجود ، والقاعدة كانت : أنت تفكر إذن فلا يمكن أن يكون لك وجود ، وأرسل إليه الحجاج جيشاً عظيمًا من أهل الشام يقوده سفيان بن الأبرد .

ووحده سار الشاعر البطل ، أوغل فى الجبال والجنود فى أثره حتى لحقوه فى شعب من شعاب طبرستان ، ونفق فرسه فنزل يمشى على رجليه وزلت به قدمه وهو فى مخارم الجبل فتدهور حتى استقر أسفل الوادى ونهض يمشى وهو لا يكاد يستقيم ، وتبعه رجل من الفرس يطلب رأسه ليبيعه للحجاج بمال ! ولحقه الفارسى فطلب منه قطرى شربة ماء فأبى الخسيس أن يعطيه إياها إلا مقابل سيفه فأبى قطرى ، ولحق به الجيش فقتلوه فمات حاملاً سيفه معتزاً بكرامته ، وادعى شرف قتله مائة « أبطال » أورد الطبرى أسماءهم [٦ / ٣١٠] وحملوا رأس رجل الفكر الحر إلى الحجاج ، ثم إلى عبد الملك بن مروان فى دمشق ، فتأمل والله دولة طويلة عريضة لا تحتمل بقاء رجل واحد يفكر ؛ ولسان حالها يقول : تزعم أنك تفكر يا ملعون ، إذن فأنت لا يمكن أن تكون موجوداً !

ومن طبائع حكومة الظلم والاستبداد والطغيان أنها إذا بدأت لا تقف عند حد ، فالطاغية إذا أنت سلمت أمرك له لم يرض منك بالطاعة ، بل يصر على أن تكون طاعة وإذلالاً ، وقد رأينا الفارسى الأعجمى الذى تتبع قطرى بن الفجاءة ليقتله ويفوز من الطاغية بجائزة ، يصر على أن يذل قطريًا وهو على أبواب الآخرة ، فهذا رجل مطارد وحيد ، مهيض الجانب ، كسير الساق ، يطلب شربة ماء قبل أن يموت ، فيأبى الأعجمى إلا أن يذله ، فيطلب إليه تسليم سيفه ، والسيف عند الفارس رمز شرفه وعزة نفسه ، وقطرى كان قد وصل إلى حد من الإعياء لا يستطيع معه قتالاً بالسيف ، ولكنه أصر على أن يموت وسيفه معه ، ومات وسيفه معه ، واستحق بذلك خلود الاسم ، فها نحن أولاء اليوم نروى لك خبره بعد أربعة عشر قرنًا ، فنترحم عليه ، وتنفر نفسك من معاوية وآله ورجاله ، وماذا حدث لمعاوية وأولاده ؟ غلبوا على أمرهم ، وانتقل الملك منهم إلى مروان ابن الحكم وبنيه ، وهذا حال عبيد الدنيا ! وماذا حدث لبنى مروان ؟ ! أكلتهم سيوف العباسيين بقسوة فاقت قسوة معاوية ، وهذا حال عبيد الدنيا ! وفوق الستين رجلاً منهم قتلهم واحد من العباسيين هو داود بن على فى مذبحة على نهير أبى فطرس ، ولم يقنع بذلك .. بل بسط على الجثث أنطاعاً أى جلوداً ، وجلس هو وأصحابه يأكلون ! فهل هؤلاء مسلمون أو حتى بشر ؟ لا والله ، ولكن بداية الظلم كانت عند معاوية ومروان بن

الحكم وعبد الملك بن مروان ، وهذه عاقبته ، وأذكر هنا قول اللـه سبحانـه وتعالى فى سـورة الأنعـام ٦ آية ١٢٩ ﴿ وَكَذَٰلِكَ نولى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

وآه .. لو قرأ المسلمون ما بين أيديهم من القرآن وعملوا بما فيه !

وأنا أستشهد بالقرآن فى كلامى المرة بعد المرة وأنا أعرف أن من بين قرائى غير مسلمين ، فأما من كان من القراء مسلماً فهو يؤمن بما يسمع منـه لفظاً ومعنى ، وأما من لم يكن فلا بأس عليه ، وليسمع القرآن على أنـه كتاب إيمان وحضارة وفكر ، فإن كلام الله دين وعقيدة وخلق وحضارة ، ففيه لكل من يقرؤه ما يكفيه أياً كانت عقيدته ودينـه ، فمن لم يجمعنا وإياه الدين جمعتنا وإياه الحضارة ، وما نحن بواعظين ، فللوعظ أهله ورجاله ، وإنما نحن مواطنون نخاطب مواطنين .

وتجىء أيام بنى العباس وقد استقرت قواعد الظلم وخرج حكام الإسلام عن منهج الله خروجاً يهون معه خروج أبى جهل ولا واللـه ما فعل أبو جهل بالمسلمين جزءاً مما فعله أبو عبد الله السفاح وأبو جعفر المنصور وأعمامهما ورجالهما أجمعون ، ويكفيك أن أبا عبد الله أول خلفاء بنى العباس دخل التاريخ بصفة السفاح ، حتى أصبح هذا اللقب جزءاً من اسمه ، فكيف بالله ينال عفو الله ورضاه رجل لا يذكر إلا بلقب السفاح ؟ !

وأما أبو جعفر المنصور فقد كان دم الإنسان أهون عليه من بعوضة ، وهو مع ما له من مكانة فى تاريخنا لا يمكن أن يعد فى المسلمين أو المؤمنين أو حتى البشر ؛ لكثرة من قتل من الناس ، أما من قتل من أهل السياسة فحسابه فى أمرهم على الله ، ورجال السياسة جميعاً طلاب سيادة وسلطان ، وما داموا قد دخلوا ميدان الصراع على السيادة فعليهم أن يتحملوا النتائج ، وكلهم فى تلك العصور ظلمة لا يحفلون لأمر الأمة ولا ينظرون إلى صالحها ، إنما هم الواحد منهم نفسه وسلطانـه ، وهنا يخرجون عن منهج الله ويصبحون فى جملة الظالمين الذين يولى الله بعضهم بعضاً .

وأما الذين يعنينا أمرهم فى هذا البحث فهم أهل الفكر وما أصابهم على أيدى الظالمين ، وأبدأ بذكر عبد الحميد الكاتب ، وهو عبد الحميد بن يحيى مولى العلاء بن وهب العامرى ، من عامر بن لؤى ، وكان كاتباً ، أى يعمل فى الشئون الإدارية لمروان بن

محمد الجعدى آخر خلفاء بنى أمية ، وعقاباً له على ذلك يقتله أبو العباس السفاح دون ذنب أو جريرة .

ولماذا قتله ؟ لأنه كان رجلاً صاحب علم واسع وثقافة مستفيضة وفكر وقاد ، ولكنه اضطر إلى أن يدخل فى خدمة الخلفاء كما يدخل الواحد منا فى خدمة الدولة ليكسب عيشه ، لأن الأدب وحده على طول تاريخنا لا يعين صاحب الفكر على مطالب العيش ، ولكن الرجل كان صاحى الذهن حاضر الفكر بعيد الهمة ، وربما كان أول من وصل من البشر بالنثر العربى إلى مراتب الفنون ومن أشهر ما يؤثر عنه وصيته إلى الكتاب أى إلى الناثرين الذين كانوا يعملون فى خدمة الدول ، وفيها عبارات عظيمة تنفع الأديب الكاتب فى كل عصر ومكان .

قال بعد أن نصح الكتاب بالدراسة الواسعة والتمكن من صنوف العلم والأدب والتفقه فى أمور الدين بادئين بكتاب الله سبحانه وتعالى منتهين بالحساب وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها [يريد علم التاريخ] : « فإن ذلك معين لكم على ما تسعون إليه بهممكم ، ولا يضعفن نظركم فى الحساب ، فإن قوام كتاب الخراج منكم ، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع ، سنيها ودنيها ، ومساوىء الأمور ومحاقرها ، فإنها مذلة للرقاب مفسدة للكتاب ، ونزِّهوا صناعتكم واربأوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه أهل الدناءة والجهالة ، وإياكم والكبر والعظمة فإنها عداوة مجتلبة ، بغير إحنة [أى أن غرور الكاتب بما عنده يثير كراهة الناس له وعداوتهم إياه دون أن يكون هناك سبب للخصومة] وتحابوا فى الله عزّ وجل فى صناعتكم وتواصلوا عليها فإنها شيم أهل الفضل والنبل من سلفكم ، وإن نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى ترجع إليه حاله ، وإن أقعد الكبر أحدكم عن مكسبه ولقاء إخوته فزوروه وعظموه وشاوروه .

واستظهروا بفضل رأيه وتجربته وقديم معرفته ، وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه أحدب وأحوط منه على أخيه وولده ، فإن عرضت فى العمل محمدة فليضفها إلى صاحبه ، وإن عرضت مذمة فليحملها من دونه ، وليحذر السقطة والذلة والملال عند تغير الحال » .

فهل رجل مثل هذا يستحق القتل ؟

نعم يستحق ! .. فى نظر الظالمين ، فما عرفنا لعبـد الحميد الكاتب ذنباً إلا علو الهمة والبعد عن الدنية واستقلال الذهن والرأى ، وهذه هى الأخبار بين أيدينا ، فما نجد فيها أن الرجل سعــى على بنى العباس أو دبر عليهـم أو عاب فيهم ، وإنما هو رجـل ذو فكر وبراعة فى فن الكتابة ، وعـزة نفس وهمة ، وبنو العباس فى أول أمرهم لم يكن لهم عدو إلا مثل هـذا الرجل ؛ لأن بنى أميـة إذا كانـوا قد وصلـوا إلى الخلافة بالخبـث والحيلة والجرأة على الحق ، فإن بنى العباس كانــوا أسوأ فى هذه المجالات كلهـا وأبعد ، وجدُّهم العباس دخل الإسلام فى نفس الـوقت الذى دخل فيه أبو سفيـان ، بل إن أبا سفيان لم يحارب الله ورسوله فى بدر ، وحاربه العباس ، وأحفاده أبناء على بن عبد الله بن العباس ضللوا الناس ومــوهوا عليهم واستظهروا على أمرهم بكل جبـار ، واستغلوا حب الناس لآل البيت من أبناء فاطمة وعلى ليفوزوا بالخلافة بالغش والتدليس ، ونحن ننكر الوراثة فى رياسة الأمة جملة ، فأمة الإسلام لا تورث ، وهى فى حقيقتها أمة حرة من المؤمنين لا يلى أمرها إلا من تختاره لرياستها عن رضا منها وطواعية ويكون لها الحق فى خلعه إذا أساء ، فكيف وبنو العباس يقولون : إن الخلافـة ميراث لهم عن النبى - ﷺ - هذه الأمة كلها بأرضهـا وناسها ميراث لهم كأنها بيت أو عقــار ، وهذه حقيقة يعرفهـا أهل الفكر ولا يعرفها من الناس من غسل الطغاة ورجالهم أذهانهم ، وألحوا فى الغسل حتى لم تعد لهم أذهــان ، ومن هنا فــلا حيـاة لأهل الفكر معهم ، وهل تصــدق مثـلاً أن أبا جعفـر المنصور عنـدما استتب له الأمـر ذهب ليزور دمشق قـاعدة الأمويين ، فلقيـه أعيانها ، فجعل يلومهم على تأييد بنى أمية على بنى هاشم ، فأقسموا لــه أنهم ما كانوا يعرفون أن لرسول الله قرابة إلا فى بنى أمية ، وهذا كله من التضليل وغسل الدماغ ، فكيف والله يرضـى بنـو العباس أن يكون هناك وجــود معهم لرجل مثل عبد الحميد الكـاتب يعرف الإنسان والتاريخ ؟

ثم إن عبد الحميد كان يعـرف خراج الدولة وأموالها ومصـادرهــا ومواردها ، وبنو العباس لا يحبـون من يعرف ذلـك دونهم ؛ لأنهم لا يطمئنون على سلطـانهم إلا فى أمة جاهلة ، ولهذا قرروا قتله دون ذنب كان لــه إلا العلم والفكر وعلو الهمة ، ولقد طلب إليه مروان بن محمد عندما استبان له أن أوان بيتــه قد زال ، أن يدخل فى خدمة أبى عبد الله السفاح ، ويسعى فى كسب ثقته ، ثم يتوسط لمروان بـن محمد ! فأبى عبد الحميد ذلك ،

وقال : وكيف لى بأن يعلم الناس أن هذا عن رأيك ؟ وكلهم يقولون : إنى غدرت وصرت إلى عدوك ! وهذا الرجل العاقل الأريب الصادق لا حياة له مع الطغاة ، وكان كتبة بنى العباس والقائمون على شئون المال فى دولتهم الجديدة أشد من الخلفاء رغبة فى قتل عبد الحميد ؛ لأنه كفيل بتعريف الخليفة حقائق أموال الدولة ، وهم يريدون أن يظل الأمر فى أيديهم سرًا مقفلاً عليهم لكى ينهبوا كما يريدون ، ولهذا فما أن قتل مروان بن محمد حتى حمل عبد الحميد إلى أبى العباس ، فسلمه إلى عبد الجبار بن عبد الرحمن ، فكان يحمى طستاً ويضعه على رأسه ، فلم يزل يفعل به ذلك حتى قتله ..

وهل يخطر ببالك أن أبا العباس السفاح أسف لحظة على موت هذا الرجل الفريد فى بابه ؟ لا والله ! ولا أهمه الأمر لحظة ، ومن الذى مات ؟ رجل من أهل الفكر ! فى ستين ألف داهية ! ولقد حكوا أن رجلاً من صغار أهل العلم كان يخدم إبراهيم بن أحمد الأغلبى ويكتب له فبينما هو داخل مرة لقى عبداً خصياً ممن يخدمون فى الحريم ، فسارع العبد وحمل الدواة والورق للفقيه ، فلما دخلا على إبراهيم بن أحمد على هذه الصورة سب العبد على أن سمحت له نفسه أن يحمل الدواة والورق للفقيه ، وأمر الفقيه الشاب بأن يحمل نعل الخادم ويضعه على رأسه ، وقال له : أنت أهل ثقتى والمؤتمن على حريمى تحمل الدواة لصعلوك من الكتاب يجلس إلى قمطر على باب القصر يكتب لهذا بدرهم ولهذه بدرهمين ؟ !

* * *

ورجل آخر من أهل الفكر كان يكتب لإبراهيم الإمام بن محمد بن على بن عبد الله ابن عباس ، وهو الرأس الماكر الكبير الذى دبر مؤامرة تحويل الخلافة إلى بيت العباس كلها خفية عن الناس وغشاً للأمة ، وكان يكتب له رجل من أصل فارسى يسمى بكر بن ماهان ، وكان بكر هذا قد زوج ابنته من شاب من مساعديه يسمى حفص بن سليمان الملقب بأبى سلمة الخلال ، وكان ذكياً أريباً موهوباً ، فتقدم الصفوف ، ولما أحس إبراهيم الإمام قرب وفاته جعل أبا سلمة رأس الدعاة ، أى أنه أصبح كما نقول اليوم

رئيس المخابرات والدعـاية ، فهو يعرف الدعاة وسر الدعـوة ، ويعرف الأموال التى كان دعاة بنى العبـاس يجمعونها باسم الصـدقات لآل البيت ، وكـان الناس لضيقهم ببنى أمية يميلون إلى دعوة أهل البيت ويؤدون للدعاة أموالاً تسمى الصدقات ، فاجتمعت من ذلك ملايين مـن الدنانير لا يعلم بـأمرها إلا مثل أبـى سلمة ، ولكن إبراهيـم الإمام قبل موته كان قد اتفق مع أبى مسلم الخراسانى على أن تكون الدعوة لبنى هاشم ، فإذا كان النصر أخذ البيعة ممن عنده لأخيه أبى عبد الله السفاح ثم لأخيه الثانى أبى جعفر ، ولم يخبر بذلك أبا سلمة الذى كان شـديد الإخلاص لآل البيت العلويين ويحسب أن الدعوة لهم ، ولهذا فقد كان لقبه الـرسمى وزير آل محمد .. ولما انهزم ابن هبيرة آخر المدافعين عن دولـة بنى أمية فى واسط ، ودخل القـائدان العباسيـان حميد والحسن ابنـا قحطبة الكوفة ، سلما الأمر لأبى سلمة وزير آل محمد ، وتصرف الرجل على أنه وزير آل محمد فعلاً دون أن يعلم بما دبره إبراهيم الإمام مع أبـى مسلم من وراء ظهره ، فبادر الوزير التعيس وكتب يعرض الخلافة على ثلاثة مـن آل على منهم جعفر الصادق ، وكان جعفر رجلاً ذكيـاً يحس أن بنى العباس لا يمكن أن يخدموا آل على ، فأحرق كتـاب أبى سلمة أمام الناس ، ليرى الملأ أنه زاهد فى الخلافة غير راغب فيها حتى لو عرضت عليه ، فكان فى عمله هذا حتف أبى سلمة ! ذلك أن أبا العباس السفاح وأبا جعفر المنصور لم يلبثا أن أهلا على الكوفـة مع الجند يطلبان الخلافة ، فظن أبو سلمـة أنهما متهوران متسرعان ، فاستوقفهما ومن معهما من آل العباس فى موضـع يسمى « قصر مقاتل » قرب الكوفة ، وأقام ينتظـر رد جعفر الصـادق ، ثم سمح لهم بدخول الكـوفة ولكنـه أخفاهم فى دار بعيدة نحو شهرين خوفاً عليهم فيما ظن ..

ودخلـت جيوش العباسـيين الكوفـــة ، فســـأل قائدها عن ابن الحارثية وهـو أبو العباس ، فلما عرف مكانه دخل عليه وسلم عليه بالخلافة وبايعه وقبل يده ورجله ! ومنذ متى عـرف الإسلام تقبيل اليـد والرجل ؟ والله مـا سمعنا أن سيـد الخلق محمداً رسول الله سمح لرجل أن يقبل يده فضلاً عن رجله ! لا ولا عرفها أبو بكر أو عمر ، لأن أمة الإسلام كانت أمة صحابة رسول الله ..

وبلغ خبر دخول أبى عبد الله السفاح أبـا سلمة فأسقط فى يده ، فأسرع مع رجاله إلى أبى العباس ليبايعه ، واستفتحوا الباب وقالوا : وزير آل محمد ! فأسمعوه بعض ما

يكره ، ثم فتحوا له بعد حين ، فدخل فاستقبل القبلة فسجد وسلم وقبل يد أبى العباس وقدميه ، وبدأ فى الاعتذار فقال أبو العباس : عذرناك يا أبا سلمة غير مفند ، وحقك لدينا معظم وسابقتك فى دولتنا مشكورة ، وزلتك مغفورة ، انصرف إلى معسكرك لا يدخله خلل ، فانصرف إلى معسكره بحمام أعين ..

يقول محمد بن عبدوس الجهشيارى فى كتاب « الوزراء والكتاب » : إن أبا العباس هَمَّ بأبى سلمة [رغم الصفح والأمان] فقال لـه داود بن على [عمه وشبيهه فى الطغيان وقد مات قتيلاً على يديه] لا آمن عليك أبا مسلم إن فعلت أن يستوحش ، ولكن اكتب إليه فعرفه ما كان من أمر أبى سلمة [يريد بما كان من أمر أبى سلمة فى الكتابة إلى من كتّب إليه من ولد على] وما كان أجمعه من صرف الدعوة إليهم ، فوجه أبو مسلم بالمرار ابن أنس لقتل أبى سلمة ، فلما وافاه ، أمر أبو العباس قبل قتله بثلاثة أيام ـ منادياً ينادى بالكوفة : إن أمير المؤمنين قد رضى عن أبى سلمة .

ثم دعاه قبل مقتله بيوم ، وكان يسمر عنده ، فخرج ليلته تلك يريد الانصراف إلى منزله ، وقد كمن له المرار بن أنس وأسيد بن عبد الله فقتلاه ، وأغلقت أبواب المدينة فقيل لأبى العباس : إن أبا سلمة قتله الخوارج ! فقال : لليدين والفم ! [عبارة معناها عندنا : فى ستين داهية] وقتل فى رجب ١٣٢ هـ ، وهذا الغشاش الغادر الكاذب هو الذى أصبح خليفة المصطفى ﷺ والأمين على أمة الإسلام ! وهو الذى قال فى خطبته الأولى على منبر الكوفة يخاطب الأمة : « لكم ذمة اللـه تبارك وتعالى وذمة رسوله ﷺ وذمة العباس رحمه اللـه أن نحكم فيكم بما أنزل اللـه ونعمل فيكم بكتاب اللـه ونسير فى العامة والخاصة منكم بسيرة رسول الله ﷺ » .

أجل ! وفى رأى هذا الطاغية هى سيرة رسول الله ﷺ ! وهذا هو السر فى موت أبى سلمة ، فإن أبا سلمة فعلاً قد انخدع وأخطأ ، ولكن هذا خطأ لم يتأت منه شر ، ولكن جريمة أبى سلمة الكبرى هى أنه كان رجلاً ذا فكر وضمير ، وما دامت الدعوة للرضا من أهل البيت فإن أبناء على وفاطمة هم من ترضاهم الأمة من آل البيت ، وليسوا قطعاً إبراهيم الإمام وأصحابه فى تدبيرهم مع أبى مسلم .

دعوة الحق لا بد أن تموت ، وصوت الحق لا بد أن يخمد ، وأبو سلمة لا بد أن يموت .

ثم إن أبا سلمة كـان يعرف كل الحقائق : أسماء الدعاة وشبكات الـدعوة والأموال ومقاديرها ، ما أنفق منها وما بقى ، ومن أخذ منها وكم أخذ ، وهذا العلم كله من الممكن أن يتسرب إلى الأمة ، والأمة لا ينبغى أن تعلم شيئاً لا عن حقائق الأمور فى دولتها ولا عن أموالها ، وإذن فليمت أبو سلمة ؛ ليموت معـه علمه كله ، والموت أصبح المصير المحتوم لكل من يعلم ، لكل من يفكـر ، لكل من يعـرف الحق ، والحياة حق لـرؤوس الغنم دون غيرهـا ، وهى اليوم ميراث يـورث كالمتـاع والماشيـة ، ألم يقل عبد اللـه بن على عم أبى العباس مكملاً خطـاب ابن أخيه على منبر الكوفـة : إن الله أحيا شرفنا وعـزنا ورد علينا حقنا وإرثنا ..

لهذا السبب نفسه كان لا بد أن يموت عبـد الله بن المقفع ، وكان عبد الله بن المقفع أديباً ومفكراً عظيماً ، ورسالته المسماة برسالة الصحابة أى صحابة الخليفة ونصحائه وأهل دولته ، تدل على فكر سليم وعقل صاف وقـريحة وقًادة وعلم غزير ، وما بقى لنا من كلامـه يدل على عقل وفهم وعلم واسـع ، وكان قـد طال به العهـد بالكتابة لـلأمراء وولاية الأعمال ، فـاتسع علمه وزادت خبرته وعظمت مكـانته حتى تصاغرت بـالنسبة إليه مقاديـر أجلاف الكتاب من أمثال سفيـان بن معاوية بن يزيـد بن المهلب ، فكرهوه وأبغضوه وسَعَـوْا فى هلاكه ، وكان أبـو جعفر المنصور أمين الله على أمتـه ـ كما زعم ـ يتحين فرصـة للإيقـاع به ، وكان ابـن المقفع يعمل كاتباً لعيسى بـن على عم المنصور ، وكان المنصور قد أوقع بمعظم أعمامه ، وهـم جبابرة حسبوا أنهم شركاء ابن أخيهم فى ملكه ، فكان فى هذا موتهم ، وبقى منهم اثنـان : عبد الله بن على وعيسى بن على ، وكانا أقلهم شراً وأضعفهم حيلـة ، فطلب عبد اللـه إلى ابن المقفع كاتب أخيـه عيسى أن يكتب لأبى جعفر ليـؤمنه ، فـوافق أبو جعفر ، وتـولى عبد اللـه بن المقفع كتابـة نص الأمان ، فكتبـه واحتاط فى كتـابته حتى لا يـدع لأبى جعفـر حيلة فى الغـدر بعبد اللـه بن على ، ووردت فى نص الأمان عبارات أحس منها أبو جعفر مهـانة له ، وسأل بعد أن قرأه : من كتب له هذا الأمـان ؟ فقيل : ابن المقفع كاتب عيسى بن على ، فقال أبـو جعفر : فما أحد يكفينيه ؟

ومعنى ذلك أن أمين الله فى خلقه أهدر دم الرجل عقاباً له على علمه وذكائه وفكره ، وما أن حصل خدم المنصور على الإذن فى قتله حتى تسارعوا وكل منهم يرجو أن يكون

هو السفاك القاتل الذى يعصى الله ويرتكب الكبيرة الشنيعة إرضاء لمخلوق غدار ، وفاز بغضب الله فى هذا الموطن سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب ، فدبر حيلة للقبض على ابن المقفع وقتله إذا زاره فى عمل ، وقد كان ، ووقع ابن المقفع فى يد غريمه فقيده بالحديد وألقى به فى غرفة مظلمة ، وزعم لخادم ابن المقفع أن مولاه خرج ، فلما انفض مجلس سفيان قام فدخل على ابن المقفع وأبلغه فى لهجة المتشفّى أنه حكم عليه بالموت ، وكيف قتله ؟ أحمى التنور وهو الفرن وألقى به فيه فيما يقال قطعة قطعة ، وهذه والله طريقة فى قتل الناس لم نسمع بها فى أسود أيام الجهالة قبل الإسلام وعند أدخل الشعوب فى الجهالة والقسوة ، ولكن المسلمين عرفوها بعد الإسلام والنور والهدى ، وخصوا بها المجرم الأكبر وهو رجل الفكر والعلم .

وضاع أمر الرجل ! تصنّع أبو جعفر التهمم بأمره ، ثم تراخى ، وضاع أمر الأديب بل نهب ماله ؛ لأن ذلك كله كان عن أمر الخليفة .

ومحمد بن عبدوس الجهشيارى وأبو جعفر الطبرى يرويان خبر مقتل الأديب المفكر دون لفظ إنكار أو كلمة عطف ، كأن الذى مات أهون من دجاجة ذبحت لطعام ، بل تبرع رجل من أهل الفكر من دعاة بنى العباس ، فزعم أن ابن المقفع قتل ؛ لأنه كان زنديقًا يعبد النار فى السر ويظهر الإسلام .

لقد انتهى عصر رجل الفكر الحر ، الذى يحسب أنه ضمير الأمة ، وبدأ عصر الأديب الذليل الذى يعتبر نفسه عبد السلطان ولا يستحى من المذلة من أمثال أبى دلامة الشاعر الذى قال متسولاً بين يدى المنصور :

هَبَّتْ تعاتبنى من بعد رقدتها	أمُّ الدلامة لما هاجمها الجزعُ
قالت : تبغ لنا نخلاً ومزدرعاً	كما لجيراننا نخل ومزدرعُ
خادع خليفتنا عنها بمسالة	إن الخليفة للسؤال ينخدعُ

فتفضل الخليفة عليه بما طلب من أرض يملكها ويزرعها فقال أبو دلامة لأبى جعفر : أتأذن لى فى تقبيل يدك ، فهمَّ يفعل فمنعه : لا تواضعاً بل تظاهراً بالتواضع ، فيقول أبو دلامة قولاً هو الغاية فى الذلة والصغار والخوف : ما منعنى [الخليفة] شيئاً هو أقل على عيالى ضرراً من هذا !

بقيام دولة الخليفة السلطان الحاكم بأمره انتهت أيام صاحب الفكر ، وصدق قول من قال : اثنان لا يجتمعان : طاغية وصاحب فكر حر ، وثلاثة يجتمعون دائماً : مستبد طاغية غاشـم ، وامرأة عاهر ، وإنسان داعر ! وأناتـول فرانس يحكى فى رواية « الآلهة عطشى » : إن الرسام الصغير إيفارست جاملان نظر إلى لوحة « مدام ريكامبيه » لرسام عصر الثورة الفرنسية الأكبر « جاك لوى دافيـد » وقال لصاحب له : ترى هل أستطيع أن أرسم لوحة مثل هذه ؟ فقال له صاحب صانع اللعب : ولا دافيد نفسه يستطيع الآن ! فأمثال هذه الغانية مضت مع أيام عشيقها الملك ، ولم يعد مفروضاً عليك أن تقف بباب القصر وتطلب العيش برسم العاهـرات .. الآن نحن فى عصر الثورة والحرية ، فعليك أن ترسمنا نحن صعاليك الشوارع ، ودافيد نفسه أخـرج للناس اليوم لوحة موت سقراط التى رسمها قبل الثورة ، وكان يخاف منها فأصبح يفخر بها .. !

أما صاحب الفكر الحر الذى يقول ما يخطـر بباله فقد كتب عليه أن يعيش مطارداً ومشرداً ، يأكل يوماً ويجوع أيـاماً ، يحب الناس فنه ويخشون فكره ولسـانه ، وأمامك حياة بشار بن برد ، وهو عبقرية شعرية نادرة ، عاش بعض عمره أيام بنى أمية وبقيته أيام بنى العباس ، وكـان رجلاً خارق الذكاء واسع العلم ، فطره اللـه على قول الشعر ، فكان يتنفسه تنفساً ، وبلغ من ذكائه أنك تقـرأ شعره فلا تفطن إلى أن قائله محروم من نعمة البصر ، فهو يرى ببصيرته ما لا يراه أهل النظر ، ورجل كهذا يكون من طبعه عدم الاحتياط ، ولا يزال ذهنه الوقاد وشاعريتـه المرسلة يرميان به فى المعاطب ، وهو لهذا فى عصر الطغاة مهدر الـدم أبداً ، أضف إلى ذلك أن الرجل لم يرزقـه الله من حسن الشكل شيئاً فكـان قبيح الصورة تقتحمـه العيون ولا تمتلىء منـه نفس ، وكان هـو متبذلاً فى مأكله وملبسه ، فلم يكن على هيئة تدعو إلى تـوقيره ، فكثرت الزراية به ، وهان أمره على الناس فأكثروا فيه ، وأحس هو ذلك منهم فأطلق لسانه فيمن ناله منهم أذى ، وأقذع فى هجوه فكثر أعداؤه ، وكـان شعره الجميل يزيد بلواه ؛ لأن أبياته المحكمـة البديعة كانت تطير فى الناس طيراناً ، فلما كثر أعداؤه هان عليه أمر الناس والمجتمع ، فلم يعد يحتشم فى قول أو فعل ، واشتهر أمره بالمجون والتبذل وقلة التحفظ ، ولكننا لا نستطيع الحكم السليم على شاعريته ، فكل ما لدينا من شعره لا يزيد على ثلاثمائة وعشرين بيتاً هى كل ما ورد لنا عنـه فى كتاب الأغانى ، وما جمعه الخالـديان وهما أبو بكر وأبو عمـر خازِنا كتب سيف الدولـة الحمدانى ، مع أن بشاراً نفسه يقول إنـه صنع نحو اثنى عشر ألف

قصيدة ، والغالب أن الناس تحاموا حمل شعره وحفظه لما كان فيه من الفحش والتبذل والوقوع فى أعراض الناس فضاع معظمه .

ولكن هذا كله لا يبيح قتلـه ؛ لأن هذا الرجل كان لاتساع شاعـريته مصور عصره بكل ما فيه ، حتى مـا وصف بالفاحش من شعره كـان صورة لما شاع فى عصره [٩٦ ـ ١٦٨ هـ / ٧١٤ ـ ٧٨٤ م] من تبذل ، وقـد هبط بشـار بـالشعر من دنيـا النجـوم والكواكب والـلآلىء إلى أرض الناس ، وقال الشعـر فى كل شىء وأراد له سـوء حظه أن يكتسب عداوة يعقوب بن داود وزير الخليفة المهدى ، ثالث خلفاء بنى عباس ، فقال فيه أبيـاتاً أحفظ بها الـوزيـر والخليفة معـاً ، فقـال يخاطب الـذاهبين من بنى أمية أعـداء العباسيين :

بنـو أميـة هبـوا ! طـال نـومكم	إن الخليفـة يعقـوب بن داوود
ضـاعت خلافتكم يـاقـوم فالتمسـوا	خليفـة اللـه بين الـزق والعـود

وهذان البيتان وأمثالهما هَوَّنَا دم الرجل فى عصر هانت فيه الدماء جميعاً ، وخاصة دماء أهل الفكر ، فأغرى الوزير الخليفة فأمـر بقتله فضربوه نحو سبعين سوطاً ومات تحت الضرب سنة ١٦٨ هـ / ٧٨٤م وقد جـاوزت سنه السبعين بشهور، وإذا كان بشار قد قتل على المجـون ، فقد كان نصف كبار رجال الـدولة شركاءه فى ذلك ، وأولهم الخليفة المهـدى نفسه ، فقد كان مـاجناً فاسقـاً يستر فسقه بظاهر من الـورع ، وكان الوزير نفسه على رأس قائمة الفـاسقين ، ولكن دم رجل الفكر كان أهون على الناس من قلامة ظفر ، فقتل الرجل ولم يأسف على موته أحد .

ومسكين رجل الفكر تحت رحمة الطغـاة ، على رأسه تحط كل الذنوب ، وبـه وحده يحل كل عقاب ؛ لأنه لمجرد كونه رجل فكر ـ عدو الطاغية محكوم عليه أبداً بالموت .

* * *

المفكّر والمتسوّل والنّديم والمهرّج والمعلّم

منذ سنوات طويلة أهدانى الصديق الأديب محمد عبده عزام ديوان أبى تمام حبيب ابن أوس الطائى من تحقيقه ، فتصفحته وقلت :

ـ هل هذا كل شعر أبى تمام ؟ !

فقال : هو والله كل شعره ، نشرناه كما جمعه الصولى ، وراجعناه على ما جمع علىّ ابن حمزة الأصفهانى من شعره .

قلت : ما أظن هذا بقية ما استطاع أبو تمام أن يقول من الشعر ؛ لأنه لو قال كل ما كان يدور فى نفسه لقتلوه ، كما قتلوا دعبلاً الخزاعى وابن الرومى ؛ لأن أهل الفكر عندنا أصبحوا منذ أن قامت سطوة الدولة كالدواجن ، قص الظلم أجنحتهم فاستحال عليهم الطيران والتحليق ، وأصبحوا متاعاً تملكه الدولة إذا هم رضوا بأن يكونوا دواجن ،فإذا تمرد واحد منهم على الدولة وأراد التحليق والتعبير عما فى نفسه بحرية وصدق قصوا جناحه بالضرب والسجن والتعذيب ، أو قصوا رقبته من أصلها إذا خافوه وتبينوا أنه عصى على الترويض والتدجين ، فالذين خضعوا واستكانوا وساروا فى ركاب الدولة أمنوا سطوتها وعاشوا ، ومعظم هؤلاء طووا الحقائق فى نفوسهم ، ألقوا أسلحتهم واستسلموا ، وقالوا ما سمح لهم السلطان أن يقولوا ، وظل الباقى فى نفوسهم حبيساً حتى ماتوا به ، أما الباقون من المتمردين على الظلم والطغيان فقد اغتالتهم أيدى الظالمين قبل أن يقولوا ما يريدون ، وأنا أقول لك : إن مثل الفكر العربى فى ذلك مثل جبل الثلج العائم فى مياه المحيط ، فالذى تراه العين منه هو السُّبع البادى للعيان ، وأما الباقى ، وهو ستة أسباع فقد غرق فى مياه بحر الظلمات !!!

وأمامك تاريخ الفكر العربى كله إلى مطالع العصر الحديث .

تعال نطبق عليه هذه القاعدة لنرى إن كانت تصدق أو لا تصدق .

* * *

ونبدأ بعصر صدر الإسلام ، فنقرأ أسماء الظاهرين من أهل الفكر : من الشعراء وأهل الأدب ولدينا أسماء [جميل بن معمر ، وعمر بن أبى ربيعة ، والأحوص ، والأخطل ، والفرزدق ، وجرير ، وعبيد الله بن قيس الرقيات ، والطرماح بن حكيم ، والكميت بن زيد الأسدى] وهذه هى أسماء الكبار من أهل الصف الأول ، وفيهم كفاية لمطلبنا هنا ، فنجد أن جماعة من هؤلاء قد بالغوا فى الخضوع والطاعة حتى تركوا شئون الأمة جملة ، وانصرفوا إلى اللهو والعبث والغزل والتشبيب ، وهؤلاء جميعاً شعرهم جميل مطرب ، ولكنه هامش الأدب لا صلبه ولا لبابه ؛ لأن الأديب الجدير بهذا الاسم ينبغى أن يكون لسان قومه ، وضمير أمته ، المعبر عن أفكارهم وآمالهم وآلامهم ، كما كان الشاعر الجاهلى لسان قومه المعبر ، حتى الذين بالغوا فى الفخر من الجاهليين كانوا يرفعون بمبالغاتهم شأن قومهم ويخيفون أعداء قبيلتهم حتى يخشاهم الناس ، وهل هناك أبلغ فى هذا من لامية العرب للشَّنْفَرَى ، حيث نجد الشاعر الصادق يبدأ بلوم أهله على تقاعسهم فى طلب المعالى ، حتى إنه يقول : إنه زهد فيهم ولا يريد أن يكون منهم :

أقيموا بنى قومى صدور مطيكم ... فإنى إلى قوم سواكم لأميل

ثم يمضى فيمدح قومه فيجعلهم سادة الناس قوة وبسالة وحماسة ، أو يذكر فضائل نفسه على أنها مثال لفضائل قومه ، فهو كريم زاهد فى الطعام ، إذا وضعوهُ لم يتهافت عليه ولا يسابق غيره فيه ، وإنما هو رجل ابن نعمة شبعان ، يضع الطعام للناس ويسعد إذ يراهم يأكلون بين يديه ، حتى إذا شبعوا جلس هو فأصاب من الطعام أيسر اليسير .

وهو ــ أى الشاعر الجاهلى ـ فى أثناء كلامه يذكر أسماء أماكن وعيون ماء فى مواطن قبيلته ويفخر بها وبجمالها كأنها وديان تجرى فيها الأنهار وتنبت فيها الأشجار الوارفة الظلال ، وما هى بذلك طبعاً ، وإنما هو البدوى الحر الأبى الذى يتمسك بالحرية وعزة النفس ويرى فى الصحراء الجرداء ذلك الجمال كله ، ويستغنى بكرامته وعزة نفسه عن خفض العيش فى ظل كسرى وقيصر .

واستمع إلى جابر بن حُنَىّ التغلبى المتوفى / ٥٦٤ م قبل ميلاد رسول الله ﷺ بنحو

سبع سنوات ، وهو هنا يبدى ألمه لتفرق أمر قومه ووقوع الفتنة بينهم ، وقد كانوا قبل ذلك أقوياء يرهبهم الأكاسرة والقياصرة :

لتغلب أبكي إذ أثارت رماحها	غوائل شر بينها مُتثلم
وكانوا هم البانين قبل اختلافهم	ومن لا يشد بنيانه يتهدم
إذا نزلوا الثغر المخوف تواضعت	مخارمه ، واحتله ذو المقدم
أنفت لهم من عقل قيس ومرثد	إذا وردوا ماء ، ورمح بن هرثم
ويوماً لدى الحشار من يلو حقه	يبزبز وينزع ثوبه ويلطم
وفى كل أسواق العراق إتاوة	وفى كل ما باع امرؤ مكس درهم
وقيظ العراق من أفاع وغدة	ورعى إذا ما أكلأوا متوحم
ألا تستحى منا ملوك وتتقى	محارمنا لا يبوء الدم بالدم
نعاطى الملوك السلم ما قصدوا بنا	وليس علينا قتلهم بمحرم
وكائن أزرنا الموت من ذى تحية	إذا ما ازدرانا أو أسف لمائم
وقد زعمت بهراء أن رماحنا	رماح قصارى ، لا تخوض إلى الدم

فانظر كيف يعتز هذا الشاعر الجاهلى بصحرائه ويفضلها على أرض العراق حيث يجبى رجال الأكاسرة الإتاوات والمكوس ، ويبلغ الأمر أن يقول : إن قبيلة بهراء التى خضعت للروم لم يعد أهلها بقادرين على القتال ، أما التغلبيون فأبناء صحراء على الفطرة ، كلهم شجاعة ونجدة رغم فقرهم .

فقارن بهذا شعر عمر بن أبى ربيعة المخزومى ، سليل آل مخزوم الذى دجن ، وانفصل عن قومه ومضى ينفق أيامه فى الجرى وراء الغوانى والتشوق إليهن والبكاء ضعفاً أمامهن :

كتبت إليك من بلدى	كتاب مُولَّه كَمِد
يؤرقه لهيب الشوق	بين السحر والكبد
فيمسك قلبه بيد	ويمسح دمعه بيد

وعمر بن أبى ربيعة كان يشهد مآسى ما يقع للمسلمين على يد طغاة بنى أمية ، فيغمض عينيه ويجد فى هذا الشعر الضعيف السلامة من الأذى وأمن السرب والدعة وخفض العيش ، ومثله فى هذا جميل بن معمر العذرى وشعره فى بثينة :

فلو أرسلت بثينة يوماً تبتغى ... يمينى ، وإن عزت علىّ يمينى
لأعطيتها ما جاء يبغى رسولها ... وقلت لها بعد اليمين : سلينى

ثم خذ بعد ذلك الثلاثة الكبار من شعراء العصر الأموى : الأخطل أبا مالك غياث بن غوث بن الصلت الذى باع نفسه وضميره لمعاوية وبنى أمية ، وقال مثل البيت التالى الذى خان فيه ضمير أمته العربية :

ذهبت قريش بالمكارم والعلا ... واللؤم تحت عمائم الأنصار

واقرأ أبياته التالية التى يقول فيها : إن بنى أمية خلفاء الله فى أرضه ، وإن الله نصرهم على علىّ بن أبى طالب ، ومن أيده خاصة الأنصار ، أى أنصار رسول الله ﷺ .

إلى امرىء لا تعدينا نوافله ... أظفره الله ، فليهنأ له الظفر
الخائض الغمرة الميمون طائره ... خليفة الله يستسقى به المطر
نمت جدودهم والله فضلهم ... وجد قوم سواهم خامل نكد
هم الذين أجاب الله دعوتهم ... لما تلاقت نواصى الخيل ، فاجتلدوا
ويوم صفين ، والأبصار خاشعة ... أمدهم ـ إذ دعوا ـ من ربهم مدد
على الأُلَى قتلوا عثمان مظلمة ... لم ينههم نشد عنه وقد نُشدوا

وهذا مثال من شعر الشاعر الذى باع نفسه وضميره للسلطان ، ومثل هذا الرجل كثير جدًّا ، والغاية الأخيرة عندهم هى كسب المال ، فإن بنى أمية كانوا يعطون أمثاله عن كرم ؛ لأنهم يعطون من أموال المسلمين لا من أموالهم ، ولكن الشاعر يقول فيهم :

قـوم إذا أنعمـوا كـانت فـواضلهم ... سيبـاً مـن اللـه لا مَنٌّ ولا حسـدُ

وعلى « هذه الفواضل » أى الإحسانات يهجو كل من نافس بنى أمية :

فـاللـه لم يـرض عـن آل الـزبير ولا ... عن قيس عيلان ، قـوماً طالما خـرجوا

فـى هامـة مـن قـريش دونهـا شـذب

أما الفارسـان الآخران : الفرزدق أبو فراس همام بن غالب بن صعصعـة ، وجرير ابن عطية الخطفى التميمى ، فقد سلكـا فى الفكر والشعر مسلكاً غريبـاً ، فأما الفرزدق فقد نسى تمامـاً أن الشاعر لسـان قومه وضمير أمتـه ، وانصرف يستخدم شاعـريته الفذة أسوأ استخدام ، فهو يذم رجال بنى أمية حيناً ويمدحهم حيناً ، ويمدح ابن الزبير مرة ويهجوه أخـرى ، ثم حج ومدح علياً زين العابـدين وتجافى عن بنى أمية فحبسوه ، ولكنه عاد يمدح بنى أمية ، وأسرف فى هذا حتى لقب سليمان بن عبد الملك بالمهدى .

ثم هجا آل المهلب ، ثم مدحهم ، ثم هجاهم ، وعنـدما صارت الخلافة إلى هشام بن عبد الملك مـدحه بعـد أن كان يهجوه أميراً ، وهـو فى غلوائه تلك ينسى أن أمـة الإسلام واحدة ، فيأخذ هو جانب مُضَـر ـ لأنه مضرى ـ ويحمل على اليمن خصوم المضريين ، مع علمه ـ وهو الرجل الشـاعر اللبيب ـ أن كل فتنـة المضرية واليمنية ابتـدعها وأجج نارها بنو أمية ليسودوا بها العرب جميعاً .

فقل لبنى مـروان : مـابـال ذمـة ... وحـرمـة جدّ ليس يـرعى ذمـامهـا

ألا فى سبيل اللـه سفك دمـائنـا ... بـلا جـرمـة منـا يبين اجترامهـا

أرى مضر المصرين قـد ذَلَّ نصرهـا ... ولكن قيسـاً لا يـذل شـآمهـا

فغيرةُ أمير المؤمنين ، فـإنها ... يمانيـة حمقـاء أنت هشـامهـا

ثم يتعب الشاعر من طول التنقل والهرب من الـولاة ، فيستسلم للخليفة الوليد بن يزيد ويقول فى بنى أمية :

أمـا الـوليـدُ فإن اللـه أورثـه	بعلمـه فيـه ملكـاً ثـابت الـدعم
خـلافـة لم تكن غصبـاً مشـورتها	أرسى قـواعـدهـا الـرحمن ذو النعم
كـانت لعثمان لم يظلم خـلافتهـا	فـانتهك النـاسُ منـه أعظم الحرم

وأمَّا جـرير بن عطيـة بن حذيفـة الخطفى ، فنشأ فقيراً فى بنى تميم وتكشف حين شب عن شاعـرية بـاهرة ، وبـدلاً من أن يعتز بقومـه وصحرائه كما كـان الجاهليون يفعلون ، نـراه يجرى ليبيع شاعـريته لبنى أميـة ، وتدركـه الغيرة من الأخطل شـاعر البلاط الأموى فيريد أن يجاريه فى التسـول فأسرع يمدح عبد الملك بن مروان ويذم ابن الـزبير ، بل هو لم يـوقـر الأموات فهجـا ابن الزبير بعـد مـوته ، وفى أثنـاء ذلك يقع فى الفرزدق وتهيج بينهما العـداوة ، ويقيم الشاعـران مسرحاً هـزلياً كلـه جرأة على الحق وإسفاف فى القول وتشاتم بالآباء والأمهات وتنـابز بالألقاب ، وأصبحت نقائض جرير والفرزدق ضحكة الناس وتسلية العصر ، والشاعر ـ وهو ضمير قومه ـ أصبح مهرجاً مضحكاً ، فيقول جرير فى الفرزدق :

ألا إنما كـان الفـرزدق ثعلبـاً ضغـا	وهـو فى أشـداق ليـث ضُبـارم
لقـد ولـدت أم الفـرزدق فـاسقـاً	وجـاءت بـوزواز قصير القـوائم

وضغا : معناها صاح ، والضبارم : الأسد القوى ، والوزواز : هو الإنسان الخفيف الطائش الذى لا يعتدل فى مشيه .

وقد أفحش فى هذه القصيدة وتجاوز حـده حتى أغضب كثيراً من الناس ورد عليه الفرزدق بقصيدة أفحش منها قال فيها :

وإن حـرامـاً أن أسـب مقـاعسـاً	بـآبـائى الشم الكـرام الخضـارم
ولكن نصفًـا لـو سببـت وسبنى	بنـو عبـد شمس من منـاف وهـاشم
أولئـك آبـائى فجئنى بمثلهـم	وأعيـذ أن أهجـو كليبـاً ودارم

ودارم : هى قبيلة جرير .

ويدخل فى هـذه المأساة الأليمـة الأخطل شاعر البـلاط الأموى والـراعى عبيد بن حصين النميرى وأبـو النجم الراجـز وهو الفضل بن قـدامة العجلى من بكـر بن وائل ، وهكذا يتخلى أولئك الفحول عن رسالتهم الرفيعة ويتركـون الأمة وقضاياها ومشاكلها وينصرفون إلى هـذا العبث يبتغون به إضحاك النـاس تارة ونيل أموال بنى أميـة تارة أخرى ، وإن الإنسان ليعجب كيف جاز لأولئك الشعـراء الفطاحل أن ينحطوا بملكاتهم التى لا شك فيهـا إلى هـــذا الـدرك الأسفل من نسيـان وظيفتهم وإهـــدار كـرامـاتهم والانحطاط بالفكر كله إلى مستوى يصعب علينا تصويره أو تصوره .

وأمـامى نقائض جـريـر والفرزدق وطبقـــات فحـول الشعـراء لمحمد بن سـلام الجمحى ، وطبقات الشعـراء لابن المعتز والجزء السابع من كتاب الأغـانى ، ولا أصدق عينى فيما أقرأ من البذاءات والعبارات التى كانت تجرى على ألسنة أولئك الشعراء دون حياء أو خجل ودون تكلف ، وهذا هو أسوأ الظـواهر ؛ لأن العيب إذا صدر عن الإنسان طواعيـة دون تكلف كان معنى ذلك أن الإحساس الخلقى نفســه قد خف ورق حتى لم يعد له وجود .

ويقول بعض العارفين بتاريخ العرب : إن السياسة هى التى أفسدت أخلاق الناس وجعلت أهل الأدب ينحرفـون هذا الانحـراف ، ونقول لهؤلاء : إن أهل السيـاسة فى تلك العصور ليسوا أهل فكر ، إنما هم كانوا رجال مطامع ودنيا ، وليس فى الدنيا من يقول : إن وظيفة رجال السياسة تقـويم أخلاق الناس ، إنما هذا واجب أهل الفكر ، وإذا نسى الناس جميعـاً حقيـقة الأمة ووحـدتها وصالحها ومبـادئها ، فإن هذا لا يجوز لـرجال الفكـر ، وها هى ذى دواوين الشعـراء الجاهليين فقل لى : أين تجد شــاعراً منهم خـان قومه أو قبيلته وحمل عليها عن سـوء نية أو طلباً للمال ، أفكان الجاهليون أيقظ ضميراً وأوعى ذهناً وأبعد نظراً من شعراء ما بعد الإسـلام ؟ الجواب : نعم .

وقد حذر من ذلك رسـول الله ﷺ فى إحـدى خطبه الثلاث فى حجة الوداع قال : إن المسلم أخو المسلم : إنما المسلمـون إخوة ولا يحل لامـرىء مسلم دم أخيه ولا مـاله إلا بطيب نفس منـه ، إنما أمرت أن أقاتل النـاس حتى يقولـوا لا إله إلا اللـه ، فإذا قالـوها عصموا دمـاءهم وأموالهم وحسابهم على اللـه ، ولا تظلموا أنفسكم ولا ترجعـوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، إنى تركت فيكم ما لا تضلون به : كتاب الله ! ألا هل

بلغت ؟ قال الناس : نعم ، قال : اللهم اشهد [الواقدى ، مغازى ٣ / ١١١٣] وهذه المعانى كلها واردة فى القرآن مرة بعد أخرى ، وهى الميزان الخلقى لأمة الإسلام ، ولكن رسول الله ﷺ يجعلها هنا فى صورة الميثاق المباشر بين صاحب الرسالة الذى بلغها وكل فرد من أفراد الأمة على حدة ، فلعل بعض الناس لا يذكرون شيئاً من آيات العهد والميثاق بين الله سبحانه والمؤمنين ، ولعل بعضهم الآخر يقرؤها دون أن يفهمها أو دون أن يتفطن إلى معانيها ، فيضعها رسول الله ﷺ هنا موضع الميثاق المباشر بينه وبين كل مؤمن ، فإن بعض الناس لا يفهمون إلا إذا واجهتهم وألقيت الكلام فى وجوههم مباشرة وصككتهم بالحق صكاً .

ولكن إخواننا بعد رسول الله نسوا ذلك كله ، وعادوا لا ينفع معهم صك على الوجوه أو صفع على القفا ، فعادوا ضلالاً كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعض ، وكان واجب أهل الفكر أن يقفوا فى وجه هذا التيار أو ينبهوا إلى خطورته ، وهذا أضعف الإيمان ؛ فما بالك وأصحابنا تدهوروا إلى ما هو دون أضعف الإيمان هذا ، فساروا دون حياء فى موكب الظلم والقتل بل تدنَّوا إلى ما دون ذلك فجعلوا أنفسهم ندامى أو مضحكين ومتسولين أو مسوخاً بين الناس ، وعندما يصل أهل الفكر إلى هذا المستوى فقد ألغوا وجودهم أصلاً ولا يقل لى هنا أحد : ولكن جريراً أبدع فى النسيب ، والفرزدق تجلى فى الصور والأخيلة وعمر بن أبى ربيعة تلألأ فى الغزل فأقول لك : والله ما كنا بحاجة إلى نسيب جرير إذا صدر عن قلب مريض ، ولا إلى صور الفرزدق إذا طلعت من نفس هزيلة ، ولا إلى غزل ابن أبى ربيعة إذا جاء من قلب خلى ، جعل الحياة ضحكة وذيل امرأة وخد أخرى .

ومن جميل ما يستوقف نظرنا أن بعض شعراء ذلك العصر كانوا ملتزمين جادين شاعرين بمسئوليتهم وكانت لهم مواقف سياسية واضحة قائمة على شعور أخلاقى سليم ، وهؤلاء عرَّضوا أنفسهم للخطر وواجهوا الظالمين دون خوف وهتفوا بآرائهم غير هيابين فكانت جديتهم وسلامة خلقهم سبباً فى احترام الحكام إياهم وهيبتهم لهم فتعقبوهم ولكنهم هابوهم ، فلم ينالوا من شرفهم أى مبلغ وظلوا رغم غضب الدولة عليهم أعز مكاناً ممن باعوا أنفسهم ونسوا رسالتهم وتدنوا بأدبهم ، وأمامك أشعار عبيد الله بن قيس الرقيات والطرماح بن حكيم والكميت بن زيد الأسدى ، فهؤلاء جميعاً

ظلوا معظم أيـامهم إلى جانب الأمـة على الظالمين ، حقاً إن بعضهم كـانوا متشيعين لآل البيت من دون الأمة ، ولكن هذا موقف سياسى اختاره الرجل ، وأنت تحترمهم لموقفهم مهما كان رأيك مخالفًا لرأيهم ، ولا يقلل من فضلهم أن بعضهم تعب فى النهاية ومال إلى مهادنة بنى أمية أو بنى العبـاس ، فإن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، ولا نطلب من كل إنسان أن يكون حـديداً إلى النهاية ، كما كان قطـرى بن الفجاءة ، والإنسان لحم ودم ، فإذا بذل أقصى وسعه ثم تعب فلا تثريب عليه ، والغريب أن هؤلاء الأحرار من الشعراء الذين وقفـوا موقف الرجـال ورفضوا أن يبيعوا ضمائرهم وعـانوا الكثير فى سبيل ذلك يضعهم ابن سـلام وابن المعتـز فى الطبقـة السـادسـة ومـا دونها من شعـراء العصر الإسـلامى ، أمـا شعـراء الطبقة الأولى فهم جـريـر والأخطل والفـرزدق والـراعى أى المادحون المهرجون بالنقائض .

ولكن أمامك إذا شئت شعر الخوارج وأظنك تميل معى الآن إلى القول بأنهم ليسوا بخوارج ، وإنما الآخـرون هم الخوارج وهل تعتبر أبـا العباس السفـاح ممثلاً لـلأمة ، وقطـرى بن الفجاءة غير ممثـل لها ؟ إذا كان الإسـلام هـو الشورى واحترام العقيـدة والتـزام الخط الأخلاقى الإسـلامى واحترام كـرامـة الإنسان فـالأزارقـة والصفريـة والإباضيـة إلى هذه المعانى أقرب من سـواهم ، ولكن رجال الحرب والسياسة أخـرجوا الأمة عن منهـاج الله وجعلوها رعيـة ، وجعلوا أنفسهم رعاة ، وجاء معظم رجـال الفكر فجعلوا أنفسهم حداة هذا القطيع الحزين ، والقلة البـاقية من أحرار الفكر والرأى الذين آمنوا بـالشورى وحكم الجماعـة ورفضوا استبـداد بنى أمية ورجـالهم وبنى العباس وأنصارهم أصبحت تسمى خوارج ، وحكم الظالمون عليهم بأن يعيشوا خارج الأسوار كأنهم خوارج على القانون ، وإذا لم يعجبك تشدد الأزارقة الحرورية فأمامك الصفرية أصحـاب زياد بن الأصفـر وكانـوا أرفق من غيرهم فى محاربة عـدوان الظالمين ومـن أيَّدهم ، وأمامك بعـد ذلك إذا كنت لا تريـد أن تقف موقف المعـادى للحكام المتصـدى لحربهـم ، أمامـك جماعة الإباضية أتـباع عبد الله بن إباض المرى التميمى ، فهؤلاء لا يكفرون الجماعة ولا يعلنون الحرب على الوادعين .

وإنما هم ينشئون جماعتهم الشورية الحرة بعيداً عن أيدى رجال الدولة ، فى جبال عمان تـارة أو فى جبال المغـرب تارة أخـرى ، حتى لا يبيعـوا إيمانهم ببخس ولا يذلـوا

رقابهم لجبار ولا يفرطوا فى أمانة الإسلام وكرامات المؤمنين .

هل بلغتك أخبار غزالة الحرورية تلك المرأة الباسلة التى وقفت عند مبدئها وأعلنت الحرب على جبار العصر الحجاج بن يوسف الثقفى ، وهاجمت البصرة مع رجالها فرعب الحجاج وطلب العون من جنده وأعجب بها شاعرٌ يسمى عمران بن حطان ، فذهب إليها ليردها عن مذهبها خوفاً عليه فطوتــه بإيمانها تحت جناحها وقال أبياته التى لا بد أنك سمعتها يخاطب فيها الحجاج :

أســـد علىّ وفى الحروب نعـــامـــة ... ربـــداء تجفل مـن صفير الصـــافـــر

هـــلا بـــرزت إلى غـزالـــة فى الـــوغى ... بل كـــان قلبك فى جنـــاحـــىْ طـــائر

صـــدعت غـزالـــة قلبهـا بفـوارس ... تـــركت منـــازلـــه كأمس الــدابـــر

وهذا الرجل الشهم قال يخاطب الفرزدق :

أيها المادح العبـــــــاد ليعطـى ... إن للـــه مـــا بـأيـــدى العبـــاد

فـــاسأل اللـــه مـــا طلبـت إليهم ... وارجُ فضـل المقسـم العـــــــواد

لا تقل فى الجواد مـــا ليـس فيـــه ... وتسـم البخيل بـــــاسـم الجواد

وهذا الرجل الكـريم يفخر بأنه لم يكذب فى شعـره قط ، واستمع إليه يقول فى ذلك مخاطباً امرأته وكان اسمها جمر :

يـا جمر إنى على مـــا كـان من خلقى ... مثنٍ بخـــلَّات صـــدق كلهـــا فيك

اللــــه يعلـم أنى لم أقل كـــذبـــاً ... فيما علمـــت وإنـــى لا أزكيـــك

ولكن واحدًا من أهل الفكر فى صدر الإسلام ربأ بنفسه عن معظم ذلك وقام بواجب المفكر الحر ، وجعل نفسه معلم أمتــه ومربيها وخادمها بفكره ومـا منحه الله من علم ، ولكى يقوم بهذه المهمة هادن السلطان وحاول إصــلاح حاله ورفض فى الوقت نفسه أن

يدخل فى خدمته حتى لا يكون من أدواته وأعوانه ، وهذا الرجل هو الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر [١٥٩ - ٢٥٥ هـ / ٧٧٥ - ٨٦٩ م] معلم العرب ومثقفهم ، وقد زان هذا العصر كله بأدبه وفكره وعلمه وخلقه ، وهو جدير منا بوقفة هنا ؛ لأنه مثال لصاحب الفكر الذى عرف كيف يوازن بين حريته واستقامة خلقه وما فرضه أهل السلطان على الناس من ظلم وجبروت وانحراف .

وقد نشأ الجاحظ نشأة متواضعة ، ولكن فكره واجتهاده رفعاه عن مذلة الحاجة ، فأخذ طريقه صعداً كالشهاب وهو منسوب إلى كنانة ، ولكن الغالب أنه مولى من أصل إفريقى سمت به ملكاته إلى مراتب فحول العرب ..

وهب الله الجاحظ ذهناً وقاداً وقريحة حافظة وملكة أدبية قل أن نجد لها نظيرًا ، ولكنه لم يركن إلى ملكاته ، فمضى ينميها بالقراءة والدرس وبلغ من إقباله على ذلك أنه كان يقيم فى دكاكين الوراقين أى بائعى الكتب حتى يقرأ كيف شاء .

نشأ الجاحظ فى البصرة ودرس مبادىء القراءة والكتابة وحفظ القرآن على المؤدبين ، ثم انطلق يطلب العلم فى رحاب مساجد البصرة وهى مولده ومهده ومغنى شبابه ، وكانت البصرة إذ ذاك عاصمة الفكر فى عالم الإسلام ، وقد اشترك عالمان معاصران فى تعريفنا بأحوال البصرة ونظام الناس الاجتماعى فيها والجو الفكرى الذى كان يسودها .

الأول هو : د / أحمد الصالح على رئيس المجمع العلمى العراقى فى كتابه « التنظيمات السياسية والاجتماعية فى البصرة » وهو من كلاسيكيات الدراسات التاريخية العلمية .

الثانى هو : المستشرق الفرنسى المعروف شارل بيلا فى كتابه الكلاسيكى أيضاً « البيئة البصرية وتكوين الجاحظ »

Le Mifiev Iasiem et la formation du Djohis (Paris 1953)

وهذه مناسبة أقول فيها لبعض الناس عندنا : كفى حملةً على المستشرقين واتهاماً لهم بالحق والباطل ، فإن فيهم محسنين كما فينا محسنون ، وفيهم مسيئون كما أن فينا مسيئين ، وأفضالهم على النهضة الأدبية وبعث التراث العربى لا تنكر ، وما تعلمنا

نشر النصوص وتحقيقها على الضبط إلا منهم ، وما عرفنا فهرسة الكتب على وجه الدقة إلا على أيديهم ، وهذا الجاحظ درسه من علمائنا نفر كبير ، ولكن الذين قرأوه ودرسوه من المستشرقين أكثر ، وفيهم أسماء جديرة بكل احترام من أمثال شارل بيلا و « ا . ج أربرى وفرانشيسكو جابرييلى وجوستاف فان فلوتن وج فنكل و أوريشر » وشارل بيلا بالذات أنفق سنوات طويلة من عمره يدرس الجاحظ وينشر نصوصه ويكتب المقالات عنه ، وهو الوحيد الذى أتانا بثبت كامل لكتابات الجاحظ ما ظهر منها وما لم يظهر فى مقال له عظيم فى مجلة أرابيكا التى تصدر فى باريس المجلد الثانى من سنة ١٩٦٢ .

وهذا الكلام لا يقلل من أهمية العمل الجليل الذى قام به علماؤنا فى نشر أعمال الجاحظ ، وأذكر منهم هنا بالشكر والعرفان عبد السلام هارون ، وطه الحاجرى ، وحسن السندوبى ، وهم من أجلاء العلماء .

نقول : إن الجاحظ درس على نطاق واسع وهو رجل علَّم نفسه بنفسه شأنه فى ذلك شأن الكثيرين من أعلام الفكر عندنا من أمثال ابن حزم ، وعباس محمود العقاد ، فبدأ بشهود مجالس المساجديين وهم ناس من أهل الفكر كانوا يجلسون فى المساجد للمناقشة ، ثم درس على بعض الشيوخ وأفاد منهم قدر ما أفاد من شهود اجتماعات أهل الأدب والفكر فى المربد ، وهو سوق الدواب فى البصرة ، وهو المكان الوحيد المفتوح لأهل الفكر ليتلاقوا فيه دون حرج ، وهناك أيضاً كان الشعراء يتلاقون ، وما أكثر القصائد العصماء والنقائض التى طارت كل مطار والتى سمعها الناس لأول مرة فى سوق الدواب هذا .

حَصَّلَ الجاحظ العلم على نطاق واسع ، ونشره كذلك على نطاق أوسع ، وقد اندرج من شبابه فى جماعة المعتزلة ، وهم جماعة أحرار الفكر حاولوا ابتداء من القرن الثالث أن ينظروا للدين نظراً عقلياً دون أن يفرطوا فى ذرة من إيمانهم ، وهم مدارس شتى حاولت ـ كل منها بطريقتها ـ أن توفق بين العقل والدين ، وكان الناس يظنون أن بينهما تناقضاً ، مع أن العقل هو الدين والدين هو العقل ، وما منع المعتزلة من أن يقودوا حركة فكرية كبرى إلا أنهم ظنوا أنفسهم طبقة فوق الناس بعلمهم ، فتعالوا على الأمة ، ولم ينفعوها بعلمهم ، كما سنرى فى فصل قادم .

وهادن الجاحظ الدولة العباسيـة لا عن تسليم لها ، بل لأنه مؤدِّب ومعلِّم ولا يريد أن يدخل فى مشـاكل مع السلطان ، إنما هو مـع العقل دائماً ، فهو يؤيـد الصـالحين من بنى العباس ومن حسن حظه أنه عاصر ــ فيمن عاصر ـ المأمون وهو مع ذلك لم يغمط حق آل على بن أبى طالب ، ولكن الجاحظ كـان يزن كلامه بالعقل ويـوازن بالحساب ، ففى بعض رسائله لا يـذكر العلويين وفى أخرى يثنى عليهم ، وهو يعـرف قدر العرب ، ويكتب فى فضـائلهم ، ولكنه لا ينسى الموالى وغير العـرب ، وهو يكتب فى فضـائل الترك وجند الخلافة وفضائل السودان ، وهو يكتب عن صنوف الحيوان والعلم كتبًا هى كلها استطرادات دون منهج ، والـرجل لم يتلق العلم على منهج حتى يعلمـه على منهج ، فهو يعطيك إياه كما أتاه مـرسلاً فى كتب كبيرة أو صغيرة فهو بستان وأنت البستـانى وهو يزرع وأنت تحصد ، وهو لا يتبـذل ولا يتسول أو يطلب وإنما يأتيه المال دون مسألة ، وهو عقل متحـرك نشيط يفتح لك الآفاق ويحرك ذهنك ، وهـو لا ينسى وظيفته معلماً أبداً فلا يبدأ رسـالة من رسائله أو كتاباً من كتبه إلا دعا لك ولنفسـه : اعلم أرشدنا الله وإياك وحفظك وصانك .

* * *

المُفَكِّرُونَ فِـى وَادِى عَبْقَـر
وَالنَّـــاسُ فِـى وَادِى سَـــقَر

لم يبلغ أهل الشعر وأهـل الفكر من الغنى والمال والوجـاهة فى عصر من عصـورنا الماضية ما بلغوه خلال العصرين العباسى الأول والثانى ، فقد حكى صاحب الأغانى أن الشاعر سلماً الخاسر المتوفى سنة ١٨٦ ، خلف ثروة مقدارها ٥٠ ألف دينار و ١٥٠ ألف درهم من الضياع ، وسلم بن عمرو هذا كان مـداح ملوك ووزراء ، وقد بلغ فى هذا النوع من الشعر الرخيص حتى صار يتقاضى عن القصيدة الواحدة ألف دينار وألفين ، وأنت إذا قـرأت مديحه أعجبك لفظـه دون أن تعجبك روحه ، فهـو رجل يتسول على أبـواب الملوك ، بمثل قوله يمدح الخليفة المهدى ثالث خلفاء بنى العباس :

جمع الخلافـــــــــة والسما	حـــة والشجـــاعـــة فى نظـــام
ملـك ضريبـــــــة رأيــــــه	أمضـى مـن السيف الحســـــام
يقضـى أمــــــور المسلميـــــــ	ـــن بــــرأى حـــزم واعتـــزام
قـــــالـت قــــريـش كلهـــا	وهم الكـــرام بنـــو الكـــرام
وخيــــار مـن وطـىء الحصـــا	مـن بين كهـل أو غـــــــلام
فضـل الملــــوك محمــــــد	فضـــــــــل الحلال على الحرام
فـــاسلم أمير المــــــؤمنيــ	ـــن فـانت رهـن بـــالســـلام

وهذا فى رأينا شعر لا يساوى ألف دينـار ولا عشرة ، ولكن السبب فى هذا الكرم هو أن الخليفة المهدى نفسه كان ــ بصفته خليفة المسلمين ـ لا يساوى عشرة دراهم ، فإذا جاء سلم بن عمرو هـذا ليقول له : إنه أفضل الملوك جميعًا أعطـاه هذا المال ، ولا عليه ، فهذا مـال المسلمين وضع فى يد منـافق ضئيل الحجم مثل محمـد المهدى هـذا ، فصار يعطى منه لكل خادم ومـادح ومنافق ، وهذا الخليفة المهدى الذى كان يـزعم أنه حامى السنـة والجماعة ورمـز الإيمان ، كان يقتل النـاس على الظن ، بل بلغ به الأمـر عندمـا

غضب على وزيره أبى عبيد الله بوشاية وزير آخر هو الربيع بن يونس ، أن أمر أبا عبيد الله بقتل ابنه بيده بتهمة الزندقة ، فلما قام الشيخ ليضرب عنق ابنه تعثر ووقع ، فأمر رجلاً آخر فقتله ، وكان يحضر هذا المجلس فقيه قاض يسمى عافية بن يزيد ، فطلب إلى الخليفة أن يقبل توبة الرجل ؛ لأنه صاح بإعلانه التوبة ، وحكم الشريعة فيمن يتهم بالزندقة أن يستتاب ، فإذا تاب خلى سبيله ، ولكن المهدى غضب على القاضى ؛ لأنه كان يريد قتل الرجل ظلماً ؛ فأمر بضرب القاضى وإخراجه من مجلسه ، فأخرج على أسوأ صورة .

وكان المنصور والد المهدى قد خلف له فى خزائن الدولة ٩٦٠ مليون درهم [والدرهم فى ذلك الحين قرابة العشرة قروش] فأنفق المهدى معظم ذلك المال فى لذاته وأهوائه .

وهذا المتشدد فى الدين ظاهراً كان لا يمانع فى شرب الخمر ، وكان ندماؤه من أمثال عمر بن بزيع والمعلى مولاه يشربون عنده بحيث يراهم الجهشيارى ١٥٩ ـ ١٦٠ ، وقد أرغم المهدى عمه عيسى بن موسى على التنازل عن ولاية العهد لموسى الهادى بن محمد المهدى ، وأعطاه فى مقابل ذلك عشرة ملايين من الدراهم ، وأعطاه ضياعاً بالزاب الأعلى وكسكر [الطبرى ٨ / ١٢٥] كل ذلك من مال المسلمين .

وسلم بن عمرو الخاسر الشاعر الذى قال فى الخليفة المهدى هذا الكلام كذباً ، قال شعراً آخر ضعيفاً فى تهنئة موسى الهادى بولاية العهد مع علمه بأن عيسى بن موسى تنازل عن ولاية العهد مرغماً ، ثم وافق على التنازل لقاء المال الذى ذكرناه ، فقال سلم يمدح موسى الهادى :

لقد جعل الله فى راحتيك حياة النفوس وآجالها
وجدناك فى كتب الأولين محيى النفوس وقتالها
وموسى شبيه أبى جعفر ومعطى الرغائب سوالها

وقد أنكر عليه أبو العتاهية هذا التسول وقال فيه :

تعالى الله يا سلم بن عمرو ... أذل الحرص أعناق الرجال

هب الدنيا تساق إليك عفواً ... أليس مصير ذاك إلى الزوال ؟

فلما بلغت هذه الأبيات سمع سلم قال : ويلى على ابن الفاعلة ! .. قد كنز فى بيته البدور [أى أكياس الدنانير] ، وأنا فى ثوبىَّ هذين ، وليس عندى غيرهما ، وهو ينسبنى إلى الحرص . ابن المعتز : طبقات الشعراء ١٠٥ .

وهذا الكلام يقوله الرجل الذى خلف الأموال الجسيمة التى ذكرناها ، وهو هنا يشبه عتاة المتسولين الذين يسيرون فى أسمال ، والمال فى بيوتهم أو ملابسهم مخزون .

ومثل سلم الخاسر فى ذلك مروان بن أبى حفصة الشاعر ، فقد حكى ابن رشيق فى العمدة أنه خلف ثروة طائلة ، وأن جوائزه عن القصائد كانت تبلغ ١٠٠ ألف دينار أحياناً ، وكان يفخر بتسوله :

ما زلت آنف أن أؤلف مدحة ... إلا لصاحب منبر وسرير

ما ضرنى حسد اللئام ولم يزل ... ذو الفضل يحسده ذوو التقصير

وهذا مروان بن أبى حفصة لم يكن متسولاً فحسب ، بل كان مزوراً أيضاً ، وهو صاحب البيت الخسيس الذى قاله متقرباً لبنى العباس ومنكراً حق أبناء على بن أبى طالب فى الخلافة :

أنى يكون ؟ وليس ذاك بكائن ... لبنى البنات وراثة الأعمام ؟

وقد كذب على الواقع بهذا القول ، لأن أبناء على بن أبى طالب لم يكونوا أبناء فاطمة فحسب ، بل كانوا أبناء ابن عم الرسول ﷺ ، وقد نال مروان بهذا البيت من بنى العباس مالاً جسيماً ، وكان قبل ذلك يمدح معن بن زائدة ورجال الأمويين ، فلما ذهبت دولتهم تحول بتسوله إلى أبواب السادة الجدد .

وبلغ من وفرة المال فى أيدى هذا الطراز من الشعراء أن أبا نواس والعباس بن الأحنف ومسلم بن الوليد الملقب بصريع الغوانى كانوا يتنافسون فى إنفاق المال دون حساب ؛ لأنهم كانوا يكسبونه دون حساب أيضاً ، وكانوا يكسبون هذا المال من أيدى

حكام معظمهم ظلمة فاسقون ، فكان مالهم كله حرامًا ، وعلى هذا المال الحرام عاش أولئك الشعراء ، فلم يفتح الله عليهم بخير ، رغم أنه كان فيهم شعراء فطاحل رزقهم الله من الشاعرية ما كان جديراً بأن يكون فخراً للعربية وأهلها ، لو أنه وجه فى اتجاهات الخير أو الإنسانية ، ولكن هؤلاء العباقرة أنفقوا ملكاتهم الغادرة فى أسوأ ما تنفق فيه الملكات : مديح الملوك والسروات والخمريات والطرديات ، وما إلى ذلك مما يعجبك نظمه وجرسه وتسحرك موسيقاه ، ولكنك تخرج منه صفر اليدين أفقر مما دخلت .

وهذا هو الذى يغيظنا من أولئك الأفذاذ ، فإن الإنسان إذا لم يرزق ملكة جليلة وكان حظه من المواهب قليلاً ، فمضى يتكسب بالقليل الذى عنده ، لم يكن عتبنا عليه شديداً ، فهذا رجل مسكين يرتزق على قدر ما يستطيع ليقيم أوده ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

أما أن يكون الإنسان عبقرياً موهوباً من طبقة أبى نواس وهو أبو على الحسن بن هانىء [١٤٥ ـ ١٩٨ هـ / ٧٦٢ ـ ٨١٣ م] ثم ينطق شعره وموهبته فيما لا ينفع الناس فى شيء ، فهنا يكون لومنا شديداً ونكيرنا قاسياً ، لأن الله آتانا كنزاً فأبى صاحبه إلا أن يكون سفيهاً ، فأنفق ما عنده فى هباء لا يتحصل منه شيء ، ونحن نقرأ لفحول شعراء الدنيا ، فنجدهم خدموا أممهم بملكاتهم ، وأنشأوا لها صفحات من المجد من أمثال دانتى الليجيرى ووليام شكسبير وولفجانج جيته ، ثم ننظر فيما خلف لنا أبو نواس فتدركنا الحسرة ، ولا نزاع فى أن أبا نواس رزق من الشاعرية والموهبة ما لا يقل عن هؤلاء ، فانظر والله ماذا خلف لهذه الأمة ، ثم انظر إلى ما خلف وليام شكسبير من عالم فياض بالحيوية والابتكار والإبداع والتصرف فى وجوه القول ، وتأمل كم أفادت الأمة الإنجليزية من الحكمة والشاعرية والتجربة الواسعة من شهود مسرحيات مثل يوليوس قيصر وماكبث والملك لير وهاملت وكليوباترة وأنطونيو وروميو وجوليت ، تجد نفسك أمام صرح عظيم من المجد للأمة وشاعرها ، فماذا قدم لنا أبو نواس بشاعريته ؟ كلام جميل رائع حقاً ، ولكنه خواء فارغ لا يتحصل منه في النهاية شيء ، والله سبحانه لا يرزق الشاعر شاعريته لينفقها فى دكان خمار ، بل لكى يرفع بها نفسه وقومه .. ويعزها ويعزهم .

وانظر إلى الصرح الذى خلفه جيتــه من عمق يروع النفس فى فاوست ، إلى رقة تهز المشاعر فى هرمان ودوروينا ، إلى إبداع نفخر به نحن ـ ونحن غرباء عن الشاعر ولغته ـ فى قصة آلام فرتر ، ثم تقرأ شعر أبى نــواس فتنالك حسرة ! فهذا رجل وهبه الله مثل ما وهب هذين ، فماذا أعطانا من موهبته ؟ حقاً إننــا أمة عاثرة الحظ ، وما أعطانا الله خيراً إلا تصرفنا فيه أسوأ تصرف ! وهل فيما وهب اللــه الناس من الخير شيء هو أعظم من الإسلام ، هداية ورشد وعلم وإيمان وقوة وفكر وصراط مستقيم لو اتبعه إنسان وعرف حقه لساد به الدنيا ، فانظر واللــه أين نحن من أمم الدنيا ، وكأن الله لم يرزقنا إسلاماً ولا أعطانا إيمانــاً ، وفى دنيانا هذه أمم لم ينزل الله عليهم كتــاباً أو يبعث فيهم رسولاً ، لأن الله سبحــانه وتعالى عندمــا أهدانا الإسلام أمــرنا بأن نبلغه إلى الناس كــافة ، وأن نحمل الهدى والنور إلى أمم العالمين ، فــاجتهدنا جيلين ثلاثة ، ثم قعدت بنــا ملكاتنا عن المطلب العظيم ، وآثرنا الدعة ومطالب الدنيــا العاجلة ، وبدلاً من أن نسير بالإسلام أمة هى طليعة للخير والمســاواة والفضيلة والشورى ، استخــدمناه فى إقامــة دول للظالمين وبقاء عروش سفاكين ، ويا ليتهم مع هذا كانوا ملــوكاً ! لقد كانوا لصوصاً وقطاع طرق وجبــارين ظالمين ، أقــامتهم الأمــة على العروش فكــافأوهــا بالسجــون والقتل والنهب ونسيان الإسلام ومعاداة الإيمان .

والصورة التى قــدم بها أبو نواس نفســه للدنيا هى نفسهــا أشد عقاب لــه على ما صنع بملكته ، فهى صورة رجل ماجن مستهتر منحل الأخلاق لا يستحى ولا يرعوى ، وهو طول عمره يتصرف تصرف غلام فاسد مفسود لا يعرف مسئوليته لا عن نفسه أو ملكته أو أمام أمتــه أو ملكه ، فهل هذا كل ما كان يمكن أن نخــرج به من أبى نواس ؟ لا والله ، والرجل كان عالماً دارساً حافظاً ، قــال فيه ابن المعتز : كان أبو نواس عالماً فقيهاً ، عارفــاً بالأحكــام والفتيا بصـــيراً بالاختــلاف ، صــاحب حفظ ونظــر ومعرفــة بطرق الحديث ، يعرف نــاسخ القرآن ومنسوخــه ومحكمه ومتشــابهه ، وقــد تأدب بالبصرة ، وهى يومئذ أكثر بلاد الله علماً وفقهــاً وأدباً ، وكان أحفظ لأشعار القدماء والمخضرمين وأوائل الإسلاميين والمحدثين .

وحدثنى حمدون بن أحمد القصار قال : حدثنى يوسف بن الداية قال : قال لى أبو نواس : أحفظ سبعمائة أرجوزة ، وهى عزيزة فى أيــدى الناس ، سوى المشهور عندهم ،

وكان لزم بعد والبة بن الحباب خلفاً الأحمر ، وكان خلف نسيجاً وحده فى الشعر ، فلما فرغ أبو نواس من إحكام هذه الفنـون تفرغ للنوادر والمجون والملح ، فحفظ منها شيئاً كثيراً حتى صار أغزر الناس ، ثم دخل فى قـول الشعر ، فبرز على أقرانه وبرع على أهل زمانه ، طبقات الشعراء لابن المعتز ١ ـ ٢ .

وليس فى هذا الكلام مبالغة ، فإن الرجل كـان فى الحقيقة موهبة ينـدر أن نجد لها مثالاً فى العلم والمعرفة ، وله قصيدة بديعة يفضل فيها اليمنيين على العدنانيين ، وكان فى أبى نواس نفور من العدنانيـة لتعاليهم على الناس وزعمهم أنهم أفضل خلق الله لمجرد أنهم عدنانيـة ، وهذا تفكير غير إسلامى ؛ لأن الله سبحـانه خلقنا سواسيـة من تراب ، كلنا لآدم وآدم من تراب ، وإنما نحن نتفاضل بالتقوى وهى جماع فضائل الإنسان .

أقول : إن هذه القصيدة تدل على علم واسع جـدًّا بتاريخ العرب ودقيق تفاصيله ، واسمع إليه يقول فيها :

واهج نـــزار وافـــرِ جلـــدتها	وهتِّك الستر عن مثـــالبهـــا
وأحبب قـــريشـــاً لحب أحمدهـــا	واشكـــر لها الجزل من مـــواهبهـــا
إن قـــريشـــاً إذا هى انتسبـت	كـــان لنـــا الشطـر من منـــاسبهـــا

* * *

أمـــا تميم فغير راحضـــة	مـــا شلشـل القيـــد فى شـــواربها
أول مجد لها وآخـــــره	ـ إن ذكـــر المجد ـ قـوس حاجبهـا
وقيـس عيـــلان لا أريـــد لها	من المخـــازى ســـوى محاربها
ومـــا لبكـــر بن وائل عصـم	إلا بحمقـــائهـــا وكـــاذبها
ولم تقف كلبهـــا بنـــو أســـد	عبيـــد عيرانـــه وراكبهـــا

إلى آخر هذه القصيدة التى تدل على علم غزير بتاريخ كل قبيلة ، فهو يقول : إن كل ما تفخر بـه تميم فى تاريخها كله هو رئيسها حـاجب بن زرارة ، وكان من شيوخ تميم الـذين وفدوا على النبى ﷺ ، وهم يحسبـون أنهم أعـز أهل الأرض وأعلمهم ، فأراهم

الرسول عن طريق خطباء الإسلام وشعرائه أنهم أجهل الناس ، وهو يذكر من مخازى قيس عيلان قبيلة بنى محرب ما كان من سوء موقفها من الإسلام أيام الرسول ، ويعير قبيلة بكر بن وائل بما اشتهر به زعماؤها من الحمق والترامى فى المهالك .

وهذا الرجل الذى يسوق التاريخ هـذا المساق السهل الممتنع كان يستطيع ، لو أنه وجَّه شاعريتـه التوجيه السليم ، أن ينشىء لنا شيئاً هو أعظم من الشـاهنامة ، فإن أبا نواس دون شك أشعر من الفردوسى ، ولم يكن حافظ الشيرازى بأعظم من أبى نواس ملكة ، ولكنه كـان رجلاً محترماً وإنساناً جليـلاً ، فأنشأ من الشعر الإنسانى الفلسفى الجميل ما جعله حقاً من أرفع شعراء الإسلام درجة ومكانة ، وهو علم من أعلام الفكر فى الدنيا ، نقرأ شعره مترجماً إلى كل لسان ، أما أبـو نواس فأضاع شاعريته فى مجونه ، وحاله حال رجل أعطيته قارورة عطـر رفيع القدر فلم يجد ما يفعله بها إلا أن يصب ما فيها فى بالوعة ! واقـرأ الشعر التالى لأبى نواس فى وصف مجلس خمر ، وقل لى : إن كان من الممكن لشاعر أن يصل بشعره إلى هذه الطبقة من الإتقان مع تفاهة الموضوع وهباء المقصود :

ودار نـــدامـى عطلـــوهـــا فادلجوا	بها أثـــر منهم ، جـــديـــد ودارس
مســاحب من جر الـزقاق على الثـرى	وأضغـــاث ريحان ، جنى ويـــابس
حبست بها صحبى وجـددت عهـدهم	وإنى على أمثـــال هـــاتيك حـــابس
اقمنـا بها يـومـاً ويـومـاً ثـالثـاً	ويـــومـاً لـــه يـوم الترحل خـــامس
تـدور علينـــا الـراح فى عسجـديـة	حبتهـا بالـوان التصـــاوير فـارس
قـــرارتها كسرى ، وفى جنبـــاتها	مهـــا تـــدريها بـــالقسى الفـــوارس
فللـــراح مـــا زرت عليـــه جيـــوبها	وللماء مـــا دارت عليـــه القـــلانس

فانظر كيف يصف لك الدار التى شربوا فيها بعد أن رحلوا عنها ولم يبق فيها منهم إلا آثارهم الدارسة ، فأنت ترى آثـار زقاق الخمر التى جروها على الثرى ، وعلى الأرض بقايا الزهور التى كانت معهم ، بعضها جف وبعضها ما زال رطباً .

ثم انظر إلى تصـويره للكأس التى شرب فيها ، فهـو يرى الخمر فيها ذهبيـة بلون

الذهب ، والكأس مزينة برسوم رسمها فنانون من الفرس ، وهذه التصاوير ترى فى أسفلها رسم كسرى وعلى جوانبها تصاوير فرسان يطاردون الظباء وفى أيديهم القسى ، وقد أضيف الماء إلى الخمر فطفا أعلاها قبل أن يختلط بها ، فبدت تصاوير قلانس الفرسان فى الماء .

فهذا مستوى من القدرة الشاعرية لا يصل إليه واصل ، بل إن الرجل يصف أحاسيس نفسه عندما سمع قارئاً يقرأ القرآن ويصل إلى قوله تعالى : ﴿ **أرأيت الذى يكذب بالدين** ﴾ قال أبو نواس :

وقرا معلناً ليصدع قلبى والهوى يصدع الفؤاد العزوما
أرأيت الذى يكذب بالدين فذاك الذى يَدُعُّ اليتيما

وهكذا ينجح أبو نواس دون تكلف فى تضمين معنى الآية بل معنى سورة [الماعون] فى لمحة خاطفة .

وأنت تسأل : ماذا فى الخمر حتى ينفق أبو نواس فى الكلام عنها أكبر شطر من شاعريته ؟ .. مع أن الخمر ليست جزءًا من ثقافتنا ، بل إن ديننا حرمها ـ بحق ـ حماية للعقل والجسم الإنسانى من شرورها ، ولكن شعراءنا مع الأسف الشديد كانوا فى أحيان كثيرة يعيشون خارج نطاق الأمة نظاماً وأدباً وديناً ، أليس من العجيب أن يظهر فى مجتمع يحرم فيه شرب الخمر رجل يسمى الحصرى القيروانى يؤلف كتاباً فى نحو ألف صفحة عنوانه وموضوعه : السرور فى وصف الخمور ! سرور فى عينك أيها الأعمى القبيح ! وفى فرنسا وهى بلد الخمور فيما نزعم يظهر فى أواخر القرن الماضى شاعر فاسد الطبع عظيم الشاعرية هو أرنور رامبو يفسد من حوله بإباحيته وجرأته ، ويجر معه إلى الهاوية شعراء آخرين منهم شارل بودلير وبول مارى فرلين ، وتجتمع حولهم جماعة من الشعراء الإباحيين فينفر منهم المجتمع الفرنسى ويطلق عليهم الناس هناك اسم الشعراء الملاعين Les Poetes Maudits مع أن واحدًا منهم على الأقل وهو بول فرلين تاب وأنقذ نفسه من تلك الحمأة وصلح حاله ،وقال شعراً إنسانياً دينياً عظيماً أحبته بسببه الأمة الفرنسية وغفرت له ما سبق من نزواته مع الملعون حقاً أرنور

رامبو ، وصاحبنا أبو نواس أوغل فى اللعنة من أولئك الملاعين جميعاً ، فما أكثر خسارتنا معه وفيه .

* * *

وأنتقل معك إلى شعراء آخرين ممن وهبهم الله ملكات جليلة حقاً فأنفقوها فى التسول والهباء .

أنتقل بك إلى حبيب بن أوس الطائى وهو أبو تمام [١٨٠ ـ ٢٣١هـ/ ٧٩٦ ـ ٨٤٣ م] وهو رجل نشأ نشأة متواضعة جداً ، فقد ولد بقرية من قرى الشام ، ثم عمل صبياً لحائك ، ثم انتقل إلى مصر حيث سقى الماء فى جامع الفسطاط ، وهو فى أثناء ذلك يدرس ويجود قريحته حتى ملك ناصية الشعر ، وتفتح عن ملكة شاعرية صافية ، حتى إذا اتصل بالخليفة المعتصم نجد هذا الرجل يتجلى عن شاعر فحل حقاً ، ولكنه يتنكر لأهله وأمته وأصله ، ويصبح شاعراً أرستقراطياً لا يقول الشعر إلا فى الملوك والسروات ، ولا يقنع إلا بألوف الدنانير ، ويظهر للناس فى أبهة الأمراء ، فكان له كما يقول ابن رشيق فى كتاب « العمدة » قهارمة أى خدم وكتاب ، وهو فى معظم شعره يغادر الواقع الإنسانى والصدق الشاعرى ، ويسرف فى مبالغات ذات وقع جميل ، ولكنها فى النهاية لا شىء ، واسمع إليه يقول فى مدح المعتصم :

هو البحر من أى النواحى أتيته	فلجَّته المعروف والجود ساحله
تعود بسط الكف حتى لو انه	ثناها لقبض لم تطعه أنامله
ولو لم يكن فى كفه غير روحه	لجاد بها ، فليتق الله سائله

وهذا المعتصم الذى يسرف أبو تمام فى مدحه هذا الإسراف ، كان طاغية فظاً غليظاً تنكَّر للعرب وأسقطهم من الديوان وأخرجهم من ميدان الحرب والسياسة جملة ، وكان جاهلاً غشوماً سيطر عليه قاضٍ جافى القلب يضرب الناس ويأمر بقتلهم ويستبيح

دماءهم عقاباً على إنكار بدعة سخيفة لا معنى لها ولا متحصل وراءها هى بدعة القول بخلق القرآن ، وأنت فى الواقع لا تدرى ما يراد بها ، فإن أتقياء المسلمين لا يدخلون فى سخافات وألاعيب ذهنية ، ولا يرضون أن يكون القرآن ـ معجزة الإسلام الكبرى ـ موضع سفسطة ، فإن القرآن كلام الله سبحانه خلقه عندما أراد ونزله على نبيه بالحق عندما شاء ، فما معنى الجدل فى شأنه وامتحان الناس فى القول بأنه مخلوق أو قديم ؟ ..

ولكن فرقة من فرق المعتزلة على رأسها أحمد بن أبى دواد خرجت على الناس بهذه البدعة وملكت أذن الخليفة المأمون ، واستخدمت السلطان فجعلت من مسألة فكرية محنة إسلامية ضرب الفقهاء فيها وسجنوا وعذبوا ، وجاء المعتصم وهو جاهل جلف من أم تركية ، فأسرف فى هذا الطريق ، وهذا هو المعتصم الذى يقول فيه أبو تمام هذا الهراء ، وأنا هنا أتناول المعتصم من زاوية التاريخ الفكرى ، وأترك جانباً ناحيته السياسية والعسكرية ، فقد كان المعتصم من أكابر خلفاء الإسلام نجدة وشهامة وفروسية .

وهل هناك أنكر من قول أبى تمام فى مدح المعتصم :

سور القرآن الغر فيكم أنزلت ... ولكم تصاغ محاسن الأشعار

فهل يسمح لرجل فكر يحترم نفسه أن يزل هذه الزلة ويقول : إن سور القرآن أنزلت فى طواغيت من أمثال أبى العباس السفاح وأبى جعفر المنصور ومحمد الهادى وأبى إسحاق المعتصم ؟

ومع ذلك فالرجل يا أخى شاعر عظيم الشاعرية وأنت قطعاً تذكر بيتيه :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل فى الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبداً لأول منزل

وهل هناك أرق وأبدع من قوله فى الربيع :

دنيا معاش للورى حتى إذا ... حل الربيع فإنما هى منظر

وقبل أن أستطرد فى ذكر أولئك الشعـراء والمفكرين أحب أن أعلن لك سبب نفورى منهم ونقدى الشديد لهم ، فهؤلاء النــاس تركوا الأمة فى أشقى حال ، وقصروا فنهم على الملوك والقصور وأصحــابها ، وباعوا رسالــة الشاعر وأمانــة الفكر واشتروا بها الذهب واللازورد والعسجد واللجيـن ، وشغلوا أنفسهم بطلب المال .

وســآتيك ــ فى الختام ــ بصفحـات من تـاريخ الطبرى لنرى كيـف كان النــاس يعيشون ويعـانون من الظلم والقهر والحرمــان فى ذلك العصر ، وأصحابنــا أهل الفكر غارقون فى الخمر والنعيم والمال والجنس والشذوذ .

والفقرات التالية تصور حالة بغـداد وأهلها فى عصر الرشيد وابنيه الأمين والمأمون من بعده ، وما أصاب الناس من فتنتهما من شر بالغ .

قال أبـو جعفر الطبرى يصور لنا ظلم القضــاة فى عصر المهدى وسرعتهم فى الحكم على النــاس دون تحقيق سليم : لما حبس المهدى عبـد الله بن مـروان [بن محمد آخـر خلفاء بنى أمية] احتيل عليه ، فجاء عمرو بـن سهلة الأشعرى ، فادعى أن عبد الله بن مروان قتل أباه ، فقدمه إلى عافية القاضى [وعافية كان اسمه] ، فتوجه عليه الحكم أن يقاد به [أى يعدم عقاباً له على القتل] ، وأقام عليه البينة ، فلما كاد الحكم يبرم جاء عبد العزيز بن مسلم العقيلى إلى عافية القاضــى يتخطى رقاب الناس حتى صار إليه فقال : يزعم عمرو بن سهلة أن عبد الله بن مروان قتل أباه ، كذب والله ! ما قتل أباه غيرى ، أنا قتلته بأمر مروان ، وعبـد الله بن مروان من دمه برىء ، فزالت عـن عبد الله بن مروان ولم يعرض المهدى لعبد العزيز بن مسلم ؛ لأنه قتله بأمر مروان ..

[الطبرى ٨ / ١٣٦]

وقد تسرع القاضى فى الحكـم على عبد الله بن مروان ؛ لأنه كـان يعلم أن المهدى ـ شأنه فى ذلك شأن بنى العباس جميعاً ـ يريد أن يقتل كل أموى على الأرض بأى سبيل ، فتقرب إلى السلطــان بدم مسلم بـرىء ، وكان عبد اللــه بن مروان رجــلاً صالحاً ، ومع ثبوت براءته فقد قتله المهدى بعد ذلك ظلماً بتهمة أخرى .

وقال الطبرى فى حوادث سنــة ٢٠١ هــ . يصـف أحوال أهل بغـداد مع اللصوص وقطاع الطرق وقيام الناس عليهم : « كـان السبب فى ذلك أن فساق الحربية [أى فساق

حى الحربية ببغداد ومعظمهم من الجند المرتزقة] والشطار الذين كانوا ببغداد والكرخ آذوا الناس أذى شديداً ، وأظهروا الفسق وقطع الطريق وأخذ الغلمان والنساء علانية فى الطرق ، فكانوا يجتمعون فيأتون الرجل فيأخذون ابنه ، فيذهبون به فلا يقدر أن يمتنع ، وكانوا يسألون الرجل أن يقرضهم فلا يقدر أن يمتنع عليهم ، وكانوا يجتمعون فيأتون القرى ، فيكاثرون أهلها ، ويأخذون ما قدروا عليه من متاع ومال وغير ذلك ، لا سلطان يمنعهم ، ولا يقدر على ذلك منهم ، لأن السلطان كان يعتز بهم [يعتز باللصوص] ، وكانوا بطانته ، فلا يقدر أن يمنعهم من فسق يركبونه ، وكانوا يجبون المارة فى الطريق وفى السفن وعلى الظهر ، ويخفرون البساتين [أى يفرضون إتاوة خفارة على أصحاب البساتين] ويقطعون الطريق علانية ، ولا أحد يقدر عليهم ، وكان الناس منهم فى بلاء عظيم .

وكان آخر أمرهم أن خرجوا إلى قطربل ، فانتهبوها علانية ، وأخذوا المتاع والفضة والغنم والبقر والحمير وغير ذلك ، وأدخلوها بغداد ، وجعلوا يبيعونها علانية ، وجاء أهلها فاستعدوا السلطان عليهم ، فلم يمكنه إعداؤهم عليهم [مساعدتهم] ، ولم يرد عليهم شيئاً مما أخذ منهم ، وذلك آخر شعبان » .

* * *

مَعَ الخَلِيفَةِ المَلِكِ اختَلَّ مِيزَانُ المُجتَمَعِ كُلِّـهِ

كان البحترى [أبـو عبادة الـوليد بن عبـيد بن يحيى ٢٠٦ ـــ ٢٨٤ هـ / ٨٢١ ـ ٨٩٧ م] صنو أبى تمام فى الفصــاحة والشــاعرية والغنى والتســول بالشعـر ، وكان تلميـذه ومضاهيـه ، وقد عـاش الاثنان فى عصر أسـود كله أزمـات وحروب وثـورات وانقلابات وجرائم وتعاسة ، وقد عمت التعاسة فى هذا العصر ـ القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ــ كل الناس من الخليفة إلى الوزير إلى الخفير وسـاكن الريف وساكن المدينة ، لأن الظلم إذا بدأ على يد طاغية جبار مثل معاوية بن أبى سفيان أو أبى العباس السفاح يكـون فى بدايته لعبـة مسلية يتصور الظـالم أنه وحده مـالك سرها والمستمتع بخيرها ، ولكنـه إذا استمر زاد وعم حتى شمل الجميع ؛ لأنه كالنـار إذا شبت ووجدت من يؤجج لهيبها استشرت وأتت على كل شىء .

وأنت تقـرأ أخبار هـذا القرن الثـالث فى مطـول مثل تاريخ الطبرى فتشعـر كأنك تختنق لكثرة الظلم وسفك الدماء ومصـارع الناس وبحر الدماء ، ثم تقرؤها فى مختصر مثل تاريخ ابن الأثير فيزداد ضيقك لأن ابن الأثير مـؤرخ صحفى النزعة ، فهو يشغف بالأخبـار الفاجعة والنكبات الأليمـة ، ويسردها عليك فى عجلة تدور معهـا رأسك ، وقد تـوالى على عـرش بنى العبـاس فى حيـاة البحترى تسعـة خلفـاء هم المعتصم والـواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمـد والمعتضد ، وبعض هؤلاء حكم فوق العـامين الهجريين بقليل ، وأطولهم حكماً المعتصم ، فقد حكم حـوالى إحدى عشرة سنة هجرية ، وقد شـهدت هذه الفترة حادثين سياسيين على أكبر جانب من الخطورة :

الأول : هو استيـلاء الجند التركى على الخلافة وتصرفهم فى الخلفـاء حتى صارت دولة الخلافة كلها بكل ما فيها ومن فيها فريسة بين أيديهم ، يتقاسمونها فيما بينهم .

والثانى : هـو محاولـة الخليفـة المتوكل [٢٣٢ ـــ ٢٤٧ هـــ / ٨٤٧ ـــ ٨٦١ م] القضـاء على سلطان الأتراك والعصف بهم وتحريـر الدولة من سلطانهم ، ولم يكن ذلك شـهامة منه وعزة أو غضباً للعـروبة وأهلها أو لبنى العباس واسمهم ، بل كان طمعاً فى

الأموال التى ظن أنها بأيديهم والخيرات التى كانوا يستمتعون بها ، ولكنه لم يكن رجل هذا الموقف أو القادر على القيام به ، فقد كـان رجلاً سكيراً فاسداً منحط الخلق صاحب نسوان وغلمان وطعام ، وقد دبر مؤامرته أسـوأ تدبير وأقله حزماً وبعد نظر ، وبلغ من سفاهة عقله وانحطاط خلقه أنه فى الليلة التى قتلوه فيها كان قد شرب أربعة عشر رطلاً من النبيذ ـ قل ١٤ زجاجة ! ـ وكان قد أمر أصحـابه بأن ينبهوه إذا هـو شرب سبعة أرطـال أى أكـواب كبيرة ، ويخرجـوا الخدم حتى يستطيع رجـالـه القيـام بالضربـة الحاسمة ؛ فـلا هو تنبه ولا رجـاله نبهوه ، وكـان التعيس مخاصماً ابنه أحمد المنتصر يخافه ويهينه ويعتزم تقديم ابنه المعتـز عليه فى ولاية عهده ، وعرف ذلك المنتصر فاتفق مع الأتراك على قتل أبيه .

وكان المتوكل قد قـرر مع أصحابه ـ وأهمهم وزيره الفتح بن خـاقان ـ أن تكون الوقعة بالأتراك يوم الخميس الخامس من شوال سنة ٢٤٧ هـ .

ومن يقـرأ هذا يظن أن المتـوكل لا بد قد أحكـم أمره وتربـص بجنده ورجالـه قبل الوقعة بأسابيع بل بشهور ، ولكن هذا الأحمق جلس يأكل يوم الثلاثاء بالليل وهو على حال مـن الاستهتار وقصر النظر تـدعو إلى العجب ، وأتـى بابنه المنتصر فجعـل يهينه ويسقيه على رغمـه ويصفعه ، بل بلـغ الأمر به أن طلب إلى وزيـره الفتح بن خـاقان أن يقوم فيصفع ابنه على قفاه ! ثم أعلن خلعـه من ولاية العهد ، قال الطبرى : [٩ / ٢٢٥ وما بعدهـا] فقال المنتصر : يا أمير المؤمنين لو أمـرت بضرب عنقى كان أسهل علىَّ مما تفعله بى ، فقال : اسقوه ! ثم أمر بالعشاء فأحضر ، وذلك فى جوف الليل فخرج المنتصر من عنده ، وأمر بناناً غلام أحمد بن يحيى أن يلحقه ، فلما خرج وضعت المائدة بين يدى المتوكل ، وجعل يأكل ويلقم وهو سكران .

ثم خرج المنتصر [ابن الخليفة] إلى حجرته وقد أحكم أمره مع الأتراك على قتل أبيه الليلـة وهـو على الطعـام سكـران ، فإذا أقبل المتـوكل على الطعـام والشراب قـام كبير المتآمـرين وهو بغا الصغير بإخراج من فى المجلس وأغلق الأبـواب ثم أدخل على المتوكل الرجال الموكلين بقتله وهـم يغلون وبغا وموسى بن بغا وهارون بن صـوراتكين ، وكلهم أتراك ، فضربـه يغلون بالسيف على كتفـه فكسرها وقطع أذنه ، ثم بـدأت المذبحة فقتل الخليفـة ووزيـره ، وذهب القتلـة إلى المنتصر ؛ فهنأوه بالنجـاح والخلافـة ، ففـرح بها

واستبشر وزعم للناس بعد ذلك أن الفتح بن خاقان الوزير قتل أباه فقتله به .. !

هذا الحادث الجلل الرهيب وقع وشاعر العصر البحترى موجود ، وكان شاعر الخليفة والقصر ، فلم يشر إليه ببيت شعر أو كلمة ، ويزعم بعض الناس أنه حضر مشهد القتل ، ولكن ذلك غير صحيح ، ولكن الذى حدث هو أن البحترى استمر فى مديحه ، فمدح الابن القاتل كما كان يمدح الأب القتيل .

وكان البحترى ـ إذ ذاك ـ فى عنفوان صيته وقد جمع مالاً وفيراً وأصبح من الأثرياء ، ولو كان رجل غيره شاعرى النفس والإحساس لزهدته هذه الحادثة فى الدنيا وما فيها ، ولعاد بعد ذلك إلى بلده منبج ـ إلى شرقى حلب ـ وتفرغ فيها لشعره ، ولو أنه كان عربياً عزيز النفس لأغضبه ما حدث ولأسف على ضياع الفرصة فى التخلص من الأتراك الذين أذلوا العرب خاصة ، ولكن البحترى كان عربياً زائفاً وإن كان من طيىء ، وكان غير عزيز النفس ، فلا هو ريع لما حدث ولا غضب له ولا تأثر به ، بل أسرف فى خدمة السادة الجدد واستمر فى مدحهم كأن هذا الشعر لا يخرج من عقله وقلبه بل من جيبه .

وتسأل الآن : ما الذى جعل أولئك الناس على تلك الحالة من موت الضمير وهوان النفس وجحود القلب فلا شىء يحكمهم غير المال والمتعة ؟ .. والبحترى هذا الذى كان يقول شعراً بديعاً هو البلاغة بعينها كان رجلاً متدهورًا منحرفاً حتى لقد اشتهر بغلام له يسمى نسيماً كان لا يفارقه يوماً ، ثم باعه لصاحب له يسمى أبا الفضل بألفى دينار ، ثم تحسر عليه بعد ذلك فجعل يرجو صاحبه أن يرد عليه الغلام ، ثم قال شعراً مخجلا يستعطف أبا الفضل ، فأبى أبو الفضل أن يرد الغلام إلا فى مقابل كل مال البحترى ، فرضى البحترى وكتب على نفسه كتاباً بذلك لشدة ولعه بالغلام ، واسترده فعلاً ، ثم عطف عليه أبو الفضل فأعفاه من وثيقة التنازل عن أملاكه ، ففرح الشاعر بذلك ولم يخجل ، مع أن الرجل وجه إليه كلاماً مهيناً وحذره من هجاء الأحرار وقال : فإن لهم مكايد يضل فيها هجوك ومدحك .. [ابن المعتز : طبقات الشعراء من ٣٩٢ ـ ٣٩٤] .

* * *

والجواب على ذلك هو أن أولئك الشعراء كانوا رغم إتقانهم صنعة الشعر ، بعيدين عن حقيقة الشاعرية وصدق الإلهام ؛ لأن الشاعر الصادق ـ مثله فى ذلك مثل كل صاحب فن أو علم صادق ـ ينبغى أن يخرج من صفوف الناس ويظل متصلاً بهم مشاركًا إياهم الإحساس والعاطفة ، فيكون ما يصدر عنه من صور الفن كالفاكهة الطيبة التى تخرج من أرضها ، وأنت إذا تأملت الفاكهة ، أو ما يخرج من نبات الأرض الطيبة ، لم تجده دائماً حلو المذاق أو أنيق المنظر ، إنما هو طبيعى صادق ، وهذا حسبه ، وهذا هو المنبع الوحيد الصادق للفن الحقيقى : أن يكون صادقاً طبيعياً غير مفتعل ، وهكذا كان الشعر عند الجاهليين ، كان على رغم حوشية ألفاظه أحياناً ، شعراً سليماً صادقاً تقرؤه فتشعر فيه بأن الشاعر صادق مع نفسه صادق مع قومه ، حتى إذا بالغ فى كلامه تجد أن هذه المبالغة جزء مما يريد الشاعر أن يقوله وما يريد قومه أن يسمعوا منه ، وعمرو بن كلثوم لم يكن كاذباً عندما قال :

إذا بلغ الوليد لنا فطاماً تخر له الجبابر ساجدينا

لأن الذى يريد أن يقوله هذا الشاعر هو أنه من قوم أعزة مرهوبين ، وهو إذ يقول ذلك يريد أن يخيف القبائل الأخرى ويردها عن العدوان على قبيلته ، لأنهم كانوا يعيشون فى جزيرة قاسية قليلة الخير . والحياة فيها صراع بقاء ، ولا دولة هناك تحمى ولا قانون مفروض ، إنما كل قبيل يعيش وينجو من الهلاك على قدر قدرته فى الثبات والبقاء ، وللبقاء أسلحته ومنها الشعر الذى يؤكد قوة القبيلة ويرد عنها طمع الطامعين ، والناس كانوا لذلك فى أمن نسبى ، وأنت تقرأ أخبار حرب البسوس التى يقال : إنها استمرت أربعين سنة ، وتحصى القتلى والجرحى فيها فإذا هم لا يزيدون على أصابع اليدين ، ثم يتدخل أحد الحكام أو الحكماء ويصلح ذات البين وتسوى الديات ويسكن الحال ، فاذكر إلى جانب ذلك معركة مرج راهط التى دارت بين الأمويين واليمنيين فى جانب والزبيريين والقيسيين فى جانب آخر ، تجد القتلى ستة آلاف فى يوم واحد ، ويدركك العجب ، ولا داعى للعجب هنا ، فإن حرب البسوس كانت حرباً طبيعية مشروعة للبقاء ، فهى طبيعية فى أسبابها ونوع الحرب فيها ونتائجها . أما مرج راهط فكانت حرباً سياسية ساق إليها الطمع ، فالأمويون فيها طامعون مثل الزبيريين ، وكلاهما كان يتصارع للفوز بسيادة الأمة وانتهاب خيراتها ، ولو أن عبد الله بن الزبير

انتصر فيها لما كان خيراً من الأمويين ، ولما قل ظلمه عن ظلمهم ، وحرب المسلم مع المسلم على السلطان وسيادة الناس حرب ظالمة مهما كانت غايات المتحاربين فيها ، وهذه الأمة ليست غنيمة حتى يتحارب الطامعون على سيادتها ، وصدق رسول الله ﷺ عندما قال فى مثل هذه الحرب : القاتل والمقتول فى النار .

ذلك أن أمتنا هذه قدر الله لها أن تكون أمة حق وأخوة ، والأمر فيها شورى والجدال بالحسنى بل بالتى هى أحسن ، ولا يستعمل السلاح إلا خارج نطاق الأمة فى حرب أعدائها ، ما عدا حالة إقامة القانون وتطبيق الشرع ، ولقد أقام الرسول أمة المدينة وظل فيها عشر سنوات وبضعة أشهر فلم تقم بداخلها فتنة ، وكان المنافقون وأعداء الأمة كثيرين يعرفهم رسول الله ﷺ وأصحابه بأعيانهم .

ولكن الرسول كان يجادلهم بالحسنى ويطيل لهم فى حبال الصبر لعل الله يهديهم . وبهذا يقول القرآن الكريم ، ولقد رفض أكثر من مرة أن يعمد إلى عقاب المنافقين بالقتل وما إليه ، وكان يقول دائماً : إنه لا يريد أن يقال : إن محمداً يقتل أصحابه .

ولقد سار أبو بكر وعمر على طريقة الرسول ، وأكبر دليل على ذلك هى حروب الردة ، فما كان كل من قام على أمة الإسلام فيها مرتداً عن الدين ، بل الذى حدث هو أن الكثيرين رفضوا إخراج الصدقات ظناً منهم أنها إتاوات تؤدى لمحمد ﷺ ومحمد مات فلا صدقات ، ولكن أبا بكر رأى أن إخراج الصدقات وأداء حق الجماعة منها ـ وهو جد قليل ـ رمز على وحدة الأمة ، أى برهان على بقاء الناس داخل الجماعة ، والجماعة لا بد أن تكون متحدة ؛ لأن اتحادها قوة لها . وقوة للإيمان وهو قاعدتها ومحورها ، وإذا نحن قرأنا كتب الرسول ﷺ إلى بعض الرؤساء فى جزيرة العرب وجدناه لا يرى مانعاً من أن ينفرد قوم بناحيتهم يحكمهم من يرضونه من جماعتهم ما داموا باقين بجملتهم داخل أمة الإسلام يدينون بدينها ويطبقون شريعتها ويشاركون فى جهادها فى سبيل نشر الدعوة خارج نطاق الأمة ، وأبو بكر نفسه عندما أرسل الجيوش على من اعتبرهم مرتدين رضى من معظمهم بالعودة إلى الجماعة وإخراج الصدقات وأداء حق الأمة منها والمشاركة بمن استطاعوا فى جيوش الفتوح ، ولم يصر أبو بكر على القضاء إلا على المتنبئين ؛ لأنهم كانوا خارجين فعلاً على الجماعة ودينها ، بل من المتنبئين من رجع عن دعوته وتاب وعاد إلى أمة الإسلام ، فقبل منه أبو بكر ذلك ، مثل طليحة بن خويلد الأسدى الذى أصبح بعد توبته من رجال الفتوح هو وقومه من طيىء وأسد .

وأبو بكر كان خليفة رسول الله ، ولكنه لم يكن ملكاً ولا صاحب سلطان مطلق على الناس ، إنما هـو كان رمـز وحدة الأمـة ، ولهذا فإن ذلك الرجـل العظيم كان يقـود أمة الإسلام برضا منها ، وهـو يقيم فى داره التى هى ملكه قبل الخلافة ولا يرتزق من بيت مال المسلمين إلا أربعة آلاف درهم زادوها له إلى سـتـة آلاف ، وظل الرجل طوال خلافته يلبس رداءه المتواضع ويأكل ما تيسر له من الطعـام دون سيادة ولا سلطان على أحد ، وكانت الأمـة راضية عنه وهو راض عنهـا ، وعلى نفس الطريق سار عمر ، وطـريقته فى تسيير أمور الأمة معروفة ، فهو ليس رئيسـاً إنما هو رئيس مجلس شورى الأمة ، وما تقرره الأمة أقره وما لم تقره تركه ، وعندما استبد بأمره فى مسألة الأرزاق وقسمها عاد عندمـا تبين له أن طريقتـه ليست المثلى عن رأيه . وقرر الـرجوع إلى طريقـة أبى بكر فى التسويـة بين الناس فى الأرزاق دون تفضيل أحد على أحـد ، وكان أبو بكر يقـول : هذا معاش والتسوية فيه أحسن ، وكان يسوى بين الناس جميعاً فى العطاء .

الصحابى الكبير مثل أى فرد من أفراد الجماعة ، والعبد كالحر والأمة كالحرة ، أما عمر فقد جعل الناس مراتب بحسب السابقة فى الإسلام والقرابة من رسول الله ، ثم بدا له أن ذلك ليس بعدل فقال كلمته المشهورة : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لفعلت غير الذى فعلت !

ولكن عمر لم يعـش ليستقبل من أمره ما استـدبر ، وجـاء عثمان والأمة فى بـداية تجربتها وعنفوان قوتها ، والفتوح على قـدم وساق ، وأمة الإسلام تتوسـع فى كل اتجاه ، وشعوب جديدة تـدخل أمة الإسلام بشخصياتها وحضاراتها وتقاليـدها ، تدخل وهى متطلعة إلى عدل الإسـلام ومسـاواته ومكارم أخلاقه ، والعرب الذين يقـومون بالفتوح أنفسهم كـانوا معظمهم جـديدين فى الإسـلام لم يعرفـوا منه إلا الشهـادتين وظواهـر العبـادات ، وجموع تميـم وشيبـان وأسـد وطيىء والأزد واليمن كـانت تتـدفق على المعسكرات وتتجه إلى ميـادين الحروب بحماسة شديدة وتطلع كبير إلى مغـانم الفتوح وخيراتها ، وعمر كان رجـلاً شديد البأس ، يعرف كيف يقبض على زمـام هذه الجموع ويوجهها ، وكـانت له معرفـة بالرجال وكانـت له رهبة فى قلوبهم زادهـا زهده وإيمانه وتفانيه ، فقد كان الرجل يقيم فى المدينة ولكنه بعقله وقلبه كان يعيش مع الأمة المجاهدة الفاتحة .

كان يطلب إلى كل قائد أن يصف له الميدان الـذى يحارب فيه كأنه يراه حتى يكون معه بنفسه وروحــه ، وكان لا يطلب لنفسه شيئاً ولهذا كان عادلاً فى حكمــه كله ، وكان يعرف صحابة رسول الله ويشاورهم ولا يصدر إلا عن رأيهم ؛ لأنه صاحب رسول الله ورأى كيف كان احترام الـرسول للرجـال وأقدار الـرجال ، وكان عمـر يحتاج إلى عشر سنوات أخـرى على الأقل لكى ينظر فى نظـام هذه الأمــة التى تغير شكلها تمامـاً نتيجة للفتوح ، وكان التـوسع سريعاً وغير منتظر ، وكل أمة تدخل جماعة الإســلام بمشاكلها التى تراكمت مع قرون الظلم والاستبداد ، والمشاكل تتطلب حلولاً ، والذى فات عمر هو أن ينظم أمر الشورى ويربط بينها وبين الإدارة ، لأن الإدارة السليمة هى أساس نجاح أى منشــأة ينشئها البشر ، وإدارة أمة الإســـلام كما كانت أيام الرسول ﷺ تقوم على الشورى وإشراك الأمــة كلها فى المسئولية ، وســورة براءة وهى سورة حاسمــة فى هذا الموضوع ، كان لا بـد أن تدرس درساً عميقاً . ومن أهم الحقــائق التى نصت عليها هذه السورة أن المسلمين جميعــاً مسئولون بالتضـــامن عن مصير أمتهم ، وكلهم محاربون مكلفون بــالجهاد ومطالبـون بإنفاق أنفسهم وما ملكت أيمانهم فى سبيل هــذه الأمة ؛ لكى تسعد الأمــة ، ويسعد كل من فيهــا ، فليس فى الإسلام حــاكمون ومحكـومون أو محاربون وغير محاربين ، فالأمة كلها حاكمة أمرها والشورى أساس قوتها وسلامتها والشورى مسألة تحتاج إلى تنظيم وتقنين ، وعمــر كان يستشـير ، ولكنه كان ينبغى أن يقرر من يستشـير وكيف يستشير ، وأظن أن هذا كــان فى ذهن عمر عندما قــال : إنه لو ابتدأ أمره من جديــد لسار على غير النظام الذى سار عليه ، والــدليل على ذلك أنه عندما طعن واقترب من الموت حدد رجال الشورى ورسم لهم كيف يجتمعون ، ولم يدر بخلد عمر أن تكـون مهمة أهل الشـــورى هى مجرد اختيار خليفة جـديد وتسليمــه الأمور ، ولكن الذى كــان فى ذهنه أن هذه الهيئــة تستمر كما هى تشترك مع الخليفــة الجديد فى تدبير الأمور ، فيكون الخليفة رئيس مجلس الشورى ومنفذ قراراته .

وعبـد الرحمن بن عـوف كان مخطئــاً عنـدما تصـور أن مهمة أهل الشـــورى هى اختيار خليفة جديد وإلزامه بــالسير على طريقة عمر ، لأن عمر نفسه كان على وشك أن يغير نظامه كله . والدولة كلها فى شكلها الجديد كانت فى حاجة إلى إعادة تنظيم شاملة ، وقد قضى الرومان ثلاثة قـرون يضعون نظام دولتهم ويناقشون كل شىء فى مجلس

الشيوخ ، وقوة الدولة الرومانية أتت من أن أمورها فى عصور ازدهارها وتوسعها كانت دائماً فى أيدى مجلس الشيوخ وجماعة الفرسان المقاتلين أو الأكوسترى Questri التى كانت تقدم للدولةرجال الحرب والإدارة تحت إشراف مجلس الشيوخ .

شىء شبيه بهذا كنا بحاجة إليه لكى نستطيع تسيير أمور هذه الدولة الواسعة ، والقرآن نفسه ينص على ذلك ، ففى سورة آل عمران مجموعة من الآيات لو قرأناها معاً لوضعنا أيدينا على شخصية أمة الإسلام ووظيفتها وطريقة سياسة أمورها :

﴿ وَاعْتَصِمُوا بحَبْلِ الله جَـمِيعًا ولاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُـرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِـهِ إخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّـنُ الله لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَـهْتَدُونَ ﴾ .

﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلىٰ الْـخَيرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنْكَرِ وَأُولئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ ﴾ .

﴿ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُـوا واخْتَلَفُوا مَنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ البيِّنَاتُ وأولئِكَ لَهُمْ عذابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

[آل عمران : ٣ / ١٠٣ ـ ١٠٥]

فتأمل والله هذه الآيات وإحكام وضعها وترابطها .. تجد فيها حكمة النظام الذى كان ينبغى أن تكون عليه الأمة الإسلامية ، وماذا كان قبلها ، وما الذى يقيم أمرها ويفلح به أهلها ، وما الذى يفسد أمرها ويضيع رسالتها ويجعل أهلها فى عذاب أليم ، وأوجز لك حكمة هذه الآيات فيما يلى :

١ ـ أن المسلمين ينبغى أن يعتصموا بحبل الله جميعاً ولا يتفرقوا .

٢ ـ أن المسلمين ينبغى أن يذكروا أنهم كانوا قبل الإسلام أعداء .

٣ ـ والإسلام جاء فألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخواناً وينبغى أن يظلوا إخواناً .

٤ ـ وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم منها .

٥ ـ والإنقاذ هنا أتى من اعتصام المسلمين جميعاً بحبل الله ، ولا ينبغى أن يتفرقوا أبداً .

٦ ـ وهذه هى حكمة الإسلام الكبرى بيَّنهـا الله لأمة الإسلام لعلها تهتدى وبدونها لا تهتدى .

٧ ـ ولكى يظلـوا فى طريق الفلاح ، فـلا بد أن تكون فيهم جماعة تـدعو إلى الخير ، والخير هو كل ما فيه صلاح الإنسان والجماعة .

وهذه الأمة أى الجماعـــة التى لا بد أن تكون فى أمة الإسـلام عليها أن تأمر بالمعـروف ، والمعروف هـو ما يتفق عليه النـاس ويعترفون بـه من الأخلاق والسلوك والحقوق والواجبات .

وهذه الجماعة نفسها ينبغى أن تنهى عن المنكـر ، والمنكر هو كل ما يتعارض مع قواعد الدين ومكارم الأخلاق ، فهـذا كله منكر ؛ لأن الله سبحانه يستنكره والأمة ـ أمة الله التى تعتصم بحبله ـ تنكـره ولا ترضاه وترفضه جماعة ، لأن الله أمر أهل الأمة بأن يعتصموا بحبل الله جميعاً .

٨ ـ هـذه الأمة أو الجماعة التى تقـوم بهذه الواجبـات فى أمة الإسلام هى وحـدها الجماعة التى تفلح فى الحفـاظ على وحدة الأمة وتسييرها فى الطـريق السوى معتصمة بحبل الله .

٩ ـ ولا ينبغى لأمة الإسلام أن تكون كالذين كـانوا من قبلها ، أولئك الذين تفرقوا واختلفوا من بعد أن جاءتهم البينات .

١٠ ـ وأولئك الذين يتفرقون ويختلفون من بعد ما جاءتهم البينات لهم عذاب أليم فى هذه الدنيا وفى الآخرة .

والله سبحانه عندما يقول : ﴿ وَلْتَكُنْ منكُمْ أمَّةٌ يدعوُنَ إلى الخيْـرِ ﴾ .. فهذا فعل أمر لا بد أن تنفذه الأمة ولا بد أن تنظم طريقة تنفيذه . فقد قال الله سبحانه : ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ . فجاء رسول الله وبيَّـن لنا كيف نقيم الصلاة. وقال الله ﴿ وَلْتَكُنْ منكُم أمةٌ يدعُون إلى الخَيْرِ ويامرُونَ بالمْعرُوفِ وينهَوْنَ عن المنكَرِ ﴾ .. ورسول الله دلنا على طريقـة تنفيذ هـذا الأمر وتطبيقه ، فهـو ﷺ لم يكن حاكماً يأمـر وينهى إنما كان كما وصفه الله فى كتابه العزيز : ﴿ يَا أيُّـهَا النبى إنَّا أرْسَلنَاكَ شَـاهِدًا وَمُبَشِّـراً وَنَذِيرًا * وداعيـاً إلى اللهِ بإذنِهِ وسِـــراجًا مُنِيرًا * وَبَشِّـرِ المؤمنين بِـأَنَّ لَـهُمْ مِنَ اللهِ فَضْـلاً كَـبِيراً ﴾ .

[الأحزاب : ٣٣ / ٤٥ ـ ٤٧]

وهذه هى وظيفة النبى : أنـه شاهد أمته أى نموذجها ومثالها الذى يحتذى به فى خلقه وسلوكه ، ومبشر بأمة الله والخير والإخـاء والمساواة ، ونذير لهم بما يصيبهم من الشر إذا انحرفت الأمة عن طريق الله ورسوله ، وهو داع إلى سبيل الله بإذن الله ، وهو بعد ذلك كله السراج المنير أى النور الذى تسير الأمة على هداه .

ولم يقل الله فى آية واحدة من الآيات : إن هذه الأمة ينبغى أن يكون لها بعد الرسول إمام واحـد أو رئيس واحد يسيِّـر أمـورها كما يشاء ، لأن إمـام هذه الأمة هـو القـرآن الكريم ، وإذا كان هناك إمام للصلاة فهو يؤم الصلاة فحسب . والإمامة بمعنى رياسة الأمة وتسيير أمورها والتحكم فيها أمر لا نجـد له أثرًا فى القرآن أو السنة ، فمن أين أتوا بهذا المعنى ؟ إن الإمـام لا يكون إلا فى شئـون الديـن ومن أهمها الصـلاة ، هكذا كـان إبراهيم عليه السلام إمامًا .

فريـاسـة الـرجل المفرد على هـذه الأمة أيـاً كان وضعـه : خليفة أو إمـامًا أو أميرًا للمؤمنين ليست إسلاميـة بالمعنى الذى أعطيناه إيـاها ، فالإمام إمام الصـلاة وهو يؤم المصلين لينظم أمر صلاة الجماعة . والخليفة هـو خليفة رسول الله فى السير مع الأمة فى طريق الهدايـة الذى بيَّنه القـرآن ووضحته السنـة ـ ورسول الله لم يكن حـاكمًا بأمره حتى يكون خليفته حاكمًا بأمره فى أمة الإسلام . إنما أمورها تدبرها تلك الجماعة التى تدعو إلى الخير وتأمر بالمعـروف وتنهى عن المنكر ، ورسول الله أنشأ هذه الجماعة من خيرة أصحـابه وشـاورهم فى الأمور كلهـا ما عـدا مسـائل الدين وخـاصة العبـادات والأحكام الواضحة الصريحة ، ورسول الله لم يكن أمير المؤمنين . وأمير المؤمنين فى أيامه ـ صلوات الله عليه ـ كان رئيـس أى جماعة تخرج فى مهمة حربية ، وأول أمير للمؤمنين كان عبد الله بن جحش عنـدما أرسله الرسول فى سرية إلى قبـائل جهينة ، وهذه السرية غير معروفـة عند الكثيرين من مـؤرخى السيرة ، ولكن لا نزاع عنـدهم فى أن عبد الله بن جحش كان أول من لقبه الرسول بأمير المؤمنين ، وهـى إمارة تنتهى بنهاية المهمة التى كلف بها الصحـابى ، وكل القادة الـذين وجههم رسول الله ﷺ فى سرايـاه كانـوا أمراء مؤمنين . وليس فى القرآن آية واحدة تقول : إن رسول الله كان أمير المؤمنين .

المسلمون أخطأوا خطأ جـوهريًا عنـدما لقبوا عمـر بأمير المؤمنين ، لأنهم أوجدوا بـذلك صفة غير إسـلامية لخليفـة رسول الله فى تسيير أمـور الأمة بحسب مـا ترتئيـه

الجماعة التى تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر لكى تسير الأمة فى طريق النور ، على هدى من السراج المنير ، وعمر بن الخطاب لم يتأثر باللقب ، ولكن هذا اللقب أصبح أهم شىء عند الخلفاء من بعده .

وكان جديرًا بالفقهاء أن ينظروا فى آيات سورة آل عمران التى ذكرناها ليستخرجوا منها أسس تنظيم جماعة الإسلام ، ولينظروا كيف كون الرسول جماعة الشورى من حوله ، وكيف كان يستشير ، وكيف كان يتخذ القرار على ضوء القرآن وما تقرره الشورى .

هذا كله كان جديرًا بأن يستلفت انتباه أهل الفقه بدلاً من التعلق بالإمامة والمجادلة فيمن يستحقها ومن لا يستحقها ، لأن الإمامة نفسها ثانوية ، أما الأولوية فتكون للشورى وجماعة الذين يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ولا بد أن يكونوا مختارين من بين رجال الأمة مرضيًّا عنهم منها كما رضى رسول الله عن أهل شوراه . ألم يقل عمر بن الخطاب عندما اختار رجال الشورى : إنه اختارهم من بين من توفى رسول الله وهو عنهم راض ؟

ذلك هو أساس البلاء وسبب الانحراف الخطير والانكسار الهائل فى سيرة أمة الإسلام ، لأن الإمامة أو الخلافة بصورتها التى تعارفوا عليها هى — فى الحقيقة — ملك وسلطان مطلق ، ومن هنا بداية الضياع .



عِلْمُ الكَلَامِ .. وَالطَّرِيقُ المسْدُود

القول السائر الذى يجتمع عليه الناس عندنا هو أن الإسلام دين ودولة ، والحقيقة التى انتهينا إليها آخر الفصل السابق هو أن الإسلام دين وأمة ، ولُبَابُ الدين فى الإسلام هو التوحيد ، فإنك إذا آمنت بالله الواحد أمنت الزلل والانحراف فى شئون العقيدة ، فالله الواحد خلقك كما خلق الكون كله ، وإليه ترجع ، فيكون حسابك عن أعمالك على أساس ما بيَّن سبحانه فى القرآن ، والعلاقة بينك وبين الله سبحانه مباشرة ، وأنت إذ تعامل الله أو الناس فعلى أساس ما رسم لك ، وهو مطلع على الأفئدة ، فلا سبيل إلى خداعه أو خداع النفس ، والعبادات كلها طريق إلى الله ، فأنت إذ تصلى وتصوم وتزكى وتحج وتلتزم ما أمرك به أو نهاك عنه فى القرآن ، فإن الطريق بينك وبين الله يظل مفتوحًا ، ويظل العمار بينك وبينه قائماً . . والأمة هى جماعة المسلمين المؤمنين ومن دخل معهم وشاركهم الوطن وعاهدهم ووفى بعهده من أهل الكتاب أى أصحاب الديانات السماوية ، وهذه الأمة صاحبة الرأى فى كل ما يتعلق بمصالحها وحمايتها وأمنها ، وهى تتولى إدارة شئونها عن طريق جماعة تختارهم اختيارًا حرًا على أساس الشورى ، وليس أيسر من تطبيق الشورى إذا كان الإنسان مؤمنًا حقًا يعرف أنه يعامل الله فى كل ما يصدر عنه من تصرف ، وقد سارت أمور الأمة على أيام الرسول ﷺ على أساس الشورى ونجحت ، وعلى نفس الأساس سارت أيام أبى بكر وعمر ، فاطرد نجاح الأمة ، وما دام كل فرد من أفراد الأمة يعامل الله فى كل شىء ، فإن أى حفنة من المسلمين تختارهم الجماعة ترضى عنهم وتثق فيهم وتفوض إليهم الأمر ، يمكن أن تكون هى الأمة التى تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وأى رجل من هذه الجماعة تختاره ليقوم بالتنفيذ فهو رئيس صالح للرياسة ، ما دامت تلك الرياسة محدودة بزمن محسوب يرجع الأمر بعده إلى الأمة ، فإما أذنت له فى الاستمرار .. وإما استبدلت به غيره ، وأبو بكر نفسه قال : إن الأمة ولته أمورها ولها الحق فى محاسبته وتقويمه .

وهذا يقتضى بداهة حق الأمة فى عزله واستبدال غيره به إذا اجتمع رأيها على ذلك . والأمة بطبعها لا تجمع على ضلالة كما قال الرسول ، لأن الله الواحد هو البداية والنهاية فيما يتعلق بأمور الدين والدنيا ، والأمة هى البداية والنهاية فى أمور الدنيا ، وما دام كل

فرد من أفـراد الأمة يعامل الله سبحانه فى كـل معاملاته فهو آمن على أنــه فى جانب الله ، وباستثناء تطبيقات أحكام المعاملات والمواريث والجراحات والدماء فإن الأمر لا يحتاج إلا إلى فقيه عـارف بهذه الأحكام قادر على إصـدار الحكم بمقتضاهـا ، والأمة هى التى تقوم بـالتنفيذ بالوسـائل التى ترضاهـا ، وهناك دائمًا جماعة الخير والأمر بـالمعروف والنهى عن المنكر تتولى عن الأمة أمور التشريع واتخاذ القرار والإشراف على التنفيذ وكل ما يتعلق بالمصالح العامة .

أما فكرة الدولة بمعنى السلطـة الحاكمة التى تملك كل السلطات فهى فى صميمها غير إسلامية ، لأنها تنقل سلطـة الأمة إلى جماعة معينة هى الدولة أى صـاحبة الدور ، وهذه الـدولة تدول أى تزول ، ومـا دامت معرضة للزوال فإن أصحـابها يجتهدون فى القبض على زمـام الأمور للبقـاء فى مناصبهم ، وهـذا فى ذاته يتضمن القهـر والتسلط ، ويؤدى حتمًا إلى وجود طبقة حاكمة وطبقة محكومة ، ورئيس هذه الطبقة الحاكمة مهما سميناه إمامًا أو خليفة أو أميرًا للمؤمنين فهو ملك ، وإذا لم يبدأ ملكًا فسينتهى قطعًا إلى أن يكون ملكًا ، وستنزع به نفسه إلى تـوريث ابنه ملكه وسيضطر إلى استعمال الحيلة والقوة ليصل إلى ذلــك ، وهنا ومـا دام قد تولى أمـر الأمة ملك مستبـد بأمره من دون الناس .. يسير شئونها على هواه ، فقد تلاشت الحكمة من قيام أمة الإسلام ، وأصبحت دولة استبـدادية لا تختلف عن الـدول التى قام الإسلام لإزالتهـا وإعادة الأمـر إلى أمة الإيمان والخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ..

وإذا نحن نظرنـا فيما يسمى بالفكـر السياسى الإسـلامى وجدنـا أنه كلـه يقوم أسـاسًا على فكـرة الإمامـة أو الخلافة ، وهى الملكيـة أو الملك كما رأينا ، وتـركز الفكـر السياسى فيمن يستحقهـا ومن لا يستحقها ، كأن حل المشاكل السياسيـة كلها للعالم الإسلامى يتـوقف على شخص الخليفة وكلهم يحلمـون بما يسمونه المستبـد العادل ، والمستبـد العادل هـذا خـرافة ؛ لأنــه ما دام مستبـدًا فـلا يمكن أن يكون عـادلاً ، لأن الاستبداد هو الانفراد بالأمر أو بـالأمور كلها ، وهنا لابد من الخطأ ، وأين ذلك الإنسان الذى يصيب فى قراراته كلها ؟ . ولا يعرف التاريخ مستبدًا عادلاً واحدًا ، فأما أهل السنة فقد تعلقوا بالمثال البكرى العمرى وهـو لا يتكرر ولا يقلد ، فلكى يتكرر فلابد أن يبعث أبو بكر وعمر مرة أخرى ، وقـرارات أبى بكر وعمر فى ذاتها كانت تصدر عن الشورى ، ولكن الكلمة الأخيرة كانت لأبى بكر ثم عمر ، وأبو بكـر أحرق رجلاً من المرتدين بالنار

وهو أمر لم يفعله رسول الله أبدًا ، بل هـو نهى عن الشناعة والحقد والغل فى العقاب أو القصاص ، ونهى عن المثلة أى التمثيل بجثث المقتولين ، وقـد ندم أبو بكر على ذلك حتى وفاته ، ولكن المهم أنه أحرق رجلاً بالنار ثم ندم ، فجاء بعده من يحرق الرجل والرجال بالنار ثم لا يأسف أو يندم ، وعمر قصر الشـورى على عدد قليل جدًا من الصحابة من القرشيين بينما كان رسول الله ﷺ يستشير الجميع ، وبعض الأنصار وغيرهم من عامة المسلمين ، كانت لهم الآراء الجميلة والبادرات الموفقة والأفضال المذكورة ، والخزاعيون كانـوا من أعاظـم أعوان الرسـول ﷺ حتى لقد رفعهم إلى مـراتب المهاجـرين دون أن يهاجـروا إلى المدينة وبـريدة بن الخصيب الأسلمى الخزاعى كـان علمًا من أعلام أمـة الإسلام أيام الرسـول ، وأبو ذر كان غفاريًا من فرع من كنـانة ولم يكن مضريًا ، فجاء عمـر وأبعد الخزاعيين وكل غير القـرشيين عن الشـورى ، واقرأ معى وصـايته فى أمـر الشورى وهو على فراش الموت ، والكلام هنا عن « الإمامة والسياسة » لابن قتيبة (١ : ٢٢ ـ ٢٣) قال عمر بعـد أن قصر الشورى على الستة المعروفين « وأحضروا معكم من شيوخ الأنصار وليس لهم من أمـركم شىء ، وأحضروا معكم الحسن بن على وعبد الله ابن عباس فـإن لهما فضلاً ، وأرجو لكم البركـة فى حضورهما ، وليس لهما من أمـركم شىء ، ويحضر ابنى عبد الله مستشارًا ليس له من الأمر شىء .. » . والسؤال هنا : لماذا لا يكـون للأنصـار من الأمر شىء ؟ ولماذا تقتصر الشـورى على هذا العـدد القليل من القرشيين دون غيرهم ؟ هل هـى دولـة قريش أو أمـة الإسلام ؟ ولا يشك أحد فى نـزاهة عمر وإخلاصه ، ولكن انظر إلى الذى حدث بعد ذلك ، وما كان عمر يعلم الغيب ، ولكننا نحن أمـة الإسلام نتأمل الحصـاد المر الذى بأيـدينـا ، وننظر فى مأسـاة تاريخ أمتنـا الطويلـة ، ونقول : من أين أتانا هـذا البلاء كله ، وكان المفـروض أن نكون أحسن الأمم نظامًا وتاريخًا ؟ ..

والمشكلة الكبرى أتت من أن المسلمين لم يحلوا مشكلـة الحكم حلاً سليمًا يتفق مع معـانى القرآن ومـا جـرى عليه رسـول الله ﷺ فى قيادة الأمـة من الشـورى الكاملـة والمساواة التامـة بين المسلمين ، مع الإفادة كذلك من تجارب الأمم قبلنـا ، فإن الرومان لهم تجارب نافعـة جدًا فى الحكم ، وهم أول من نقلوا السلطان إلى الأمـة أو الشعب بعد عصر الملوك ، وهم أول من نظموا رياسة الدولة وجعلوها ولاية صادرة من الأمة موقوتة بزمن ، وتقسيم السلطـات بين موظفين مسئولين يختارهم مجلس الشيـوخ ـ لا رئيس

الدولة ــــ واحدًا واحدًا ، ومدة ولايــة كل منهم عامان على الأكثر يعـود بعدهما الأمر إلى مجلس الشيوخ ، حقًا إن ذلك لم يكن نظامًا مثاليًا ، ولكن النظام المثالى ذاته مستحيل ، وهـو حلم ولا يمكن أن يكـون إلا حلمًا ، ومن هنـا فإن الفكـر السيـاسـى لأهل السنـة والجماعة أصبح يدور حول أوهام أو أحلام أو قـل تفسير أحلام . وأما الشيعة فقالوا : إن الأمة لو نصبت علىَّ بن أبى طالب إمامًـا لبلغت السعادة وانحلت مشاكلها . ونقول : على رسلكم ولكن إذا نحن ضمنا صـلاح على بن أبى طالب فكيف نضمن صـلاح أبنائه وأحفاده أجمعين للحكـــم ؟. وعنـــدك كتاب « نسب قريش » للمصعب الزبيرى وكتاب « جمهرة أنساب العـرب » لابن حزم ، واقرأ فيهما أنساب العلـويين فستجد فى أجيالهم الكثير من الفساق والمسيئين ، ولا يعـرف التاريخ أسرة لا تضم الطـالح والصالح ، وفى مسائل السياسة والدهاء والمكر فى تلك العصــور تجد السابق دائمًا هو الطالح والفاسد الذى لا يستحى أو يتورع ، ويشترى ضمائر الناس أو يستذلهم بالقهر والغلب ، فهذه إذن قضيـة خـاسرة منـذ البـدايــة . والفكـر السيـاسـى الشيعى ليس خيرًا من الفكـر السياسـى السنى فى النهـاية ، لأن أهل السنـة والشيعة جميعًـا قالوا بـوجوب الإمـامة المطلقة السلطان المطلق ، وإن اختلفا حـول من يستحقها . والإمامة هى الملك ، والملك لا يطيق الحرية ، ومعنى ذلك أن حُرية الفكر قد تحددت ــــ على درجات متفاوتة ــ من يوم قامت الخلافة والإمامة بعد أبي بكر وعمر ، على النحو الذى كانت عليه فى تاريخنا ، ومن غريب الأمر أن العصر الحديث عندنا ، وهو الـذى يوصف بأنه عصر الحرية والشورى التى نسميها ديموقـراطية ، جاء بعد أن ألغيت الخلافة على يـد مصطفى كمال أتاتورك سنة ١٩٢٢ ، فكأن إلغـاء الخلافة كان شرطًـا لتحرر الفكر ، وهـذا على الأقل هو منطق الواقع الذى كان ويكون ، والواقع أصدق من الخيال على أى حال .

***

ومن أكبر الدلائل على كبرياء من كـانوا يعتبرون أنفسهم الخاصة لأنهم أهل العلم المتميزون عن غيرهم ، أن ابن كثير مثـلاً عندما يتعرض لتفسير هذه الآيـات من سورة عبس ، لا يفطن إلى موقع الحكمـة منها ، بل يمضى يسـوق لنا أقوال علماء مثلـه : قال

الحافظ أبو يعلى فى مسنده ، وقال قتادة ، وقال ابن جرير (يريد الطبرى فى تفسيره) وقال الترمذى (فى صحيحه) وقال ابن أبى حاتم .. وهكذا ، وهؤلاء الذين يذكرهم جميعًا علماء ومحدثون وحفاظ مثله . وهو يعتبر العلم شيئًا خاصًا به وبأمثاله ممن كانوا يرون أنهم صفوة الله من خلقه ، وما كانوا بصفوة ، وإنما هم أوعية امتلأت بالمحفوظ المتوارث ، وكلهم ينقلون بعضهم عن بعض ، وعلمهم فيه حفظ كثير ولكن ليس فيه إلا تفكير قليل . وكلهم متعالون على الناس جدًّا يرون أن مكانهم إما أن يكون فى بلاط السلاطين والخلفاء وإما فى وظائف الدولة وإما فى أوساط العلماء أمثالهم . أما أن يتنازل واحد منهم ويضع نفسه حيث يكون الناس فمن النادر .

والنتيجة أن معظم الأمة لم تفد الكثير من علم أولئك الناس ، وازداد جهل العوام بترفع العلماء عنهم ومباعدتهم إياهم ،بل كانت كبرياء العلماء على من كانوا يرونهم من العامة مهينة لكل حس إنسانى ، واقرأ مثلاً كلام الجبرتى عن ثورة « العوام والحرافيش » كما يقول فى كلامه عن الذين ثاروا على الفرنسيين فى أكتوبر ١٧٩٨ وقتلوا حاكم القاهرة الفرنسى ، فإن الجبرتى يستنكر هذا العمل لأنه صدر عن العوام ، والعوام فى رأيه لا يحق لهم التدخل فى شئون السياسة والحكم ، فهذه من شأن العلماء والخاصة ، ومثل هذا الموقف وقفه الشيخ محمد عبده من الزعيم العظيم أحمد عرابى ، فقد كان عرابى فى نظر محمد عبده رجلاً جاهلاً تطلع إلى الحكم وليس هو له بأهل ، وهذا هو كلام محمد عبده على اتساع ذهنه ومعرفته بأحوال الدنيا ، ولكنها بقية من كبرياء أهل العلم من سلفنا الصالح ، لم يستطع الإمام محمد عبده أن يتخلص منها ، وكان الواحد من أهل العلم يبدأ حياته فقيراً معدمًا ، ويتعلم على نفقة الأمة ، ويعظم مركزه فيتعالى على الناس ، وإذا كان كريم الخلق وظل متواضعًا اعتبر الناس ذلك منه مكرمة أو كرامة ، فتجدهم يقولون لك فى كتب التراجم : إن فلانًا الفقيه كان لا يستحى أن يحمل خبزه بيده ، وهم ينسون أن رسول الله كان يكنس بيته بمكنسة فى يده ، ولا يرى فى ذلك تواضعًا ، وإنما هو خلق الرجل المسلم : يخدم نفسه بنفسه ولا حاجة به إلى أن يتخذ إنسانًا مثله خادمًا له يقف نفسه على خدمته .

ومهما تقرأ فى تاريخ الفكر العربى فإنك لا تجد إلا ناسًا مترفعين متعالين يحسبون أنهم يحلقون فى سماوات العلم مثل المعتزلة ، وواصل بن عطاء وأبو الهذيل العلاف وإبراهيم النظام والقاضى عبد الجبار ومن إليهم ، يحسبون أنهم ـ من ناحية الفكر لا

الحياة - صفوة رفيعة تتكلم فى مسائل لا يفهمها غيرهم ، ولهذا فإن القضايا التى تناولوها وجعلوها مادة فكرهم قضايا افتراضية لا تنفع الإنسان فى شىء ، وكلامهم فى التوحيد لم يزد الناس إيمانًا ، ولا هو بيَّن لنا ميزة التوحيد ، أى أنك إذا سألت نفسك : إن المسيحى يعبد الله سبحانه وكذلك اليهودى وكلاهما موحد ، فبماذا يمتاز المسلم عليهما فى توحيده ؟ إذا مضيت تبحث عن جواب لهذا السؤال فى كلام المعتزلة عن التوحيد ، فما أنت بواجده أصلاً وهل ينكر إنسان أن المسيحى العارف بدينه موحد وكذلك اليهودى ؟ فأين الامتياز ؟ وهناك فعلاً اختلاف بين توحيد المسلم وتوحيد غيره ، ولكن هذا الاختلاف لا تجده عند المعتزلة . وإنما تجد جوانب منه عند الشهرستانى وابن حزم الذى كان يبطل الاعتزال وينكرُ أصله . حقًّا إن المعتزلة يجتهدون فى تنزيه الذات الإلهية تنزيهًا يحسبون أنهم قد وصلوا به إلى ذروة العلم ، مع أنك لو سألت أبسط المسلمين عن التوحيد لوجدته يفهمه ويطبقه دون تكلف أو افتعال . ومَنْ مِنَ المسلمين يتطرق إلى نفسه شك فى وحدانية الله وتفرده ؟ ومن منهم يخلط بين الله سبحانه وصفاته ؟ ومن فى الناس لا يفهم أن الله كريم كرمًا إلهيًّا لا يشبه كرم الناس ، وأنه عليم علمًا إلهيًا لا يشبه علم الناس ، وأننا إذا قرأنا أن يد الله فوق أيديهم فإن المراد بيد الله سبحانه شىء غير أيدينا هذه ذات الكف والأصابع ؟

ومثل ذلك مناقشة المعتزلة لمسألة قدرة الله ، وهل هو سبحانه قادر على الظلم ؟ والجواب بالنسبة للعوام - أمثالنا ممن هم ليسوا بمتكلمين - أن الله سبحانه لا يظلم الناس بنص القرآن ، فهو ليس بظلام للعبيد ، وما دام هذا فى القرآن ففيم السؤال ؟ هل يريدون : هل الله يسلط الظالمين من الناس على غيرهم ، فيكون هو الذى فعل الظلم ؟ .. وجوابنا على مثل هذا السؤال : أن الله منحنا العقل وجعلنا لهذا مسئولين عما يصدر عنا ، واقرأ الآيات التالية من سورة البقرة وحدها تجد الجواب .. ﴿ **واتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فيه إلى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** ﴾ آية ٢٨١ .

﴿ **لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْسًا إلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ** ﴾ جزء الآية ٢٨٦

وفى سورة آل عمران نقرأ :

﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ** ﴾ آية ٢٥

وفى سورة المدثر نقرأ هذه الآية البليغة المعنى :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ آية ٣٨

فهل فَكَّرَ هؤلاء السادة فى المعانى البعيدة التى تكمن وراء هذه الآية ؟ وهل سألوا أنفسهم : كيف تكون النفس رهينة بما كسبت ؟ ..

فالسؤال الذى وضعوه بشأن قدرة الله على الإتيان بالظلم سؤال لا معنى له بالنسبة للمسلم العادى ، وهو الذى يفهم الإسلام فى مجموعه ، ولا يأخذه مقطعًا مقسمًا كما هى عادة هذا الطراز من مفكرى المسلمين .

وقضية كلام الله وخلق القرآن .. أليست قضية مفتعلة لا ينبغى أن توجد بالنسبة لمسلم يفهم الإسلام ؟ فإن الله سبحانه يتكلم بأبلغ بيان ، لا فى القرآن وحده بل فى الخلق كله ، وأنت إذا تأملت الكون وما فيه تشعر كأن هذا الخلق كله بآياته وعجائبه كتاب مفتوح تقرأ فيه كيف تشاء ، وكلام الله تحس به بنفسك أنه لا يمكن أن يكون شبيهاً بكلامنا ولا يمكن أن يكون حروفًا أو كلمات تكتب ، ولكننا نحن كتبناها فى الصحف وجعلناها حروفًا مكتوبة محافظة عليها من الضياع حتى يظل كتاب الله الذى أوحى إلى محمد ـ صلوات الله عليه ـ ثابتًا بين أيدينا بلفظه وحرفه ويظل معجزة متجددة .

وهنا لا معنى للسؤال عن كلام الله وهل هو قديم أو مخلوق ؛ ولكن أصحابنا المعتزلة جعلوها قضيتهم الكبرى ، وما زالوا يطرحون الأسئلة المفتعلة ويحاولون الإجابة عنها ، حتى جعلوها قضية سياسية بل زلزالاً فكريًا امتحنت به الأمة كلها على غير طائل ، وانتهت محنة خلق القرآن فى أيام الخليفة المتوكل ، واختفت من حياة المسلمين كأنها لم توجد أصلاً .

* * *

وهذا هو الذى يعنينا هنا : أن مفكرى الإسلام لم يعالجوا المسائل التى تهم الناس علاجًا حقيقيًا ، وصرفوا جهدهم إلى ما لا يهم غالبية الناس فى حياتهم ، فلم يقم واحد منهم بإثارة موضوع مثل : حقوق الإنسان أو حرية الإنسان أو قيمة الإنسان ، ولو أثاروا أمثال هذه المسائل لدفع الكثيرون منهم حياتهم ثمنًا للإجابة المفيدة عن هذه الأسئلة ، ولكان للمتكلمين وأصحاب الكلام دور حقيقى فى حياة أمة الإسلام لأن شهداء الفكر هم الذين بنوا صرح الحضارة .

ولكن هذا هو الذى كان : اشتغل أهل الفكر والعلم بمسألة بعيدة عن صلب رسالة الإسلام ، وباعدوا بين أنفسهم والناس مع شدة حاجة الناس إليهم ، فما كان أبو الهذيل العلاف أو بشر بن المعتمر أو إبراهيم بن سيار النظام بأصحاب ملكات يستهان بها ، وإنك لتقرأ كلامهم وتعجب به ، ولكنك فى نفس الوقت تحس أنك معهم تمضغ لبانًا لا يتحصل منه شىء ، فهو مجرد كلام . كلام جميل ذكى بليغ ولكنه كلام . كلام بين ناس مترفعين متعالين يتصورون أن القرآن نزل على محمد صلوات الله عليه ليبلغه إليهم وحدهم من دون الناس كافة ، وهم ــ بارك الله فيهم ــ الأحبار الأجلاء الذين يحلون المشاكل ، أو قل يزيدونها تعقيدًا .

لقد ابتعدوا عن الناس وترفعوا عنهم ، فلم يجد الناس من يعلمهم أو ينير لهم الطريق ، والواجب الأول لصاحب العلم هو أن يسعى بعلمه إلى الناس ، ويتصل بهم وينظر فى مشاكلهم ليحلها معهم على أساس العلم والفهم . أما علماؤنا والمتكلمون خاصة فقد باعدوا الناس واحتقروهم واشتغلوا بمسائل فكرية لا تعنى أحدًا غيرهم . فكأنهم وقفوا بعلمهم فى طريق مسدود ؛ لأن العلم لا يكون ذا قيمة إلا إذا وصل إلى الناس وانتفع به الناس ، وما قيمة مصباح وضع فى غرفة مقفلة ؟ . واقرأ معى هنا قول الدكتور توفيق الطويل فى كتابه القيم عن أسس الفلسفة : ويقول (ديكارت) فى كتاب مبادىء الفلسفة (ص ١٢٥) : « إن غرض الفلسفة هداية سلوك الإنسان فى حياته والمحافظة على صحته ، وكشف الفنون . أى أن غاية الفلسفة ليست مجرد العلم ـ كما ذهب أرسطو ومن تابعه ـ بل غايتها تحقيق رفاهية البشر وسعادتهم ، وكمال العلم إنما يكون باتصاله بالحياة العملية حتى يسود الإنسان الطبيعة ويهيمن عليها . ولا يكون كمال العلم بدنوه من النظر العقلى المحض وابتعاده عن المنفعة العلمية .. كما ظن أرسطو من قبل » .

* * *

مَوْقِفُ المُعْتَزِلَة ..
مِنْ قَضَايَا الإِسْلَامِ !

أخشى أن يحسب القارىء ـ بعد الذى قلت عن المعتزلة ـ أننى أقلل من شأنهم أو أجهل أقدارهم ، هذا يكون خطأ جسيمًا فى حق طائفة من مفكرى الإسلام قل أن نجد لها نظيرًا فى العلم أو الذكاء والموهبة الأدبية وسلامة الخلق وصدق الإيمان والجد فى الحياة والعمل . فقد كان شيوخ الاعتزال على أعلى مستوى فى هذه النواحى كلها . ولكن الذى يؤخذ عليهم أنهم استخدموا ذكاءهم كله وعلمهم كله فى قضايا موهومة أحيانًا وغير مجدية بالنسبة للإسلام أحيانًا أخرى . فأنفقوا ما وهبهم الله من المزايا .. والخلال فى غير طائل .. وعندما نقرأ أن أبا الهذيل العلاف امتلأت حياته بالمناظرة والجدل مع الزنادقة والشكاك والمجوس والثنوية وأنه أسلم على يده أكثر من ثلاثة آلاف رجل (أحمد أمين . ضحى الإسلام ٣ / ٩٩) نتصور أن عالم الإسلام قد تحول إلى عالم كفار وزنادقة وملحدين . وأن الإسلام نفسه لم يفعل شيئًا لهداية الناس ، وأنه لولا المعتزلة لضاع أمر الإسلام وليس شىء من ذلك بصحيح . لأن عالم الإسلام كان ـ ولا يزال ـ فى مجموعه عالمًا سليمًا من ناحية الإيمان والاعتقاد .

والإسلام نفسه عقيدة واضحة بينة لا يدخلها الشك الكثير . فهى قائمة على كتاب صادق مروى محفوظ بالتواتر ، وكلامه ناصع سواء فيما يتصل بقدرة الخالق أو وحدانيته . وقضايا التوحيد والعدل والرأى فى مرتكب الكبيرة قضايا خلقوها هم أنفسهم وغرقوا فيها ونحن لا نفهم قول الخياط المعتزلى : إن إبراهيم النظام وأشباهه حاطوا التوحيد ونشروه وذبوا عنه وشغلوا أنفسهم بجوابات الملحدين ووضع الكتب عليهم إذ شغل أهل الدنيا بلذاتها وجمع حطامها ؛ لأننا نعرف أن العقيدة كانت مستقرة فى قلوب جماهير المسلمين قبل المعتزلة وأيام المعتزلة وبعدهم . أما إنه كان هناك ملحدون وشكاكون فلا نزاع فى ذلك لأن هؤلاء موجودون فى كل زمان ومكان والرد عليهم لا يكون بالجدل معهم ؛ لأن الجدل فى أمور العقائد عقيم لا يؤدى إلى نتيجة ، والملحد المكابر لا يزيده الجدل إلا لجاجة . وفى القرآن آيات يكفى أن تتلوها على الإنسان لترى إن كان فى هداه أمل . فإذا كابر بعد ذلك فلا ينفع معه كلام . وخير لك أن تتركه

على حاله والله سبحانه يهديه أو لا يهديه كيف شاء واقرأ قوله تعالى فى سورة الغاشية :

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وإلى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وإلى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ * فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ * إلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ * إن إلينا إيابهم * ثم إن علينا حسابهم ﴾ . (الغاشية ٨٨/ ١٧ ـ ٢٦) .

فبعد هذه الآيات التى هى فى ذاتها أبلغ الحجج والبراهين ـ ماذا يستطيع محمد بن الهذيل العلاف أو إبراهيم بن سيار النظام ؟ لقد كان كلا الرجلين من أوسع أهل الأرض علمًا وأذكاهم وأبلغهم بيانًا ولكنهما ـ وبقية المعتزلة ـ أنفقوا علمهم كله وذكاءهم كله فى مجادلات هى أشبه بالرياضات الذهنية أو ألعاب شطرنج ذهنية . لقد جاءوا ومضوا دون أن يخلفوا لنا شيئًا له قيمة عملية وذلك هو ما يبعث فى النفس الأسى : أن يرزقنا الله الإسلام فلا نعرف قدر الإسلام ، ويعطينا الأرض فلا نعرف كيف نحافظ على الأرض ، ويمنحنا الذكاء فننفقه فى الهباء ، وفى أيامنا هذه مثلاً يرزقنا ثروة لا نظير لها على الأرض : ثروة النفط فلا نجد ما ننفقها فيه إلا أن يحرق بعضنا به بعضًا ..

وقد اغتروا بذكائهم فصاروا كأنهم يتحلَّوْنَ به كأنه زينة وأولعوا بحب الظهور حتى إن بشر بن المعتمر شيخ معتزلة بغداد رمى أبا الهذيل بالنفاق وحب الظهور ، وقال فيه تلك الكلمة القاسية التى يرويها أحمد أمين فى ضحى الإسلام (٣/ ١٠٠) ، وملخصها أن الرجل كان يفضل المظهر وثناء الناس وإعجابهم به على العلم الحقيقى والصدق فى القول ..

وإبراهيم بن سيار النظام كان ذهنًا صافيًا وبحرًا من العلم بلا شك ولكنه كان يحلو له أن يأتيك بالقضية فيؤيد صدقها بكلام بليغ ثم ينقضها بكلام أبلغ . وهذا فيما نرى أمر لا يليق بصاحب الفكر الصادق ..

وكان أبو موسى عيسى بن صبيح المردار ـ وهو من أئمة مدرسة الاعتزال فى بغداد ـ رجلاً صالحًا زاهدًا فى الدنيا حتى لقب براهب المعتزلة ، وعندما حضرته الوفاة أوصى ألا يرث أحد من قرابته تركته وطلب أن تفرق كلها فى المساكين وقال فى ذلك كلمة جميلة جدًا مفادها أن هذا المال كله كان للفقراء وأنه خانهم فيه ولم يزل ينتفع به طول

حياته فهم أولى به بعد مماته (الانتصار للخياط ٦٩) ولكن هذا الرجل الصالح كان يكفر الناس أجمعين فمن قال : إن الله يرى بالإبصار فهو كافر ومن سها عن عبادة كافر ومن أخذ من السلطان أدنى شيء كافر ، حتى سأله رجل يسمى إبراهيم بن السندى مرة عن أهل الأرض جميعًا فأكفرهم فقال له إبراهيم : هل الجنة التى عرضها كعرض السماوات والأرض لا يدخلها إلا أنت وثلاثة وافقوك ؟ ولعل هذا الرجل كان من آثار بدعة القول بخلق القرآن فى بغداد . وذهب به الغرور بنفسه أن قال ـ فيما يحكى الشهرستانى فى الملل والنحل ـ إن الناس قادرون على مثل القرآن فصاحة وبلاغة ونظمًا وإن إعجاز القرآن يكمن فى معانيه وإخباره بالمغيبات . وهذا كلام رجل لا يملك أدنى إحساس بالقرآن الكريم .

أما ثمامة بن الأشرس فقد استعمل علمه فى إمتاع الخلفاء بالكلام الجميل والنوادر اللطيفة . وكان ـ كما يقول الشهرستانى ـ خليع النفس . وعندما تقرأ بعض كلامه تحس أنك أمام مشعبذ مغرور . وقد أفاد من ذكائه وعلمه مالاً كثيرًا ولم ينفع الناس بشىء وعندما نصل إلى أحمد بن أبى دواد نجد أنفسنا أمام شيخ علامة واسع الذكاء حسن التصرف فى القول ، ولكنه خان قضية الفكر كلها عندما أصبح من رجال السلطة وأدواتها وعندما أصبح قاضيًا لبغداد ـ وهى وظيفة تشبه وزير العدل فى أيامنا ـ استعمل جاهه كله فى السطو بالفكر وأهله وامتحن الفقهاء وأهل الديانة بالقول بخلق القرآن واستحل ضرب الناس وعذابهم وتشريدهم وحرمانهم من وظائفهم ؛ لأنهم خالفوه فى الرأى وظل ثمانية وعشرين عامًا سوط عذاب مسلطًا على الناس حتى أصيب بالفالج سنة ٢٣٢ هـ / فى أول خلافة المتوكل فتنفس الناس الصعداء ..

هذا إلى ما عرف عن المعتزلة جميعًا من التعالى على الناس ونظرتهم إلى العمال والزراع وبقية أهل الحرف والأسواق على أنهم رعاع جهلة لا ينبغى أن يكون لهم أى نصيب من عقل أو فكر ؛ لأنهم فى نظرهم أشبه بالأنعام ، وهذا الموقف من جانب المعتزلة جعل معظم كلامهم هباء لا يتحصل من ورائه شىء . وقد أبغض المعتزلة الفقهاء واتهموهم بالتقليدية والجمود والتسليم المطلق دون إعمال فكر ، ولكن الفقهاء كانوا على أى حال أكثر فائدة للأمة من المعتزلة فقد عاشوا بين الناس ونصحوهم وخدموهم ونفعوهم وطبقوا فى معاملاتهم أحكام الشريعة ، وتلك خدمة جليلة لا ينازع فيها إنسان .

وما دام المعتزلة قد زعموا أنهم أهل الفكر الرفيع والفهم الصادق فلنحاسبهم على هذا الأساس ونسأل : هل فهم المعتزلة حقيقة الإسلام وأدركوا لماذا أرسل الله محمدًا ﷺ بالقرآن ؟

نقف هنا هنيهة ونسأل : هل كان فى تقدير الله سبحانه عندما أرسل محمدًا ﷺ بالقرآن أن يزيد عدد الأنبياء واحدًا وعدد الأديان واحدًا ؟ ولماذا جعل الله محمدًا خاتم النبيين والقرآن آخر كلام الله للبشر ولا رسالة بعده ؟ إن لدينا فى القرآن آيات من سورة القصص تجيب عن هذه الأسئلة وتشرح لنا حكمة الله فى ذلك . قال جل وعلا : ﴿ **إن فِرْعَوْنَ عَلاَ فِى الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهم وَيَسْتَحْيِى نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَّمُنَّ عَلَىَ الذين اسْتُضْعِفُوا فى الأرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ونجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنمَكِّنَ لَهُمْ فِى الْأَرضِ وَنُرِىَ فرْعَوْنَ وَهَامَانَ وجنودَهُمَا مِنْهُمْ ما كَانُوا يَحْذَرُون** ﴾ .

[القصص٢٨ / ٤ ـ ٦] .

هذه الآيات الكريمة تجيب عن الأسئلة التى لم تخطر ببال أحد من هؤلاء النوابغ : لماذا أرسل الله محمدًا ﷺ بالقرآن ؟ لكى يهدى الناس إلى الصراط المستقيم ! ولكن الدنيا إذ ذاك كانت حافلة بالمسيحيين ، وكثيرون جدًّا منهم كانوا ناسًا أتقياء يسيرون على الصراط المستقيم ، والقرآن نفسه يقرر ذلك ويقول فى سورة المائدة (٥ / ٨٤ ـ ٨٥) : إنهم أقرب مودة للذين آمنوا لأن فيهم قسيسين ورهبانًا وهم لا يستكبرون بل كان الكثيرون منهم تفيض أعينهم بالدمع إذا سمعوا القرآن وعرفوا أنه الحق . ﴿ **يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ** ﴾ . والكثيرون منهم آمنوا لأنهم رأوا أن القرآن يصدق ما كان بين أيديهم .. إذن فلو أن الله أراد بالرسالة المحمدية مجرد تصحيح مسار الأديان السماوية السابقة على الإسلام وهداية أهلها وإعادتهم إلى الطريق القويم لما كانت هناك حاجة إلى نبى جديد ودين جديد .

لا بد أن هناك حكمة أخرى هى فى رأينا التى تراها فى هذه الآيات . إنها تبدأ بالتنبيه إلى ما فعل فرعون بالناس ، لا يمكن أن يكون المراد هنا فرعونًا معينًا أو فرعون ملك مصر وحده ؛ لأن الله يجمع فى سياق الآيات بينه وبين هامان وجنودهما . وهامان كما نعرف لم يكن وزير فرعون . بل كان وزير ملك بابل أو هو ملك بابل نفسه ،

وجنـودهما يراد بهم كل المستبـدين الذين بطشـوا بـالناس وأنـزلوا بهم المظـالم التى تذكرهـا الآية وكلها من خصائص الحكـام فى العصور القديمة : الاستبـداد بالضعفاء وجعل النـاس شيعًـا أى طبقـات وإنزال المذابح بـالمستضعفين . إذن فـالمراد هنـا هى العصور القديمة وسادتها من المستبدين والملوك والعسكريين ..

وماذا يريد الله سبحانه إذن بالقرآن والإسلام ؟ اقرأ قوله :

﴿ ونُـرِيدُ أنْ نَمُنَّ على الـذِينَ اسْتُضعِفُوا فى الأرضِ ونجعَلهُم ائمـةً ونجعَلهُمُ الوارِثينَ وَنمكِّنَ لهُمْ فى الأرضِ ﴾ .. الآية .

إذن فتلك هى الحكمة فى بعث الله سبحـانه محمدًا بالقرآن والإسـلام . الحكمة هى إنهاء عصر من عصور التاريخ وبداية عصر جديد .

نهاية عصر الطغـاة والمستبدين والظالمين الـذين ظلموا النـاس وأفسدوا فى الأرض طوال العصور القديمة .

وبـدايـة عصر الـذين كانـوا مستضعفين فى الأرض . أولئك سيكـونـون الأئـمة والوارثين ، ومن هم أولئك المستضعفون فى الأرض ؟

كل الذين كـانوا يعملـون فى عمران الأرض : العمال والحرفيون والـزراع والتجار وأهل العلم وكل بناة الحضارة الحقيقية للإنسان .

هنا ـ وعلى ضوء التاريخ العالمى ـ تتجلى لنا رسالة الإسلام .

والبعثة المحمديـة ونور القرآن فاصلان فى تـاريخ البشر . إنهما بداية عصر العمل والعمران والخير . والقرآن الكريم أعطانا مفاتيح ذلك كله : الإيمان بالله وحده بلا شريك أو وسيط حتى لا يـزعم إنســان أنـه إلـه ، أو نصف إله أو إنســان رفعـه الله وأحظـاه بالقداسة ليصير وسيطًا بين الله والناس .

إنها بشـارة بعصر العمل الصـــالح ، والقـرآن ينص مـرة بعـد أخـرى على العمل الصــالح . العمل الصالح هـو مـا ينفع الناس ، لأن الله سبحـانـه لا يفيد من أعمالنـا . والعبـادات على رأس الصـالحات ولكنها ليست غـايـات فى ذاتها . وأنت لا تصلى ؛ لأن الصــلاة دين عليك لله أو ثمـن لما ستنـالـه فى الآخـرة ، بل هـى سبيل لتصفيـة النفس الإنسانية وحمايتها من الوقوع فيما يضرها : ﴿ اتل مَا أُوحِيَ إليْـكَ مِنَ الكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إنَّ الصَّـلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَـاءِ وَالْـمُنْكَرِ وَلَـذِكْـرُ الله أَكْبر والله يَعْلَمُ مَـا

تَصْنَعُونَ ﴾ (العنكبوت ٢٩/ ٤٥) هنا نرى حكمة الصلاة : إنها تنهى عن الفحشاء والمنكر . إن وقوفك بين يدى الله سبحانه خمس مرات فى اليوم جدير بأن يشعرك بقدرك ومسئوليتك أمام الله وحده ، وهذا فى ذاته يعصمك من التردى فى أى خطأ فاحش منكر .

والقرآن يجمع دائمًا بين إقام الصلاة وإيتاء الزكاة . والصلاة واجبك نحو نفسك ونحو خالقك ، والزكاة واجبك نحو أخيك المؤمن وخالقك . والإنسان لا يتزكى إلا إذا كان لديه مال ، ولا يكون لديه مال إلا إذا عمل وكسب المال والعمل مفتاح الخيرات كلها . والعمل الصالح هو كل عمل يؤدى إلى صلاح النفس وصلاح الأرض وعمرانها . والله سبحانه وتعالى أورثنا الأرض لنعمرها بالعمل الصالح . واسأل نفسك . : ما معنى قولنا : إنسان صالح : صالح لماذا ؟ وفى سورة مريم آية تربط بين إقام الصلاة والضياع فى الشهوات : **﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ واتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿ إلا من تَابَ وآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ، فأولئك يَدْخُلُون الجَنَّة ولا يظلمون شيئًا ﴾** . (مريم ١٩/ ٥٩ ، ٦٠) .

واقرأ الآيات التالية من سورة الحج وتدبر معانيها وربطها بين الصلاة والقوة فى الأرض والمعروف والمنكر : **﴿ الذين إن مَكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وآتَوا الزَّكَاةَ وأمروا بالمعرُوفِ وَنَهَوْا عَن المنْكَرِ ولله عَاقِبَةُ الأمُورِ ﴾** (الحج ٢٢ / ٤١) .

وحسبنا هذه الآيات البينات ، فليس هذا بحثًا فى فضائل الإسلام ، إنما هو بحث عن رسالة الإسلام . لماذا أهدانا الله إياه وهدانا إليه . والنظرة التاريخية للإسلام وحكمته تؤكد ما قلناه من أن الله بعث محمدًا بالإسلام ليختم به عصرًا من عصور الإنسانية ويبدأ به عصرًا جديدًا . وهو نذير بنهاية عصر الظلم والاستبداد بالعاملين المصلحين للأرض وإذلالهم على أيدى الطغاة والظالمين من ملوك مستبدين ورمزهم فرعون ووزراء مفسدين ورمزهم هامان وعسكريات ظالمة طاغية باغية ورمزهم جنود فرعون وهامان .

مكان ذلك كله يريد الله أن يمن على المستضعفين فى الأرض ويجعلهم الأئمة ويجعلهم الوارثين .

ورسول الله ﷺ أقام أمة العدل دون حكومة ؛ لأن الحاكم هو الشرع ، ودون جيش لأن الجيش هو الأمة و الأمة هى الجيش ، ودون شرطة لأن الشرطة الحقيقية هى القلب

أى الضمير . والأمور كلهـا تساس بالشورى . ورســول الله أمره كله شــورى فى كل ما يتصل بشئــون الـدنيــا والمعاش . رســول الله ضرب المثل ورسم الطـريق وفيـه ســار الشيخان من بعده فنجحت أمة الإسلام نجاحًـا لم تسبق إليه ، والله سبحانه أمرنا بأن تكون منــا أمة تدعو إلى الخير وتأمـر بالمعروف وتنهى عن المنكـر . وتلك الأمة هى أهل الشورى . وأهل الشــورى بالاختيــار. والبداية فى بيعــة العقبة الثانيــة وهى بدايــة أمة الإســلام ، فإن الرســول قال لمن بــايعــوه فى العقبة : أخــرجوا لى اثنى عشر نقيبًــا . أى انتخبوا من بينكم فئة ترضون عنهم لتكــون معى أهل شورى . وعندما نزل رسول الله فى قباء قضــى أيامًــا يشاور الناس ويبــادلهم الرأى وتلك هــى بدايــة عصر الشورى . والصحيفة التى كتبهــا الرســول بين المسلمين والمؤمنين من المهاجــرين والأنصار ومن لحق بهم وجاهــد معهم لم تكن إملاء منه بل كــانت ثمرة أخذ وعطــاء وتبادل رأى فيما يرضى به الناس فى إطار القرآن . الصحيفة هى ميثاق الأمة ، وأساس تطبيق الميثاق هو البر ، والبر هو الوفاء .

* * *

تلك القضية ، قضية حكمــة الله سبحانه فى إرسال محمد بــالإسلام كان ينبغى أن تكون على رأس القضايا التى تشغل بال المعتزلة إذا كانوا يريدون فعلاً أن ينفعوا الناس بفكرهم وعلمهم ، لأن العلم والفكـر ـ مثلهما فى ذلك مثل أى وجه آخر من وجـوه نشاط الناس ـ ينبع من حاجات الأمــة ويصب فى الأمة ليسد تلك الحاجات. وكل شىء لا ينبع من حاجة أساسية من حاجات الأمة ولا يسد حاجة من حاجاتها فهباء لا يتحصل منه شىء أو هو ضار . وخذ مثــلاً لذلك القمح فهو نابع من حاجــة الناس إلى الطعام ، وهو يسد حــاجة الناس من الطعام وإذن فهـو خير .وقارن بذلك الـدخان أو التبغ ، فإن الله خلقه نباتًــا من نبات الأرض لحكمة أرادها فنجىء نحن نحرقــه ونستنشق دخانه ، ثم نجعلــه صناعــة تنبع من غير حاجــة وتصب فى غير حاجــة إذن فالاشتغـال بزراعتــه وصناعته وتجارته واستخدامه على هذا الوجه شر . كذلك الفكر والعلم أهدانا الله إياهما لنستخدمهما فى عــلاج موضــوعات نــابعة من حــاجة الأمــة وتصب فى حاجــات الأمة . فيجىء أصحابنــا المعتزلة ليستخـدموا ذكاءهم وعلمهم وبــلاغتهم فى قضايا لا حــاجة للأمة بها ، ومن هنا كــان الكلام فيها لا ينفع الأمة . ولا يسد حاجــة من حاجاتها فقلت الفائدة منه وكان حصاده هشيمًا .

وانظر والله فى كــلامهم فى موضوع العـدل . إنهم يركزون على عدل الله سبحــانه ،

وهل شكّت الأمة فى عدل الله ؟ وإذا كان الله يقول بصريح اللفظ والمعنى فى القرآن : إنه لا يظلم الناس مثقال ذرة ، وإن ما يصيب الناس من خير فإنما هو ثمرة اتباعهم سبيل الله وما يصيبهم من شر فإنما هو ثمرة الهوى والخروج على منهاج الله ، فما معنى أن نثير هذا الموضــوع ونجادل فيه ؟ إن من يشغل نفسه ـــ والناس معه ـ بـالجدل فى عدل الله والتساؤل : إن كان الجور يصدر عن الله ، يدل دلالة واضحة على أن من يفعل ذلك فهو متكلم فى موضوع لا يشغل بـال الأمة ، فالأمة مـؤمنة بعدل الله وأن الله سبحانـه عندما أعطانــا العقل فقد حملنا مسئـولية أعمالنا ، فمن يعمل مثقــال ذرة خيرًا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره . فالكلام هنا ـ بالنسبة للمسلم ـ كلام فى غير موضوع وهو لا يسد حاجة من حاجات الأمة .

أما المشكلة التى كان ينبغى على المعتزلة أن يشغلوا أنفسهم بها فهى عدل الناس أو العدل فى الناس . وهنا وبدلاً من أن يدرسوا سنة الرسول ومنهاجه فى تسيير أمور الأمة نجدهم يدخلون فى مسألة الخلافة والإمامة ومن يستحقها ومن لا يستحقها ويسلمون تسليمًا قاطعًا بأن الناس فى حاجة إلى إمام مفرد أو حاكم بأمره ويطول بحثهم عن ذلك الإمام المفرد العادل أو الحاكم بأمره العادل ، والتاريخ لا يعرف إمامًا مفردًا عادلاً . فما دام مفردًا يحكم بـأمره فهو ظـالم والمستبد العـادل مخلوق خـرافى ، إنما الحقيقة هى الأمة العادلة . الأمة التى تسير على منهاج الله ، والأمـة العادلة تختار الإمام العادل ، هى تختاره وهى تعطيه سلطاته وهى تشـاركه فى هذه السلطات وهى تحاسبه وهى تحدد متى يتـولى ومتى يعزل . الأمـة فى الإسلام أى فى العصرالجديـد الذى تحدثنا عنـه هى الأصل والفرع ، هى البداية والنهاية والشورى هى طريق الحكم فى الأمة وهى فى القرآن أمر طاعته واجبة ، والشـورى حق للأمة كلها والرأى لا يقتصر على أهل العلم بل يشمل الأمة كلهـا ، أما أن تكون فى الأمة طبقـة أرستقراطية عقليـة هى وحدها صاحبـة الرأى والفكـر ومن عداهـا ففى مـراتب البهائم فجهل بـالإسـلام فادح ، فهـؤلاء العامـة هم المستضعفـون فى الأرض ، هم الـذين أراد الله أن يمـن عليهم ويجعلهم الـوارثين ، فهم العاملون فى عمران الأرض ومن بينهم يكون الصالح والطالح ، أما الحاكم المستبد الذى لا يتولى بـرضا الأمـة ولا يزول عندمـا تريـد الأمة فهو ظـالم بمجرد وجـوده على هذه الصورة مهما زعـم أنه يتحرى العـدل ، بل إن وجـود الحاكم على هذه الصـورة رجوع بالإنسـانية إلى عصـور ما قبل الإسلام ، عصـور فرعون وهـامان وجنـودهما ، وهذا

بالضبط ما حدث لأمة الإسلام ؛ لأنها غفلت عن حكمة الإسلام كله وخرجت بذلك عن منهج الله . وما معنى حصر النقاش السياسى كلـه فى البحث عمن كان أفضل : أبو بكر وعمر وعثمان أم على ، فهو كلام فى غير موضوع . فأبو بكر وعمر وعثمان وعلى ليسوا كل تاريخ الإسلام ؛ لأن كل تاريخ الإسلام هـو سُنة محمد ﷺ ، ومحمد كان يستمع لكل الناس ويحترم آراء كل الناس ، وقد جعله الله يعبس ويتولى عندما جاءه المستضعف ابن أم مكتوم يسأله أمـرًا ثم لامه فى ذلك لتكون للناس حكمـة وموعظة ، والمستضعف ابن أم مكتوم كان أفضل وأزكي عند الله مـن الوليد بن المغيرة ومن فى طبقته . ثم يجىء الجاحظ ويجمل القول فى صاحبه إبراهيم بن سيار النظام المعتزلى ويقول :

لـولا مكان المتكلمين لهلكت العـوام من جميع الأمم ، ولولا مكـان المعتزلـة لهلكت العوام من جميع النحل فإن لم أقل : ولولا أصحاب إبراهيم (النظام) وإبراهيم لهلكت العوام من المعتـزلة ، فإنى أقـول : إنه أنهج لهم سبـلاً وفتق لهم أموراً واختصر أبـوابًا ظهرت فيها المنفعة ، وشملتهم بها النعمة (الحيوان للجاحظ ٤/١٩ رواه أحمد أمين فى ضحى الإسلام ٣/١٢٧) .

والسؤال الآن : وهل عـرفنا في تاريخ الإســلام إلا هلاك العـامة أى عامـة الناس ؟ وإذن فماذا فعل المعتزلة ؟

لكى تتضح لك حقيقة ما أريد قوله آتيك بحديث فقيه عالم لاهوتى من أهل الغرب ، وأهل الغرب نجحوا فى حيـاتهم ووفقوا إلى نصيب من الرخاء والنظام والعـدل يفوق ما وصلنا إليه نحن بكثير ، وأنا عندما آتيك بحديـث هذا الفقيه اللاهوتى فى العالم وما فعل وكيف فكر وكيف تصرف فأنت ـ أرجو ـ تفهم عنى ما أريـد قوله ؛ لأننا عندما ننظر فى تـواريخ غيرنـــا وتجارب الأمم نـزداد فى أمـرنـــا بصرًا وبصيرة ، والأمـور كما تتبين بأضدادها فهى تتضح بأندادها .

هذا الفقيـه العالم الغربى المسيحى هو مـارتن لوثر (١٤٨٣ ـــ ١٥٤٦) صاحب الثورة الكبرى على الكنيسة الكاثوليكية ومنشىء الحركة البروتستانتية ، هذا الرجل ولد فى قريـة صغيرة تسمى إيسلبينى فى مقاطعـة ثورينجيا فى بلـدة سكسونيـا فى ألمانيا ، وكانت ثورته على واحد من أعاظم أباطرة المسيحية ، وهو شارل الخامس الذى يعدل فى تاريخ الغـرب المسيحى خليفة من عظماء خلفائنـا هو هارون ، ومارتن لـوثر رفض أن يكـون فقيهًا من حـواشى الامبراطور شرلكـان ،رفض مـا كان يسعى إليـه ويحفى فى سبيله أئمة المعتزلة من واصل بن عطاء إلى أحمد بن أبى دُوَاد القاضى الأعظم .

ومارتن لوثر لم يبلغ ما بلغ من المكانـة فى التاريخ لمجرد احتجاجه على بيع صكوك

الغفران ، فالكنيسة الكاثوليكية منذ قامت كانت تبيع الغفران ، فهى الوسيطة بين المؤمنين والله ، والمسيحى الكاثوليكى مهما فعل من أعمال التقى لن يدخل الجنة إلا إذا رضيت عنه الكنيسة وتوسطت له عند الله ، وهذه الوساطة لها ثمنها ، وكان المسيحيون يدفعون هذا الثمن راضين ؛ لأن الكنيسة ليست مجرد مكان للصلاة بل هى ديوان وإدارة ودولة ، وهى تشرف على حياة المؤمنين من الميلاد إلى الوفاة فهى تعمد الأطفال وبدون التعميد لا يكونون مسيحيين وهى تثبتهم فى العقيدة حوالى سن العاشرة وبدون التثبيت أو ما يسمى بالكونفير ماسيون لا يكون الإنسان عضواً فى أمة المسيح وهى التى تتولى عقد الزواج ولا طلاق إلا بإذنها ، وهى كذلك تتلقى الاعتراف على مراحل العمر وتمنح الغفران أولا بأول ، وهى فى النهاية تصلى على روح الميت وتفتح له أبواب السماء وبدون ذلك تظل روح الإنسان معلقة فى المطهرأو اليورجاتورى حتى تصلصل قطعة النقود فى حصالة الكنيسة ، هنا تقفز الروح إلى الجنة Wenn Desgeld Klingt Die Sea La Sjingt ولوثر لم يعترض على ذلك ؛ لأنه كان يعرف أن أعمال الكنيسة ودفاترها تحتاج إلى سجلات والسجلات تتطلب مالا ، ولكن الذى اعترض عليه لوثر كان تحويل مال الغفران إلى صكوك يشترى منها ما يشاء ما شاء ، وعلى قدر ما يشترى يكون نصيبه من الفردوس ، ولم يعجبه أن يبيع البابا ليو العاشر وظيفة أسقف مدينة ماينتس لرجل يسمى البريخت، كان أميرًا على براندمبورج بمبلغ ٢٤,٠٠٠ قطعة من الذهب ، والأمير البريخت أصبح أسقفًا وبهذه الصفة أصبح له الحق فى منح الغفران لقاء مال ، فأصدر وثائق الغفران وجعل لها سعرًا وحولها إلى تجارة، وأصبح أى فاسق على وجه الأرض يستطيع أن يشترى الغفران لنفسه وزوجته وأولاده الأطفال ، بل لأبويه وجديه الذين ماتوا .

احتج لوثر على ذلك فى وثيقة يقال : إنها تضمنت ٩٥ حجة على بطلان بيع الصكوك وعلقها على باب كنيسة قريته وغضب عليه الأسقف الأمير وطلب من البابا حرمانه من رحمة الله ، والبابا طرده من الجنة ، ولكن حتى هذا لم يكن السبب فيما وصل إليه لوثر من المكانة فى التاريخ .

والحقيقة أن مارتن لوثر أصبح من أعاظم المصلحين فى التاريخ ؛ لأنه فعل بعد ذلك ما لم يفكر فيه قط أصحابنا المتكلمون أئمة الاعتزال .

***

دَرْسٌ منْ فَقِيهِ مُعْتَزِلىّ مَسيحِىّ
مَــارْتِنْ لُوثَـــر

مارتن لوثر رجل الدين الألمانى (١٤٨٣ ــ ١٥٤٦م) الذى يمكن اعتباره ـ إلى حد بعيد ـ فقيهاً متكلماً معتزلياً مسيحياً ، وتمكن ـ دون أن يغادر قاعدته الدينية الخالصة ــ من إحداث أكبر حركة فكرية دينية اجتماعية سياسية فى تاريخ الغرب الأوروبى قبل الثورة الفرنسية سنة ١٧٩٨ ، وذلك لأنه ـ بخلاف الفقهاء والمتكلمين عندنا ــ لم يتكلم من المنصة الفقهية الرفيعة المتعالية عن سواد الناس ، بل هبط إليهم وخاطبهم بلغتهم وحمل إليهم الفقه وسلمهم مفاتيحه ودخلت جماهير الناس فى الغرب ميادين العلم والفكر ودخل العلم والفكر حياة الجماهير ؛ فأصبحت جماهير متعلمة مفكرة وصانعة للتاريخ نتيجة لذلك .

بينما اقتصر صنع التاريخ عندنا على أهل الحكم وأهل الفقه ، فتوقفت هنا حركة التاريخ وتحركت هناك ، وصيحة الفقيه اللاهوتى مارتن لوثر حطمت سلطان الكنيسة المطلق وزعزعت عرش امبراطور الدولة الرومانية المقدسة فتوالت الحركات الفكرية والسياسية فى الغرب ، وصيحة مارتن لوثر هى التى أنشأت كل مذاهب البروتستانتية وعلى أثر ذلك بدأ عصر الأنوار ، والمراد أنوار الفكر التى أنارت الطريق للشعوب ، وبعد مفكرى عصر الأنوار جاء الموسوعيون ثم السان سيمونيون ، وكل هؤلاء لم يكفروا بالله ، ولا هم خرجوا عن الطريق وإنما هم قالوا : إن الله منح الإنسان العقل وهو نعمة الله الكبرى ، وبالعقل يصل الإنسان إلى الله سبحانه وإلى الإيمان الصحيح به ، وكل تقدم الإنسان مرهون باستخدامه عقله والعقل المتفتح المتحرك هو الطريق إلى الرخاء والسعادة ، والعقل الجامد الساكن ينتهى بالإنسان حتماً إلى السكون والموت ، والمفكرون ينبغى أن يكونوا الطلائع فى عصر الأنوار ، فقد رفعوا مكانة العقل إلى نفس المستوى الذى رفعه إليه القرآن الكريم ، والمفكرون فى الغرب ساروا فى طريق لوثر ، اتجهوا إلى الجماهير ؛ لأنها مستودع القوة والحضارة وهى صانعة التاريخ أو ينبغى أن تكون صانعته ، أما أهل العلم عندنا فقد نظروا إلى الجماهير نظرة تَرَفُّع واستكبار واعتبروها طغامًا لا حق لها فى أن تفكر ، وقد روينا فيما سبق عبارة لأحد أئمة الاعتزال

قال فيها : إن صلاح المجتمع يكون بابتعاد العامة عن العلم ؛ لأنهم إذا تناولوه أفسدوه .

أما مارتن لوثر فقد سار فى طريق يخالف طريق أهل العلم والفقه عندنا ، وهو عندما كتب وثيقة اعتراضه المشهور على بيع صكوك الغفران وعلقها على باب كنيسة وتنبرج فى ٣١ أكتوبر ١٥١٧ ؛ تجمع الناس حوله وسألوه أن يشرحها لهم لأنها كانت باللاتينية ، ولو أن مارتن لوثر كان يفكر بطريقة أهل العلم عندنا لقال لهم : أنتم عامة وسوقة ولا دخل لكم بمسائل الفقه والفكر ؛ لأنها فوق مستوى عقولكم ، ولكن لوثر أسرع فترجم الوثيقة إلى الألمانية وقام بطباعة النصين ووزعهما على الناس فى نفس الوقت الذى أرسل فيه نسخًا باللاتينية إلى البابا والكرادلة والأساقفة والقساوسة ، وبهذا العمل أصبحت حركة مارتن لوثر حركة شعبية ، وما دامت قد أصبحت شعبية فقد أصبحت نافعة لأن الذى غاب عن ذهن المتكلمين والفقهاء هو أن جماهير الناس التى سموها بالعوام تتميز بإدراك لطيف لحقائق الأمور لا يصل إليه العلماء المتكلفون ، والجماهير بطبعها تميز بالفطرة بين ما ينفعها وما يضرها ، بين من يحبها ومن لا يحبها ، وإدراك الجماهير من هذه الناحية أعمق من إدراك العلماء المتحذلقين وأى فكرة تصل إلى الجماهير وتدركها وتؤمن بها تصبح من تلقاء نفسها حركة إنسانية وأى فكرة يقتصر فهمها على أهل الذكاء العادى تصبح فكرة صالونات ومجالس منكمشة فى ذاتها مقتصرة على أصحابها وتموت ، والله سبحانه وتعالى يقول فى الآية ٢٨ من سورة سبأ **﴿ وما أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ كَافَّةً للنَّاسِ بَشيرًا ونَـذيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾** ولم يقل سبحانه : إنه أرسله لخاصة الناس أو للعلماء . والعرب البسطاء الأميون الذين قرأ عليهم رسول الله ﷺ آيات القرآن لأول نزولها ، فهموها وأحسوا بها بأكثر مما فهمها الفقهاء ، بدليل أن أولئك البسطاء تحركوا بآيات القرآن وساروا تحت رايته وفتحوا بها الدنيا وأدخلوا الملايين فى الإسلام ، أما العلماء المتكلفون المترفعون فقد استعملوا القرآن لتكفير غيرهم من الناس ..

ولم يقف مارتن لوثر عند هذا فى تحويل حركته إلى حركة شعبية أى حركة إنسانية نافعة ، بل اتجه فى خطابه إلى المفكرين العلمانيين المثقفين ؛ لأنهم يعرفون كيف يستخدمون العقل فيما يصلح أمر الناس ، فى حين أن السياسيين مثلاً يستخدمون عقولهم فيما ينفعهم ويصل بهم إلى القوة والسلطان ويقوى مركزهم فيهما ، وإذا

صرف أهل الفكر جهدهم فى السياسة ـ دون تطلع إلى الاشتغال بها ـ كانوا بركة على أممهم ؛ لأنهم ينيرون الطريق للأمة وقادة الأمة وينشئون فكرًا سياسيًا سليمًا يفتح عيون الناس إلى ما لهم وما عليهم ويكشف لأهل السياسة حقيقة كبرى تغيب عن الكثيرين منهم ممن يتعرضون للغرق فى صراع القوة والسياسة ، وإذا غرق رجال السياسة فى هذا الصراع اشتدت أنانيتهم وأصابهم عمى البصيرة وفقدوا التوازن وترديوا فى أخطاء قاتلة لهم ومؤذية لأممهم ، وتلك هى الوظيفة العظيمة التى قام بها كتاب سياسيون اجتماعيون من أمثال « جون ستيوارت ميل » فى كتابه عن الحرية و « آدم سميث » فى كتابه الخالد عن ثروة الأمم و « مونتسكيو » فى دراسته الكبرى عن القوانين التى تحكم سير الأمم والجماعات فى كتابه (روح القوانين) و « جان جاك روسو » فى كتابه الصغير الضخم (العقد الاجتماعى) و « دالا مبير » وإخوانه من الموسوعيين الذين فتحوا للبشر أبوابًا بلا حدود من الفكر السليم وخاصة «هلفيسيوس» الذى لفت أنظار الناس إلى ما سماه بالسعادة العامة La feliciti Publique و «فولتير» الذى نفذ بفكره وسخريته اللاذعة إلى مواضع الضعف والسخف فى المؤسسات السياسية السابقة على زمانه والقائمة فى عصره ، وكانت تلك المؤسسات جميعًا تقوم على أسر مالكة تعتمد على عسكريين يمتصون دماء الناس دون أن نرى منهم إلا الخيلاء والأخطاء الفادحة ، وعلى سياسيين هم لصوص من ناحية ، وحشم سلاطين من ناحية أخرى ، وعلى رجال دين يستخدمون جاه العقيدة فى السيطرة على الجماهير وتضليلها وابتزاز الملوك والأمراء وإنشاء دولة الكنيسة إلى جانب دولة السياسة وكل منهما تخدم الأخرى ..

ومارتن لوثر ـ كما قلنا ـ كان رجل دين ولكنه تنبه إلى الحقيقة الكبرى التى غابت عن رجال الدين فى عصره ، وهى أنه من الخطأ أن يتصور رجال الدين أنهم أصحاب علم إلهى خاص بهم ، هم وحدهم أصحابه والمتمتعون بخيره ، وأنهم المتفردون بالعلم من دون الناس وعلمهم هو اللاهوت أو العلم الإلهى ، ولغة هذا العلم الإلهى هى اللاتينية وهى الستار الكثيف الذى كان يخفى عن عيون الناس كل المساخر والمهازل التى ترتكبها الكنيسة ورجالها باسم الدين ، ومن بينها بيع صكوك الغفران ولوثر عندما أعلن احتجاجه على الكنيسة أثار خمساً وتسعين قضية من قضايا خداع الكنيسة وتحالفها مع رجال السياسة على جماهير الناس ، وأحدث صدعًا هائلاً فى بناء الزيف

الذى أقامتـه الكنيسة ، ومن خلال هذا الصـدع نظرت الجماهير فرأت من الجرائم التى ترتكب بـاسـم الـدين مـا هالها ، وفى رسـالة تـالية كتبها لـوثر بـاللغة الألمانيـة يقول للجماهير : ليس هناك ـ من وجهة نظر الدين ـ علماء وجهلاء أو أمراء وسوقة أو كرادلة وأساقفة أغنيـاء وأقوياء يتوسطـون بين الله والناس ويملكون مفاتيح العلـوم ، وعامة مستضعفة جاهلة عليها أن تتلقَّى العلم الدينى من أيـدى أربابه وأصحابه ، فإن الدين نعمة الله الكبرى على البشر أجمعين مثلها فى ذلك مثل ضياء الشمس ، وكما أنه ليس من حق إنسان أن يبيع ضـوء الشمس للناس فليس من حق بابا أو كـردينال أو أسقف أن يزعم أنـه متفرد بالعلم الإلهى وأن الله أعطاه الحق فى بيع نـور الله لجماهير الناس ؛ لأن الدين للناس كافة ، والناس كافة ينبغى أن تفتح أمامهم سبل الوصول إلى العلم بالدين لأن الدين سهل ، والإنسان البسيط الذى يقول عنه رجال الدين : إن مداركه لا تصل إلى حقـائق الإيمان هو أقـدر بالبصيرة الهاديـة على الـوصول إلى الهدى من أولئك الـذين يزعمون أنهم وحدهم يملكون مفاتيح العلم والهداية .

لهذا كله ، وبشجـاعة نادرة ، اتجه لـوثر إلى جماهير الناس يخاطبهـا بلغتها وهى الألمانية ، وكـانت الألمانية إذ ذاك لغـة عوام ذات لهجـات ، فهى لا تكتب ولكن لوثـر بدأ يكتب بها ؛ لأنها اللغـة التى يفهمها النـاس وقبل أن يخطـو هذه الخطـوة كتب رسالـة طبعها ووزعهـا على رجال الـدين الألمان يقول لهم فيهـا : إنه ليس مـن حق بابـا رومـا وكرادلتـه وأساقفته وكلهم من الإيطـاليين أو من غيرهـم من خدم الكنيسـة أن ينفردوا بالعلم والتكلم فى الدين من دون غيرهـم من البشر وعنوان الرسـالة : اللاهوت الجرمانى The Ologia Germannica وأعقب ذلك برسـالة اسمها (فى حـرية رجل مسيحى) : Von Der Freiheit Eines Christleschen Menschen وقـد نشرت وذاعت بين الناس فى ديسمبر ١٥٢٠ ، وأدرك النـاس منها أن كل مـا يزعمـه رجال الـدين من أنهم وحدهم القـادرون على فهم الدين وتفسير قـواعده وحقـائقه بـاطل .. وبدأت الجماهير تتحرك وتلتف حول هذا الرجل الذى يغـامر بحياته ليفتح أبواب العلم ورحمة الله لهم ، ووجد لوثر أن أمراء الألمان مترددون خائفون من الكنيسـة وسلطانها وتأييد الامبراطور لها ، فكتب بـالألمانية أيضـاً رسـالـة فى الغايـة من الإقدام عنـوانها : إلى أشراف الشعب الألمانى A de Christlichen Adel Deutscher Nation وعلى إثـر ذلك اجتمعت رياسة جماعـة الرهبان الأوغسطينيين وقررت فصل لوثر وطـرده من الجماعة ، وكان

لوثر راهبًا أوغسطينيًّا يعيش فى دير أوغسطينى فطردوه من الديـر وألقوا به فى الطريق وحيدًا فقيرًا .

وفى ١٧ أبريل ١٥٢١ جمع الامبراطـور شرلكان مجلس الدولة فى مـدينة « ورمز » فأصدر بيانـاً يستنكر فيه كل ما قـاله لوثر فى نقـد الكنيسة والبابويـة ورجال الدين ، ويقرر أن لوثر لا بد من القبض عليه ومحاكمتـه وعقابه إلا إذا تاب وندم ورجع عن كل آرائه ورفض لوثر وطالت المناقشة والـرجل الفقير الوحيد الأعزل قال كلمته المشهورة : هذا مـوقفى ولا موقف لى غيره Hneir Stehe Ich . Nhtics . Anderes Kann Ich Tun وطـردوه من المجمع ، ومن حسن حظه أنـه كان هنـاك نفر من أصـدقائه الـذين تحمسوا لآرائه وأكبرهـم وأشدهم حماسـة له يوهـان إيك Johann Eck . وفى نهاية الجلسات صاح لوثر : إن كل قرارات هـذا المجلس الامبراطورى باطلة مثلها فى ذلك مثل قرارات المجمع الكنسى ، وخرج من قـاعة المناقشة رافعًا يديه إلى أعلى كـأنه يقول : إنه فعل مـا أملاه عليـه ضميره والله يتـولاه ، وما كـاد يغـادر المكان حتى اختطفـه بعض أنصاره وأخـذوه إلى معتزل آمن فى قلعـة وارتبورج قـرب مدينـة إيزنبـاخ ، وكان أمير الناحية وهو فردريك العاقل من أنصاره فتولى حمايته .

وفى هذا المعتـزل قام لـوثر بعمل يعـد من معالم التـاريخ الحضـارى والفكرى فى الغرب كلـه وفى ألمانيا خاصـة وهو ترجمة الإنجيـل إلى اللغة الألمانية بمسـاعدة بعض أصدقائه وخاصة ميلانكتون Melanchthon وقـد طبعـت هـذه الترجمة فى سبتمبر ١٥٢٢ ثم أكب على ترجمة العهد القديم إلى الألمانيـة أيضًا ، وقد كانت الترجمة هذه المرة من العبرانيـة وتداولها الناس ، ولكنهـا لم تنتشر إلا فى سنة ١٥٣٤ ، ومـن المعروف أن الكتـاب المقدس المسيحى يتكـون من قسمين : قسم كبير وهـو العهد القـديم أو بتعبير أوضح شـهادة من العهـود القديمة السـابقة على بشـارة المسيح عيسى ابن مريم Old Testament وفيـه تـواريخ أنبيـاء بنى إسرائيل وما بشروا بـه ومـا جـرى لهم ولبنى إسرائيل والبشرية عامة ، وهذا القسم كله يعتبر فى مجموعه وعدًا من الله بتخليص البشر من خطاياهـم وأولها خطيئة آدم وغضب الله عليه وإخراجه من الجنـة ، والقسم الثانى هو تحقيق وعـد الله بتخليص البشر بإرسالـه عيسى ابن مريم كلمـة الله ، يحمل إليهم بشارة الخلاص ، ونحن المسلمين نقول : إن هذا الخلاص جاء فى صورة كتاب أوحاه الله

إلى عيسى كما أوحى التوراة إلى موسى ، ولكن عامة المسيحيين يقولون : إن حياة عيسى ابن مريم نفسها وخلقه من كلمة الله التى امتزجت بدم السيدة مريم العذراء هى لباب رسالته وتبشيره الناس بالخلاص من لعنة الله لكل من صدق قوله واتبعه وحصل على الخلاص منه بالتعميد على يده أو على يد أحد حوارييه ويقولون كذلك : إن تمام حلول بركة هذا الخلاص كان بصلب المسيح وقتله وشراء خلاص البشر بدمه ، وبشرى الخلاص هذه تسمى باللاتينية Evangelium وهو الإنجيل ، فالإنجيل أو تحقيق البشرى عندهم ليست كتابًا ، وإنما هى حياة المسيح نفسه ثم موته ، والذى لدينا عن حياة المسيح هو ما رواه عنه الحواريون ، وكلها روايات صغيرة قصيرة لا تزيد الواحدة منها عن سبعين أو ثمانين صفحة تضم ما وعوه من أخباره وخطبه وأقواله منذ خرج للتبشير علانية عند بحيرة طبرية ومسيره منها إلى القدس حيث قبض عليه أحبار اليهود ورجال الدولة الرومانية وجروه حافيًا مكبلاً بالأغلال إلى المعبد أو الكنيس حيث أدانوه وحكموا عليه بالموت ثم كانت ليلته الأخيرة فى سجن المعبد حيث كان العشاء الأخير لعيسى ابن مريم وحوارييه ، ومن بينهم يهوذا الإسخريوطى الذى وشى به إلى السلطات ، ثم صلبه وموته على الصليب فى اليوم التالى ، وكانت الروايات أو الأناجيل عن ذلك كله كثيرة جدًا ولكن مجامع الكنيسة اعتمدت منها أربعة ورفضت البقية واعتبرتها زيوفًا أو تلفيقات Apocrypha وهذه الأربعة هى أناجيل متى ولوقا ويوحنا ومرقص ، وأنت تجدها جميعاً فى كتاب واحد ولم تكتب كلها باللاتينية ، بل بعضها بالسريانية أو العبرانية وبعضها باللاتينية ، ولكنها ترجمت كلها إلى اللاتينية عدا إنجيل مرقص الذى كتب أصلاً باللاتينية وهو أبلغ الأناجيل لغة وأسلوبًا ؛ لأن مرقص أو ماركوس كان من أوسع الحواريين علماً ، وقد كتب إنجيله فى مصر واحتفظت به الكنيسة المصرية الإسكندرانية التى تسمى لذلك بالمرقصية ، ولفظ كنيسة تحرف فى لغة أقباط مصر فأصبح كرازة ، وكنيستنا المصرية لهذا تسمى بالكرازة المرقصية ، وكلا لفظى كرازة وكنيسة محرف من اللاتينية Ecclesia وهى ليست مبنى الكنيسة وإنما معنى الإكليزيا أو الكرازة فى الأصل جماعة المسيحيين ، ثم استعمل اللفظ للدلالة على مكان اجتماع المسيحيين وهو الكنيسة .

وهذه كلها معلومات ينبغى أن نعرفها لكى نكون على بينة من أمرنا عندما نتكلم عن المسيحية والمسيحيين حتى يقوم بيننا الفهم والتفاهم والحوار الهادىء البناء الذى

أمر به الله سبحانه وتعالى عندما قال فى سورة النحل بعد أن تحدث عمن سبق محمدًا ـ صلوات الله عليه ـ من الرسل ، ونص على إبراهيم عليه السلام ودينه وهو الحنيفية الإسلامية ثم أشار إلى من انحرف عن ملة إبراهيم من أهل الأديان ثم قال بعد ذلك :

﴿ ادعُ إلى سَبيلِ رَبِّكَ بالحِكْمَةِ والموعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بالتِي هِيَ أَحْسَن إن ربك هو أَعْلَمُ بمن ضَلَّ عن سَبِيلِهِ وهو أعلم بالمهتدين ﴾

(سورة النحل : ١٦/ ١٢٥)

وأنا الآن أُحدث القارىء عن لاهوتي مسيحى وكيف تصرف وماذا عمل ليخدم دينه وقومه دون أن يغادر قاعدته الدينية ، وسيرته وعمله تزيدنا علماً وفهماً بما عمل أهل العلم عندنا وكيف تصرفوا ليكون حكمنا عليهم وتقديرنا إياهم صائبًا سليماً ، لأن الأمور تزداد وضوحًا بالقرائن والأمثال والأنداد ، ولوثر ينتمى إلى جماعة أهل الغرب وهم السابقون علينا فى ميدان العلم والفكر والحضارة ، وهم لم يسبقونا عبثًا بل هم سبقونا ؛ لأنهم ساروا فى طريق أسلم من الطريق الذى سرنا فيه .

أتعرف كيف ترجم لوثر نص الكتاب المقدس المسيحى وفى أى لغة صاغه ؟ إنه لم يتعالم ولم يتفيهق بل نزل إلى دنيا الناس أو العامة وكتب بلغتهم ، ففى سنة ١٥٣٠ كتب رسالة عن اللغة التى تخيرها لصياغة الترجمة قال فيها : عليك إذا أردت أن تترجم وتتخير الألفاظ التى ستستعملها فى الترجمة أن تلقى بالأسئلة إلى الأمهات فى البيوت ، إلى الأولاد فى الشارع ، إلى الناس العاديين فى الأسواق وتصغى إلى إجاباتهم وانظر إلى شفاههم وهم يتلفظون ثم تبدأ فى الترجمة بعد ذلك ، ومعنى ذلك أن هذا الرجل ترجم الكتاب المقدس إلى لغة من يسميهم أصحابنا المتكلمون بالعوام ـ بتعبير آخر ـ لقد نزل الرجل إلى الأسواق وأخذ لغة السوقة لكى يكتب لهم بالأسلوب واللفظ الذى يقبلونه ويفهمونه ، وهل تتصور أن اللغة التى كتب بها بعد ذلك كانت سوقية أو حوشية ؟ استمع إلى رأى الأستاذ هربرت ولف أستاذ اللغة الألمانية فى جامعة ماريورج فى ألمانيا : « إن عمله الأدبى يقوم على اختيار ممتاز للألفاظ وتخير المستوى المناسب للأسلوب والوقع الشفوى للكلام والجرس اللغوى المسوق فى نغم لطيف » إذن فجمال أسلوب لوثر يرجع إلى أنه استلهم العامة والسوقة فى اختيار ألفاظه وصياغة كلامه ، وهذا كلام يبدو غريبًا جدًّا لأهل الأدب عندنا ممن تعودوا الترفع على العامة واستصغار

شأنهم واحتقار كلامهم ، وهذا كله ميراث رَذِلٌ سيءٌ أخذناه عن أهل الأدب السابقين علينا جيلاً عن جيل ، فقد كانت أجيال أهل الفكر عندنا تتخير ألفاظها من « صهاريج اللؤلؤ » كما فعل الشيخ توفيق البكرى فى أيامنا هذه ، وحسن الزيات ، ومصطفى صادق الرافعى اللذان يقفان فى آخر خط البلاغة التقليدية الذى يقف الجاحظ فى أوله ، كانا يعانيان فى اختيار اللفظ الذى يسمونه أنيقًا ويتكلفان فى صياغة العبارات كأنهما على كرسى التوليد ، فكانت النتيجة كتبًا خاصة لا يقرؤها إلا الخاصة ومعانى ضالة متصيدة من بطون المعاجم بجهد بالغ ، وما عرفنا اللغة العربية السهلة الجميلة إلا على أيدى جيل طه حسين والعقاد والمازنى ممن أخذوا بمذاهب أهل الغرب فى إنشاء أساليبهم الكتابية ، وأهل الغرب يتحرون الوضوح والبساطة والواقعية فى الكلام ، ولهذا فقد كتبوا أدباً يقرأ وأنشأوا فكرًا ينفع وتكلموا بلسانِ أقوامهم فارتفعت لغة أقوامهم ، وبارتفاع مستوى الكتابة ارتقى مستوى الفكر .. والفكر هو مفتاح كل خير وتقدم وحضارة ، وإذا أردت أن تفهم عنى ما أريد حق الفهم فاقرأ شيئًا من نثر توفيق الحكيم ونجيب محفوظ تجد أن كليهما يأخذان أفكار الناس العاديين أى العوام وألفاظهم ثم يصوغانها بذوق رجل الفن المثقف فتكون من ذلك أصدق لغة وأصفاها وأقربها إلى القلوب .

وإذا أنت سألتنى لماذا ينحط مستوى اللغة العربية اليوم ؟ يكون جوابى : إن بعض الأسباب ترجع إلى قلة تراثنا من اللغة الصادقة السهلة التى تعبر عن أفكار من كان المتحذلقون يسمونهم بالعوام ، وأنا لا يخطر ببالى قط أن أقرأ الجاحظ لآخذ منه الأسلوب ؛ لأن أسلوب الجاحظ لا يخاطبنى بل هو يخاطب الجاحظيين مثله ، وهو أسلوب طريف ، ولكنه ليس إنسانيًّا ؛ لأنه أسلوب رجل يتعالى عن عامة الناس ويعتبرهم أحط منه منزلة .

ولوثر اللاهوتى الذى قام بهذا العمل العظيم أنشأ بترجمته تلك وبكتاباته الكثيرة لغة كاملة كانت توصف بأنها عامية فأصبحت بفضله علمية وأدبية ولاهوتية ، وهو باللغة الألمانية التى وضع أساسها البلاغى أضاف لغة عظيمة من لغات الفكر والعلم فى عصرنا هى اللغة الألمانية ، وقد كان الناس فى الغرب يقولون : إن اللغتين الوحيدتين ذواتى الأدب الرفيع هما الإنجليزية والفرنسية ، فجاء فولفجانج يوهان جيته فكتب بلغة لوثر فارتفع مقام اللغة الألمانية إلى لغات الغرب الأدبية الفكرية الكبرى ، ولوثر ثم

جيتـه ثم شيللر وبقيـة أدباء الألمان أنشأوا الأسـاس اللغوى الفكـرى لوحـدة الشعب الألمانى ، ومثل هذا فعل دانتى الليجيرى عندمـا ترك اللاتينية وكتب كوميـديته الإلهية بالإيطاليـة ، وميجيل ترفانتس عندمـا رفع اللغة الأسبانية إلى مصاف اللغـات الفكرية العالمية الكبرى . فأين من هذا كله فكر المتكلمين ولغة المتفيهقين والمترفعين ؟

* * *

سأقف بك هنـا عند رأى الجاحـظ وبقية المتكلمين ـــ عـدا قلة منهم مثل أبى بكـر الأصم ـ فى العامة وفكـر العامة وانحطاطه وعدم قدرتهم على الـدخول فى مسائل الفكر والسياسة .

والجاحظ وأمثالـه ـ بخلاف مارتن لـوثر ـ كـانوا يفكرون تفكير الكرادلـة الذين حاربهم لوثر وهدم عروشهم وكانوا يقولـون : إن هناك خاصة ـ هم منها ـ وعامة هى جمهور الناس وأهل الأسـواق ، فإذا كان هناك أمر هام مثل اختيـار الإمام ، فإن الذين يختارونه هم الخاصـة وحدهم ولا يجوز بحال أن يسمح للعامة بالـدخول فى مثل هذا الأمر الخطير مع علمهم بأن المرة الوحيدة التى اختار فيها المسلمون إمامهم اختيارًا حرًا صحيحًا فى مجلـس حر كـان فيه أخذ ورد وتبـادل آراء كان انتخـاب أبى بكـر فى بيعة سقيفة بنى سـاعدة والذين حضروا اجتماع السقيفة كـانوا عامة المسلمين ، فقـد كان الاجتماع فى مكان فسيـح لا أبواب له إنما هـى المساحة المسقـوفة بعـريش من سعف النخل التى كانـت قبيلة بنى ساعـدة تجتمع فيها ، وكـانت لكل قبيلة من قبـائل المدينة سقيفتها فى منازلها ، وكان الاجتماع عفوياً ، حضره الناس جميعاً ، دون أن يكون هناك خاصة أو عامة ، ومعظم الحاضرين كـانوا أميين لا يكتبون أو يقرأون فكان اختيارهم أصح اختيار وأسلمه ، وأبو بكر دون شك هو أعظم خلفاء الإسلام وأصلحهم بشهادة عمر نفسه .

ومع ذلك فإن الجاحظ وأصحابـه يقولون لك : إن بيعة أبى بكـر كانت فلتة .. أى مصادفـة لا يقاس عليها ، واستمع إلى كلامـه وكلام القاضى عبـد الجبار أبى الحسن الأسـد أبادى المعتـزلى صاحب « المغنى فى أبـواب التوحيـد والعدل » يقـول الجاحظ فى كلامـه عن العامة : أمـا الأمر الذى يعـرفونه فـالتنزيل المجرد (أى قـراءة القرآن دون تفسير أو فهم) وجملة الشريعة (أى دون تفسيرها لأن عقولهم لا تصل هذا المستوى)

ومـا جلّ من الخبر واستفاض وكثر ترداده على الأسماع وكرروه على الأفهام (أى الأخبار العامة والأفكار البسيطة العادية التى تتكرر على ألسنة الناس كل يوم) وأما الذى يجهلون (وتعرفه الخاصة وحدها) فتأويل المنزل وتفسير المجمل وغامض السنن (أى الأحاديث النبوية) التى حملتها الخواص عن الخواص من حملة الأثر (أى الحديث) وطلاب الخبر . مما يتكلف معرفته ويتتبع فى مواضعه ولا يهجم على طلبه ولا يقهر سمع القاعد عنه .. (رسالة العثمانية للجاحظ ص ٢٥٣) .

ثم يتفضل الجاحظ فيقول لنا : لماذا يستبعد العامة عن الكلام فى مسائل يراها عالية لا يجوز الكلام فيها إلا للخاصة أمثاله « إذ العامة لا تعرف معنى الإمامة وتأويل الخلافة ولا تفصل بين فضل وجودها ونقص عدمها ، ولأى شىء أريدت ، ولأى أمر أملت ، وكيف مأتاها والسبيل إليها » بل هى مع كل ريح تهب وناشئة تنجم ولعلها بالمبطلين أقر عيناً منها بالمحقِّين .. (رسالة العثمانية ٢٥٠) ، ومن مأثور كلام الجاحظ فى هذا المعنى : فصلاح الدنيا وتمام النعمة فى تدبير الخاصة .. (نفس الرسالة ص ٢٥٣) ويقول : إنما يلزم الناس الأمر فيما عرفوا سبيله وليس للعوام خاصة معرفة بسبيل إقامة الأئمة فيلزمها أمر أو يجرى عليها نهى .. (وانظر : الدكتور محمد عمارة فى كتاب :المعتزلة وأصول الحكم ص ١٢٦ وما يليها) .

* * *

والعامة كما رأيناهم ـ تاريخيًّا ـ المستضعفون فى الأرض ، الذين أتى الإسلام ليرد إليهم الأمور وليجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين ، وتلك هى حكمة مجىء الإسلام الكبرى فى تطور تاريخ البشر ، إنه الفرقان بين عصور الخاصة من المستبدين بأمور الناس وفكرهم وأموالهم ، والعامة الذين هم عيال ، لا رأى لهم ولا ينبغى أن يحسب لهم حساب إذ لا عقل لهم ولا فهم ولا يجوز أن يؤذن لهم بإبداء الرأى فى عظائم الأمور !

لهذا الاتجاه الفكرى غير السليم ـــ البعيد عن منطق التاريخ ، الغريب عن الإدراك الحقيقى لطبيعة الإسلام والدنيا والناس ـ انتهى فكر المعتزلة إلى أن جعلوا أنفسهم أداة السلطان الغاشم يستذل بهم أهل الصلاح ويستحل بهم دماء الأبرياء .

* * *

القَرْنُ الْهِجْرِىُّ الثَّالِثُ
رَبِيعُ الْفِكْرِ الْعَرَبِىِّ

لكى أعطيك مثالاً من نظـرة المعتزلة للفكر ومقـامه أختم هذا الكلام عنهم بحكـاية تروى عن شيخ من أئمـة شيوخهم هو إبـراهيم بن سيار النظام ، فقـد حكى أنه دخل وهو صغير على الخليل بن أحمد فقال لـه : صف هذه الزجاجة . فقـال : بمدحٍ أم بذمٍّ ؟ فقال له : بمدح . فقال كلاماً فى غاية البلاغة فى مدحها .

فقال له : فذمها . فـذمها بأبلغ لفظ وأنقه (أحمد أمين . ضحى الإسلام ٣/١٠٦ ـ ١٠٧) ، فالمسألة عندهم كانت عبثاً فكريًا ولعباً بعقول الناس وغروراً بأنفسهم ، وعلى مثل هذا الحط الفكرى لا يقوم شىء صالح ، ولا يتأتى منه إلا هباء .

قبل أن نستطـرد إلى الكـلام عن الفقـه وهـو قـاعـدة تنظيم المجتمع الإسـلامى ، والفقهاء وهم العمد الحقيقية لعمران عالم الإسلام وأساس ما بقى سليماً من أعمدته ، نقف هنيهة عنـد القرن الثالث الهجرى / التـاسع الميلادى لنرى ما الـذى قطعناه من الطريق وما بقى لنا منه ، ولنستطلع أحوال العالم الإسلامى بعد أن قطع قروناً هجرية ثلاثة من قيام أمة الإسلام .فقد كـان ينبغى بناء على ما عرفنا من سلامة النشأة الأولى لأمة الإسـلام أن تصـل إلى درجـات من الاستقرار والرخـاء والتقدم لم يسبقهـا إليها سابق ، فهـذه الأمة بدأت طريقها ومعهـا كل عوامل النجاح وعنـاصره : كتاب الله وسنة نبيه . كتاب الله هو هداية وحكمة وتشريع ووعظ وتجارب أمم بادت أو اضمحلت ؛ لأنها خرجـــت عن المنهج ، وهو كـذلك جماع مكارم الأخلاق ومنهج فكـرى لمعرفـة مذاهب الخير ، وأما سنة نبيه فهى تطبيق لشرع الله ومنهجـه وهى إلى جانب ذلك تشريع قويم لأن رسـول الله ﷺ مشرع بنص القرآن فقـد قـال الله فى كتابـه العزيـز : ﴿ وَمَا آتَاكُم الرَّسُولُ فَخُذُوه ومانَهاكُمْ عنه فانتهوا ﴾ .

أقول : إننا كان ينبغى أن نكون فى نهاية القرون الثلاثة الأولى قد وصلنا إلى أحسن ما انتهى إليه العالم من علم وقوة ورخاء ؛ لأننا بـدأنا طريقنا وجمعنا العدة الكاملة لكل توفيق ، فإذا كان أمرنا قد انتكس وساءت بنا الأحوال ، فنحن المسئولون ولا ريب ، وقد

بينت لك آنفًا كيف خرجنا عن المنهج ولم ننشىء ـ فى الناحية السياسية على الأساس الذى تلقيناه وتركنا هدى الله وسنة نبيه ومضينا نحكم بعهد أردشير وأساليب الظالمين ، وعهد أردشير كتاب كتبه أردشير بن بابك كسرى فارس لابنه يبين له فيه نهج السياسة الذى ينبغى عليه اتباعه ليسود الناس ويهيمن عليهم وينفرد بالخيرات دونهم ، وتلك فى حكمة الفرس هى السياسة ، فهى فى عرفهم كذب ومين وخداع وتضليل واستغلال وإرهاب ، وقد أراد الله بالإسلام أن يمن على الذين استضعفوا فى الأرض ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين .

والمستضعفون هم الأشقياء العاملون فى عمارة الأرض ؛ لأن الله عهد إلينا فى عمارة الأرض وإصلاحها ، والإنسان الصالح هو العامل فى عمارة الأرض فكل عامل فى عمارة الأرض رجل صالح وهو من المستضعفين الذين منّ الله عليهم بالإسلام ليجعلهم الأئمة والوارثين للأرض ، والعامل هنا هو العامل بذهنه والعامل بيده ، وكل هذا الطراز من العمال كانوا أشقياء عصور ما قبل الإسلام وضحياها ، فجاء الله بالإسلام بشرى لهم ليكونوا وارثى خيراتها وأصحاب الأمر فيها بعدل الله على منهج الله .

والذى عملناه خلال القرون الثلاثة الأولى كان كله مناقضًا لما أراد الله وخارجًا عن منهجه ، فبدلاً من أن نسوس أمورنا بأسلوب جماعة الخير والشورى كما كان حالنا أيام الرسول والشيخين انقلبنا على أنفسنا وحولنا أمة الشورى إلى خلافة الاستبداد والظلم وأصبح تاريخنا السياسى صراعًا على الملك الذى سميناه خلافة وأثبتنا بذلك أننا ورثة سفهاء ، والسفاهة جاءت من أننا عندما صارت إلينا مواريث الأمم عملنا فيها بعهد أردشير وأساليب الظالمين لا بعهد الله ، وعهد الله هو ميثاقه الذى أخذه علينا وهو حبله الذى أمرنا بأن نعتصم به جميعًا ولا نتفرق ، فما كان لنا هَمٌّ إلا ترك حبل الله والتفرق فضاع أمرنا بددًا وصرنا أسوأ من أمم الجاهلية .

وأقول : إننا لا بد لنا من وقفات عند مراحل معينة من هذه الرحلة فى تاريخ الفكر والمجتمع الإسلاميين ، وهى رحلة طائر يرى الأمور من فوق فتستبين الخطوط الرئيسية دون التفاصيل ، وفى أثناء هذه الرحلة نقف كذلك بين الحين والحين عند رجال يعدون معالم واضحة فى تاريخ الفكر ونقلات متميزة فى مسيرته كما وقفنا عند الجاحظ وعبد الحميد الكاتب وأبى نواس .

وستكون لنا وقفة ثانية مثل هذه عند القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ، وثالثة عند القرن الثانى عشر الهجرى / الثامن عشر الميلادى نتأمل فى كل وقفة منها حصاد القرون قبل أن يدخل عالمنا الإسلامى فى العصر الحديث ويتبدل من حوله - وفيه - كل شىء .

ونحن نقف عند هذا القرن الثالث الهجرى ؛ لأنه ربيع الفكر الإسلامى والربيع فى أعصر الحضارة هو عصرها الذهبى وقد تعودنا أن نقول : إن القرن الرابع الهجرى هو العصر الذهبى لحضارة الإسلام ، وهذا تقدير غير سليم ؛ لأن القرن الثالث الهجرى هو قرن إرساء قواعد العلم وتدفق الملكات وتدافع الإنتاج الفكرى ، فهو قرن القوة والشباب والربيع ، أما القرن الرابع فهو صيف الفكر الإسلامى ، والصيف هو فصل الثمر والحصاد ، وبعد حصاد الثمار لا يبقى إلا الهشيم المنذر بالخريف ثم الشتاء .

وفى القرن الرابع الهجرى دخلنا فى عصر الترف المفسد وهو ما يقابل فى المصطلح الغربى Earrysrin وهو يختلف عن الوفرة والترف الصالح ، وهما يقابلان مصطلحى Prassperity A Iundonce وابن خلدون عندما استعمل مصطلح الترف وحمل عليه كان يقصد الترف المفسد ؛ لأن الترف الصالح لا ضرر فيه بل هو طلبتنا جميعاً ، ومن منا لا يسعى للمسكن الطيب والأثاث الفاخر والسيارة الجميلة والنعمة الظاهرة ؟ إنما الترف المكروه هو ترف الجشع والكسب الحرام والاستزادة من الخيرات فى غير ضرورة على حساب الآخرين .

وابن خلدون عندما ينكر الترف المفسد ويقول : إنه إيذان بتدهور العمران وفساد المجتمع يلتقى هنا مع أوسفالد شينجلر Oswaed Jengler الذى قال : إن الحضارة بداية الفساد والمدخل إلى مغيب شمس الغرب Untergany Das Abend Iandes ويلتقى أيضًا مع أرنولد توينبى فى قوله : إن حضارة الغرب دخلت دور التدهور خلال عصر الاستعمار والعدوان على الحقوق وإهدار القيم ونهب الدنيا لبناء ثروات الغرب ومدائنه وقصوره .

ولابن خلدون هنا عبارة يمر بها القارىء دون تفكر وهى لباب اللباب فى فهم تاريخ البشر وحضارته عند الماضين . قال فى الفصل الثامن عشر من الباب الثانى من المقدمة تحت عنوان « فصل فى أن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره ، وإنها مؤذنة

بفساده » قد بينا لك فيما سلف أن الملك والدولة غاية للعصبية ، وأن الحضارة غاية للبداوة ، وأن العمران كله من بداوة وحضارة وملك ودولة له عمر محسوس (محسوب) ، كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات (الكائنات) عمرًا محسوسًا وتبين فى المعقول والمنقول أن الأربعين للإنسان غاية فى تزايد قواه ونموها ، وأنه إذا بلغ سن الأربعين وقفت الطبيعة عن أثر النشوء والنمو برهة ، ثم تأخذ بعد ذلك فى الانحطاط فلتعلم أن الحضارة فى العمران أيضًا كذلك ؛ لأنه غاية لا مزيد وراءها ، وذلك أن الترف والنعمة إذا حصلا لأهل العمران دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخلق بعوائدها ، والحضارة كما علمت هى التفنن والترف واستجادة أحواله (هنا يريد ابن خلدون الإسراف فى الترف وهو الذى يقابل الفساد Carra Jtian كما قلنا آنفاً) والكلف بالصنائع المنشأة التى تؤنق من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس أو المبانى أو الفرش أو الآنية ولسائر أحوال المنزل .. (المقدمة ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥) .

وهذه كلها معان وآراء تغيرت الآن نتيجة لاتساع نطاق العلم وتطور الفكر وأثر ذلك فى طبائع البشر والدول وأعمارهم ، ولكننا نتكلم عن العصور الماضية عندما كان مستوى العلم الطبى وعلوم الحياة عاجزًا عن حماية الإنسان من الأمراض ، فكان الرجل إذا بلغ الأربعين من عمره اكتهل وبدأ يميل نحو الشيخوخة ، والدولة الإسلامية كان ينبغى لها أن تظل فى ربيع العمر من القرن الثالث إلى السابع أو الثامن على الأقل ، وقد حدث هذا للدولة الرومانية قبلها حيث دام ربيع عمرها ـ إلى عصر النمو والنشاط البالغ وتدفق الحيوية والعمران من القرن الثانى قبل الميلاد إلى نهاية القرن الثالث بعده نحو خمسة قرون فلم يظهر تدهورها الحقيقى إلا فى القرن الرابع الميلادى ـ ولكن ضعف البناء السياسى لدول الإسلام وهشاشة تكوينه نتيجة لقيامه على غير قواعد الإسلام وخروجه عن منهجه جعلها ـ من الناحية السياسية ـ تدخل فى دور الشيخوخة خلال النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، أما من الناحية الحضارية ، والحضارة دائماً من عمل الشعوب ـ فإن التدهور والدخول فى مرحلة الترف المفسد تأخر قرناً من الزمان ؛ لأن أمة الإسلام ظلت مرتبطة بالعقيدة والقرآن والسنة مما حفظ لها إطارها ومكّن لها من مقاومة الآثار المفسدة التى دخلت على البناء السياسى الفاسد : وهى الاستبداد والظلم والعدوان على كرامة الإنسان ومحاربة الفكر

الحر الذى ينبغى أن يكون أساس حضارة الإسلام ولبابه وطابعه المميز له بين حضارات الأمم .

وإذا كان الأدب ــ شعرًا ونثرًا ــ والفكر ـ الذى ارتبط ارتباطًا وثيقاً بعلم الكلام ومذاهب الاعتزال ـ قد تأثرت كلها بالعوامل السياسية فضلت طريقها وفقدت الارتباط الضرورى بالأمة وروحها فتحول ـ فيما يتصل بالشعر والنثر ـ إلى إنتاج لفظى زخرف لا يعبر عن حقيقة نافعة ، أما فى بقية ميادين الفكر الإسلامى التى سلمت من شرور السياسة فإن شبابها ظل متدفقًا ، ويتجلى ذلك فى ميادين الفقه ـ وسنتحدث عنه فى فصول قادمة من هذه الدراسة ـ ويليه التاريخ والجغرافية والرياضيات والطب والصيدلة والأعشاب وما إلى هذا مما يدخل فى نطاق ما نسميه بعلوم الحياة .

ويتجلى هذا الشباب ـ أو ربيع الفكر العربى ـ بصورة واضحة جداً فى ميدانين هامين من ميادين علوم الحياة وهما التاريخ والجغرافية ، ذلك أن علم التاريخ ـ فى كل عصر وفى كل الحضارات ــ هو مظهر إحساس الأمة بنفسها وارتباط أجيالها بعضها ببعض ، وبالنسبة لعلم التاريخ عند المسلمين نجده قد ارتبط منذ البداية بالسيرة النبوية وهى ميراثهم التاريخى الأعظم وهى ديوان السلوك والأخلاق الأكبر وقد عنى المسلمون بها عناية كبرى وتوفر على تدوينها نفر من أهل الدين والحس التاريخى والإحساس بكيان أمة الإسلام ، ولهذا فقد بدأ علم التاريخ عندنا بداية سليمة بالتأليف فى السيرة من تاريخ مبكر جدًا ، ووصل التأليف فى السيرة خلال القرنين الهجريين الثانى والثالث إلى تأليف جامعة تعتبر بالفعل من ذخائر التاريخ الفكرى العربى أولها وأقدمها سيرة ابن إسحاق المتوفى فى بغداد سنة ١٥١ هـ / ٧٦٨ ومغازى الواقدى المتوفى سنة ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ وطبقات ابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ .

وتستوقف نظرنا هنا سيرة ابن إسحاق وهو أبو بكر محمد بن إسحاق بن يسار المطلبى مولى بنى هاشم فإن سيرة النبى التى كتبها تعتبر دون شك أعظم ما كتبه القدماء فى سيرة الرسول ﷺ وأولاه بالثقة ، وقد كتب ابن إسحاق سيرته فى تاريخ مبكر قبل أن يتعالى بناء دول الاستبداد ويثقل بوزنه على نفس الفكر الإسلامى حتى تكاد روحه تزهق ، وقد كتب الرجل سيرة الرسول ﷺ كما وصلت إليه من الرواة الأول وَدَوَّنَها دون تكلف أو خوف من دولة أو سلطان ، وتلك كانت مشكلته الكبرى التى

عانى هو منها الكثير وعانى منها كتابه أكثر ؛ لأن الرجل كتب كتابه فى العصر العباسى وقال الحقائق كما وصلته ، والحقائق لا تعجب السلطان ، لأن دور العباس بن عبد المطلب فى تاريخ الإسلام الأول ـ وقبل فتح مكة خاصة ـ كان دورًا لا يشرف بنى العباس ، فقد كان فى جملة أعداء الإسلام ومحاربيه وقد خرج فى جملة من خرج لمحاربة رسول الله ﷺ فى بدر ووقع أسيرًا فى أيدى المسلمين واضطر إلى فداء نفسه ودخل العباس الإسلام هو وأبو سفيان صخر بن حرب بن أمية قبيل فتح مكة فى وقت واحد ولم يقم بعد إسلامه بدور كبير بل ظل مادياً ينظر لصالح نفسه وأهل بيته ويطمع فى ميراث الرسول ، وهذا الموضوع يجعل العباس وبنيه أدنى بكثير من وضع على بن أبى طالب وبنيه ، وما دامت رئاسة الأمة قد أصبحت ميراثًا سياسيًا فقد تحارب عليه أهل الأطماع ومن يرون أنفسهم أولى بالميراث من أمثال بنى أمية ثم بنى على بن أبى طالب وبنى العباس بن عبد المطلب وبنى الزبير بن العوام . فأما بنو أمية فقد أنكرت الأمة دولتهم وتمكنت من الخلاص منهم وانحصر النزاع فى بنى على وبنى العباس وتمكن بنو العباس من الفوز بالخلافة دون آل على بالخداع والحيلة ولم يتنازل بنو على وأنصارهم أبدًا عما كانوا يحسون أنه حقهم الشرعى ، وهنا نجد سيرة ابن إسحاق لا ترضى الدولة العباسية ورجالها وقد كان مولى من موالى بنى عبد المطلب حتى نسب إليهم وكان صديقاً للإمام جعفر الصادق ولهذا اشتدت الحملة على ابن إسحاق وكتابه وإن كان أبو جعفر المنصور نفسه قد تظاهر بالرضا عن الرجل وقربه إليه وأكرم مثواه عندما أخرجه الفقهاء من المدينة وعلى رأسهم مالك بن أنس واتهموه بكل نقيصة ، فمالك ابن أنس قال عنه إنه « دجال من الدجاجلة » وروى محمد بن إدريس الشافعى أنه كان يتحدث عن المغازى مع مالك بن أنس فذكر ابن إسحاق وقال إنه قال : أنا بيطار المغازى ! فقال مالك : نحن قصيناه عن المدينة . وقال أحمد بن زهير بن حرب : إن يحيى بن معين سئل عن ابن إسحاق مرة فقال : ليس بذاك ضعيف ، وقال عنه هشام ابن عروة بن الزبير : إنه كذاب خبيث ، وحكى أبو داود الطيالسى أنه سمع أحمد بن حنبل يذكره فقال : كان رجلاً يشتهى الحديث فيأخذ كتب الناس فيضعها فى كتبه ، وقال يحيى القطان : ما تركت حديثه إلا لله ، أشهد أنه كذاب .

والحقيقة أن محمد بن إسحاق لم يكن كذاباً ولا مدلساً إنما كان يثبت ما يصل إلى علمه ، وقد يكون فى الكثير مما يصل إلى علمه بعض ما لا يُرضى هذا أو ذاك ، ولكن ذلك

لم يكن ذنب الرجل ، فقد كان التنافس على العلم بالحديث النبوى فى ذلك العصر شديدًا جدًّا ، وكان كل طالب علم يحب أن يكون بين من تروى عنهم الأحاديث فيعطيهم ذلك مكانة كبرى عند الناس فكثر نقد الناس بعضهم لبعض وتزاحموا تزاحماً شديداً حتى دفع بعضهم بعضاً بالمناكب ، ولهذا كثر الهجوم على رجل مثل محمد بن إسحاق رغم أنه أعرف أهل زمانه بالمغازى ـ وأخبار المغازى كلها تدخل فى السُّنة النبوية ، وربما كان من أشد ما جلب عليه العداوة أن بعض المعجبين به قالوا : إنه أمير المؤمنين فى الحديث ، ومالك بن أنس كان يحب أن ينفرد بهذا اللقب وهو يستحقه .

والذى لا شك فيه هو أن ابن إسحاق نجح فى أن يكتب سيرة كاملة لرسول الله ﷺ صادقة إلى حد كبير ، وقد يدهش بعض القراء عندما أقول : إن هذه هى أول مرة فى الحضارة العالمية يكتب فيها رجل ترجمة حياة بهذا التفصيل وتلك الدقة ، وأقصى ما بلغه اليونان والرومان فى فن ترجمة الحياة هو كتاب بلوتاركوس الرومانى فى تراجم نفر من عظماء اليونان والرومان ، والمقابلة بين حياة واحد من هؤلاء وواحد من أولئك وتراجم بلوتارك ليست شيئاً إلى جانب هذا العمل الهائل الذى قام به ابن إسحاق ووصفه المستشرق الفريد جيوم الذى نقله إلى الإنجليزية بأنه Man Mental .

ولا يقل ما عمله ابن إسحاق عما عمله الواقدى وهو محمد بن عمر بن واقد المتوفى سنة ٢٠٧ هـ فى كتابه العظيم المسمى بالمغازى أى : مغازى رسول الله ﷺ وهى الغزوات التى قادها والسرايا التى أرسلها تحت قيادة بعض أصحابه والبعوث التى كلف بها من رأى من الصحابة . فقد أتانا هذا الرجل بكل تفاصيل النشاط العسكرى للأمة الإسلامية أيام الرسول ﷺ فى أكثر من ألف صفحة حافلة بالتفاصيل الدقيقة التى نستطيع أن نستخرج منها ـ إذا أردنا ـ صورة كاملة للمجتمع الإسلامى أيام الرسول ، وأجمل ما فى سيرة المصطفى أنها ليست ترجمة لحياته الكريمة وحدها ، بل هى تاريخ للأمة كلها ، فقد كانت المغازى هى العمل الرئيسى لأمة الإسلام أيام الرسول ﷺ وما من صحابى ذى قدر إلا له فيها نصيب كبير أو صغير ، وهذا النصيب يعطينا صورة الصحابى ومكانته ، لأن الجهاد الدينى هو ميدان الامتحان الأكبر ، فالسيرة النبوية هى تاريخ لأمة الإسلام ، والمغازى تعرض علينا أجمل جوانب تاريخ هذه الأمة ، وإنك لتقرأ كتاب المغازى للواقدى ويملكك العجب : هل هذه الأمة العظيمة هى أسلافنا ؟ هل يعقل أن الأجيال التى تطاحنت على السلطان السياسى خلال القرن

الهجرى الأول هى بنـاة جيل العصر النبوى ؟ كيف يمكن أن يأتى هذا الهبـوط كله من ذلك السمو كله ؟ لا بد أن شيئًا خطيرًا ما قد حدث فأخرج الأمة كلها عن الطريق السوى الذى كـانت فيه وانحرف بها إلى طـريق آخر تماماً أدى بها إلى عـالم غريب لا يمكن أن يكون هو عالم الإسلام .

وذلك الانحـراف البالغ هـو الذى زرع فى نفـوس المسلمين « عقدة العصر النبـوى والعصر الـراشـدى الأول » ، فإن المسلمين من العصر الـراشـدى الثـانى من منتصف خلافة عثمان وبداية الفتنة إلى يومنا هذا يسألون أنفسهم ، ماذا جرى لنا وماذا دهانا ؟ وكلهم يحلمون بأن يعـودوا إلى العصر النبوى والعصر الـراشدى الأول أو يعـود هذان العصران إليهم ، وهـذا مستحيل وذاك مستحيل ، ولكن الممكن وهو الـذى يستطيع أن يعملـه المسلمون هـو أن ينشئوا بأيـديهم عصراً راشدًا ثـانياً ؛ لأن الـذى جعل للعصر الراشــدى الأول ـ عصر أبى بكر وعمـر ـ هذا البهاء هـو أن أهله كانـوا يسيرون فيه فى منهـاج الله كـانوا يسيرون فى طـريق الصراط المستقيم الـذى سماه عمـر بن الخطـاب بالجادة ، وقـال : وأمَّا أنـا فو الله لأحملنهم على الجادة ، ومـا من مسلم إلا يعزم على أن يلزم الجادة جادة الـرسول وصحابته ، ولكنه لا يلبث أن ينصرف عنها ، وكـان معاوية ابن أبى سفيان يضع فى كف الرجل مائة دينار ويأمره بقتل ابن بنت رسول الله فينطلق يسابق الريح ليقتل ابن بنت رسول الله ثم يبكى بعد ذلك ويلتمس التـوبة ، وما أكثر ما يقول الناس فى زماننا وكل أزمان الانحـراف : ماذا تريد ؟ إننى بشر كأن ذلك ذريعة أو حجـة لارتكـاب أفدح الأخطـاء . والجواب على مثل هـذا التسـاؤل : بلى أنت بشر ولكن المطلوب منك إذا أردت أن تعيد العصر الراشــدى أن تكون فوق مستوى البشر ، فالبشر فيهم الضعف أمـام المال والجنس ، والمطلوب منـك أن تكون أقـوى من المال والجنس ، والبشر فيهم الخوف من الموت ، والمطلوب منك أن تستهين بالموت فى سبيل مثلك الأعلى ، فقد قـال رسول الله ﷺ لواحـد من الصحابة « يـرحمك الله ! » فقال عمر : وجبت لـه يا رسول الله . أى وجبت لـه رحمة الله بالاستشهاد قـريباً ، ففرح الـرجل واعتبرها بشرى واستشهد عن قريب قرير العين .

وسعد بن خيثمة الصحابى الأوسى الأنصــارى تزاحم مع أبيه خيثمة بن الحارث ابن مـالك على الشهـادة واستهما على ذلك أى اقترعـا بـالأسهم ، فخـرج سهم سعـد ، فاستشهد فى بدر واستشهد أبوه فى أحد ، هذا هو فوق « مستوى البشر » الذى أقصده ، وهو نفس المستـوى الذى تصـوره السيرة النبوية وهنـا حكمتها . أمـا مستوى البشر

فرخيص : تسرق وتقـول : إني بشر ، وتزنى وتقـول : إنى بشر ، والطريق طويلـة كلها وهاد ومساقط ، والقرآن الكريم يقول لك : أنت بشر فيما يتعلق بمطالب حياتك العادية ، فلك أن تعيش مرتاحـاً راضياً طاعماً كاسياً حتى إذا طلب الإسلام منك شيئـاً فلابد أن تكون فـوق مستوى البشر فـلا راحة ولا رخاء ولا طعـام ولا كساء يسـاوى شيئاً إلى جانب الإسلام ، فالإسلام هو الأول وأنت الأخير ، وإذا استطعت أن تجعل نفسك أخيراً بالنسبة للإسلام وجـدت نفسك الأول على البشر ، وتلك هي المعادلة البسيطة العسيرة التى حَـلَّها الصحـابة عندما بـاعوا أنفسهم لله فقبل الله بيعهم : ﴿ إنَّ الله اشترَى مِـن المؤمنين أنفسَهُمْ وأمْوَالَـهُمْ بأنَّ لهُم الجنةَ يقاتلون فى سبيلِ الله فَيقْتلُونَ ويُقْتلُونَ وعداً عليه حقًّا فى التوراة والإنجيلِ والقـرآنِ ومَنْ أوفَـى بعهدِهِ من الله فَاستبشِرُوا ببيعكُم الذِى بايعتُمْ به وذلك هُوَ الفوزُ العظيمُ ﴾ (التوبة ٩/ ١١١) ، ومن أسوأ ما يفعله المسلمون هو أنهم يريدون الفوز العظيم دون أن يؤدوا ثمنه .

وتلك أيضاً هى المعضلـة التى يضعنا فيهـا علم التاريخ عنـد المسلمين ، فكل كبار المؤرخين حتى الـذين كتبـوا منهم مختصرات مثل أحمد بن واضح اليعقـوبى يبـدأون بالسيرة ، ثم يستمرون فى رواية الأحـداث حتى أيامهم ، فتبدأ بالخط المستقيم ثم تجد الطريق ينحرف أمامك فترى مقدار الانحراف .

وربما كان هذا هـو الذى دفع المسلمين إلى صرف الهمة إلى كتابـة التاريخ والإبداع فيه ؛ لأنه عندهم الصلة بينهم وبين العصرين النبوى والراشدى : إنه الخيط الذى يصل الحلم الجميل بـالواقع الأليم ، وحتى إذا لم يكـن صاحب التـاريخ متفلسفاً فإن فكـرة الربط بين مـا مضى وما هو فيـه ترقد فى الـلاوعى ، وهذا هو الـذى حفز المسلمين على الإكثار من التأليف فى التاريخ ، فإن المكتبة التاريخيـة الإسلامية تجىء بعد كتب الفقه وعلوم الدين مباشرة من حيث الكمية والقيمـة بالنسبة للتراث كله ، وإذا كان معظم أهل التاريخ من أبناء القرن الخامس ومـا بعده قد عاشوا فى ظلال الدولـة وفى رعاية رجالها فإن مؤسسى علم التاريخ الأول كانوا يكتبـون بدافع إسلامى عربى خالص ، وإلا فما هو دافع أبى جعفر محمد بن جـرير الطبرى (٢٢٥ ـ ٣١٠ هـ / ٨٤٠ ـ ٩٢٢ م) إلى تجشم عناء كتـابة تـاريخه المطول للإسـلام ؟ لقد كتب تـاريخه هذا بعـد أن فرغ من تفسيره للقرآن الكريم وأحس أن واجبه يفـرض عليه أن يسجل على هذه الأمة تجاربها

بادئاً بالسيرة النبوية ، وقـد خصص قبل ذلك مجلدًا لتاريخ البشر قبل الإسلام وهو فى الحقيقة تاريخ الرسالات الإلهية قبل الإسلام مع تاريخ مطول للفرس . حقاً إن الطبرى لا يفلسف التاريخ ولا يبحث عن الأسباب ويحلل الحوادث ولا يستخـرج أحكاماً ولكنه يضع الصورة أمـامنا ويـدعنا نحن نفكر ونـرى مقدار الانحـراف فى مسيرتنا ، بل إن الطبرى لا يكتفى بصورة واحدة للحـادث بل يأتينا بصور متعددة للخبر الـواحد حتى نرى المنظر من كل زواياه الممكنة ثم نستخلص بعد ذلك النتيجة التى نرتضيها .

كل هذا الجهد بذله الطبرى لكى يربط أجيال الأمة بعضها ببعض حتى يظل الخيط ممدودًا بين السـابقين والمعاصرين ، فهو هنـا يربط الأمـة برابط الزمـان وهو فى نفس الوقت يأتينا فى تاريخه بكل ما لديـه من الأخبار عن الشعوب التى دخلت أمة الإسلام ، فهو لهذا - سنـة بعد سنة - ينبـه الأمة إلى رابطة المكان ويشعرنـا بأن المسلم فى حدود الصين وغربى الهند هـو أخو المسلم فى الأندلس والمغرب وذلك هـو العمل العظيم الذى قام بـه المؤرخون ثم الجغرافيـون المسلمون - واعين أم غير واعين - إنها المحـافظة على وحدة الأمة فى الزمان والمكان ، وبينما كان رجال السياسة لا عمل لهم إلا تقطيع أوصال الأمـة الـواحدة وجعلهـا ممـالك أو دول طـوائف متعـددة متناحـرة كـان عمل المؤرخ والجغـرافى هـو تجاهل هـذه الفـواصل لكـى تظل أمـة الإسـلام واحـدة فى الشعـور والإحساس على الأقل ، وقد كانت كل دولـة من دول المسلمين تجتهد فى تحطيم السابقة عليها وتشويه سمعتها ورجال الدولة بهذا كانوا يمزقون وحدة الأمة زمنيًا ، فالأمويون فى نظر العباسيين دولة غير إسلامية ، والعباسيون فى نظر الفاطميين دولة كافرة ، وكل دول المشرق تعتبر دولة بنـى أمية فى الأندلـس دولة خـارجة عن إطـار الإسلام فيصر المؤرخون على تذكير المسلمين بأن هذه الدول كلها إسلامية كلها فروع شجرة واحدة ..

تلك هى الـوظيفـة الكبرى التى قـام بها المؤرخ والجغـرافى فى تاريخنـا الفكـرى ، وسنواصل الكلام فى هذه الناحية فى صفحاتنا القادمة ..

***

أَهْلُ الفِكْرِ وَبِنَاءُ وحْدَةِ الأُمَّةِ
وَعَالَمِ العُرُوبَةِ : المؤرخون

لقد ذكرنا فى الصفحات الماضية أن المؤرخين والجغرافيين قاموا فى تاريخنا الفكرى بوظيفة الربط بين أجيال الأمة وشعوبها ، أى أنهم عملوا على تأكيد وحدة الأمة فى الزمان والمكان .

وينبغى أن نضيف هنا أنهم قاموا بهذا العمل الجليل عن وعى منهم بالإسلام ودوره الذى ينبغى أن يكون له فى تاريخ البشر ، وربما كان الجغرافيون أوعى لهذه الوظيفة من المؤرخين فمعظمهم ـ وخاصة المقدسى ـ يقولون : إن دافعهم إلى الرحلة فى عالم الإسلام ثم وضعه فى كتاب هو تصوير مملكة الإسلام وتعريف شعوبها بعضها ببعض .

أما المؤرخون فقد شغلتهم الأخبار عن ذكر أسباب تأليفهم لكتبهم ، بل إن عميد هؤلاء المؤرخين ، وهو أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى يكتب تاريخه الضخم فى عشرة أجزاء ضخام ولا يكاد يقدم لهذا الكتاب الهائل بمقدمة معقولة ، ولكن فكرة الوحدة التاريخية أو الزمنية فى كتابه واضحة جدًّا .

بل إن واحداً من كبار مؤرخينا هو البلاذرى أبو جعفر أحمد بن يحيى بن جابر المتوفى سنة ٢٧٩ هـ ـ ٨٩٢م ، كتب فى تاريخ أمة الإسلام كتابين عظيمين : الأول كتاب « فتوح البلدان » يؤرخ فيه لاتساع أمة الإسلام جغرافياً ، فيذكر كيف تم فتح كل بلد من بلاد الإسلام ومن أهم أبطال ذلك الفتح ، وكيف كانت استجابة الشعوب للإسلام ، فكأنه يؤرخ لأمة الإسلام أفقياً ، ثم يعود فيؤرخ لها رأسياً فيكتب كتاب « أنساب الأشراف » فيأخذ بيوت العرب الذين أنشأوا الدولة ويذكر أنسابهم بيتًا بيتًا ، ويتحدث عن الظاهرين من رجال كل بيت فنعرف أجيال الأمة وتسلسلها بعضها عن بعض حتى نصل إلى عصر المؤلف ، بل إنه يذكر أنساب الأنبياء واحداً واحدًا حتى يصل إلى إبراهيم ثم ابنه إسماعيل ومن إسماعيل يتتبع الأنساب حتى يصل إلى محمد ﷺ فيذكر نسبه مطولاً ، ثم يخصص جزءاً كاملاً من كتاب أنساب الأشراف لرسول الله ﷺ فيقدم لنا

سيرة دقيقة أمينة متميـزة عن غيرها بما يخصص من فصول لكل فريـق من رجال أمة الإسـلام وأعدائهـا من اليهود والمنافقين والمستهزئين ، ثم يـواصل رواية أحداث السيرة حتى وفاة الـرسول ، وهو يتميز هنـا بصدق وصراحة وجراءة لا نجـدها عند غيره ؛ لأن الرجل كان صـادقًا أمينًا لا يقدم شيئًا على الصـدق والأمانة ويكاد يكون الـوحيد الذى يقف وقفة طـويلة عند كل واحد مـن أعداء الإسلام ؛ لأن الأعداء يصنعـون التاريخ كما يصنعه الأنصار .

من هذا الطراز من الصـدق والأمانة كان أوائل المؤرخين الذين وضعـوا أساس هذا العلم عندنا من أمثـال محمد بن حبيب النسابة المتوفى سنـة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م ، وعبـد الـرحمن بن عبد الحكم المتـوفى سنـة ٢٥٧ هـ / ٨٧٠ م وهـو الذى أرخ لفتـوح مصر والمغرب والأنـدلس ، أى لفتوح الجناح الغربى لـدولة الإسلام ، وأبى زيد عمـر بن شبة المتوفى سنة ٢٦٢ هـ / ٨٧٥ م ، وأبى الوليد محـمد بن الوليد الأزرقى صاحب أخبار مكة ، وأبى الفضل أحمد بن أبى طـاهر طيفور المتوفى سنـة ٢٨٠ هـ / ٨٩٣ م صاحب تاريـخ بغداد الذى لم ينشر منـه إلا مجلد واحـد ، واليعقوبى أحمد بن أبى يعقـوب بن واضح المتـوفى سنة ٢٧٨ هـ / ٨٩١ م وكتابـه من أصغر الكتب التى ألفت فى التـاريخ الإسلامى العـام ، فهو يقع فى جزءين ، واحـد منهما لتاريخ ما قبل الإسـلام ، والثانى للإسلام وأخباره حتى أيامه ، وتاريخه لا يتميز فى مجموعه إلا بميله الشيعى ، ولكن له ـ بين الحين والحين ـ ملاحظات أو نوادر تستـوقف النظر لنفاذها وعمقها ، وأبى حنيفة أحمد بن داود الدينـورى المتوفى سـنة ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م صـاحب كتـاب « الأخبار الطوال » عن العصر الأموى وحروبه ومآسيه .

وهؤلاء هم أعلام مؤسسى علم التاريخ عند العرب وكتبهم كلها متشابهة من حيث مستوى المادة التـاريخية ونـوعها ، والخلاف بينهم يكـون فى طريقـة صياغـة التاريخ فبعضـهم يطيل الإسناد على طـريقة المحـدثين ، وبعضـهم يختصر فيها أو يكـاد يغفلها ، وبعضـهم يذكر الأحداث فى نسق واحـد فى حين يرتبها آخر على السنين ، وبعضـهم دقيق وبعضـهم الآخـر أقل دقـة ، ولكن طرازهـم العلمى واحد واهتمامـاتهم واحـدة ، فكلهم يهتمون بـالسياسة وأحـداثها لا يكادون يلقـون بالاً إلى حياة النـاس أو صور المجتمع الإسلامى ، وهم لا يـلامون فى ذلك ؛ لأن علم التاريخ نفسه من العلـوم التى لم يدخلها تغّير أو تطـور إلا فى العصر الحديث عندمـا اتجهت العلـوم كلهـا نحو العمق والصـدق والتركيز على ما ينفع فى هذه الدنيا .

كل هذا الإنتاج الغـزير فى ميدان كتابـة التاريخ ثم قبل نهاية القرن الثـالث وبداية الرابع الهجريين (التـاسـع والعاشر الميلاديين) ويبدو أن أكبر ما دفع العـرب إلى كتابة تاريخهم هو اعتـزازهم بالسيرة النبوية ، وتعلقهم بها وفخرهم بالعصر الـراشدى وما تم فى نصفه الأول من فتوحات وانتصارات ، ثم دهشتهم وحسرتهم على ما وقع فى نهاية العصر الراشدى من مآس استمرت بعـد ذلك دون توقف ؛ لأن الحقيقة أن الذى وقـع فى منتصف خلافة عثمان كان أمرًا عجيبًا ، وكأن الإنســان العربى المسلم الذى بدأ حياته قويـاً باهـراً مبشرًا بكل خير أصابـه مرض عضـــال مفاجىء أوقف نموه بـل أقعده عن المسير وأصبح كإنسان أصـــابه شلل الأطفال وقـدر عليه أن يقضى بقية عمره جـالساً على كـرسى ، فالعـرب الـذين بنوا الـدولة وحملـوا عبء نشر الإسـلام حكم عليهم من منتصف عصر المعتصم أن يخرجوا من ميدان التـاريخ ويصبحوا متفرجين لا صانعى تاريخ ، والمصيبة أتت أولاً من سـوء فهم الناس فى عصر عثمان لمعنى الخلافة وتحولها إلى ملك ، وبنو أمية ـ وهم عرب ـ حكموا بالإعدام على العرب واضطهدوا العروبة ليظلوا ملوكـاً ، وهناك فكـرة شائعة تقـول : إن الأمويين اعتزوا بـالعرب وأقـاموا دولتهم على العرب وحكموا بهم ، وهذا خطأ فإن الأمويين عندما حولوا الخلافة إلى ملك غيروا طبيعة الدولة الإسلاميـة وجعلوها سلطاناً سياسيًّـا ، وضربوا العرب بعضهم ببعض واتخذوا جماعــات منهم جعلـوهم جنـدًا مرتـزقًـا يأخـذ المال ليقتل آل النبى ويـرمى الكعبـة بـالمنجنيق ، وهو أمـر لم يفعله الجاهليـون أبدًا ، وكـان الكثيرون من رجال بنى أميـة وقادتهم موالى مثل موسى بن نصير وبعضـهم الآخر كانوا جلادين جلدوا ظهور العرب مثل الحجاج ابن يوسف وهذا الرجل وقف على المنبر وشتم عرب العراق جميعًا وسماهم أهل نفاق وهددهـم بقطع رقاب من يرفع رأسه منهم ، ودســائس الأمويين جعلت عرب خراسان والمغـرب والأندلس يقتل بعضهم بعضاً ويرتكبون جنايـات لا تكاد تصدق ، وما رأيك فى رئيس من عـرب الأمويين وقع فى يده ابن منـافس له فحفر حفـرة ووضعه فيها وأمـر جنده بأن يبـولوا عليـه حتى مات . وفى مـواقع مثل مرج راهط قتـل العرب اليمنية ألوفاً من العرب القيسية بأمر الخليفة الأموى ، ثم يقولون لنا : إن الدولة الأموية كانت دولة عربية مع أنهم حـولوا العربى كما قلت لك إلى شليل على كرسى ومتفرج على التاريخ لا صـانع له ، وإذا كان بنو العبـاس قد أقاموا دولتهم على عـرب ساخطين على بنى أمية وموالٍ ساخطين على العرب ، فإنهم كانوا فى الحقيقة يكملون عمل بنى أمية .

ومن ذلك التاريخ ، أى منذ قامت دولة بنى العباس أخرج العرب من ميدان السياسة ولم يعد تاريخنا السياسى عربيًا ، والتناقض البالغ بين العرب صناع التاريخ فى العصرين النبوى والراشدى ، والعرب المطرودين خارج ميدان التاريخ فى العصر العباسى كان من الأسباب الرئيسية فى اهتمام الناس بعلم التاريخ عند العرب ، فإن الاعتزاز بقيام أمة الإسلام ثم الحسرة على ما أصاب العرب على يد خلفاء الإسلام هو الذى دفع المسلمين إلى الاهتمام بالتاريخ بحثًا عن أسباب هذه الكارثة ، وما من مؤرخ عربى إلا يبدأ تاريخه سعيدًا متهللاً بالسيرة النبوية ثم تنتابه الكآبة بعد ذلك وهو يؤرخ للعصرين الأموى والعباسى ، وعندما تقرأ كتابًا مثل « الإمامة والسياسة » لابن قتيبة الدينورى تحس كأنه فى حيرة وأنه يكتب ليبحث عن حقيقة ما حدث . والطبرى نفسه عندما يصل إلى عصر المأمون تحس كأنه لا يكتب تاريخ العرب بل يسجل تفاصيل محنة قاسية نزلت بأمة الإسلام ، أو كأنه يعرض حيثيات حكم بالإعدام صدر على رجل برىء عاجز ، وهذا البرىء العاجز هو العربى الذى أصابه الشلل وأقعده طغاة العرب على الكرسى بقية عمره واحتاج إلى من يدفع به عجلات الكرسى لتسير به أحداث التاريخ .

ومعنى هذا أن التاريخ السياسى لم يعد عربياً ولا إسلامياً ، ولأنه أصبح كذلك فهو لم يعد تاريخاً طبيعياً يدرس تطور الأمة تطورًا عضوياً من الداخل كما ينمو كل كائن حى وكما ينبغى أن ينمو تاريخ الأمم الصحيحة التكوين المتينة البنيان ، وتلك هى مأساة تاريخ العرب كما بناه رجال السياسة وأهل الدول : بنوه بناء سيئاً من مواد مغشوشة وأبوا أن يكون تاريخاً عربياً ، وهل يمكن أن نقول إن الدولة العباسية مثلاً دولة عربية سليمة ؟ كل ذلك الذى كان عربيًا فيها هو اسم الخليفة فهو الواثق أو المعتضد أو المستعين ، أما الوزراء والكتاب فربما كانوا عرباً ، ولكنهم لا يحكمون بأخلاقيات العرب أو بمنهج الإسلام ، والدولة كلها تعتمد على جند مرتزق غير عربى ، وقادة الدولة يسمون أشناس وبغا ، ووصيف وتنكين ، والدستور السياسى كله ساسانى منحط ، والضرائب نهب لأموال الناس والمرافق مهملة ووطن العروبة والإسلام موزع قطعاً بين ناس من شرار الخلق : العرب منهم عرب بالاسم ، والمسلمون منهم مسلمون بالاسم ، أفكان عجباً بعد ذلك أن يكون نمو الدولة الإسلامية كله أوراماً خبيثة ؟

وحقائق التاريخ لا تتبين إلا بالمقارنات ، فسأضرب لك هنا مثلاً من نمو أمة سارت سيرًا قومياً صحيحاً لكى تقارن ذلك بما رأيته من نمو دول الإسلام ، لنأخذ فرنسا ، فهذه الأمة نشأت مع قيام دولة شارلمان خلال النصف الأول من القرن التاسع الميلادى ، وملوك الكارولنجين من أبناء شارلمان عرفوا بعد معاهدة فردان سنة ٨٤٣ م كيف يجمعون أطراف جاليا ـ وهو الاسم القديم لفرنسا ـ حول رايته .

ملك فرنسى قومى وجنوده فرنسيون والأشراف المحيطون به فرنسيون ، وبيت الكارولنجيين حلت محله أسرة فرنسية لحماً ودماً هى أسرة الهيوكابية ، وتوالت الدول الفرنسية الأصيلة ، وكل دولة ملوكها وأشرافها ورجالها وجنودها فرنسيون ، حتى جاء ملوك البوربون بشتى فروعهم وعرفوا كيف يوحدون الوطن الفرنسى ، والملوك العظام من آل البوربون عظماء بقدر ما أضافوا إلى بنيان فرنسا وإظهار شخصيتها واستكمال أراضيها والعناية بعمران فرنسا وحضارتها ، ومؤسس أسرة البوربون وهو لويس الأول الكبير يعمل جاهدًا ابتداء من سنة ١٣٢٧ فى ضم الدوقيات الكبيرة التى كانت تتألف منها فرنسا ، ويحل محل بيت نافار سنة ١٥٥٥ ، وهنرى الرابع ينجح قبل موته سنة ١٥٨٩ فى ضم مملكة بزغنديا (يورجونيا وهى حوض نهر الرون كله) إلى عرش فرنسا ، وفرع أدواق أورليان من بيت البوربون يوفق بعد جهد طويل وحروب متصلة فى تكوين فرنسا بصورتها الحالية تقريباً ، ومن أيام لويس الثالث عشر تظهر فرنسا قوة سياسية كبرى فى غرب أوروبا ، قمة هذا النمو قبل الثورة الفرنسية كانت أيام لويس الرابع عشر (١٦٣٨ ـ ١٧١٥) عصر لويس الرابع عشر يقابل فى تاريخنا عصر هارون الرشيد أو عبد الله المأمون ، ولكن أى فرق عضوى جوهرى ؟ عصر الرشيد والمأمون فى تاريخنا قمة ونهاية ، وعصر لويس الرابع عشر قمة وبداية ، عندنا فى عصر الرشيد والمأمون لا يحكم العرب ولا يتمتعون بالمكانة الأولى ، وكل الذين يتصرفون فى أمورنا لا يتبعون سياسة عربية أو إسلامية ، وهارون الرشيد عاش معظم عمره خارج بغداد ؛ لأنه كان يخاف من مؤامرات الفرس فى بغداد ، لهذا نقول : إنه كان يحج عاماً ويغزو عاماً ؛ لأنه لم يعش فى بغداد إلا وقتاً قصيرًا جدًا ، والمأمون كان يرى فى بغداد مدينة معادية لكى يدخلها بعد نصره على أخيه الأمين وقتله ظل يحاصر بغداد سنتين ، معظم حياته قضاه فى خراسان ووزيره عبد الله بن طاهر كان عدواً للعرب . قارن بهذا رجال لويس الرابع عشر : تولى الوصاية عليه حتى بلغ سن

الرشد الأسقف الفرنسى ماذا رأى ؟ حتى توفى هذا الأخير سنة ١٦٦١ بعد ذلك أشرف على المالية الوزير كولبير فوضع سياسة تشجيع ونهوض بالزراعة ، من ذلك الحين إلى اليوم يعتبر الزارع الفرنسى أقدر فلاح فى الدنيا ، والفلاحون الفرنسيون اخترعوا من الجبن وحده ١٤٣ صنفاً ، وكولبير وضع أساس الصناعة الفرنسية وأنشأ المدارس الصناعية التى قام عليها مجد الصناعة الفرنسية ، وتولى الجنرال « لوفوا » بناء جيش فرنسى قومى من رجال فرنسيين خالصين ، وظهر القائدان العظيمان تورين وكونديه ، وقام الجنرال فوبان بتحصين الحدود ، وكان رجال لويس الرابع عشر يعملون على رفعة فرنسا فى أوروبا وفى أمريكا الشمالية ، وكندا الفرنسية بنيت أيام هذا الملك وفرنسا كلها تألقت فى عصر الملك الشمس برواء لم يَخْبُ بعد ذلك أبدًا ؛ لأنه قام على نمو سياسى وحضارى فرنسى داخلى أصيل ، بعد لويس الرابع عشر فرنسا فى صعود دائم وبعد عصر المأمون : العرب فى هبوط دائم ؛ لأن رجال الدولة والحرب والسياسة لم يكونوا عرباً ولا اتبعوا سياسة عربية .

هنا فى الدول التى نمت نموًا داخليًا عضويًا قوميًا سليمًا نجد الأشياء كلها أصيلة ، وفى تاريخنا العربى لا نجد إلا الزيف ، وحفيد الخليفة الرشيد كان أسيرًا ذليلاً بيد الجند التركى المرتزق الذى اشتراه أبوه ليذل به العرب ، صورة واحدة تكفى لتصور لك مأساة السياسة العربية . قال المسعودى يصف قتل الخليفة المعتز على يد الأتراك : فدخل عليه جماعة منهم فجروه برجله إلى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس (حراب صغيرة) وخرقوا قميصه وأقاموه فى الشمس فى الدار ، فكان يرفع رجلاً ويضع أخرى لشدة الحر ، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقى بيده وأدخلوه حجرة وأحضروا ابن أبى الشوارب وجماعة وأشهدوهم على خلعه وسلموا المعتز إلى من يعذبه فمنعه الطعام والشراب ثلاثة أيام فطلب حسوة (جرعة) من ماء من بئر فمنعه ثم أدخلوه سرداباً وجصصوا عليه (أغلقوه وبنوه بالجبس) فمات .. وكان غريبًا من الأمر أن صالح بن وصيف شيخ الأتراك طلب من أم المعتز واسمها خديجة ولم تكن عربية خمسين ألف دينار ليعفى ابنها من القتل فرفضت وكان لها من المال والجوهر ما يقدر بالملايين (انظر ابن الأثير جـ ٧ والمسعودى مروج الذهب جـ ٢ ـ ٤٢٩ / ٤٣٠) .

وهنا لا تسلنى عن حال دولة الإسلام فقد تمزقت قطعاً ولم تعد هناك فى الحقيقة

دولة إسلامية ، وتلك هى المأساة الأليمة التى تجرد لتسجيل أحداثها مؤرخون ورجل مثل محمد بن جرير الطبرى كان يكتب وقلبه يقطر دمًا ، وكان دافعه إلى الكتابة هو الحسرة على ما صرنا إليه بعد العز الذى كان . كان غرضه الأساسى أن يقول لأمة الإسلام : لا تنسوا قط أنكم أمة محمد ﷺ وأبى بكر ، وعمر ، وهذا الذى حدث طارىء وضلال ولا بد أن تعود الأمور إلى نصابها ما دمنا متمسكين بوحدتنا كأمة وبمثلنا الأعلى العربى الإسلامى فى الوحدة والعزة ، هذا هو السبب فى كثرة التأليف فى التاريخ عندنا أنت تحس فى كتابات المؤرخين أنهم يقولون : إذا كانت الوحدة السياسية قد ضاعت فإن وحدة الأمة لا تضيع . كلهم كانوا يطوفون بنواحى العالم الإسلامى ليطمئنوا على أحوال الأمة ثم يكتبون فى التاريخ ليحافظوا على الوحدة الزمنية للأمة ، والمؤرخون العرب كثيرون جدًّا بعد العصر الذهبى الأول لعلم التاريخ فى القرن الثالث الهجرى (وقد ذكرناه) وكلهم ساروا فى أعقاب محمد بن جرير الطبرى الذى كتب أجمل أجزاء تاريخه فى السيرة النبوية والعصر الراشدى والفتوح الإسلامية تمسكاً منه بالعز القديم حتى لا يطغى عليه التدهور الطويل ، سأكتفى هنا بواحد منهم يمثل هذه الفكرة أصدق تمثيل هو عز الدين بن الأثير .

وابن الأثير عربى من أهل الموصل عاصمة إقليم الجزيرة (شمال العراق فى العصور الإسلامية) وقد طوَّف فى بلاد العراق والشام وحج ثم عاد إلى مدينة الموصل واستقر فيها بقية عمره ، وكان فقيهاً محدثاً واسع العلم مقبلاً على الدرس والتأليف عمره كله .

وقد ألف ابن الأثير كتباً كثيرة فى التاريخ وعلوم الدين ، ولكنه مشهور بكتابين جليلين : الأول هو الكامل فى التاريخ العام ، والثانى كتاب من أحسن ما ألف فى صحابة رسول الله ﷺ ، وهو أسد الغابة فى معرفة الصحابة . والكتاب الأول ـ الكامل ـ يصور حرص المؤرخ الإسلامى على تتبع أحداث العالم الإسلامى فى ماضيه وحاضره المعاصر له ، فقد ظل يتتبع الأحداث حتى سنة ٦٢٨ هـ ـ أى إلى ما قبل وفاته بسنتين .

وهو يبدأ هذا التاريخ العالمى منذ خلق الله الخلق ، وماذا خلق الله أول ما خلق ، ثم ماذا خلق بعد ذلك حتى آدم ثم حواء ، ويلى ذلك تاريخ الأنبياء واحدًا واحدًا ، وهو هنا يوجز ما عند الطبرى واليعقوبى دون زيادة كبيرة ثم ينقل عن الطبرى خلاصة لتاريخ الفرس ويزيد عليه فصلاً عن الجاهلية وأيام العرب حتى البعثة النبوية .

وتمسك ابن الأثير بذكر ما يتصور أنه تاريخ العالم قبل الإسلام يصور لنا نظرية أساسية فى مفهوم التاريخ العـام عند المسلمين : وهى القول بأن التاريخ العالمى ينقسم فى جملته إلى ثلاثة عصور كبار يسميها ابن إسحاق ـ وهو أول من ابتكر هذه النظرية ـ « بـالمبتدأ » ثم « المبعث » ثم « المغـازى » . فأما المبتـدأ فهو التـاريخ القديم ، والتـاريخ القديم عنـدهم هو كل مـا سبق الإسلام ، وأمـا المبعث فهو سيرة النبى ﷺ وبنـاء أمة الإسلام على يديه ، والعصر الثالث أو القسم الثالث هـو المغازى وهو بقية تاريخ العالم من وفاة رسول الله ﷺ إلى نهاية الزمان .

والمتأمل فى هذا التقسيم يرى أن مؤرخى المسلمين كانـوا يرون أن البعثة المحمدية هى قمة التاريخ الإنسانى وكل ما سبقها تمهيد لها ، وكل مـا كان بعدها إكمال لرسالة الإســلام أى تـاريخ انتشاره حتى يعـم الأرض ومن عليها ، والمغـازى على هـذا المعنى ينبغى أن تستمر إلى آخر الزمان .

ومفهوم المبتدأ أخذه المؤرخـونَ المسلمون من كتاب العهد القديم وكانـوا يعرفونه حق المعرفة ؛ لأنـه يضم تواريخ الأنبياء من لدن آدم إلى مـوسى عليهما السلام ، ثم تلى ذلك تواريـخ أنبياء بنى إسرائيل ومعظمهم أنبيـاء معترف بهم عند المسلمين ، ويتمسك المؤرخون المسلمـون بذكـر أولئك الأنبياء ، لأنهم يـرون أنهم كلهم ممهـدون لرســالة محمد ﷺ ، ومحمد ﷺ خاتم الأنبيـاء وحامل أصفى رسالاتهم إلى البشر وهى الإسلام وهو ختام الـرسالات وقمة الهدى الإلهى للبشر ، وبذلك يكون التـاريخ القديم السابق على الإسلام هو البداية أو المبتدأ ، وهو يقابل ما يعرف فى كتب النصرانية بسفر التكوين The Genesis مع اختلاف فى المحتوى .

أما مـا يورده ابن الأثير من تاريخ الفرس قبل الإســلام فقد سار فيه على طـريقة الطبرى الـذى خصص جزءاً كـاملاً من تـاريخه لتاريخ الفـرس ، والطبرى مخطىء فى وضع هذا الجزء الكبير من تاريخ الفرس وإعطائه هذه الأهمية كلها فى التاريخ العالمى ؛ لأن معظم هذا الجزء يدور حول ملوك الفرس الســاسانيين ، وهم أسرة يمجدها الفرس وإن لم تكن مجيدة فى تـاريخ البشر فإن الساســانيين كانـوا طغاة ظلمـة فى مجموعهم ومساهمتهم فى التاريخ العالمى لا تقاس إلى مساهمات الفراعنة أو اليونان أو الرومان أو الروم البيـزنطيين أو دول الصين العظيمة ، ولكـن الفرس بعد الإســلام عظموا تـاريخ

الساسانيين وضخموه وجملوه ليرفعوا من شأن جنسهم أمام العرب الذين قضوا على مجد فارس القديم وخلصوا الإيرانيين أنفسهم من طغيان الساسانيين ومذاهبهم الدينية وكلها وثنية وثنوية ومجوسية وعقائد فى غاية الانحطاط الخلقى .

وعندما تقرأ ما يذكره الطبرى من تاريخ الفرس وما اختصره عنه اليعقوبى ثم ابن الأثير تدرك كيف أن المؤرخين المسلمين كانوا فى الغاية من الغفلة فى أحيان كثيرة ، فإن هذا الإسراف فى تعظيم ملوك الفرس الساسانية فيه إضرار بصورة التاريخ الإسلامى نفسه ، فهم يبالغون فى تعظيم كسرى مثلاً حتى يبدو كأنه صنو عمر بن الخطاب ، وكسرى أنوشروان كان طاغية مستبدًا ظالماً ، فلا وجه لتعظيمه ، وهو دون شك أدنى منزلة حتى من صغار ملوك الفراعنة وفيما عدا ذلك فإننا لا نرى بأساً بالتأريخ لأكاسرة الساسانيين ، بشرط أن يوضعوا فى مكانهم بلا زيادة ، والطبرى عندما أفرد من تاريخه نحو نصف جزء لهم أدى بذلك خدمة للتاريخ العام ، فقد أتانا بأوفى تاريخ عرفناه لهذه الأسرة الفارسية الكبيرة البأس ، أتى من أن هذا التاريخ ليس صحيحاً فى جملته فقد صاغه فرس متحمسون لقوميتهم إعلاء لشأن جنسهم فى مواجهة العرب الذين أزالوا ملك الأكاسرة ، وقد نقل الطبرى كلام الفرس على علاته ورفع بذلك من شأن جبابرة ظالمين من أمثال أردشير بن بابك منشىء دولة الساسانيين وسابور وهرمز وبعرام وكسرى أنوشروان ، بل بلغت به الغفلة أن روى عن أنوشروان هذا حكايات فى العدل والفضل والعقل تجعله أعظم وأجل من عظماء خلفاء المسلمين من أمثال هارون الرشيد ، وما درى الطبرى أنه بهذا النقل عن الفرس أضر بقومه العرب كما أضر بهم عندما أفرد فى الجزء الأول من تاريخه نحو عشرين صفحة يحقق فيها فى أمر الذبيح من هو ؟ إسماعيل أم إسحاق ابنى إبراهيم ، عليهم السلام ؟ وانتهى التحقيق إلى القول بأن الذبيح هو إسحاق وهو الذى أطاع أباه عندما أبلغه أنه يذبحه تقرباً بدمه إلى الله ، ففداه بالكبش السمين ، وبذلك يكون الطبرى قد قرر أن بنى إسحاق وهم بنو إسرائيل خير من بنى إسماعيل وهم العرب ! وهذا مثال من غفلة علماء النقل الذين جعلوا العلم كله نقلاً نصيب العقل فيه قليل أو منعدم . والطبرى رجل واسع العلم ، ولكنه قليل الفطنة فى كثير من الأحيان ، وإذا كنا نشكو من الإسرائيليات التى أضرت بالفكر الإسلامى ضررًا بالغًا فلابد أن نذكر الإيرانيات أيضاً ، فقد تسرب الكثير

منها إلى الفكر العربى فأضرت به فى ميادين علوم الدين والأدب والتاريخ وكان ضررها بالفرس المسلمين بالغًا .

وابن الأثير عندما ينقل ما نقل من تاريخ الفرس عن الطبرى أبدى فطنة كبيرة فاستبعد الكثير من تفاصيل تعظيم ملوك الساسانيين ، وجعل من تاريخ الفرس تفريعات ألم فيها بالكثير من تاريخ الرومان والروم البيزنطيين والهنود والعرب الجاهليين ، مع أنه لم يكن موفقاً عندما جعل تاريخ الفرس محورًا للتاريخ العالمى ولو أنه أتانا بفصول طيبة تعطينا فكرة سليمة عن مدى ما كان العرب يعرفون فى القرن السادس الميلادى من تواريخ الأمم القديمة وما يتصل بذلك من تواريخ اليهود والنصارى ومذاهب النصرانية قبل الإسلام .

وبعد أن يدخل ابن الأثير فى السيرة النبوية يبدى ذكاء وحسن تصرف فى الاختصار والاختيار ، والسيرة النبوية التى يقدمها لنا فى مستهلّ الجزء الثانى من تاريخه (بحسب طبعة المطبعة المنيرية التى يستخدمها هنا) سيرة جيدة رغم إيجازها ، ويستوقف نظرنا أن القليلين من أهل التاريخ المحدثين عندنا انتبهوا إلى مزاياها .

أما ما يرويه ابن الأثير من تاريخ الدول الإسلامية فيؤكد لنا ما أشرنا إليه من حرص المؤرخين المسلمين على إظهار وحدة الإسلام الزمنية والمكانية ، فهو عظيم الإحساس بقدر العصر الإسلامى الأول أو صدر الإسلام لا يزال يشير إليه فى تحسر ، وصدر الإسلام عنده هو العصر الذهبى الإسلامى ، فهو عصر الراشدين ووحدة المسلمين سياسياً وعقائديًا ، وعندما يروى أخبار الفتوح الإسلامية تشعر بالزهو بما يحكى من تفاصيلها ومن يلم بذكره من أبطالها ، وهو لا يشتد فى الحكم على بنى أمية حرصاً منه على عدم توسيع فجوات الخلاف بين المسلمين ، وعندما يدخل فى العصر العباسى وتتفرق وحدة الدولة نجد ابن الأثير حريصاً على أن يأتينا بأخبار دول المسلمين جميعاً من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، وهنا يتحول ابن الأثير إلى صحفى وأنت إذ تقرأ عنوانات ما يورد من الأخبار يخيل لك أنك تقرأ واجهة جريدة يومية ، وعنوانات الأخبار هى المانشتات ، فهناك مثلاً : هجوم الترك على بلاد الجبال و« ذكر حريق ضرب بلاد طخارستان » وأسطول المسلمين يقضى على أسطول للروم عند سواحل أقريطش و « عبد الله صاحب الأندلس يهزم جيوش الفرنجة » و « ذكر خسوف

كامل للشمس » و « أمواج البحر تبتلع جزيـرة بمن عليها » و « موت منويل ملك الروم الذى كان يريد الإيقاع بالمسلمين » .. وما إلى هذا من طرائف العناوين التى تعطى أخبار ابن الأثير جاذبية وطلاوة .

وهو فى كلامــه الكثير لا ينسى أى بلد إسلامى فهو يأتينــا دائماً بسير تاريخ دولة الخلافة فى بغداد ثم يأتينا بـأخبار المسلمين فى أقصى المشرق وفى هضاب إيران ومصر وبلاد المغـرب والأندلس وعينــه مفتوحــة دائماً على الصراع بين العرب والـروم فى آسيا الصغرى وشرق البحــر المتوسط ، وهو لا ينسى قط جزائر قبرص وأقــريطش وصقلية وأخبار الأنــدلس عنده كـاملة تقريبـاً لم يفته منهـا شىء يذكـر ، وقد جمع المستشرق فانيــان ما عند ابن الأثير من أخبــار المغرب والأندلس وصقليــة وترجمها إلى الفــرنسية ونشرها فى كتاب واحد يعتبر فى ذاته تاريخاً متصلاً للغرب الإسلامى كله .

عندما يتحدث ابن الأثير عن المرابطين وقيـام دولتهم فى شمال إفريقية الاستوائية نشعر أن الرجل يشعر بأهمية ما يروى مــن أحداث ، فهو يأتينا بأخبار ملوك السودان وما كان للإسلام من انتشار فى بلادهم ، وهو يقف عند يوسف بن تاشفين وقفة طويلة تدل على تقــدير وفهم ، ويحكى تفــاصيل الصراع بين المرابطين والأسبان حكـاية رجل ذكى يعرف أهميــة الأخبار التى يأتينــا بها ، وعينه لا تغفل فى نفس الـوقت عن الجناح الشرقى لدولــة الإسلام ، فهو يحكى أخبار الـدولة الإيرانية حتى أوائل القـرن السابع الهجـرى ، الثــالث عشر الميــلادى ويأتينــا بطلائع المغـول فى سيرهم المخـرب فى بــلاد الإسلام وكلامه كلام رجل واعٍ لوحدة عالم الإسلام .

فى هذا كلــه نرى أن ابن الأثير يحس إحســاسًا واعيًا بـوحدة أمــة الإسلام ، فهى المحرك الأساسى له فى كتــابة تاريخه وإن الإنسان ليشعر بالإعجــاب نحو هذا العربى الواعى لوحدة الإســلام زمنياً ومكـانيًا ، الحريص دائماً على أن تظل للإسلام وحدته فى عقل رجل الفكر ، وإن كــان رجال الـدول والسياسة لم يـدخروا وسعًــا فى تمزيق هذه الوحدة .

وابن الأثير يأتينــا هنــا بصورة أليمــة من أفــاعيل ملـوك المسلمين وما جـرى على المسلمين من ظلم وهوان وذلك على أيـديهم ، وهنا ونحن نقرأ تاريخ هذا الـرجل الكريم نتبين حقيقــة كبرى وهى أن الفضل الأكبر فى بقــاء شىء يسمى العــالم الإســلامى أو

العالم العربى يرجع إلى أهل الفكر دون رجال السياسة والحرب ، فرجال الفكر اجتهدوا فى الحفاظ على هــذه الوحـدة ولم يفرطـوا قط فى تـذكير المسلمين بضرورة الحفاظ على وحدة الأمة الإســلامية ، وقد رأينا هنا طرفـاً مما قام به فى هذا المجـال رجال التاريخ ، وسترى صوراً أخرى فى كلامنا عن المسعودى والمقدسـى ثم الجغرافيين .

وعندما نتحدث عن الفقـه والفقهاء سنتأكد بالدليل بعد الـدليل على ما قام به أهل الفكر فى عـالم الإسلام فى المحافظة على وحـدة الأمة حتى الشـعراء الذين كـان حرصـهم قليلاً على المثل الإسـلامية العربية العليا وفـرطوا تفريطاً معيبـاً فى واجب صـاحب القلم تجاه شعبه حتى هـؤلاء خدمـوا أمة الإسلام بما قـالوا من شعـر بليغ حافظـوا به على مستوى رفيع من البلاغة العربية ، وإذا كـان الشـعر نفسه قد خلا فى كثير من الأحيان من الإحســاس العربى الإســلامى فإن اللغة التــى قيل فيها هــذا الشعر كـانت رباطـاً مقدسـاً جمع شعوب العروبة والإســلام بعضها إلى بعض ، ورجل مثل المتنبى لم يكن لديه إحساس واضح بوحدة شعوب العروبة ، ولكن تلك العروبة استخدمت شعره رمزاً لجمال لغة العرب وإبـداعها ، وهذا نفسه عـاد بالمثوبة على المتنبى نفســه ويثاب الرجل رغم أنفه كما يقول الحديث الشريف .

* * *

المَسْعُودِى والمَقْدِسىّ والبَيْرُونى
ثَلاَثَةُ نُجُومٍ مُضِيئَةٍ
فِى سَمَاءِ الْفِكْرِ الْبَشَرِىّ

فى تاريخنا الفكرى يمثل المؤرخون والجغرافيون فكرة وحدة أمة العروبة والإسلام فى الزمان والمكان ، ولا يعترفون بغير هذه الوحدة ، ففى العصر الذى كتب فيه أعلام الجغرافيين من مدرسة المسالكيين أى البلدانيين أى الذين وصفوا لنا بلاد الإسلام وطرقها (مسالكها) وهو عصر القرنين الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر الميلاديين . كانت بلاد الإسلام فى الغاية من التفرق والتمزق السياسى . فالدولة العباسية دخلت فى دور الاحتضار الطويل ، وكل قطر من أقطارها استبدت به أسرة من أهل الاستبداد والطغيان ، والبويهيون الذين بسطوا سلطانهم على دولة الخلافة يمثلون الحضيض المخيف الذى انحطت إليه معظم نظم الحكم فى بلادنا ، فى تلك العصور باستثناء دولة واحدة هى دولة بنى أمية فى الأندلس ، ولكن الجغرافيين والرحالة لا يعترفون بالتقسيمات السياسية ولا بانحطاط الحكام عن سمت العدل واحترام الحقوق والمحافظة على كرامة الإنسان ، وهى الأساسيات التى ينبغى أن تقوم عليها أمة الإسلام .

لا يعترف أهل الجغرافية وأهل التاريخ بالسياسة وحماقاتها وأهلها ، ويؤرخون للدولة السابقة عليهم والمعاصرة لهم كما لو كانوا يكتبون عن عصابات من اللصوص ، ويصورون لنا أمة الإسلام واحدة بلا حدود أو تقسيمات ؛ لأن إيمانهم كان ثابتًا لا يتزعزع بالأمة ووحدتها فى الزمان والمكان ، رأسياً وأفقياً ؛ فالمؤرخون يربطون الأجيال بعضها ببعض ، والجغرافيون يربطون بين شعوب أمة الإسلام بعضها ببعض .

وتلك هى المعجزة الكبرى لأهل التاريخ والجغرافية عندنا ، وقد تحدثنا فيما سبق عن ابن الأثير ذلك العربى المؤرخ الصحفى الصادق نحو أمته وعقيدته ، وها هنا نتخير من أعلام المؤرخين والجغرافيين ثلاثة ونتحدث عنهم ، لأن سجل المؤرخين والجغرافيين عندنا طويل جدًا : سأحدثك عن المسعودى والمقدسى ، ثم أحدثك عن رجل موسوعى

متوقـد الذهن كان جغرافيـاً ومؤرخاً وفلكيـاً ورياضياً وخـادماً صـادقًا لأمـة الإسـلام والبشرية كلهـا ، هو أبو الريحان البيرونى ، وأحـب أن أقول لك : إننا ننظر إلى تـاريخنا الفكرى نظرة الطائر فنحن نحلق من ارتفاعات شاهقة فلا تبدو لنا إلا القمم ، وذلك لكى نستطيع أن نعطيك صورة هى أشبه بتلك التى يردها علينا القمر الصناعى ، وكما تبدو لنا فى الصور ولـوحات التلفاز ، وبدون هذا لن نستطيـع أن نفرغ من دراستنا تلك ، ثم إننا لا نريد أن نثقل على أنفسنا بزحام أسماء الأعلام ..

فأما المسعـودى فهو : أبـو الحسن على بن الحسين المسعودى نسبـة للصحابى الجليل عبـد الله بن مسعـود . ولـد فى بغـداد فى نهاية القـرن العـاشر الميلادى وتـوفى فى فسطاط مصر سنة ٣٤٥ هـ / ٩٥٧ م وهو شخصية عجيبـة تعد من مفاخر الحضارة العربية بـل الإسلامية كلها ، فهذا الـرجل عاش عمره كله يقـرأ ويدرس ويتعلم ويعلم ، والأرض عنده بسـاط محدود ، فهو فى رحلة دائمـة طلبًا للعلم ، وهـو فى شوق دائم إلى المعرفة وهو فى قلق لا يهدأ لاستكشاف المجهول ، وهمه الأول هو الاطمئنان على أحوال أمته العربية الإسلامية ، فهو يزرعها بالطول والعرض وهو يستعلم عن كل شىء فيها ويكتب لنا كتباً هى تقارير يرفعها إلى أمته العربية ليطمئنها على أنها بخير ويؤكد لها ألا مكان للجزع من شناعات رجال الحكم والسياسة فكلهم إلى زوال ولا تبقى فى النهاية إلا الأمة ، أمة الإسلام يرعاها رب العزة خالق الكون سبحانه .

وقـد كتب المسعـودى عشرات الكتب ضاع الكثير منهـا ولم يبق إلا القليل ، وهـذا القليل عظيم جدًّا وجيد جدًّا .

المسعودى مؤرخ جغرافى وعالم طبيعة ونبات وحيـوان ومؤرخ حضـارة ، وكتاب « مروج الذهب » الذى سنكتفى هنا بالحديث عنـه هو بالفعل مروج ذهن وفكر وعلم ، وهو يتنقـل بك فى صفحات كتـابه من بـاب لباب ومن ميـدان إلى ميدان فهـو لا يعرف المنهج ، ولكنه ينشد الحقيقة أبدًا .

ومروج الذهب أساسًا كتاب تاريـخ ، أى أنه يحاول أن يعطينا تاريخاً عالمياً يؤرخ فيه لكل شعوب الدنيا ولكل الأنبياء والديانات . ويحدثنا عن ديانات الوثنية ومذاهبها ، ويقص علينا ما انتهى إليه علمـه من أخبار المصريين والبابليين والآشوريين والعبرانيين واليونـان والرومان ثم الروم وهم البيـزنطيون ، ثم يدخل بعد ذلك فى تـاريخ الإسلام

ويمضى فى الرواية حتى يصل إلى عصر الخليفة المطيع العباسى ، وهو الخليفة العباسى الثالث والعشرون وهو أبو القاسم الفضل المطيع لله ابن المقتدر (٣٣٤ ـ ٣٦٣ هـ / ٩٤٥ ــ ٩٧٤ م) وهو معاصر المسعودى ولكنه كما قلت لك لا يلتزم الخط التاريخى بل يستطرد إلى العلوم والثقافات وأحوال العمران ؛ لأنه كان رحالة لا يكل ، فأنت هنا مع كتاب حضارة مرسل فى أسلوب قصصى جميل لأن المسعودى قصاص بارع وهو أديب بليغ يسوق ما لديه فى نسق سهل ممتنع ، واستمع إليه يقول فى فاتحة كتاب مروج الذهب : « أما بعد فإننا صنعنا كتابنا فى أخبار الزمان ، وقدمنا الكلام فيه فى هيئة الأرض ومدنها وعجائبها وبحارها وأغوارها وجبالها وأنهارها وبدائع معادنها ، وأصناف مناهلها ، وأخبار فياضها ، وجزائر البحار والبحيرات الصغار ، وأخبار الأبنية المعظمة والمساكن المشرفة ، وذكر شأن المبدأ وأصل النسل ، وتباين الأوطان ، وما كان نهراً فصار بحراً على مرور الأيام ، وما كان بحراً فصار براً ، وما كان براً فصار بحراً على مرور الأيام وكرور الدهور ، وعلة ذلك وسببه الفلكى والطبيعى » (مروج الذهب ١ / ٩) . فتأمل والله إشارته إلى الأراضى التى كانت براً فصارت بحرًا ، والتى كانت بحراً فصارت أرضًا فتشعر أن الرجل كان ذا علم بما نسميه اليوم بالجيولوجيا ، وأنه كان فى الحقيقة أقرب إلى علماء العصر الحديث منه إلى أهل العصور الوسطى .

بل هو يتطرق إلى الكلام فى أحوال الأمم والدول وما يعرض لها : « وكيف تدخل الآفات على الملك وتزول الدول وتبيد الشرائع ، والملك والآفات التى تحدث فى نفس الملك والدين ، والآفات المعترضة لذلك ، وتحصين الدين والملك وكيف يعالج كل منهما بصاحبه إذا احتل من نفسه أو من عارض يعرض له ، وماهية ذلك العلاج وكيفيته ، وأمارات إقبال الدول وسياسة البلدان والجيوش على طبقاتهم ووجوه الحيل والمكائد فى الحروب .. وهو هنا فيلسوف تاريخ ورجل سياسة وحرب ، وهو يختم كلامه فى مقدمة المروج بقوله : « ثم ما دفعنا إليه من طول الغربة وبعد الدار وتواتر الأشعار ، طوراً مُشرِّقين وطورًا مُغرِّبين كما قال أبو تمام :

خليفة الخضر ، من يربع على وطنى ... فى بلدة ، فظهور العيس أوطانى
بالشام قومى ، وبغداد الهوى وأنا ... بالبرقتين ، وبالفسطاط إخوانى

والخضر المذكور هنا كما يقول الماضون كان نبياً لا يموت ، فهو يطوف الأرض أبدًا يعظ الناس ويهديهم إلى الصراط المستقيم ، فهو مثلاً عبد الله الذى صاحب موسى عليه السلام ، والصوفية عندنا يكثرون فى ذكر الخضر وأخباره مع الصالحين ، فكان المسعودى هنا يشبه نفسه بالخضر فى رحلاته وهو كما ترى عربى خالص : فهو شامى عراقى بغدادى مصرى مغربى ، لأن البرقتين المذكورتين فى البيتين يراد بهما بلاد المغرب ، ومن هنا فإن المسعودى رمز على المفكر العربى الذى يقضى عمره فى طلب العلم وخدمة أمة العرب وتوكيد وحدتها بالعلم ، وأمة الإسلام فى ذلك العصر كانت قلب الدنيا وقائدة الحضارة على وجه هذا الكوكب ، بل إنه يبدو لنا فى صفحات كتابيه الكبيرين الباقيين « مروج الذهب » و « التنبيه والإشراف » كأنه حارس الدنيا وراعى الحضارة فهو يتحدث عن مذاهب الوثنية والديانات غير الإسلامية حديثاً معقولاً منصفًا ، وهو يجتهد فى فهمها ويمتدح ما يجده فى أهلها من الفضائل ، ثم إنه يمتدح الرهبان والكهان والقسيسين ويتكلم عن مذاهب النصرانية باعتدال وفهم ويرجو لهم الهداية ، وهو هنا أقرب إلى روح الإسلام من المتعصبين المتشددين الذين ينسون أن الله أمر بأن ندعو إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة .

وهو فى كلامه كله أستاذ عظيم يتحدث عن علم وسيادة وأستاذية وإنسانية ، وهو دون شك من معلمى الإنسانية وهو من أعلام الإنسانيين أى من يعرفون فى المصطلح الغربى باسم Human Ists .

* * *

ومن المسعودى الجليل ننتقل إلى المقدسى العجيب . والمقدسى ـ ولك أن تقرأ بفتح الميم وسكون القاف وكسر الدال ـ أو بضم الميم وتشديد الدال وفتحها . فالاثنان هنا سواء ؛ لأن الرجل فلسطينى من أبناء القدس وهو علامة طلعة جغرافى رحالة مغامر ذو شخصية فاتنة وكتابه الباقى بين أيدينا « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » .. يقف فى قمة سلسلة من المؤلفات الجغرافية العربية تعرف فى مجموعها بأطلس الإسلام ؛ لأنها مؤلفات قامت على خرائط ، أى أن أصحابها من الجغرافيين كانوا يبدأون برسم خريطة للأرض أو لعالم الإسلام ثم يضعون الخريطة ويبينون ما فيها فى كتاب ، وهذه السلسلة البديعة بدأها أبو زيد أحمد بن سهل البلخى .

ثم تلاه أبو إسحاق الفارسى الاصطخرى ثم أبـو القاسم بن حوقل النصيبى ثم توَّجها المقدسى هـذا الذى قـال فيه المستشرق الـويس شبرنجر : إنـه .. « أكبر جغرافى عـرفته البشرية قاطبة » ، وقـال فيه المستشرق كرامرز « إنه أكثر الجغـرافيين العرب أصالة » ، والحق أن المقـدسى جغـرافى أصيل حقـاً ولكنـه يقف دون الشريـف الإدريسى الـذى سنتحدث عنه فيما بعد .

والفضيلة الكبرى للمقـدسى واسمه الكـامل شمس الدين أبـو عبد الله محمـد الشامى المقدسى البناء (٣٣٥ هـــ ـ حوالى ٣٩٠ / ٩٤٦ ـ ١٠٠٠ م) ، وقد قـدم إلينا المقدسى أدق وأشمل وصف لبـلاد الإسلام التى يسميهـا مملكة الإسـلام ، والوصف يقـوم على خرائط صغيرة ما زال بعضها بين أيدينا .

وهو يبـدأ وصفه ببلاد العرب .. لأن فيهـا مكة قاعدة الإسـلام ، ثم يصف الجناح الشرقى لعالم الإسـلام وصفًا دقيقًـا يقوم على معاينـة ومشاهـدة فقد زار الـرجل بلاد الإسـلام كلها بـادئًا من غـربى الصين ، ولكنه لم يـزر المغـرب أو الأندلس فى الغـالب ، وجغرافيته طبيعية بشرية متوازنة فهو جغرافى بطبيعته يعرف أصول عمله ، فهو يبدأ فى كلامه عن كل اقليم بجغرافيته الطبيعية ثم يتبعهـا بالجغرافية البشرية وينتهى بالكلام على النظام الإدارى ثم الناس وأحوالهم وملابسهم ومـآكلهم ومشاربهم ويضمن كلامه ذك النوع من الطـرائف وحديث العجائب الـذى كان الناس يـولعون به فى العصـــور الماضية ، وبعض حكايات تتضمن حقائق علمية على أكبر جانب من الأهمية .

ومـدخل كتابـه أحسن التقاسيم أصبح من زمن طـويل قطعة من الأدب الجغـرافى العالمى ، فقد ترجمها إلى الهولانـدية دى فويه (سنة ١٨٧٥) وإلى الإنجليـزية كريمر (سنة ١٨٧٧) وإلى الإيطاليـة ناللينو (١٨٩٥) وإلى الفرنسـية جان سوفـاجيه (١٩٤٦) ، وإليك طرفاً منها لتعرف أسلوب هذا الرجل العجيب ..

اعلم أن جماعة من أهل العلم ومن الـوزراء صنعوا هذا البـاب (يريد الجغـرافية) وإن كـانت مختلـة ، غير أن اكثرهـا بل كلهـا سماع لهم ونحن : فلم يبق إقليم إلا قـد دخلناه وأقل سبب إلا قد عرفناه وما تـركنا مع ذلـك البحث والسـؤال والنظر فى الغيب (يريـد : المجهول) فـانتظم كتـابنا هـذا بثلاثة أقسـام : أحدهـا ما عـايناه ، والثـانى

ما سمعناه من الثقات ، والثالث ما وجدناه من الكتب المصنفة فى هذا الباب وفى غيره ، وما بقيت خزانة (مكتبة) ملك إلا قد لزمتها ، ولا تصانيف فرقة إلا قد قد تصفحتها ، ولا مذاهب قوم إلا وقد عرفتها ، ولا أهل زهد إلا وقد قد خالطتهم ، ولا مذكور بلد إلا قد شهرتهم (يريد الوعاظ وخطباء المساجد ودعاة الإسلام) حتى استقام لى ما ابتغيته فى هذا الباب ، ولقد سميت بستة وثلاثين اسما دعيت وخوطبت بها مثل مقدسى وفلسطينى ومصرى ومغربى وخرسانى وسلمى (عربى من بنى سليم بن منصور) ومقرىء وفقيه وصوفى وولى وعابد وزاهد وسياح (أى صوفى واعظ يجوب الأرض على باب الله) ووراق ومجلد وتاجر ومذكر وإمام ومؤذن وخطيب وغريب وعراقى وبغدادى وشامى وحنيفى ومؤدب وكير (أى عامل بالأجر) ومتفقه ومتعلم وفرائضى (أى متخصص فى قسمة المواريث) وأستاذ (أى حرفى صاحب صنعة يدوية) ودانشومند (أى شيخ علامة كبير) .

وشيخ ونشاسته (كواء ملابس ؟) وراكب (ملامح ؟) ورسول ، وذلك لاختلاف البلدان التى حللتها ، وكثرة المواضيع التى دخلتها ، ثم إنه لم يبق شىء مما لحق المسافرين إلا قد أخذت منه نصيبًا إلا الكدية (التسول) وركوب الكبيرة ، فقد تفقهت وتأدبت وتزهدت وتعبدت وفقهت وأديت وخطبت على المنابر وأذنت على المنائر ..

والمقدسى يقدم لنا نفسه وكتابه تقديمًا ساذجًا فيه غرور بنفسه وعمله ولكنه يخف عن قلوبنا ؛ لأن الرجل نفسه فيه صدق وأصالة وهمة وعزم ، واسمع إليه يقول فى فاتحة كتابه : « اعلم أن جماعة من أهل العلم ومن الوزراء قد صدقوا فى هذا الباب وإن كانت مختلة ، غير أن اكثرها بل كلها سماع له ونحن فلم يبق إقليم إلا قد دخلناه ، ولا سبب إلا قد عرفناه وما تركنا مع ذلك البحث والسؤال والنظر فى الغيب فانتظم كتابنا هذا بثلاثة أقسام ، أحدها ما عايناه ، والثانى ما سمعناه من الثقات ، والثالث ما وجدناه فى الكتب المصنفة فى هذا الباب وفى غيره ، وأممت فى المساجد وذكرت فى الجوامع واختلفت إلى المدارس ودعوت فى المحافل ، وتكلمت فى المجالس ، وأكلت مع الصوفية الهرائس (وهى العصائد وكل ما يشبه البودينج) ومع الخانقائيين الثرائد (جمع ثريد) ومع النواتى الملاحين العصائد ، وطردت فى الليالى من المساجد ، وسحت فى البرارى وتهت فى الصحارى ، وصدقت فى الورع زمانًا ، وأكلت الحرام عياناً وصحبت عباد جبل

لبنان ، وخـالطت حيناً السلطان ، وملكت العبيد وحملت على رأسى بـالزنبيل ، وأشرفت مـرارًا على الغـرق وقطع على قـوافلنا الطـرق ، وخـدمت القضـاة والكبراء ، وخـاطبت السلاطين والوزراء ، وصاحبت فى الطرق الفساق (كذا فى الأصل المطبوع ويكون معناه فى جزء الحالـة المسافرين ليـلاً هربًا من أعين الشرطـة ، وقد تكون صحـة قراءة اللفظ الفسـاق) ، وبعت البضـائع فى الأسـواق ، وسجنت فى الحبـوس ، وأخـذت على أنى جـاسـوس ، وركبت الكنـائس (المحامل التى تـوضع على ظهـور الجمال) والخيـول وعاينت حرب الروم فى الشوانى (السفن الحربية الكبيرة) وضرب النواقيس فى الليالى .

وجلـدت المصاحف بـالكـرى (الأجر) ومشيت فى السمائم (جمع السمـوم وهى الرياح المعروفة والثلوج) ونزلت فى عرصة (دار) الملوك بين الأجلة وسكنت بين الجهال فى محلـة الحاكة (دكـاكين الخياطين) وكم نلت العـز والرفعـة ودبر فى قتلى غير مـرة وحججت وجاورت وغزوت ورابطت وشربت بمكة من السقاية السويق (دقيق يذاب فى الماء) وأكلت الخبز والجليـان بالسبق (اسم مكان) ومن ضيافـة إبراهيم الخليل (أى من الطعـام الذى كـان المحسنون يقـدمونـه لزوار مسجـد الخليل) وجميز عسقـلان السبيل (أى الـذى يقـدم لأبناء السبيل فى عسقـلان) وكسبت خلع الملـوك وأمـروا لى بالصـلات وعريت وافتقرت مـرات وكاتبنى السـادات ووبخنى الأشراف وعرضت على الأوقاف وخضعت لـلأخلاف (أى أن اسمـه وضع ضمن المستحقين لخيرات الأوقاف وبحثوا عنه وعن حاله) ورميت بالبـدع واتهمت بالطمع وأقامنى الأمراء والقضاة أميناً ودخلت فى الـوصـايـا وجعلت وكيلاً (أى مـا يشبـه المحـامى فى المحـاكم) وامتحنت الطرارين ورأيت دول العيـارين (اللصوص) واتبعنى الأرذلون وعانـدنى الحاسدون وسعى بى إلى السلاطين ودخلت حمامات طبرية والقـلاع الفارسية ورأيت يوم الفوارة وعيد بربارة وبئر بضاعة وقصر يعقوب وضيـاعه والمهرجان والسنة (عيد رأس السنة عند النصـارى) والنيروز بعدن وعجبه ، وعيـد المارسرجه (فى مصر) ومثل هـذا القدر ليعلم الناظر فى كتابنا أنَّا لن نصنفه جزافاً ولا رتبناه مجازاً ..

فهـذا إذن رجل عجيب قضى عمره كلـه يطـوف بعالم الإسـلام وخارجـه ويلقى بنفسه فى المهـالك طلباً للعلم والمعـرفة لكى يقـدم لأمته العـربية بعـد ذلك كتابـاً هو فى الحقيقة تقرير عن الدنيا ، تحمل هذا الرجل المشاق وخاض الأخطار ليكتبه خدمة لأمته فأى إخلاص هذا للعلم والأمة ؟ مثل هذا الرجـل دون شك جوهرة تزين تاريخ حضارة البشر .

ومن المسعودى العلامة المتبحر صاحب الذهن القلق المشوق أبداً إلى المعرفة والمقدسى المغامر الباحث عن العلم والمعرفة الذى قضى حياته فى رحلة واحدة متصلة غايتها طلب العلم وربط ماضى أمة الإسلام بحاضرها ، وشرقها بغربها ننتقل إلى شخصية أخرى فاتنة من شخوص التاريخ الفكرى العربى المجيد ، إنه أبو الريحان البيرونى الذى لا نعرف اسمه الكامل ، ولكنه علم يملأ الدنيا بعلمه ويبهرها بعقليته العلمية التى تضعه بحق فى نفس مستوى أعاظم أعلام النهضة الأوروبية من أمثال ميكل أنجلو وجاليليو ، ولو كانت نظم الدول الإسلامية التى عاش فى ظلها قائمة على روح الإسلام حقاً لكان هذا الرجل دون شك قد قاد الإنسانية كلها فى معارج الحضارة خطوات واسعة .

وأبو الريحان البيرونى ليس عربى الجنس ولكنه عربى اللسان مسلم القلب ولد فى ضاحية من ضواحى بلدة خوارزم ، وخوارزم بين بحر قزوين الذى يسميه العرب بحر الخزر ونهر سرداريا أو سيحون ، وبيرون أو برون بدون ياء ليس اسم مكان فى الغالب . بل معناه الضاحية أو الريف ، فهو على هذا ريفى ولد ونشأ فى إقليم جبلى يتميز بشتائه البارد الطويل .

وقد ولد فى ذى الحجة ٣٦٢ هـ ـ ٤ سبتمبر ٩٧٣ م ، أى فى أواخر أيام المسعودى والمقدسى ، وفى أواخر أيامه عرف أبا على بن سينا وهو مفخرة من مفاخر الحضارة الإنسانية ، وهكذا ترى أن مسيرة الفكر العربى الإسلامى كانت فى الحقيقة مسيرة متتابعة ومشعل الحضارة ينتقل من جيل إلى جيل ، وقد توفى أبو الريحان فى غزنة فى أفغانستان الحالية فى الثالث من رجب سنة ٤٤٤ هـ / ١٣ ديسمبر ١٠٤٨ م ، ومن سن الرابعة والعشرين إلى وفاته فى الخامسة والسبعين من عمره عاش هذا الرجل للعلم ، وللعلم وحده وساق نفسه فى طلب العلم سَوْقَاً عنيفاً ، وخلف للإنسانية وراءه علماً غزيراً رفيعًا جعل الروس المعاصرين يجتهدون فى إلحاقه بجنسهم واعتبروه مفخرة من مفاخرهم كما يفعل الأسبان بعلم آخر من أعلام الإسلام عاش فى نفس العصر تقريباً وهو أبو محمد على بن أحمد بن حزم الذى لم نؤلف نحن عنه إلا كتباً صغاراً فى حين أن عالماً أسبانِيًا جليلًا هو ميجيل أسين بلاتيوس ألف عنه كتاباً من خمس مجلدات ودخل بفضله مجمع اللغة الإسبانية ، وفى تلك الأكاديمية الإسبانية

العـريقة ، أعطـوا ابن حزم الجنسيـة الإسبـانية وسمـوه ابن حزم الكـوردوبيس أى القرطبى .

وباكستان تطلب لنفسها شرف نسبة أبى الريحان إليها ، أما هو فقد كان يحس أنه فارسى ولكنه عربى اللسان والقلب ، وبالعـربية كتب كل كتبه وكان يقول : وإلى لسان العرب نقلت العلـوم من أفكار العالم ، فازدانت وحَلَتْ إلى الأفئـدة وسرت محاسن اللغة منهـا فى الشرايين والأوردة وإن كـانت كل أمـة تستحلى لغتهـا التى ألفتهـا واعتـادتها واستعملتها فى مآربها مع أشكـالها ، وأقيس هذا بنفسى وهى مطبوعة على لغـة لو خلد بها على لاستغـرب مثل البعير الميزاب والـزرافـة فى العـراب (يريـد اللغـة الفارسيـة) والعراب هى الخيل ، فأنا فى كل واحدة دخيل ولها متكلف أى أن الفـارسية والعربية لم تكونا لغته ، فإن لسانه تركى والهجو بالعربية أحب إلىَّ من المدح بالفارسية .

وقـد عاش أبـو الريحان فى ظل دولـة تعتبر من أمجد دول الإسـلام وهى الدولـة الغزنوية وهى تركية قامت فى أفغانستان الحالية على يد فارس محارب يسمى البتكين ، ولكنهـا أنجبت سلاطين عظماء مثل محمـد جلال الـدولـة ، وناصر الـدولة مسعـود ، وشهاب الدولة مودود ، وفى صراع القوة والسياسة فى شرقى إيران اندفع الغزنويون إلى الهند ففتحـوا شمالها وبدأوا بـذلك قصة مجد الإسلام فى شبـه القارة الهنـدية ، ومع مسعـود ثم مودود عـاش البيرونى وكتب وألف ولم يكن من رجـال الدولـة أو من أهل ثقتها ، ولكنه كان زاهدًا فى السلطان أو الجاه أو المال فعاش بالعلم وللعلم وأضاف بذلك إلى سجل الفكر العربى صفحات كلها نور ..

والبيرونى ريـاضـى فى أساسـه فهو رجل علوم وريـاضيات وهـو يكتب ويحسب ويرسم أشكالاً هندسية ويضبط قواعد رياضية بدقة لا نجدها إلا عند كبار الرياضيين فى العصر الحديث وكتابه الأول الكبير اسمه « الآثار البـاقية عن القرون الخالية » كتاب ريـاضـة وفلك وحسـاب للتواريخ والأزمـان وأنت ترى وأنت تقـرؤه أن الرجل يعـرف العربية والفـارسية والتركية والهندية والعبرانيـة والكثير من اليونانية والـلاتينية فهو عقل عالمى يريد أن يضع قاعدة رياضية للتاريخ ، وقد نشر الكتاب علامة ألمانى يسمى إدوارد سخاو وقـال فى مقدمته : إن البيرونى فخر لـلإنسانية كلها فهـو رجل حضارة يحترم العلم وأهلـه ويطلبه فى كل لغـة ، وكان السلطـان مسعود الغـزنوى لا يحب أبـا

الريحان ؛ لأن الرجل رفض أن يكـون نديماً أو رجلاً من رجال الحاشيـة ، ولكن عندما كتب البيرونى كتابه الخالد « القانون المسعـودى » الذى صحح فيه كل حسابات الفلك والنجوم إلى أيامه اضطر السلطان إلى أن يحنى هامته لرجل العلم العظيم .

وكان البيرونى قـد ذهب إلى الهند فى صحبة السلطـان محمود الغزنـوى ، وخلال سنوات إقامته فى الهند درس الهنديـة وتاريخ الهند وعقائد أهلها . وعلومهم وألف أعظم كتاب أُلِّفَ فى العصـور الوسطى عن بلد واحد وهـو تحقيق للهند من مقولة مقبـولة فى العقل أو مرذولة ، وهـو كتاب يحير الألباب بسعة ما فيـه من العلم والعمق وبعد النظر والصبر على الدرس حتى أنك لا تسأل : ماذا كان البيرونى يعرف ؟ بل تسأل : ماذا كان لا يعـرف؟ لأن عقل الرجل معجـز حقاً ، فكتـاب الهند كتـاب اجتماع وجغرافيـة وعلم أجناس ولغـة وأديان ورياضة وحســاب وموسيقى وأدب وإن كانت الجغـرافية أغلب عليه ، وما رأيك فى رجل يأخذ حفنة من تـراب الأرض قرب مكة ويدرسها ويفحصها ثم يقول : هذه الأرض كـانت بحراً فى سالف الأزمان ! وهـذا صحيح فإن فى أرض الحجاز أصدافاً بحريـة إلى يومنا هذا ، وهذا الرجل نفسه يقـول : إن فصول السنة جنوب خط الاستواء مغـايرة لفصـولها شماله ، فعندمـا نكون نحن فى الصيف يكـون جنوب خط الاستواء شتاء ، وهو يتحدث عن دوران الأرض حول نفسها مرة فى اليوم والليلة حديث أستاذ معاصر ويقـف طويلاً متردداً أمام ما يقـال من أن الأرض مركز للكـون ويرصد النجوم فى مرصد المراغة ويتساءل : هذه الشمس كلها تدور حول الأرض ؟ وكان الناس فى عصره يقولـون: إن بحار العـــالم ذات مستويـات مختلفة ، أمـا البيرونى فقـد قال جازماً : إن بحار الدنيا كلها مستطـرقة ومنسوب الماء فيها واحد ، وهو يقف عند وادى نهر السند ويقول : إن ذلك الوادى فى يوم من الأيام كان قاعاً بحرياً ثم غطته الرواسب الفيضية بالتدريج ، وهذه أول مرة يتحدث إنسان عن تكون الدلتاوات الفيضية .

* * *

حقًا إن تاريخ الفكـر العربى سجل مفاخر زاخرة ، وأمـة العرب والإسلام لم تكف أبداً عن اطـلاع العباقـرة ولولا ضيق المقام لقلنـا أضعاف ما قلنـا ، وعندمـا أحدثك فى الفصول القادمة عن رجال مثل أبى العلاء والشريف الإدريسى وابن حزم وابن خلدون سترتفع هامتك وتشعر أنك وارث أجمل حضارات البشر جميعًا .

* * *

الإدريسى وابنُ خُلدُون
عَلَمَانِ فى تَاريخِ حَضَارَةِ الْبَشَرِ

المسافة بين الشريف الإدريسى وعبد الرحمن بن خلدون طويلة جدًا فى حكم الزمان والمكان جميعًا ، فالأول منهما جغرافى من أهل القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، والثانى مؤرخ تاريخى متفلسف من أهل القرنين السابع والثامن الهجريين / الرابع والخامس عشر الميلاديين . الأول شريف إدريسى وقور ساكن هادىء الطبع يجوب عالم الإسلام للدرس والمشاهدة وطلب المعرفة دون تطلع إلى وظيفة أو منصب ، والثانى مغامر طموح ، ولكن كليهما عاش للعلم وتعب فى طلبه وعانى كذلك الأذى من الناس والحكام وصروف الأيام ، ولكنهما يلتقيان عند شىء واحد ، وهو أن كلاًّ منهما ذروة العلم العربى فى ميدانه ، فالإدريسى قمة الجغرافية ، وابن خلدون قمة التاريخ ، وكل منهما فعلاً ذروة من ذرى العلم والفكر الإنسانيين .

فأنت لا تستطيع أن تحكى قصة حضارة البشر دون الإدريسى أو ابن خلدون ، وأغرب ما يجمع أحدهما إلى الآخر رغم الاختلاف فى كل شىء تقريباً هو أنهما معاً عرفا من حقوقنا الشىء الكثير ، وكان أهل الغرب هم الذين عرفوا مكانتهما بأكثر مما عرفنا ، والفضل الأول فى اكتشاف عبقريتهما وفضلهما على العالم يرجع إلى الغربيين ، فهم الذين توفروا فعلاً على دراستهما وبحث ما كتبا . دراسة جادة متعمقة وانتهوا إلى أنهما مفخرتان من مفاخر الإنسانية ، ومن أفواههما أخذنا نحن ذلك ومضينا نزهى بالإدريسى تارة وبابن خلدون تارة أخرى ، ثم نصيح : ويل للمستشرقين ! ما أصابنا منهم إلا كل بلاء ، وآخر ما لدينا من أخبار الرجلين يأتينا من الغرب أيضًا ، فإننا ـ نحن ـ لم ننهض بنشر جغرافية الإدريسى نشرًا علميًا دقيقًا محققًا ، فنهضوا هم بذلك ، وقام نفر من العلماء الإيطاليين والأوربيين والغرب فنشروا جغرافية الإدريسى على أكمل صورة ، وقام اثنان من علماء الغرب بترجمة مقدمة ابن خلدون إلى الإنجليزية والفرنسية والترجمة الفرنسية فى ذاتها تحفة أدبية ، لم يرض لها المترجم عنوانًا هو أقل من أَجَلِّ أسامى الكتب عند الغربيين ، فليس هناك غربى لا يفخر بكتاب القس الفرنسى الأب جاك بنيجنى بوسويه (١٦٢٧ ـ ١٧٠٤) المسمى : مقال فى التاريخ العالمى ، فأخذ

المترجم الفرنسى وهو فنسان مونتاى نفس العنوان وجعله اسمًا للترجمة الفرنسية التى صاغها فى أجمل أسلوب لمقدمة ابن خلدون Discours. Sur L'kistaira .

وختم هذا العمل الصالح برأس الصالحات ، فدخل الإسلام عن إيمان واقتناع وأصبح اسمه فنسان منصور مونتاى Vincent Mansour Montaie. أجل قاده إلى الإسلام إعجابه بابن خلدون ، ولكى يترجم المقدمة اضطر إلى أن يخوض فى علوم الإسلام خوضًا ، وخرج منها مؤمنًا طاهرًا كما ولدته أمه بإذن الله .

والعصور التى عاش فيها الرجلان يشيب لها قرن الزمان ، فأما الشريف الإدريسى فلم يظفر بالأمان إلا فى ظل ملك نورمانى مسيحى ، قضى فى بلاطه فى بلرم بصقلية خمس عشرة سنة كتب فيها بالاشتراك مع الملك النورمانى أدق وصف للأرض وإلى زمانه وسماه .. « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » ، وأما ابن خلدون فقد تقاذفته عواصف الزمن من أقاصى الغرب إلى أقاصى الشرق ، وطارده الموت مرة بعد أخرى فلم يجد الراحة إلا فى سنواته الأخيرة فى مصر ، تولى فيها قضاء المالكية مرة بعد أخرى وختم حياته مخلفًا للبشرية مقدمته الجليلة وتاريخه العظيم .

وأبدأ فأجمل لك حياة الرجلين حتى نفرغ من المعلومات الضرورية عن كل منهما ويتسع أمامنا المجال للكلام عما خلفا للإنسانية من تراث جليل .

فالإدريسى شريف من بيت الحسن بن على بن أبى طالب فشب أشرف أرومة وهى أرومة الحسنين من آل المصطفى ﷺ ، واسمه الكامل أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس ، وإدريس هذا ليس إدريس الكبير الذى أنشأ دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م ، ولكنه إدريس الحمودى وهم أسرة الحموديين من الأشراف الحسنيين ، شاركت مشاركة غير كريمة أو محمودة فى الفتنة الأندلسية الكبرى خلال القرن الحادى عشر الميلادى ، فقد طمع رجالها فى الخلافة بعد زوال خلافة الأمويين فى الأندلس ولم يكونوا أهلاً لهذه المسئولية أو المطلب ، فطحنتهم أحداث الفتنة طحناً ثم لفظتهم لفظاً واستقرت بقاياهم فى سبتة ، ومن نسل إدريس العالى آخرهم انحدر شريفنا الإدريسى .

فخرج إلى الدنيا فى غمار الناس ومضى يطلب العلم وكان مولده فى مدينة سبتة سنة ٤٩٣ هـ / ١١٠٠ م ، ولا ندرى من تفاصيل حياته شيئاً ؛ لأنه فيما يظهر قد

استخفى عن الناس خوفًا على حياته ، فقد كان كل أصحاب السلطان فى عالمنا العربى يخافون الأشراف بقدر ما كانت جماهير الناس تحبهم .

وإلى المشرق ذهب الإدريسى لأداء الفريضة وطلب العلم وهو لم يتخطَّ العشرين من عمره بكثير ، ولا ندرى على الحقيقة ماذا درس ، ولكننا لا بد أن نفترض أنه تعلم فى فاس من بلاد المغرب ثم على مراحل طريق الحج ما لا بد منه من أساسيات الدراسة فى تلك العصور : القرآن الكريم والحديث الشريف واللغة وما تيسر من علوم الدين والفقه ، ولكن ميله الحقيقى كان إلى الأعشاب ، وهو النباتات الطبية ، فقد اهتم بها ودرسها وألمَّ بخصائصها الطبية العلاجية ، ويبدو أنه مر خلال هذه الرحلة - بعد الحجاز - بآسيا الصغرى ، فإنه يذكر فى جغرافيته أنه كان هناك سنة ٥١٠ / ١١١٦ وهو تاريخ غير معقول ؛ لأن سنه كانت إذ ذاك سبع عشرة سنة هجرية ومر كذلك بشمال مصر ، فإن وصف جغرافيته يدل على أنه عرف الفسطاط والقاهرة ، ورحل بالنيل شمالاً فى فرع رشيد ، ثم إلى الإسكندرية ، ومنها إلى المغرب عائدًا ونزل فى طريقه بصقلية .

وهنا يقع الحادث الحاسم فى تاريخه ، فقد كانت صقلية قد خرجت عن أيدى المسلمين ، ولكن ملكها النورمانى روجر الثانى الذى يسميه المسلمون رجار كان رجل علم ودراسة ، وكان شديد الإعجاب بعلوم الإسلام وكان من بين رجاله رئيس مسلم إدريسى حسنىٌّ يسمى القاسم بن حمود ، وبهذا الرجل التقى الشريف الإدريسى فوجد الرجل من علمه بالأعشاب ما جعله يفكر فى تقديمه إلى رجار ، وعندما التقى الملك النورمانى بالعلامة الشاب المسلم وجد فيه الرجل الذى يطلب ، فقد كان رجار معنياً بالطب والأعشاب فأعجبه الإدريسى وطالت مجالسه معه ، وفى أثناء المجالسة تنبه رجار إلى موهبة الجغراف الكامنة فى نفس الإدريسى وراعه حديثه عن الأرض وعلمه بها ، فدعاه إلى الإقامة والعمل معه فى صقلية وتوطدت الصلة بين الرجلين حتى قال الصفدي فى الوافى بالوفيات : إنهما كانا يجلسان معًا على الوسائد ويقضيان الساعات فى حديث العلم ، وعرض رجار على الإدريسى أن يترك هذا التجوال ويستقر معه فى صقلية وقال عبارة لا بد أن تستوقف نظرنا : « أنت من بيت الخلافة ، ومتى كنت بين ملوك المسلمين عملوا على قتلك ، ومتى كنت عندى أمنت على نفسك » ، وهى عبارة جارحة لكرامة بلادنا وماسة بشرف نظم الحكم عندنا فى العصور الماضية ، فهذا الملك النورمانى الفرنجى يعرف أن ملوكنا الماضين كان بعضهم أعداء بعض ومتى ظفر

الواحد منهم بملك مثله قتله حتى أبناء الأشراف العلويين كانوا مهددين بالموت أيضًا ، لأن قلوب الناس تهوى إليهم وكل منهم كان من الممكن أن يكون أميراً للناس حيثما كان ، ولهذا فقد كان أصحاب السلطان يتصيدونهم دون رحمة .

وأدرك الشريف الإدريسي أن ما قاله رجار حق ، فقرر أن يعود مسرعاً إلى المغرب ليصفى أعماله كما نقول ، ثم يعود بعد ذلك إلى صقلية ليعمل مع هذا الملك النصرانى وهكذا كان : عاد الإدريسى إلى صقلية وبدأ عمله مع الملك رجار سنة ٥٣٣ / ٩٤٤ وفى سنة ٥٤٨ / ٩٥٩ كان قد فرغ من عمله ، وقام بما يشبه المعجزة ، فقد بدأ فصنع كرة من الفضة تشبه صورة الأرض كما تصورها ثم رسم عليها خريطة العالم وقد وصف لنا الإدريسى هنا عمله وما قام به فى مقدمة كتابه ، وأنا آتيك به بنصه لتعلم حجم العمل العظيم الذى قام به عالمنا العربى الجليل خلال خمس عشرة سنة ، ولنلاحظ هنا أن الإدريسى يتحدث فى مقدمته باسم الملك رجار تأدباً منه وكرم أخلاق حتى يحسب قارئه أن الذى صنع هذا كله هو رجار لا الإدريسى « .. فأمر عند ذلك أن تفرغ له من الفضة الخالصة دائرة مفصلة عظيمة الجرم ، ضخمة الجسم ، فى وزن ٤٠٠ رطل بالرومى فى كل رطل منها ١١٢ درهماً .. فلما كملت أمر الفعلة (العمال الفنيين) بأن ينقشوا فيها صور الأقاليم السبعة ببلادها وأقطارها وسيفها (سواحلها) وريفها وخلجانها وبحارها ومجارى مياهها ومواقع أنهارها وعامرها (بلادها المسكونة) وغامرها (غير المسكونة) ، وما بين كل بلد منها وبين غيره من الطرقات المطروقة ، والأميال المحدودة ، والمسافات المشهودة ، والمراسى المعروفة على نص ما يخرج إليهم على لوح الترسيم (لوحة الرسم) ، ولا يغادروا منها شيئاً ، ويأتوا به على هيئته وشكله كما يرسم فيه ، وأن يؤلفوا كتاباً مطابقاً لما فى أشكالها وصورها غير أنه يزيد عليها بوصف أحوال البلاد والأرضين فى خلقها وبقاعها وأماكنها وصورها وبحارها وجبالها ومسافاتها ومزروعاتها وغلاتها وأجناس نباتها وخواصها ، والاستعمالات التى تستعمل بها والصناعات التى تنفق بها والتجارات التى تجلب إليها وتحمل منها، والعجائب التى تذكر عنها وتنسب إليها ، وحيث هى من الأقاليم السبعة مع ذكر أحوال أهلها وهيئاتهم وخلقهم ومذاهبهم وزيِّهم وملابسهم ولغاتهم ، وأن يسمى هذا الكتاب بكتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » وكان ذلك فى العشر الأوائل من يناير الموافق لشهر شوال الكائن فى سنة ٥٤٨ ، فامتثل فيه الأمر وارتسم الرسم » .

وذلك هو العمل الخارق ـ بمقياس تلك العصور ـ الذى قام به عالمنا الشريف الإدريسى ، وأجمل ما فيه أنه أتَـمَّهُ كما قال ، فأما الكرة الأرضية الفضية فقد ضاعت ونستطيع أن نحيى هيئتها وننصبها فى ساحة جامعة من أكبر جامعاتنا ، وأما الكتاب ـ نزهة المشتاق ـ فها هو ذا اليوم بين أيدينا : وهى عجيبة إذا قيست بمقياس العصر الذى كتبت فيه ، فهى لم تكن أقل من صعود القوم إلى الفضاء أو نزولهم على سطح القمر ! فهذا عالم عربى منفرد يعمل آمناً فى جزيرة بعيدة وهو يقدم لنا بالفعل جغرافية طبيعية وبشرية مفصلة للأرض وما عليها من بحر الظلمات (المحيط الأطلسى) وجزائر الخالدات (الكناريا‌س) إلى شرقى آسيا فى بحار الصين واليابان .

والآن فقد بدأ الإدريسى برسم ما يمكن أن نسميه (كروكى) لخريطة الأرض رسمها على لوحة طويلة عريضة تسع صورة الأرض وما عليها ، ثم قام بعملية حسابية رياضية معقدة ، لكى يستطيع نقل خريطة الأرض هذه على كرة الفضة ، وعلى الكرة وضع المواقع ورسم القارات والبحار والأنهار بغاية الدقة ، وبعد أن أتم هذا العمل العجيب شرع فى القسم الثالث من مهمته وهو تحويل هذه الخريطة الكروية إلى خريطة مسطحة ، وهذه عملية غاية فى الصعوبة تحتاج إلى تفكير طويل وحساب كبير قام بمثلها عالم هولندى من رجال النهضة فبلغ بها الخلود ، وذلك هو جيراردوس ميركاتور (١٥١٢ ـ ١٥٩٤) الهولندى الذى ابتكر ما يسمى بالمساقط ورسم الخرائط على لوحات وما زلنا نحن إلى الآن نقول : « خريطة على طريقة ميركاتور » فهذا العمل الجليل صنعه الإدريسى فى صمت وهدوء .

وقام الإدريسى بعد ذلك فقسم هذه الخريطة المسطحة إلى سبعة أقسام مستعرضة فوق خط الاستواء وقسمين جنوبه ، وتلك هى الأقاليم السبعة المشهورة فى النصف الشمالى من كرة الأرض وأصلها عند بطليموس (وهو جغرافى يونانى مصرى فقد ولد فى أسيوط وعاش وعمل فى الإسكندرية) ثم قسم هذه الخريطة إلى عشرة أقسام طولية بخطوط رأسية متوازية هى خطوط الطول ، وبذلك حصل على سبعين قسماً مربعاً ، فأخذ كل قسم ورسمه رسماً مفصلاً مكبراً يصفه بكل ما فيه من معالم الجغرافية الطبيعية والبشرية ويدون الوصف فى ذلك الكتاب العظيم المسمى بنزهة المشتاق ، وهو يأخذ الأقاليم إقليماً إقليماً وفى كل إقليم يصف كل واحد من أجزائه على حدة .

ما الذى جعل الإدريسى يقوم بهذا العمل ؟ الشعور بالسيادة ؛ لأن العلم سيادة ، والشعور بأنه عربى ، والعرب فى أيامه كانوا فكرياً وعلمياً فى طليعة الأمم ووصفه إليه كذلك ما سبق أن أشرنا إليه من شعور علماء العرب بأنهم مسئولون عن وطنهم العربى ، فهم يصفونه أفقياً فى المكان فيكونون جغرافيين ، ويصفونه فى الزمان رأسياً فيكونون مؤرخين ، فإذا كانت هنا قمة للعلم الجغرافى فى العصور الوسطى فقد تسنمها الإدريسى هذا كما سيتسنم ابن خلدون ذروة العلم التاريخى .

وقبل أن أغادر الشريف الإدريسى آتيك بالجانب المحزن من حياته ، وحياة المخلصين من أهل الفكر والعلم عندنا كلها أحزان . هذا الرجل يختفى عن أنظارنا فى ليل التاريخ فلا نعرف إلا أنه توفى سنة ٥٦٠ هـ / ١١٦٤ م ، بل لا ندرى أين غاله الموت ؟ فى ثورة على المسلمين فى صقلية ؟ فى مفازة من مفازات بلادنا ؟ لا أحد يدرى ! ولكن الذى ينبغى أن ندريه جميعًا هو أن شجرة الفكر العربى تضم على واحد من أزهر غصونها هذا العلم العظيم الذى يعتبر ـ بحق ـ من بناة حياة البشر : الشريف الإدريسى !

* * *

ومن قمة الجغرافية ننتقل إلى قمة التاريخ من أبى عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس ننتقل إلى أبى زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (٧٣٢ ـ ٨٠٨ / ١٣٣٢ ـ ١٤٠٥) أصله البعيد حضرمى من قبيلة كندة أيام كانت تعيش فى اليمن قبل هجرتها إلى مشارف الشام ، ولكنه ولد فى تونس وتوفى فى القاهرة بعد أسفار ومغامرات ومخاطر وأهوال . إنه يشارك معظم أهل اليمن فى ذلك القلق الذى لا يكاد يخلو منه عظيم من عظمائهم ، لقد قال رسول الله ﷺ « إن العلم يمان » ، وينبغى أن نضيف إلى ذلك : والقلق يمان ، وهذا القلق اليمنى يتصور فى شكل مفزع فى حياة علامة يمنى آخر عبقرى دون شك هو الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمدانى صاحب الوصف المبدع لجزيرة العرب ويتصور فى شكل حزين فى حياة ابن خلدون ، ويتصور أخيراً فى هيئة مصير مجهول حافل بالمخاطر يميز تاريخ اليمن فى عصورها الإسلامية جميعاً ، وربما كان ذلك راجعاً إلى ما نعرفه من تميز أهل اليمن بذكاء بعيد وطموح أبعد ، فما عرفت فى

حياتى شعبًا عربيًا أبعد ذكاء فى جملته ولا أقدر على مغالبة الأيام أو أشد تعذيباً لنفسه من اليمنيين .

آل خلدون الحضرميون أخذوا من القلق والذكاء اليمنيين نصيبًا وافرًا ، حملتهم أمواج الفتوح إلى أشبيلية فى الأندلس ، وهنا أثروا وتمولوا وبلغوا مكانة عليا بين أهل البلد وهناك أيضًا تحور اسمهم من آل خالد إلى آل خلدون والواو والنون هنا زائدتان تضافان إلى الاسم للتفخيم فيقال : سعدون وحمدون وبدرون وخلدون ، وأصل هذه الزيادة لاتينى ، فكان الرومان يقولون للرجل الكبير الأنف : Norazan ويعظمون اسم سيبيو فيقولون : سيبيون ونيرو — أى الأسود - فيقولون : نيرون . وشيسيرو فيقولون : شيسيرون ، فى أشبيلية بلغ آل خلدون من القوة والجلالة ما جعلهم فى إقليم أشبيلية واحدًا من البيوت الإقطاعية الإقليمية التى نافست على رياسة إقليم أشبيلية وكان بينهم وبين منافسيهم - آل حجاج - نزاع طويل ثم ضربت الأيام ضرباتها وانتهت أيام أشبيلية المسلمة جملة ، وفى سنة ١٢٤٨ سقطت أشبيلية فى يد فرناندو الثالث وخرج منها آل خلدون وفى جملتهم محمد بن خلدون — والد عبد الرحمن - وحط رحاله فى تونس أيام الحفصيين ، وهنا ولد عبد الرحمن سنة ٧٣٢ / ١٣٣٢ وهناك نشأ ودرس ثم استقل بنفسه ودخل خدمة السلطان ، وجرب حظه فى بلاط تونس فلم يبلغ ما أراد فشد رحاله إلى فاس - عاصمة بنى مرين فى المغرب الأقصى - ودخل فى خدمة السلطان أبى عنان فارس المرينى وهو نموذج من نماذج سلاطين المسلمين فى العصور المتأخرة ، ومثال من فشل نظم الحكم التى قامت فى بلاد الإسلام ، فهذا الرجل أبو عنان حارب أباه السلطان أبا الحسن المرينى وطارده حتى أزهق روحه ، والوالد التعيس مات شقيًا لاجئًا إلى قبيلة جبلية هى « هنتانة » مات وابنه يحاصره ويطلب رأسه وعندما مات الأب نشهد مشهداً من مشاهد النفاق المخجل ، فأبو عنان بعد ما فعل بأبيه ما لا يفعله الرجل مع ألد أعدائه وقف يبكى أباه وصلى عليه ووقف الابن القاتل يبكى الأب القتيل ثم يأمر والحزن الكاذب على وجهه الكالح بأن يسجى أبوه العزيز فى مقبرة من أجمل مقابر سلاطين آل مرين فى بلدة « شالة » أو « شلا » غير بعيد عن العاصمة فاس ..

إلى هذا السلطان فارس أبى عنان وفد ابن خلدون يرجو العز والرفعة فوجد نفسه فى أجمة السباع المتقاتلين على باب السلطان ، ووفق أول الأمر بعض التوفيق فأرسله

أبو عنـان سفيرًا إلى الأندلس ليفاوض الملـك القشـتالى بدرو القـاسى فى شئون أسرى المسلمين ، وفى غرناطة يلتقى ابن خلدون بابن الخطيب وزيـر سلطان غرناطة ، ولسان الدين ابن الخطيب كـان أديبًا شاعـراً كاتبـاً مؤرخاً ذائع الصيت ، ولكنـه كان قبل كل شىء إنسانًا يعيش بـلا قلب ، فكل ما كتب ـ وهو كثير جدًا ـ يخرج من رأسه إلى قلمه دون أن يمر بقلبه ، فهـو كاذب حيثما كتب ، جامد القلب حيثما قال ، كأنما هـو ماكينة تكتب لا إنسـان يحس ويشعـر ، وبـديهى أن ينفـر ابن الخطيب من ابن خلـدون هـذا الطارىء على غـرناطة فهو عـالم ذكى كاتب أديب فخافـه على مركزه ومـا زال به حتى أخرجـه من غرناطة شبـه طريد ، وعـاد ابن خلدون إلى المغرب حيث ألقت به مـؤامرات القصر بعيداً فى جبال القبـائل شرقى مدينة الجزائر الحالية ، وكـان ابن خلدون فى أثناء تلك المغـامرات يكتب تـاريخه ، وفى واحة بسكـرة جنوب غـربى مدينـة الجزائر أجمل واحات الـدنيا كتب ابن خلدون الصورة الأخيرة مـن مقدمته ، وما زالت هـذه النسخة بخط ابن خلدون محفوظة فى إحدى مكتبـات استانبول وتلك هى النسخة الجميلة التى اعتمد عليها فنسان منصور مونتاى فى ترجمته الفرنسية التى أشرنا إليها .

ومن بسكـرة والجزائر نهض ابن خلـدون قاصـدًا مصر فـدخلهـا أيام السلطـان برقوق أول سـلاطين المماليك الجراكسة ، وقد هيأناه نحـن فى مصر وزوقناه وسميناه الظاهـر سيف الدين بـرقوق بن أنس اليلبغـاوى أى : مملوك اليلبغـا (٧٨٤ ـ ٨٠١ / ١٣٨٢ ـ ١٣٩٨) وكـان رجلاً عاقلاً رزينـاً قام بتمثيل دور السلطان فى مهـارة يشكر عليها ، وكـانت القاهـرة قد أصبحت مـدينة العـالم الإسلامى وملتقى أهل العلـم فيها جميعـاً ، والأزهـر كان يضيء ويتـألق ونشـأت حـوله مـدارس كثيرة للحـديث وحـول مشيخات (أى عمادات) الأزهر ومدارس الحديث قامت حرب الأسـاتذة ، وكان على عبد الرحمن بـن خلدون أن يخوض معركـة تلك الحرب ، وقـد خاضـها وأدرك فيهـا بعض التوفيق فأحبـه السلطان بـرقوق ثم ابنـه السلطان فرج ، ووصل إلى منصـب قاضى قضاة المالكية مرة بعد أخرى ، ولكن ابن خلدون مع ذلك لا يرضى ولا يحمد الله ويتهم مشايخ مصر وقضاتها بما لا يسر ، و ينسى ، أنه هنا على الأقل اطمأن واسـتراح وجلس يقضى بين الناس ويتلقى الراتب والجراية .. ولكن القلق اليمنى لم يفارقه قط ، وفى عام ٧٩٧ / ١٣٩٤ نجده معتزلاً ، وفى هذه العزلـة يكتب ويراجع وينقح تاريخه ، وفى سنة ٨٠٣ / ١٤٠٠ يخرج مع طـائفـة من العلماء إلى دمشق وكان يحاصرهـا تيمـور لنك ،

ويحكى ابن خلدون فى مذكراته المطبوعة كيف تحيل على تيمور حتى أفلت بجلده عائداً إلى القاهرة وهو فى مذكراته تلك (التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً) لا يصدقنا القول أحياناً ، فهو يطرى نفسه ويزوقها ، ولكنها على أى حال واحدة من تراجم الحياة الأصيلة القليلة فى أدبنا العربى ، وبعد عودته إلى مصر يفجعه القدر فى أسرته فقد كان قد أرسلها بالبحر من الشام إلى مصر فغرق المركب بمن فيه ، وفى سنة ٨٠٨ / ١٤٠٥ يتوفى هذا الرجل العجيب مخلفًا وراءه تاريخه العالمى المسمى بكتاب « العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » ومقدمة ذلك التاريخ الذائعة الصيت .

فأما المقدمة فأنت تعرفها ، فهى محاولة جديرة بكل تقدير للوقوف على الدوافع المحركة لتاريخ البشر ، وفى أثناء هذه المحاولة يضع ابن خلدون قواعد أو تصورات حول ما يسمى بدورة العمران أى تطور الجماعات البشرية من البداوة إلى الحضارة ، والبداوة عنده هى الحياة البدائية البسيطة فى البوادى والأرياف ، إنها حياة البدو والفلاحين ، وابن خلدون يرى أن قبائل البدو تتكاثر وتستقوى وتتجمع وتهاجم قواعد العمران وتتغلب عليها وتنشىء لأنفسها فيها دولاً ، فإذا هى أنشأت الدول فقد دخلت فى طور الحضارة والاستقرار والملك وعرفت القصور ورفاهة العيش ورقة الحواشى والجند المرتزق ، وهنا تبدأ فى التدهور والضعف ، وابن خلدون يذهب إلى أن ما يضعفها هو الترف وهو عنده التقلب فى النعمة والبعد عن خشونة العيش وصراع الحياة ، وابن خلدون هنا يصيب أحياناً ويخطىء أحيانًا ، ولكنه لا يختلف فى ذلك عن جيامباتيستا فيكو أو بندتو كروتشى أو أوزفالد شينجر أو أرنولد توينبى ، فكل هؤلاء مؤرخون كبار يصيبون ويخطئون ولكنهم دون شك قمم علم التاريخ ، فإن الواحد منهم لا يصل إلى درجة الاطلاع الواسع وإصدار الأحكام العامة والبحث عن قوانين تحكم حياة البشر إلا بعد جهد وفكر وعناء ، وهذا هو الذى يجعل لابن خلدون هذه المكانة الكبرى فى تاريخنا الفكرى : إنه رجل فكر وقد استعمل ذهنه خير استعمال وعرف كيف يخرج عن السرد التاريخى الممل إلى التفلسف والنظر والتخلص من استبعاد الذاكرة والحفظ إلى حرية التفكير ، ولكى يتكلم ابن خلدون فى حرية كان لا بد أن يدير فلسفته كلها على أهل الماضى الذين ذهبوا ولو أنه فكر فى استخدام ذهنه فى أحوال عصره لطارت رقبته قبل أن يكتب .

والذى يعنينى هنا هو أن أقول : إن الناس عندما يحسبون أن ابن خلدون لا يتميز إلا بمقدمته فهم يقللـون من شأن تاريخه المسمى بكتاب العبر ، ويحسبـون أنه تاريخ عادى لا يتميز على غيره من التـواريخ العامة التى كتبها غيره ، وهـذا ظلم لابن خلدون ألحقه به جيل طه حسين وعبد الحميد العبادى وأحمد أمين ؛ لأنهم لم يقرأوا تاريخ ابن خلدون وهم معذورون ؛ لأن هذا التاريخ الطـويل (ست مجلدات) لا يصبر على قراءته ليتعرف قدره إلا مؤرخ وهب حياته كلها لهذا العلم الجليل .

قد لا يتميـز تاريخ ابن خلدون عن غيره فيما يحكى عن تـواريخ العرب الجاهليين والفرس ، ولكن ابن خلـدون هو الـوحيد بين مؤرخينـا الذى كتب مـا يمكن أن نسميه تاريخاً علميًا للعصور القديمة ، فهو يعـرف اليونانيين معرفة جيدة ويفرق بينهم وبين المقدونيين ، وهو يعرف أوليات تاريخ الرومان ويتتبع تطور دولتهم من عصر الملوك إلى الجمهورية إلى الامبراطـورية ، وهو يسمى الرومان بـاسمهم الحقيقى وهو اللطينيون وهو يعرف الأثروسكيين ويسميهم « الكيتم » وهو لفظ حيرنى وسألت أهل الشأن فيه فلم أخرج بطائل ويعرف القياصرة المتنصرة مـن أيام قسطنطين ، وهذا هو الاسم الذى يطلقه على الـروم البيزنطيين ويحكى تواريخهم إلى الـدولة الهرقلية ، ويـؤرخ للشعوب الجرمانية ويقف عنـد القوط ويقدم لنا تـاريخًا كاملاً لملوك القوط الغـربيين فى إسبانيا ويسميهم الجلالقة المعاصرين للأندلس الإسلامى .

ولكن درة هذا التاريخ هى مجلداه الرابع والسادس ، ففى الرابع يتحدث عن العرب المستعجمة أى العرب الذين عرفوا خصـائص العروبة ، وفى المجلد السادس يتحدث عن البربر وهم من أجلِّ شعوب الإسلام فهم أهل الشمال الإفـريقى ، وابن خلدون يقدم لنا أوفى تـاريخ للعـرب الهلاليـة وأصحـابهم من بنى سليم بن منصـور ، وهم أصحـاب التغريبة أو الغزوة الهلالية ، وهم أصحـاب الفضل فى وجود هذا المغرب العربى العظيم الذى يتألف منه الجناح الغربى المبارك لعالم العروبة والإسلام .

وابن خلدون هنا ـ فى التاريخ ـ جغـرافى مؤرخ انتوغرافى اجتماعى على صورة هى أصفى مما نجدهـا فى المقدمة ، فهو هنا لا يضع نظريـات أو يعتسف قوانين ، بل يؤرخ ويـدرس ويحلل ويعطينا صـورة أشبه بلـوحـة أشعة سينيـة لجسم قطاع كـامل من قطاعـات أمة الإسلام : قطـاع المغرب الذى كان قبـائل بربريـة ثم أسلمت واستعربت

وأقامت دولاً وممالك بعد أن دخلت التاريخ تحت راية الإسلام ، هنا نجد القوة الحقيقية لابن خلدون وموضع فخره الذى لا ينازعه فيه أحد ، هنا نحن مع قمة رفيعة الذروة من قمم فكرنـا العربى : قمة التاريخ التى تضـاهى فى ارتفاعها وشموخهـا واعتراف الدنيا كلها بها ، تلك القمة السامية الذرى التى يقف عليها الشريف الإدريسى ، وكلاهما يؤكد وحدة الأمة الإسلاميـة أفقياً ورأسياً بكتابة جغرافيـة الوطن الإسلامى وتاريخه ، وكل منهما يتميز على غيره من المؤرخين والجغرافيين بأنه يضع أمة الإسلام فى الوضع الذى تستحقه : أمـة العلم والمعرفة التى تـدرس وتبحث وتستكشف طليعة الدنيـا فى موكب العلم والعرفان .

* * *

الفُقَهاءُ وَبِناءُ القَاعِدَةِ الصَّلْبَةِ لِأُمَّـةِ الإِسْـلَامِ

تحدثنا آنفًا عن بعض الأعلام من أهل الفكـر والعلم فى تاريخ الإسلام ، وبينًا دور أهل الفكر فى بناء عالم الإسلام وإقامة صرح حضارته ، وشرحنا كيف كان رجال الدولة وأهل الصراع السياسى يحطمـون وحدة عالم الإسـلام ويقطعون أوصالـه ويضعون السدود والقيـود بين شعوبـه بعضها وبعض ، بينما كـان الصادقـون المخلصون من رجال الفكـر يعملون جـاهدين على تـوثيق الصلة بين أجـزاء أمة الإســلام وأجيالهم ، فالجغرافيـون يؤكدون الوحدة الأفقية المكـانية ، والمؤرخون يؤكدون الوحـدة الزمنية ويربطون ماضى الأمة بحاضرها ، وأهل العلوم يشاركون فى ذلك وينيرون بصائر الأمة إلى مستقبلها ويفتحـون أعين الناس على حقائق الحيـاة ، وهؤلاء يتلاقـون على بساط العلم حيناً وفى رحاب الكعبـة أو فى مدينة الرسول وعاصمـة الإسلام الأولى حيناً آخر ، وهم فى غـدوهم ورواحهم وتلاقيهم فى مجالس الشيـوخ وحلقات الـدرس فى المساجـد يصنعون ذلك النسيج العظيم الـذى نعيش نحن فى رحابه ، وهو نسيج العـالم العربى يحيط به نسيج عالم الإسلام ، وفى سياق كلامنا تحدثنا عن أعلام تخطوا بعلمهم عالم الإسلام وأسهموا بعلمهم فى بناء حضارة البشر ، وأصبحوا مفـاخر للإنسانية جميعًا ، وضربنا مثالين من الإدريسى وابن خلدون ، وفيما يلى سنلتقــى بأعلام آخرين من هذا الطـراز أوسعوا للعـروبـة وأهلها مجالاً فسيحًـا صـدرًا فى سجل بناة حضــارة البشر أجمعين .

* * *

واليوم نبدأ الحديث عن جماعة من أهل العلم المسلمين الذين يعتبرون ـ بحق ـ بناة قاعدة المجتمع الإسلامى كله وأصحاب الفضل فيما تميز به بنيان العالم الإسلامى من صلابة بناء مكنت لـه من الاحتفاظ بسلامة كيانه دون تصدع يخشى خطره ، رغم ما كان أهل الدول يقترفونه من أخطاء كبرى فى حق أمة الإسلام وسلامتها ، وكذلك رغم ما تعـرض له عـالم الإسلام فى جملتـه من صـدمات وتحديـات بلغ عنفهـا أحيانـاً مبلغ

الخطورة على الكيان نفسه ، فقد كانت غارات الصليبيين ـ مثلاً ـ صدمات بالغة العنف وصلت إلى قلب العالم الإسلامى نفسه ، ولكن صلابة نواة المجتمع الإسلامى مكنت له من تحمل صدمات هذه الغارات ، فلم يخسر عالم الإسلام رغم الصراع الطويل إلا الأندلس وجزائر البحر المتوسط ، ولم يكن ضياع الأندلس وجزائر البحر نتيجة لضعف البناء الاجتماعى للعالم الإسلامى ؛ بل لأن تخريب رجال الدول والرؤساء بلغ هناك مبلغ التدمير الإجرامى على سلامة الجماعة الإسلامية ، فإن الذى فعله أولئك الذين نسميهم بملوك الطوائف فى الأندلس وصقلية لا يمكن أن يوصف إلا بأنه سلسلة من الجرائم دبرها أولئك الرؤساء بنية شريرة فعلاً ، ويكفى أن نضرب مثلاً واحداً يبين للقارىء ما انطوت عليه نفوس بعض أولئك الرؤساء من طوية بالغة الشر والسوء ، فقد استقل بناحية بطليوس من بلاد الأندلس بعد ضياع الوحدة السياسية الأندلسية بسقوط الخلافة الأموية سنة ١٠٣١ م ، وكانت ولاية كبيرة تقع شمال غربى قرطبة على نهر لوادى آنة استقل بها رجل من زعماء البربر الأندلسيين ، يسمى عبد الله بن مسلمة ، ينسب نفسه إلى بعض العرب ويلقب بابن الأفطس وجعل نفسه أميرًا على تلك الناحية ، وصار يدفع الجزية لملوك قشتالة فخاطبه أحد الشيوخ فى إعادة وحدة الأندلس وإنشاء جبهة تقاوم الضغط الإسبانى فكان جوابه : لو أن أبا بكر وعمر جاءانى يطلبان منى التنازل عن ملكى لحاربتهما بالسيف .

فتأمل والله وقاحة هذا الرجل وقصر نظره وغبائه ، فقد كان يدفع الجزية لرجل نصرانى ويسمى نفسه ملكاً ، وكان يذل نفسه أمام ألفونسو السادس ملك قشتالة ، ولكنه مستعد لمحاربة أبى بكر وعمر بالسيف دفاعاً عما سماه ملكه ، لقد توفى هذا الحقير التعيس سنة ٤٣٧ هـ / ١١٤٢ م وخلفه ابنه أبو بكر الذى تلقب بالملك المظفر ثم جاء بعده حفيد له يسمى أبا حفص عمر وتلقب بالمتوكل على الله ، وهذا المتوكل على الله عندما سمع أن يوسف بن تاشفين البطل العظيم نزل الأندلس ودعا إلى وحدة الصف فضَّل أن يتوكل على الملك ألفونسو السادس فجعل يستغيث به على الأمير المسلم المجاهد يوسف بن تاشفين ، فهل نتعجب من أن يوسف بن تاشفين أمر بقتل هذا الرجل عقاباً له على جرائمه وجرائم آله من بنى الأفطس فى حق جماعة الإسلام ؟ ومع ذلك فإن شاعراً أندلسياً يقال : إنه عظيم هو عبد المجيد بن عبدون قال فى رثاء بنى الأفطس قصيدة هى أبرد من الثلج ، ومع ذلك يصفها ابن بسام بأنها عصماء وفريدة بلا نظير

يحمل فيها على الدهر الخوَّان الذى يغدر بعظماء الملوك ، ومنهم هؤلاء التعساء بنو الأفطس :

نعم هو الدهر ، ما أبقت غوائله على جديس ولا طسم ولا عاد

وأسلمت للمنايا آل مسلمة وعبَّدت للرزايا آل عباد

ومثال هذه القصائد هى التى تجعل قارىء الشعر العربى التقليدى لا يحس بأى صدق أو إنسانية فى الكثير جدًا مما يقرأ منه .

وإنما ضربت لك هذا المثل لترى أى نوع من أهل الدول كان يتولى أمور المسلمين فى الأندلس وقت الخطر ، فهل نتعجب بعد ذلك من أن الأندلس ضاع من أيدينا ؟ وهل هو ضاع إلا بأيدينا ؟

وهذا الأندلس الذى انفرط عقده السياسى سنة ١٠٣١م ظل قائماً يجاهد عن نفسه فلم يطفىء الأعداء أنواره إلا بعد ٤٦١ سنة من سقوط الخلافة وضياع الوحدة السياسية وتصدى أمثال بنى الأفطس وبنى عباد وبنى ذى النون للقيادة ، وما ذلك إلا بفضل متانة البنيان الاجتماعى للشعوب العربية والإسلامية جملة .

والفضل الأول فى متانة ذلك البنيان الاجتماعى يرجع إلى الفقهاء أولئك العلماء الصادقين الذين عرفوا كيف يبنون لأمة الإسلام قاعدة شرعية أى قانونية وتكويناً اجتماعياً متيناً وشدوا ذلك بقواعد أخلاقية مكنت لهذه الأمة من مغالبة عواصف القرون ، وقد أشرنا إلى صدمة الصليبيات ويندرج فى معناها هجوم التتار وفى عصورنا الحالية موجة الاستعمار ، وقد كانت غزوة بالغة الخطورة قامت على أسس علمية مدروسة وخطط خبيثة شريرة أريد من ورائها إبادة أمة الإسلام ، وقد ظن أصحابها عندما استولوا على بلاد العروبة والإسلام جميعاً أنهم يزيلون الإسلام من أرضه بأيسر مئونة فما راعهم إلا الإسلام وحده ! يزيلهم من أراضيه ويخرج بشعوبه مظفرًا من تلك الغارة بل يغزوهم فى ديارهم ، وها نحن أولاء فى أيامنا هذه نسمع صرخات بعض أهل الغرب من أن الإسلام عاد إليه اليوم شبابه وأخذ يغزو بلاد الغرب نفسها وينتشر بين أهلها ويدخل فيه نفر من أجلاء أهل الفكر والغرب من أمثال : ميشيل شود كليفيتش رئيس دار نشر « سوى Sawie » فى فرنسا وفنسان (منصور) مونتاى من أكابر أساتذة جامعة باريس ، وروجيه (رجاء) جارودى وموريس بيجار من أكبر

فنانى فرنسا، وبيير بنوا ميشيل من كبار المؤرخين الفرنسيين، واليكس هيلى الأديب الأمريكي مؤلف «الجذور»، ومحمد على كلاى الملاكم المشهور، وغيرهم كثيرون جدًا.

ولم تَنْجُ أمم العروبة والإسلام من تلك الأخطار إلا بفضل القاعدة الشرعية والاجتماعية والأخلاقية التى بناها الفقهاء بجهد صادق وإخلاص عميق وحب لأمة الإسلام شامل ورغبة أكيدة فى خدمة أمة الإسلام، وأكثر ما يروع النفس فى ذلك العمل هو إخلاص أجيال الفقهاء فى ذلك من القرن الهجرى الأول إلى أواخر الخامس، ولم يصلهم من أصول الفقه ثابت النص دون شك إلا القرآن الكريم فكان عليهم بعد ذلك أن يضعوا القواعد ليستوثقوا من كل خبر وصل إليهم من سنة الرسول ﷺ، وهنا بلغوا فى التحرى والضبط مبلغاً يفوق كل تصور الأجيال الأولى بالذات: تلك التى انتهت بالأئمة الأربعة، أجيال تدين لهم أمة الإسلام كلها بسلامتها، ومن مآثرهم الكبرى أنهم وضعوا بأنفسهم القواعد العلمية التى ساروا عليها فى جمع الحديث وضبطه، ثم وضعوا أسس استخراج الأحكام من القرآن والسنة ومأثور عمل كبار الصحابة وما ينتهي إليه القياس السليم والاستنتاج الصحيح فهم على ذلك بناة منهج علمى يقوم أساسًا على الإخلاص لله وأمة الله دون نظر إلى أى اعتبار من اعتبارات المصلحة وإغراء الدنيا.

وأقف هنا عند فقهاء المدينة السبعة وهم سبعة من التابعين وهبوا أنفسهم لخدمة الأمة بوضع قانون أخلاقى مستخرج من كتاب الله وسنة نبيه، بل كان عليهم أن يجمعوا مادة هذه السُّنة وهى الأحاديث ووضع الأسس لجمعها جمعًا سليماً وكانت القاعدة عندهم أنهم يعاملون الخالق سبحانه لكى تصح خدمتهم للمخلوق، ولن أُكثر عليك من الأسماء بل سأكتفى بواحد من أولئك السبعة اتفقت آراء الفقهاء على أنه نموذجهم الحى وصورتهم الباقية وهو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبى وهب المخزومى الذى يلقب بإمام التابعين، هذا الرجل مدرسة كاملة فقد جعل همه وضع الأسس السليمة لاستخراج الأحكام، وكانت مجموعات الأحاديث النبوية الصحيحة لم تظهر بعد؛ لأننا نتحدث عن رجل توفى سنة ٩٤ هجرية فكان عليه أن يدقق فى كل حديث يصله لكى يستوثق من صحة صدوره عن رسول الله ﷺ، فكان لا يكف عن السؤال وكان ـ كما قال هو ـ يرحل الأيام والليالى فى طلب الحديث الواحد والتأكد من

صحته ، ومنذ البداية قرر ألا يخدم الدولة أو الحكام فاعتمد على أربعمائة دينار ورثها عن أبيه واشتغل بتجارة الزيت ، وتجارة أولئك الناس لم تكن تجارة دكاكين إنما هى تجارة مخازن أى أن بضاعة الرجل تكون فى بيته .

وكان كل منهم يكتفى بصنف واحد يتقنه ويشتهر به ويعامل الله فى بيعه وشرائه فلا تكون التجارة وسيلة للكسب والغنى أو سبيلاً للغش . إنما هى خدمة للناس ومعاش كريم لصاحبها ، وعندما نقرأ أن رسول الله ﷺ كان يعمل فى التجارة قبل البعثة فهذا كان أسلوبه فيها فتجارته فى بيته ونوعها معروف وسعرها معروف وضمير صاحبها لا شك فيه ؛ فلا يضيع الوقت فى المساومة والمماطلة إنما هى سبيل كريم للعيش وخدمة للناس ، وكان سعيد بن المسيب يستفتى ضميره فى كل رأى يقوله فعندما طلب إليه هشام بن إسماعيل والى المدينة أن يبايع لولدى عبد الملك بن مروان توقف ؛ لأن البيعة لا تكون صفقة يفرضها ولى الأمر على الناس إنما تكون شورى بين المسلمين ، ومن أين يعلم سعيد بن المسيب أن الوليد بن عبد الملك وأخاه سليمان يصلحان لولاية أمور المسلمين وقد ضربه الوالى سبعين سوطاً لكى يبايع فلم يفعل ولم يكن يحفل للخليفة لأنه ـ أساسًا ـ كان يرفض الخلافة الأموية ويرى أنها ولاية غصب ومال خلفائها حرام وأخذه حرام أيضاً ، وكان الخليفة الأموى يتصور أنه يشترى ضمائر الناس بما يعطيهم من العطاء أى الرواتب فاستغنى سعيد عن ذلك ، فى نفس الوقت كان سعيد رجلاً حر الفكر واسع الأفق عميق النظرة لا يحكم إلا بالصالح وما فيه المنفعة أتاه عبد الرحمن بن حرملة وقال : وجدت رجلاً سكران أفترانى يسعنى ألا أرفعه إلى السلطان ؟ أى هل يجوز لى ألا أبلغ عنه رجال الدولة ؟ فقال له سعيد : إن استطعت أن تستره بثوبك فافعل ولم يكن ذلك من سعيد ترخصاً فى جسامة خطيئة شرب الخمر ولكنه كان يرى أن السلطان ورجاله ليسوا أهلاً لعقاب الناس على شرب الخمر ؛ لأنهم هم أنفسهم يشربونها بل غارقون فيها ، فإذا جاءت الخلفاء وولاتهم شكوى فى أمر رجل يشرب الخمر انتهزوها فرصة ليستروا مخازيهم ويتشددوا فى عقاب الرجل حتى يقال : إنهم متشددون فى أمور الدين أما الذى يجوز له أن يحقق أمر اتهام الناس بشرب الخمر فهم العلماء الصادقون الذين يتحرون الحق ويراعون الله ولا يراءون الناس .

وهذا الموقف من سعيد بن المسيب ـ وهو أيضًا موقف أهل جيله من بناة علم الفقه يضع يدنا على قاعدة سليمة جدًا وضعها أولئك الناس وحافظوا عليها وأورثوها من بعدهم من أجيال الفقهاء وهو أن التشريع لا ينبغى أن تتولاه الدولة ورجالها ؛ لأنهم أهل سياسة وأهواء ومصالح فهم يبيحون ويحرمون بحسب مصالحهم ويحللون ويحرمون بحسب أهوائهم ، وقد رفض الفقهاء رفضًا باتًا أن يسمحوا للدولة بأن تشرع بل رفضوا أن يكون للدولة فضل فى تعليم الفقهاء وتربية القضاة ، فلم يطلبوا من الدولة أبدًا أن تنشىء معاهد يتعلم فيها الصبيان ثم يواصل الموهوبون منهم الدراسة على نفقة الدولة حتى يكونوا فقهاء وقضاة ؛ لأن الدولة إذا تولت هذا الأمر وضعت قواعد تكوين الفقهاء والعلماء والقضاة على هواها ، لهذا فضلت الأجيال الأولى من أهل العلم أن يكون المسجد هو المدرسة وهو المحكمة ؛ لأن المسجد هو بيت الله وبيت الأمة فى نفس الوقت ، ورفضوا كذلك أن يكونوا موظفين فى الدولة أو تكون لهم رواتب لأن الراتب يكون أول الأمر معاشًا ثم يصبح قيداً على ضمير صاحبه ، والأمة هى التى تعلم أبناءها وتقوم بأمر طلاب العلم فى الكتاتيب أولاً ثم فى حلقات الشيوخ فى المساجد حتى إذا اكتمل تكوينهم وثبت علمهم أخذت الدولة منهم القضاة ، ومعظم كبار القضاة كانوا يرفضون القضاء ؛ لأنهم كانوا يأبون على أنفسهم أن تتكرم الدولة عليهم بالاختيار للوظيفة فإذا كان لا بد من أن يتولى بعضهم القضاء فليكن ذلك بلا راتب ، هؤلاء الناس لم تكن لقمة العيش تحيرهم ؛ لأن الأرزاق بيد الله لا بيد الحكام ولم يكونوا كذلك متبطلين يعيشون عالة على الناس إنما هم كانوا يأخذون أتعاباً متواضعة من التلاميذ وطلاب العلم ومن كتابة العقود وهى الوثائق وقسم المواريث وهى الفرائض .

ومالك بن أنس قال ذات مرة لواحد من تلاميذه : لا تطلب المال يطلبك المال ، وارفع همتك عن الخلق يرفعك خالق الخلق ، وإذا لم يكن لك من مالك الحلال ما يغنيك عما بأيدى الناس فلتكن لك حرفة تعيش منها ، واعلم أنك إذا أذللت نفسك للمال مرة أذللتها له عمرك كله وضاع علمك كله سدى .

وقد اقترح ابن المقفع فى رسالة الصحابة على الخليفة أن يجمع جمعًا من العلماء يضعون شرعاً مقنناً يتبعه القضاة جميعاً فرفض الفقهاء ذلك ؛ لأنهم لم يوافقوا قط على أن يتركوا أمر التشريع للدولة . بل رفضوا كذلك أن يتركوا للدولة أمر تنفيذ الأحكام إلا أن يكون ذلك تحت رقابة الفقيه القاضى ، وإذا كان لا بد من أن يستعين القاضى فى

تنفيذ أحكـامه فليكن هو الـذى يختار أعوانـه وأعوان القـاضـى الذين يقومـون بتنفيذ أحكـامه يكـونون فى هـذه الحالة رجـال القاضى وإن كـانت الدولـة هى التى تعطيهم رواتبهم ..

ومنذ البـداية قال أهل العلم : إن أمور الـدنيا والدين واحـدة وإن الذى يقضى فى أمور الدين هو نفسه الذى يقضى فى شئـون الدنيا ، فليس هناك نظام للعبادات ونظام للمعامـلات لأن الصلاة مثلاً ليست مجرد عبـادة بل هى أخلاق ومصـدر أخلاق فهى تنهى عن الفحشاء والمنكـر والبغى ، وأمور الـدنيا والدين كلهـا يحكمها القـرآن وسنة رسول الله لأن القرآن يقرر المبدأ ورسول الله يطبقه ، ولهذا فإن القرآن والسنة هما العلم وحفظهما والإحاطة بهما تخرج العـالم أى الذى يعلم الأصول . أمـا استخراج الأحكام من القرآن والسنـة معًا فيحتاج إلى قـدرة على الاستنباط والاستخراج السليم وهـذا هو الفقـه أى الفهم الصحيح للقـرآن والسنـة والقدرة على استخـراج الأحكـام منهما معًـا والحكم الذى يستخرجه الفقيه يسمى الـرأى . ومن الممكن أن يكون الرأى خاطئاً ولكن الفقه وهو طريقة استخراج الـرأى لا بد أن يكون سليماً ، وأسس السلامة هى خلوص النية وصحة الإيمان وسلامة النفس والعلم الكامل بالقرآن والسنة ، والذكاء الذى يمكن الإنسان من استخلاص الدقائق ثم البعد عن الهوى فلا يكون لميل الإنسان الشخصى أو لمصلحتـه أى دخل فى رأيـه . فإذا اجتمعت للـرجـل صفـات العلم والفقـه مع الخلق السليم المتين وصدرت عنـه الآراء الكثيرة السليمة القائمـة على الفقه الصحيح أصبحت مجموعـة آرائه وطريقته فى استخراج هـذه الآراء مذهباً يمكنك أن تتبعـه دون أن يكون ذلك ملزماً لك ، فأنت ملزم بما يطمئن إليـه قلبك ويرضاه ضميرك وتحس أنه يتفق مع مـا جاء فى القـرآن والسنة ، والفقيـه المحدث مجاهـد قال : إن مـوهبة استخـراج الآراء الفقهية السليمة هى الحكمة التى يؤتيها الله من يشاء ..

والطريق الذى سار فيه أولئك الرجـال فى بناء صرح الفقه الإسلامى وما تجشموه من الصعاب فى وضعه وضعًـا سليماً على قاعدة متينة من القرآن والسنة طـريق شاقة كلفتهم الزهد فى الدنيا وما فيها ووضع حيـاتهم كلها فى خدمة الأمة فلا المال أغراهم ولا الوظـائف اجتذبتهم ولا السلطان أخضعهم ، وفى النهـاية أرغموا الدولـة على الخضوع لسلطـان العلم والفقه ، وإذا لم يستطع أولئـك الفقهاء إرغـام الـدولة على اتبـاع منهج الإسلام فى اختيار الحكام فقد رفضوا النظام القائم للدولة وطريقة أصحاب السلطان فى

الوصول إليه ، وهنا وقع الانفصال الحاسم النهائى بين الدولة والأمة ، فمضى أصحاب الدول فى سياستهم كيف شاءوا ، وسارت (أى الأمة) فى طريقها ملتزمة القرآن والسنة وما وضعه وارتضاه أهل العلم والفقه فى استخراج الأحكام ، من هنا نفهم كيف أن مالك ابن أنس كان يلقب بأمير المؤمنين فى الحديث أى رئيس الأمة فيما يتصل بالقواعد الشرعية التى ينبغى أن تسير عليها أمور الأمة ، ولأصحاب الدول ورجال السياسة أن يسلكوا ما شاءوا من الطرق ، ولكن الأمة لا تلتزم حيالهم إلا بأمرين : الطاعة الظاهرة إذ لا معنى لأن تظل الأمة دائماً فى فتنة بين الحاكم والمحكوم ، وما دام الحاكم لا يلزم الناس بأحكامه فهو حر فى السلوك الذى يتبعه وحسابه على الله ، والأمر الثانى : هو أداء المال أى الضرائب ، وما دام الحكام قد استحلوا لأنفسهم أن يستخرجوا من الناس أموالاً لا يقرها الشرع ثم ينفقوها فى غير صالح الأمة . فالأمة أيضاً لها الحق فى التهرب من أداء المال الذى تعتقد أنه حرام ، فإذا قام فى الأمة حاكم ظالم وفرض على النخلة الواحدة ضريبة سنوية قدرها درهمان بدل درهم واحد فإن دافع الضرائب له الحق فى أن يقرر أن نصف نخلاته قد احترقت فلا يدفع إلا عن النصف : وعدوان الدولة على الناس علَّم الناس أيضًا العدوان على أحكام الدولة الظالمة ؛ لأن المواطن غير مسئول إلا عن التشريع الذى يقره حكامه الحقيقيون وهم الفقهاء .

وفى النهاية سلمت السلطة الحاكمة بأن القوة الحقيقية ينبغى أن تكون للعلم والفقه والخليفة المهدى ـ ثالث خلفاء بنى العباس ـ عندما أحس بأن الأمة لا تسلم بشرعية دولته أعلن أن دولته دولة السنة والجماعة وأنها خادمة السنة والجماعة وسواء أكان المهدى صادقًا فى ذلك أم غير صادق . فإن إعلانه هذا كان نصرًا حاسماً للإسلام وشرعه وفقهائه ، وقد حكم الخليفة المهدى (محمد بن عبد الله المنصور) ما يزيد على عشر سنوات (١٥٨ ـ ١٦٩هـ / ٧٧٥ ــ ٧٨٥م) تعتبر حاسمة فى تاريخ الدولة العباسية لا فى تاريخ أمة الإسلام ، ففى العصر الأموى كانت السياسة توجه الدولة وكان معاوية لا يستحى أن يقتحم ما حرم الله كما فعل عندما فرض ابنه يزيد على الناس وهو يعلم أنه لا يصلح لولاية أمور المسلمين . بل كان الخليفة المنصور العباسى لا يتورع عن جرم إذا رأى أن صالح دولته يقتضى ذلك فجاء المهدى وأعلن أنه لا يعمل إلا بما فيه صالح الأمة ، فرضيت عنه الأمة وأصبحت الدولة العباسية ــ من الناحية النظرية على الأقل ـ دولة السنة والجماعة ، أى خادمة الأمة وعندما تولى هارون الرشيد

كتب إلى واليه هرثمة بن أعين بأن يستشير فى كل أموره أولى الفقه فى دين الله وأولى العلم فى دين الله ومعنى هذا أن الشريعة أصبحت فوق الدولة ، وأن الدولة بكل ما فيها خادمة الشرع ، وهذا من أكبر الانتصارات التى حققتها الحضارة الإسلامية ، وقد وصل فقهاء المسلمين إلى هـذا النصر بالإخـلاص والصدق والتـزام المنهج العلمى السليم مع الدقـة والضبط واعتبـار خلق العالم أسـاسًا لكفـايته العلميـة أو شرطًا للثقـة فيه ، فقـد كان البخارى يرحل ألف ميل ليأخذ حديثاً عن رجل ، فإذا جالسه ورأى من تصرفه ما يريبه فى علمه ترك حديثه جملة .

وقد قرر أولئك العلماء مبدأً ثانياً يعتبر من مفاخر الفكر التشريعى الإسلامى وهو أن كل رأى أو حكم يصدر على أساس من القرآن والسنة لا بـد أن يكون فيه ـ تلقائياً ـ صالح الناس لأن الله سبحانه أعلم بعباده وأرأف بهم من أن يشق عليهم ، ومن هنا فإن المشرع ينظر إلى صالح الناس ويرى ما فيه صالحهم ، وما فيه صالحهم لا بد أن يوافق ما فى القـرآن فإذا بدا للفقيـه رأيان : واحد يسـهل على النـاس الأخذ بـه . والثانى يشق عليهم فليأخـذ بما يسهل على النـاس وهـو واثـق من أن ذلك يتفق مع مـا يريـده الله سبحانه ، ومن هنا جاء مبدأ الاستصـلاح وهو أن الفقيه يقضى بما يستصلحه للناس أى ما يراه صالحاً لهم ما دام يعتمد أساسًا على القرآن والسنة .

وقـرر أولئك الفقهاء كـذلك مبـدأ علة الشرع أو منطقيتـه ، فبينما يحفل القانـون الرومانى بالأحكام التى لا يقيـدها المنطق نجد أن كل أحكام الشريعة تتفق مع المنطق ، وما يغيب عن منطقه اليوم يتجلى وجه المنطق فيه فيما بعـد ، فقد كان ناس منا لا يرون منطقًا فى تحريم لحم الخنزير فجاءت بينات العلم فى أيـامنا هذه فأثبتت حكمة الشارع فى ذلك ، وأهل الغرب الـذين كانوا يتعجبـون بالأمس من تحريم الخمر أصبحـوا اليوم يرون تحريمها ، وقد تبين من رذائلها فوق كل ما كـان المسلمون يعرفونه فقد كنا نحن نقول إنها تذهب العقل ، فهاهم أولاء اليوم يقولون : إنها تذهب العقل والكبد والكلى وكل شىء فى كيان الإنسان .

ومن زمان بعيـد جدًا قـرر الفقهاء ــ على درجات متفـاوتة بينهم ــ مبدأ الإجماع والمراد هنا إجماع الأمـة على رأى من الآراء ؛ لأن رسول الله ﷺ قـال : إن الأمة لا تجتمع

على ضـــلالـــة . وقد زعـم بعض المستشرقين أن الشرع الإسلامى أخـذ هنـا أشيـاء من القانون الرومانى ، وليس هذا بصحيح فما عرف فقهاؤنا الأولون القانون الرومانى ولا سمعوا به ، إنما هم وجدوا أهل البلاد التى دخلت الإسلام تجرى بعض عاداتها بأشياء منطقية لا تتنافى مع أمـــر من أوامر الإســـــلام أو نهى من نواهيه فتركوها على حالها ما دامت لا تضر فردًا أو جماعــة أو تجرح حشمة . نقول تركوهـا ولكنهم لم يقروها أو يجعلـوا لها تبريرًا ومع الـزمن يقضى عليهـا الإســلام إذا لم تعد لها فـائدة فى مجتمع إسلامى .

وقد تحرز فقهاء المسلمين أشد التحرز فى تطبيق مبدأ القياس حتى رفضه بعضهم رفضًا تامــاً كما نرى عند ابن حزم . وهم محقــون فى ذلك على مذهبهم فى التحرز ؛ لأن القياس يسهل اتخاذه ذريعة لتحقيق مآرب أصحاب المصالــح ولكن الإمام مالكًا عندما قبل مبدأ القياس وضـع له من الضوابط ما يجعله أساساً مأموناً من أسس التشريع وقد تبعه بقية الفقهاء فى ذلك عدا أهل الظاهر .

وهنا ـ فى بـاب الفقه ـ نجد أن الفقهاء ساروا فى اتجاه يخالف كل المخـالفة طريق المتكلمين ، وقد احترمـوا الناس ونزلـوا إلى دنيـــــاهم ونظروا فى مصــالحهم واحترموا اهتماماتهم .

* * *

الإسلام دين وأمة

من أكبر العيوب التى تشوب كتابات الكثيرين ممن يتعرضون للتأليف فى الفقه الإسلامى أن عملهم كله ـ رغم سعته ـ قائم على معرفتهم بالإسلام والمسلمين ، والتاريخ عندهم هو تاريخ أمة الإسلام وما عدا ذلك فهم يعرفون عنه القليل ، ومن ثم فهم لا يستطيعون تقدير مكان الفقه الإسلامى قدره الصحيح فى الحضارة الإنسانية لأننا لو عرفنا تجارب الأمم غيرنا لزاد فهمنا لتجربتنا ، ولو درسنا الشرائع الأخرى غير الإسلامية لتبين لنا من فضائل شريعة الإسلام وفقهه أضعاف ما نتصور أننا نعرف وسأضرب لك هنا مثلاً واحدًا يغنى عن كثير ، فقد أهدانى الصديق العالم الدكتور عبد الصبور مرزوق كتاباً فى الفقه الإسلامى من تأليف الدكتور عباس حسنى أحمد ، والكتاب جيد جداً ، وقد انتفعت به أكبر النفع ولكنى أقرأ فيه العبارة التالية : « هذا ، وما ينبغى التنبيه إليه أن الشريعة الإسلامية ليست كهنوتاً محصوراً فى فئة قليلة من رجال الدين ، فلا يوجد فى الإسلام رجل دين ، وإنما المسلمون جميعاً رجال دين ودنيا ، وطلب العلم فرض على كل مسلم ومسلمة بنص الحديث . فالناس ثلاثة : عالم ومتعلم وهمج رعاع » (ص ٤٨) ، ومعظم ما فى هذه العبارة صحيح ولكنك تقف طويلاً عند قوله : إن الناس ثلاثة : عالم ومتعلم وهمج رعاع .. فمن أين أتى هذا العلامة بأن الناس ينقسمون إلى ثلاث طوائف متحاجزة متمايزة : علماء ومتعلمين وهمج رعاع ؟ ومن هم الهمج الرعاع ؟ ولماذا يصر بعض أهل العلم عندنا على أن هناك فى المجتمع الإسلامى طائفة تسمى بالهمج الرعاع ؟ وهل وجدوا فى القرآن الكريم ما يوحى بأن من عباده ناساً منبوذين لأنهم همج رعاع ؟ وهل اعتبر رسول الله ﷺ نفراً من معاصريه همجًا رعاعًا ؟ ثم ألم يكن كبار أعداء الإسلام يقولون : الذين دخلوا فى دعوة رسول الله ﷺ همج رعاع ؟ ألم يقولوا إن بلالَ بن رباح ، وخباب بن الأرت ، وعمار بن ياسر همج رعاع وأنهم سادات قريش ـ لا يليق بهم أن يجالسوا هؤلاء الهمج الرعاع ؟ ألم تكن من بين الصحابيات اللاتى كان رسول الله ﷺ يكرمهن ويقربهن جارية تسمى زنيرة ، كان أبو جهل يرى أنها من أحط الهمج الرعاع وهى عند الله أفضل منه ؟ ثم ألم يعلم صديقنا العلامة أن من أكبر عيوب المجتمع الرومانى التى هدت كيانه آخر الأمر أن سادات الرومان كانوا يرون أنهم طبقة متميزة لها حق الحكم والسيادة هى طبقة الباتريسيى

Patricii والفرسان Equesrri ولا يجوز لهم الاختلاط بمن كانوا يسمونهم الهمج الرعاع أو الـ Plebei . ثم ألا يذكر أنه كان من أكبر أسباب الثورة الفرنسية أن المجتمع الفرنسى فى عصر الملوك قبل الثورة كان يقسم الناس إلى ثلاث طبقات : الملوك ومعهم الأشراف ثم كبار رجال الدين ثم أهل الطبقة الثالثة أو ما يسمى باسم Tiars Etak وأن بداية الثورة كانت عندما أصر رجال مجلس الأمة بأن تزال الفوارق فلا يكون هناك همج رعاع منبوذون يجلسون فى قاعة وحدهم ولا يجوز أن يجالسوا رؤساء الناس من الأشراف ورجال الكنيسة ، وعندما سقط الحجاب الحاجز بين طبقات الشعب دخلت فرنسا وأوروبا بعدها فى عصر النهضة العظيم .

ثم ألم يقرأ تواريخ علماء هذه الأمة من أيام الصحابة والتابعين وتابعيهم وقادة الفكر فى هذه الأمة ليرى أن عددًا عظيمًا ممن شادوا مجد هذه الأمة خرجوا من أولئك الذين يسميهم الهمج الرعاع من أبناء الطحانين القفاصين الدباغين والضرابين الذين يصنعون الطوب من الطين وباعة الماء فى المساجد والنجارين والخدم والموالى والرقيق والعتقاء .

فما معنى هذا الترفع والقول بأن من بين أبناء الأمة همجاً رعاعًا ، وإذا كان هناك همج رعاع أفليس من واجب الذين يرون أنفسهم علماء ومتعلمين أن يعملوا على ألا تكون هناك جماعات منبوذة مستبعدة توصف بأنها همج رعاع ؟ وهل كان لا بد أن ننتظر حتى يعلمنا أهل الغرب أنه لا ينبغى أن يحرم من العلم أحد يستحقه ويطلبه ، وأن من واجب الدولة - أى الجماعة - أن تفتح أبواب العلم للراغبين فيه المؤهلين لطلبه بل إن عليها أن توقع العقوبة على من يقصر فى تعليم أولاده ؛ لأن هذا التقصير فى ذاته مضرة بالأمة ؟

ومما يستوقف النظر فى ذلك الكتاب القيم تفسيره لقول الله سبحانه وتعالى : **﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ الله بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾** (النساء ٤ / ٣٤) . بأن الرجال عموماً أعلى درجة من النساء عمومًا ، لأن الرجال يُحكِّمون العقل أما النساء فتتغلب عليهن العاطفة وأنا فى هذه الدراسة لا أعتمد على النصوص بقدر ما أعتمد على الواقع التاريخى ، والواقع التاريخى يقول إنه لا فارق فى العقل أو الذكاء أو الدين أو الانسياق مع العاطفة بين الرجال عامة والنساء عامة .

وأنا أنظر فى سيرة رسـول الله ﷺ فلا أجد من قولـه وفعله أنه يرى الرجـال عامة أعقل من النسـاء عامة ، ثم يقولـون لك إن رسول الله ﷺ قال : إن النسـاء ناقصات عقل ودين ، ولا أجد من سيرة النبى ﷺ مـا يدل على ذلك ، وكيف يقول الرسـول إن النساء ناقصات عقل ودين ، وخديجة أم المؤمنين آمنت به وثبتت فؤاده حتى قبل أن يطمئن هو إلى حقيقة ما يسمع ويحس ؟ ولم يكن إيمانها به عـاطفة بل عقلاً ، فهى لم تقل له إننى واثقة من أن الذى يأتيك خير لأننى زوجتك وأحبك ، بل قـالت : كلا والله ، ما يخزيك الله أبـدًا . وإنك لتصل الـرحم وتحمل الكَلَّ وتكسب المعـدوم ، وتقـرى الضيف وتعين على نوائب الحق .. وهـذا كله كـلام عقل ومنطق وحكمة ثـم أشارت عليـه بعد ذلك بـالرأى السليم وهو أن تسأل فى الأمر ابن عمها ورقة بن نوفل ؛ لأنه يقرأ الكتب المقدسة ويفهم فى تلك الأمور ، ثم إننى أنظر فأرى أن رسول الله ﷺ كان يستشير زوجته أم المؤمنين أم سلمـة فتشير عليه بـالـرأى فيأخذ بـه ، وأراه يثق فى عقل عـائشة أم المؤمنين ودينهـا ويأمرنـا بأن نأخذ العلم بالـدين من عائشة رضى الله عنهـا وأجده يثنى على أم عمارة الأنصـاريـة ، ويثنى على أسماء بنت عميـس الخثعميـة وغيرهن كثير ، وأمـامك الجزء الثامـن من طبقات ابن سـعـد عن الصحابيـات والتابعيات فتجـد من إيمانهن وعقلهن وحسن صوابهن ما لا يقل عن الرجال ، وحتى لو ذهبنا مذهب من يقولون إن رسول الله قال : إن النســاء ناقصات عقل ودين فهـل قال الرسـول ﷺ إن الرجال كـوامل عقلاً وديناً ؟

إنما هى مذاهب ذهبوا إليها وتداولوهـا دون تدبر وثبتوا عليها وعطلوا بها الإفادة من ملكات النساء وهن نصف الأمة ، وهذا الـذى أقوله لا يتنافى مع ضرورة التزام المرأة للسمت والحشمة وعـدم إبداء الزينة فهـذا أساسـى وهو فى ذاتـه دليل على حمق الرجل وعدم سيطرته على غرائزه . فالمرأة إذ تحتشم وتقتصر فى الخروج والضرب فى الطرقات إنما تحمى نفسها من الـرجل فصيانة المرأة لنفسهـا تكريم لذاتها وليست بحـال دليلاً على أنها ضعيفة العقل أو أكثـر من الرجل تعـرضاً للفتنة والخطيئـة ، ولو أحصينـا ما أصاب البشريـة من أخطاء الرجـال ورذائلهم لزادت أضعافًـا على ما أصاب الـدنيا من أخطاء النسـاء وإنما هبط مستوى المرأة عندنـا ؛ لأننا فرضنا عليهـا تصورنا الـرجالى لنظام المجتمع وابتذلنا المرأة وعدونا عليهـا وغسلنا مخها حتى أصبحت المسكينة ترى نفسها فعلاً أدنى من الرجل .

ومن سخرية القدر بالذين يستطردون مع الحط من شأن المرأة أن التى غلبت رجالنا وأتمت إخراج بقايانا من الأندلس كانت امرأة آمنت بدينها أكثر مما آمن رجالنا بدينهم ، وفى عالمنا الراهن نساء يحكمن شعوبهن بأعقل وأحزم مما يحكم الرجال .

وهذا الكلام أقوله لأننى أجد أن هناك فى تفكيرنا قضايا مُسلَّمات كان ينبغى أن نعيد النظر فيها لكى نسير فى أمرنا دائماً على عقل وبصيرة لأن الشريعة سمحة واضحة الحكمة ، والذين استخرجوا لنا أحكام الشريعة من القرآن والسنة كانوا رجالاً عظماء حقًا ، عرفوا كيف يضعون كل شىء مكانه فهم لم يحقروا المرأة أو أساءوا الظن بها دون أن يخالفوا أمراً من أوامر الله ، وإذا كانوا قد أعطوا المرأة نصف الرجل فى الميراث فذلك أمر من أوامر الله وأوامر الله لا تناقش ، ثم إنه قسم أموال ومواريث قررها الخالق سبحانه وتعالى لحكم اجتماعية واقتصادية هو أعلم بها سبحانه وهو أمر لا ينطوى على أى اتهام لعقل المرأة أو كفايتها ، وأنا فى هذا كله أسير على هدى القرآن وسنة المصطفى صلوات الله عليه .

ونحن الآن نتحدث عن فقهاء الإسلام وما بذلوه من جهد فى صياغة أحكام الشريعة صياغة عمل وتطبيق ، فأجد فى أولئك الرجال البناة الحقيقيين لمجتمع الإسلام فقد اجتهدوا فى صيانة الحقوق والنفوس وأظهروا ذكاء بعيدًا فى فهم آيات القرآن ، ووضعوا أسسًا علمية بالغة الدقة فى بناء صرح علم الحديث ، وانظر مثلاً إلى ما تميز به السفيانيان الثورى وابن عيينة من العقل والدقة والإخلاص والعمل الدءوب الصادق فى بناء قاعدة الشريعة دون خوف من حاكم ، وتحضرنى هنا الحكاية التى يرويها ابن خلكان عن مروج الذهب للمسعودى فى كلامه عن سفيان الثورى وهو عربى أصيل من بنى عبد مناة بن كنانة : قال القعقاع بن حكيم : كنت عند المهدى (الخليفة العباسى الثالث) وأتى سفيان الثورى فلما دخل عليه سلم تسليم العامة ، ولم يسلم بالخلافة (أى أنه سلم السلام الذى يحيى به كل الناس) والربيع (بن يونس الوزير) قائم على رأسه متكئاً على سيفه يرقب أمره ، فاقبل عليه المهدى (الخليفة) بوجه طلق وقال له سفيان : تفر منا ها هنا وها هنا وتظن أننا لو أردناك بسوء لم نقدر عليك فقد قدرنا عليك الآن ، أفما تخشى أن نحكم فيك بهوانا ؟ قال سفيان : إن تحكم فىّ يحكم فيك ملك قادر يفرق بين الحق والباطل ، قال له الربيع : يا أمير المؤمنين : ألهذا الجاهل أن

يستقبلك بمثل هذا ؟ إئذن لى أن أضرب عنقـه فقال المهـدى : أسكت ويلك هل يريـد هذا وأمثاله إلا أن نقتلهـم فنشقى بسعادتهم اكتبوا عهده على قضــاء الكوفة على ألا يعترض عليه فى حكم . فكتب عهده ودفع إليه فأخذه وخرج فرمى به فى دجلة ، هرب فطلب فى كل بلد فلم يـوجد ولما امتنع عن قضاء الكـوفة وتولاه شريك بن عبـــد الله النخعـــى قال الشاعر :

تحرز سفيـــان وفــر بـــدينـــه   وأمسى شريك مـــرصـــدًا للـــدراهم

(ابن خلكان ٢/ ١٢٧ ـ ١٢٨)

فأنت ترى هنـا أن الوزيـر الربيع بن يونس يصف سفيـان الثورى بأنـه جاهل ، وسفيان كان من أعلم أهل زمانه وهذه مـلاحظة أهديها للذين يقسمون أمة الإسلام إلى علماء ومتعلمين وجهلـة ورعاع وأقـول : من أين أتيتم بهذا التقسيم ؟ وهل أضر بأمتنـا شىء مثل ترفعنا بعضنا على بعض ، واتهامنا بعضنا بعضا بالجهل وعدم ثقة بعضنا فى بعض ، وكل ذلك أضر بوحـدة الأمة وأوجد فـروقًا خطيرة بين طبقاتها وخرجنـا فى هذه الناحية عن نهج الإسلام .

ثم تأمل ذكـاء الخليفة المهـدى الذى أدرك أنـه إذا أقدم على قتل رجل مثل سفيـان الثورى ؛ لأصبح سفيان شهيدًا سعيدًا بشهادتـه ولهز مقتله عرش بنى العباس كما هز دولة بنى أمية مـن أساسها مقتل الحسين رضى الله عنه ، فكـان الحسين الشهيد أقوى من الحسين طالب الخلافة ، وانظر إلى سفيان الثورى وهو لا يعترف بخلافة المهدى فهو يسلم عليـه دون لقب الخلافـة ، وعلى أكتـاف رجـال من أمثال فقهـاء المدينـة السبعـة وسفيان الثـورى وسفيان بن عيينة ومحمـد بن سيرين والليث بن سعد وعبـد الرحمن الأوزاعى والأئمة الأربعة وغيرهم كثيرون جدًا قامت الدعائم الحقيقية لأمة الإسلام وقد كانوا يستطيعون أن يفعلوا أكثر مما فعلوا لـولا الأثر السىء الذى كان للسياسة وأهلها فى تطور هـذه الأمة ، وأنا من أكثر النـاس اعجابا بمالك بن أنس ولكنى أقول : أن مـالكًا أنكر شرعية الخلافة العباسية إنكارًا ضمنيًا أو مستورًا فقال : ليس على مستكره طلاق أى أن الذى يرغم على تطليق امـرأته لا يصح طلاقه ، وهو يريـد أن يقول : إن بيعة أبى العباس السفاح ، وأبى جعفر المنصور جـاءت على طريق الإرغام والخوف فهى بيعة غير صحيحـة وبـاطلة ، ولـو أنـه قـال صراحـة أن بيعة بنـى العباس غير شرعيـة لقتلـوه

ولكن مقتله كان سيزعزع بنيـان دولة بنى العباس ويهدم بنيان الظلم ويحرك عواطف الأمة ويقيم الثورة على الطغيان ويعيد إلى الأمة حقوقها فى أن تحكم نفسها حكمًا شوريًا عادلاً على النحو الذى ترضاه ، وهذا النحو يرضى عنه الله سبحانه وتعالى ؛ لأن الأمة لا تجمع على ضلالة ، ثم إن حكم الجماعة أيا كان أسلم من حكم الفرد وأقربه إلى العدل والأخلاق والصلاح وروح الإسلام ، ولكن مالكاً لم يفعل ذلك وعاش ليتم بناء القاعدة القانونية لبناء الأمة على ما سنراه .

وقد كان أحكم أهل الفقه فى النصف الثانى من القرن الهجرى الثانى ـــ الثامن الميلادى ، هو الإمام جعفر الصادق فقد بلغ هذا الرجل من سعة العلم ودقة الفهم ما يجعله فعلاً من أعاظم مفكرى الإسلام وفقهائهم ، فقد عاش فى عصر اشتد تقاتل الناس فيه على الخلافة ، أما هو ـ وكان أَوْلَى أهل زمانه بخلافة المسلمين فقد رأى أن الخلافة الرشيدة لا يمكن أن تستقيم بغير أمة رشيدة ، لأن الصحيح هو أن ترشد الأمة أولاً فترشد الخلافة نتيجة لذلك ، والخلفاء الراشدون كانوا راشدين لأن الأمة فى أيامهم كانت رشيدة ، أما وقد تقسمت الأمة فى أواخر العصر الراشدى شيعًا وأحزابًا وحكم فيها دعى دخيل لا يعرف أحد من هو أو من أين أتى ؟ وهو أبو مسلم الخراسانى ، فلعب بالناس لعبًا وتآمر مع صعلوك سياسى هو إبراهيم الإمام بن على بن عبد الله بن عباس وعبث بعقول العرب وضرب بعضهم ببعض وساق الإمامة إلى أبى العباس السفاح ، والسفاح خاض بحرًا من الدماء ليصل إلى الخلافة ، إذا كان هذا كله قد حدث فقد تلاشى الأمل فى صلاح الدنيا ولم يبق إلا صلاح الدين ، وعلى الدين الصالح تقوم الأمة الصالحة والقيادة الرشيدة ، ولهذا فعندما وصلت الإمام جعفر الصادق رسالة من أبى سلمة الخلال مدبر أمر الثورة على بنى أمية (حتى كان يلقب بوزير آل محمد) قام فأحرق الرسالة علناً أمام الناس ليروا زهده فى الخلافة وهو لم يزهد فيها ؛ لأنه كان يشعر أنه غير صالح لها ، بل لأنه كان واثقًا من أنه لا يستطيع أن يكون خليفة راشدًا إذا كان وصوله إلى الخلافة يتم بمؤامرة دنيئة كتلك التى دبرها أبو مسلم بالكذب الخداع والدس بين الناس وإزهاق الأرواح . رفض الخلافة وفضل أن يظل عالماً ، وحسناً فعل وهو بموقفه هذا قرر حقيقة ستزداد مع الأيام تأكيدًا ، وهى أن إمام الناس حقاً هو أعلمهم بكتاب الله وسنة رسوله ، وأن الدولة التى يتبادلها الظلمة بعضهم مع بعض إنما هى عرض زائل .

ولكى أدلك على صلاح هذا الرجل وصدق فهمه للإسلام أشير إلى ما جرى من الحديث بينه وبين الفقيه عمرو بن عبيد ، وكان أبو عثمان عمرو بن عبيد بن باب متكلمًا زاهدًا فقيهًا (ت. حوالى ١٤٤ هـ) وكان صديقًا للإمام جعفر الصادق فسأله يومًا ما هى الكبائر ، واشترط عليه أن يكون حكمه على كل كبيرة قائمًا على بينة صريحة من القرآن الكريم ، فرد عليه الإمام جعفر ردًا بالغ الحكمة وحدد الكبائر كما يلى على الترتيب ، وقد أردف كل واحدة بالبينة القرآنية عليها مما لا يتسع المجال هنا لإيراده وهى : الشرك بالله ، واليأس من رحمة الله وعقوق الوالدين وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وقذف المحصنات وأكل الربا والفرار يوم الزحف ، واليمين الغموس (أى التى يحلفها الرجل كاذبًا وهو يعرف أنه كاذب فيغمس نفسه فى النار) وشرب الخمر ، والغلول (إخفاء شىء من الغنيمة وانفراد الرجل به فلا يدخل فيما يقسم من الغنائم ، والمراد هنا سرقة مال الجماعة الإسلامية أياً كان وهو خيانة للأمة .. يعدها جعفر الصادق كبيرة) وشهادة الزور ومنع الزكاة (لأنها حق المسلم غير القادر على أخيه القادر) وترك الصلاة ونقض العهد ، وقطيعة الرحم ، وإذا أنت تأملت هذه الجرائم التى يعدها الإسلام على مذهب جعفر الصادق كبائر وجدت فيها جماع قواعد صلاح أمر المسلمين كله ، فإذا صلح أمر المسلمين صلحت إمامتهم ، وإمامتهم لا تقوم إلا على الشورى ، أى تشاور بين الأمة التى أمرنا الله أن نختارها من بيننا لتدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فكان من نكد الدنيا أن الذى صنع للمسلمين خلافتهم العباسية هذا الأفاق المجهول الدخيل أبو مسلم الخراسانى الذي لا نعرف حتى حقيقة اسمه بالاشتراك مع وصولى سياسى مزور هو إبراهيم الملقب بالإمام بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، فكيف تصلح للناس هذه الإمامة وهذا حالها ؟ وكيف يقبل الإمامة جعفر الصادق من يد قوم من هذا الطراز ؟

وبمناسبة عمرو بن عبيد الذى ذكرناه نروى الخبر التالى الذى يذكره ابن خلكان فى ترجمته وهو خبر عظيم الدلالة على انفصال الأمة عن الدولة فى ذلك العصر ، فقد كان والد عمرو يخلف أصحاب الشرط بالبصرة (أى وكيلاً لصاحب الشرطة) فكان الناس إذا رأوا عمراً مع أبيه قالوا : هذا خير الناس ابن شر الناس ، فيقول أبوه : صدقوا ! هذا إبراهيم وأنا « آزر » (وفيات ٣ / ١٣٠) فتأمل كيف كان الناس يرون رجال الشرطة - والمفروض أنهم رجال الأمن وحماة الأنفس والأموال شر الناس (لأنهم كانوا خدم

الدولة) حتى والد عمرو أقرهم على ذلك ، وقال لهم إن عمراً ابنه هو إبراهيم عليه السلام نبى الله . وأما أبوه فهو آزر والد سيدنا إبراهيم وكان كافراً !

ومما يروع النفس فى أمر التشريع الإسلامى الذى استخرجه الفقهاء الأول من الأصول الإسلامية الخالصة وهى القرآن والسنة ثم الإجماع والقياس أنها بنيت على أدق الأساليب العلمية التى عرفها أهل العلم فى الشرق والغرب على السواء إلى يومنا هذا وهى الدقة التامة والاعتماد فى العمل على المادة السليمة المصفاة أدق تصفية ومراعاة الضمير وصالح الناس وسلامة المجتمع والضمير فى القرآن الكريم يعبر عنه بالقلب فى كثير من الآيات فى مثل قوله تعالى فى سورة الشعراء فى دعاء إبراهيم عليه السلام : ﴿ **وَلاَ تُخزنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إلا مَنْ أَتَى الله بِقَلبٍ سَلِيمٍ** ﴾ (٢٦/ ٨٧ ـ ٨٩) وقال فى سورة البقرة : ﴿ **ولا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ * ومن يَكْتُمْهَا فإنه آثم قَلْبُهُ** ﴾ (٢/ ٢٨٣) وانظر إلى الدقة العلمية وخلوص النية والضمير التى اتباعها أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخارى (ت ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م) فى تأليف جامعه الصحيح الذى يعتبره الفقهاء أصح كتاب بعد القرآن الكريم .

فقد تطوع هذا الرجل بجمع كل ما تيسر له من الحديث الصحيح المروى عن رسول الله ﷺ كل حديث بسنده حتى لا يدخل فى حديث رسول الله زيف ، فوضع لنفسه شروطًا بالغة الدقة والعسر ، منها أنه لا يأخذ الحديث إلا عن راوهة أو رواته أنفسهم مهما بعدت بلادهم و إن كان للحديث الواحد أكثر من سلسلة إسناد أتى بسلاسل الإسناد كلها وإن اتفقت فى نص الحديث . أو اختلفت النصوص بعضها عن بعض فى كلمة أو حرف وكلف نفسه القيام برحلات طويلة فى بلاد الإسلام فإذا كان رواة الحديث الواحد عشرة متفرقين فى شتى الأمصار لم يتردد فى الذهاب إلى كل واحد منهم فى بلده لسماع الحديث منه والاستيثاق من سنده قبل أن يكتبه ولم يكن يثبت حديثًا إلا إذا استوثق من أمانة صاحبه وسلامة ضميره . وكثيرًا ما رحل مئات الأميال ليسمع حديثًا من رجل ، ثم لم يطمئن إليه قلبه فتركه ، وفى هذا العمل المضنى أنفق ست عشرة سنة ، رحل فيها من بغداد إلى خراسان والجزيرة فى شمال العراق والشام ومصر والحجاز ، ثم جمع أحاديثه ورتبها أبوابًا وراجعها مع العلماء حديثًا حديثًا ، وكان إلى جانب دقته وتقاه واسع الذكاء فقد اختبره العلماء ، بعد فراغه من صحيحه أعسر

الاختبار قبل أن يسلموا بسلامة ما أثبته فى كتـابه ، وبلغ من تقدير الناس إياه أن الإمام مسلم صاحب الجامع الصحيح كان كلما دخل على البخارى قال : دعنى أقبـل رجليك يـا طيب الحديث ويا سيـد المحـدثين . وكان البخـارى يحفظ فى شبـابه وقبل أن يقـوم برحلاته سبعين ألف حديث ، فما زال يفحصهـا ويراجعها مع الرواة والعلماء حتى ترك معظمها ولم يثبت فى صحيحه إلا نحو عشرها . وهذا مذهبه فى التحرى والتدقيق وتكلف الضبط العلمى لم نسمع بمثله فى أى ثقافة أخرى خارج نطاق الإسلام .

ولم يكن أبـو الحسين مسلم بن الحجـاج بـن مسلم القشيرى صـاحب الجامع الصحيح بأقل دقة أو أضعف منهجًا من البخـارى ، فقد تجرد هو أيضًا لجمع الحديث وقضى عمره كله فى جمعه على منهج علمى خاص به بيَّنه فى فاتحة صحيحة ، وكما فعل البخـارى فقد جـاب مسلم بـلاد الشـام فى طلب الحديث وتـدوينه وقـد أفـاد من عمل البخارى لأن زمـانه تـأخر عنه ، فقـد عاش فيما بين سنتـى ٢٠٦ و ٢٥٦ هـ (٨٢١ ـ ٨٧٠ م) وقد كان باراً بـالبخارى وعندما تعرض البخارى لعـداوة عدد كبير من الناس وقاطعـوه كان مسلم من أوفى الناس لأستـاذه وقد سمع مسلم عن أحمد بن حنبل ، ابن حنبل كان إمـامًا من أئمة الحديث إلى جـانب ملكته الفقهية التشريعيـة العظيمة . وسمع أيضًا عن إسحـاق بن راهويـة ويحيى بن يحيى النيسابـورى وهؤلاء جميعًـا من أبناء مـدرسـة الحديث الكبرى التى لم تكتف بـالجمع والتـدوين . بل تطـرقت إلى المقـارنـة والاهتمام بالمتن أبلغ اهتمام .

وهذان الشيخان الجليلان يعتبران على رأس قائمة واضعى المنهج العلمى فى تاريخ الحضارة الإنسـانية ، فلم يسبق أن وضع رجل مـن أهل العلم مثل هذا المعيـار الدقيق للعمل العلمى .

ومن عجب أننا نحن المسلمين ـ نتعلم المنهج والـدقة والضبط من علماء أهل الغرب وننسى أن مقاييس العلم الصحيحـة كلها وضعهـا أسلافنا ، وكـان علينا أن نسير على خطاهم لتظل لنا صدارة العلم فى الـدنيا ، ولكننا هنا ـ على عهدنـا فى كل أمورنا ـ نضيع الكنوز التى بين أيدينا تضييع السفيه الذى ينفق مـا تركه له أبوه ثم يمضى بقية عمره يتسول ويتكفف الناس .

وهذا مثـل مما كان عليـه أهل العلم من أجـدادنا فى الضبط والدقـة والصبر وإليك

مثلاً آخر مما كانوا عليه فى دقة العمل وضبطه فجمعوا بين الدقة والضبط والصبر فى العلم والعمل ، والمثل آتيك به من سيرة عمر رضى الله عنه فقد كتب إلى سعد بن أبى وقاص وهو فى طريقه إلى القادسية يقول : أما بعد ، فتعاهد قلبك ، وحادث جندك بالموعظة والنية الحسنة . ومن غفل فليحدثهما .. والصبر ! الصبر ! فإن المعونة تأتى من الله على قدر النية . والأجر على قدر الحسنة . والحذر الحذر على ما أنت عليه وما أنت بسبيله واسألوا الله العافية وأكثروا من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله : واكتب إلىّ إلى أين بلغ جمعهم . ومن رأسهم الذى يلى مصادمتكم فقد منعنى من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمى بما هجمتم عليه ، والذى استقر عليه أمر عدوكم . فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذى بينكم وبين المدائن صفه كأنى أنظر إليه .

واجعلنى من أمركم على الجلية . وخف الله وارجه ولا تدل بشىء (لا تغتر بشىء) واعلم أن الله وعدكم وتوكل بهذا الأمر ما لا خلف له . فاحذر أن تصرفه عنك فيستبدل بكم غيركم ..

فانظر إلى دقة عمر رضى الله عنه ، وحسن فهمه للأمور فهو يطالب قائده بأن يصف له موقعه ومواقع الأعداء وصفًا يجعله كأنه ينظر إليها .. وانظر إلى صدق معرفته بالإسلام ومنهجه فهو يقول لسعد : إن الله وعد هذه الأمة النصر وتكفل لها بذلك ما دامت تسير فى الطريق السليم فإذا خرجت عنه انصرف عنها واستبدل بها غيرها.

والعلماء الذين ضربت لك مثلاً من التزامهم المنهج رسموا للأمة طريق العلم ، ورسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى وضعوا لها أساس العمل . فأما أهل السياسة فقد انحرفوا عن المنهج انحرافًا بالغاً فانصرف الله عنهم وضاعوا ، وأما بقية الأمة فقد لزمت المنهج وسارت فى الطريق النبوى العمرى وعلى رأسها العلماء والفقهاء فحفظها الله ؛ لأن الإسلام دين وأمة ، لأن الدين باقٍ والأمة باقية ، وأما الدولة فقد دالت وذهبت بها رياح الزمان مرة بعد أخرى .

* * *

الطَّرِيقُ إلَى الْمُوَطَّأِ

لا بد لى — بين يدى هذا الحديث — أن أقرر أننى لن أتطرق إلى الحديث فى الفقه فى هذه الفصول ، فلست من أهل الفقه ، ولن يبلغ بى الجهل أن أدخل فيما ليس من شأنى وأقتحم على أهل الفقه ميدانهم ، فلكل رجل منا مكانه وحدوده ، ولا يجمل بالرجل الذى يصون نفسه عن الخطل أن يتعدى حدوده ، ويتطاول إلى ما لا يحسنه . إنما أنا مؤرخ ألتزم حدود علمى فى كل ما أكتب ، وكيف آذن لنفسى فى ذلك وفى الأمة والحمد لله من أجلاء أهل الفقه والدين والعلم والتصاون من يزهو بهم عصرنا ، ويصان بهم ديننا ، وكيف يسوغ لى أن أتكلم فى الفقه ومن حولى شيوخ أعاظم من طبقة جاد الحق على جاد الحق ومحمد متولى الشعراوى وأحمد حسن الباقورى والسعدى فرهود ومحمد الطيب النجار وعبد العزيز عيسى وعبد الجليل عيسى وزكريا البرى وعبد المنعم النمر وأضرابهم وأهل طبقتهم ممن تخوننى ذاكرتى الآن عن ذكرهم ، وهذا فى مصر وحدها ، فما بالك بمن تضمه بقية بلاد الإسلام من جلة العلماء .

ولا يفوتنى أبدًا وأنا أكتب هنا أننى أعيش فى عصر نهضة ثقافية كبرى ، دعا إليها وأقامها رجال من أمثال محمد عبده وجمال الدين الأفغانى ورشيد رضا وعبد الرحمن الكواكبى ومحمد بن عبد الوهاب وعبد الحميد بن باديس وعلال الفاسى ومحمد بن على السنوسى وحسن البنا وسيد قطب وعبد الأعلى المودودى وسليمان الندوى ومالك بن نبى وعلى عبد الرازق ومصطفى عبد الرازق ومصطفى المراغى ومحمود شلتوت ومحمد أبو زهرة وعبد الحليم محمود وإبراهيم الوزير والشيخ الباز والشيخ المحمودى وغيرهم وغيرهم ، ومعذرة إذا كنت قد خلطت فى الترتيب فالحق أننا لا نملك دليلاً بالتواريخ الخاصة بعصرنا ؛ لأننا قصرنا فيما حرص عليه أسلافنا من التأليف فى الرجال مع أننا اليوم فى أشد الحاجة إلى ذلك ؛ لأن عصرنا كما قلت عصر نهضة فكرية فقهية إسلامية كبرى جديرة بأن يؤرخ لها ، ولابد أن تؤلف فى أهلها كتب طبقات .

وإنما عملى هنا هو عمل المؤرخ أى إضافة البعد الزمنى إلى عملية بناء الفقه الإسلامى الجليلة لأننا ـ مثلاً ـ نؤلف الكثير عن مالك بن أنس ونعظم قدره ونمجد عمله العلمى العظيم ولكننا لا نتنبه إلى الطريق الطويل الذى قطعه مالك ليستطيع أن يبنى

مذهبه العظيم . فابن خلكان مثلاً عندما يتحدث عن مالك يصوره لنا وهو فى قمة مجده عندمـا أصبح إمام دار الهجـرة وأتم تأليف موطئـه الذى بسط فيـه مذهبـه ، ولكنه لا يحدثنا عن الطريق الطويل الذى سار فيه بنـاء الفقه الإسلامى قبل مالك ، ولا يذكر لنا عظماء الرجال الذين مهدوا الطريق إلى مالك ثم إنـه لا يتنبه إلى عبقرية هذا الرجل الذى عرف على طول سبعين سنـة ونيف من الجهد المتصل كيف يضع تشريعاً كـاملاً قائماً على الكتاب والسنة والإجماع والقياس يشمل كل فروع القانون من العبادات إلى النكاح (الأحوال الشخصية) والمعاملات (القانـون التجارى) والحدود (قانون العقوبات) والجراحات (القانون الجنائى) وهو عمل ضخم لا يصدق ؛ لأن الرومان مثلاً احتاجوا إلى سبعة أو ثمانية قـرون لوضع قوانينهم التى طالما يتحدث عنها مـؤرخو الحضارة ، فقد بدأ تدوين القانون الرومـانى فى عصر الملوك قبل الميلاد بأربعة قرون ، ولم يفرغوا منه إلى عصر جستنيان الذى كتبت فيـه مدونة جستنيان فيما بين سنتى ٥٢٧ و ٥٦٥ ميلادية ، وأين القانون الرومانى من المجموعة القانونية التى يتضمنها موطأ مالك !

إن بعض أبواب الفقـه الإسلامى على مـذهب مالك (وغيره من الأئمـة) لم تدخل الفقه الرومانى إلا فى عصر جستنيان مثل : حقـوق اليتامى والصغار وحقوق المرأة وما ينبغى للشيوخ والمرضى من الرعاية .

وإذا أنت تأملت عمل مـالك من هـذه الزاويـة ازداد تقديـرك لـه وإعجابك بعملـه وجهده وازداد فى نفس الـوقت إيمانك بالإسلام الـذى وضع للناس قاعـدة ذلك الميزان الرائع للعدالة .

وأضرب لك مثـلاً آخر يعينك على التعـرف على الـزاوية التى أنظـر منها ، والبعـد التاريخى الذى أضيفه إلى دراسات الفقـه عندنا فإن رسول الله ﷺ قال : « **تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدًا : كتاب الله وسنتى** » وهو حديث ثابت متفق عليه وقوله حق لا شك فيه . وأنـا هنا أحاول أن أؤرخ للسنة ، ثم دعنا نسأل الآن : أين كان كتاب الله وسنة نبيه الكريم يوم انتقل إلى الـرفيق الأعلى ؟ فأما القرآن فقد كان بعد مفرقاً فى صدور الرجال ومدوناً على العظام والجلود والأخشاب والفخار وكان لا بد من جمعه وتثبيت نصه حتى يستطيع الناس الرجـوع إليه وهذا العمل تم والحمد لله خلال أيام أبى بكـر وعمر وعثمان ، وهذا فى ذاتـه كان عمـلاً عظيماً يرتبط بذكـر جماعة من

أعلام العلم فى هـذه الأمة على رأسهم زيد بن ثـابت النجارى الأنصارى وهـو أول عالم منهجى فى تـاريخ الإسـلام ، فهو الـذى نظم عمل الجماعـة التى قـامت بجمع القـرآن وتدوينه فى صحف وأنشأ أول مصحف ، وكان زيد ذكيـاً دقيقاً دخل فى خدمة الرسول فى سن بـاكـرة ولم يحضر بـدرًا ولا أحـدًا ؛ لأن سنـه كـانت تحت سن القتـال ، ولكن الرسول ﷺ أحبه وقـربه واتخذه كاتباً لأنه كان يجيد القـراءة والكتابة وتعلم فيما بعد العبرانية والسريـانية وصـار يكتب ويقرأ فيهما وكـان يحسن الحساب حتى قـال فيه الرسول ﷺ : « وأفـرضكم زيد » أى أنه كان أقدر الصحابـة على قسم الغنائم وحساب أنصبة المواريث ، وقد عاونه فى جمع القـرآن وإنشاء المصحف عبد الله بن مسعود وأبى ابن كعب والمقـداد بن الأسود وأبـو مـوسى الأشعرى وبـذل الخمسة جهـداً عظيمًا فى الجمع والمقابلة والترتيب والمراجعة ، وقدموا إلينا بـذلك أجل خدمة قُدمت للإسلام وقد تمت أيام عثمان ونسب إليه المصحف الثابت النـص وهو العثمانى وأعدم ما دون ذلك ولم يبق من القراءات المخالفة (فى ألفاظ أو شكل حروف) إلا شىء قليل نجده منسوبًا إلى أبى بن كعب وعبد الله بن مسعـود فى كتاب مثل الإتقان للسيوطى ، وتـوفى زيـد بن ثابت سنة ٥٦ هـ فى الغالب .

وهذا هـو كتاب الله قـد جُـمع وحُفظ ، وصـدق الله سبحانه وتعـالى عندمـا قال فى سورة القيامة : ﴿ لَا تُـحَرِّكْ بِـهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِـهِ ۞ إِنَّ عَلَيْنَا جَـمْعَهُ وَقُـرْآنَهُ ﴾ (٧٥/ ١٦، ١٧) وقوله فى سورة الحجر ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١٥ / ٩) .

ثبت نص القرآن ودُوِّنَ بالكلمة والحرف ولم يعد هناك مجال للشك فيه ، وستجىء بعـد ذلك مشـاكل التفسير والتأويل ولكن هـذه مسـائل أخـرى لم يجىء بعد أوانها وخاصة فى آيات الأحكام وهى لا تحتمل الكثير من الاختلاف .

وبقيت مسألة الحديث ، فإن الحديث هو كل مـا صدر عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو استحسـان أو استهجان . حتى صمت رسـول الله ﷺ عن الشىء يعد حديثاً ويمكن اتخاذه سنـة ، فإذا شـهد رسـول الله ﷺ تصرفًا أو رأى شيئاً فسكـت عنه اعتبر ذلك إقرارًا .

فأين كان الحديث وأين كانت السنة عندما توفى رسول الله ؟

لقد عاش رسول الله ﷺ وتكلم وتصرف وسط ألوف من الناس وكان فى الذين حوله ناس حفظة ودعاة ، وناس لا يحفظون ما يسمعون بنصه أو بما يقرب من نصه ولا يعونه الوعى الكافى ، وكان هناك ناس متيقظون إلى أن كل حديث للرسول ﷺ سيصبح سنة للمسلمين فلا بد من حفظه بنصه ، وناس لم يفطنوا لذلك بل كان هناك ناس لا يظنون أن رسول الله ﷺ سيموت وأن الناس سيسترشدون بعد موته بسنته ولم يكد الرسول ينتقل إلى الرفيق الأعلى حتى تبينت أهمية السنة ، وفى اجتماع السقيفة مثلاً برزت مسألة الإمامة أو خلافة الرسول وقال أبو بكر : إن رسول الله ﷺ قال « الأئمة من قريش » وهو حديث لم تثبت فيما بعد صحته ، وكان مثار خلافات سياسية ومذهبية حادة بين المسلمين فيما بعد .

وفى الصراع السياسى والاجتماعى الذى أخذ يشتد بعد ذلك أخذت أهمية السنة تتجلى واحتاج الناس إليها فى كل كبيرة وصغيرة ولكن أين هى ! إنها فى صدور الرجال ، ألوف الرجال الذين عاشوا حول الرسول ﷺ وبعضهم كان أشد التصاقاً به أو قربًا منه من غيرهم فأُتيحت له الفرصة ليسمع ويرى من حديث الرسول ﷺ أكثر من غيره ، ومنهم من تنبه إلى أهمية السنة فهو يحفظ ما يرى .

وبعد وفاة الرسول ﷺ تنبه المسلمون جميعاً إلى خطورة السنة فبدأ كل منهم يتذكر ما رأى وسمع ، وبعضهم تذكر جيدًا وبعضهم الآخر اختلط عليه الأمر فروى ما سمع على قدر ما استطاع ، والكثيرون أرادوا أن يكون لهم مركز ومقام فزعم أنه سمع أحاديث ورأى سنة وفجأة وجد المسلمون أنفسهم أمام أمواج بعد أمواج من الأحاديث التى سميت أيضًا بالآثار أو الأثر ، فما الصحيح فى هذا كله وما هو غير الصحيح ، وما الدقيق وما غير الدقيق أو ما هو المكذوب ؟

هنا بدأ ما يمكن أن نسميه سباق الحديث ولا بد أن نفترض أنه كان هناك أهل الصدق ، وهناك أيضًا أهل الكذب ، وهناك أصحاب النية الحسنة ، وهناك أصحاب النية السيئة ، ثم إن الفتوح الإسلامية سارت بسرعة لم تكن تخطر ببال أحد وانتشر العرب واستقرت أعداد منهم فى البلاد المفتوحة التى عرفت بالأمصار أو المهاجر ، وفى كل مصر استقر عدد من الصحابة ومن بين الصحابة والتابعين فى كل مصر ظهر ناس يحفظون أحاديث أو زعموا أنهم من أهل الحديث والأثر ، وهؤلاء أصبحت لهم مكانة ظاهرة فى الأمصار وبعضهم حدَّث بما عنده وبعضهم أفتى على قدر ما استطاع .

ومن مشاكل التاريخ الإسلامى وصعوباته أن كل الأشياء وقعت فى نفس الوقت وبسرعة خاطفة : الفتوح ، والهجرات ، وقيام الدولة والحاجة إلى التشريع وظهور المحدثين وأهل الأثر وأهل الفتيا ، ثم إن أهل البلاد المفتوحة أخذوا يدخلون الإسلام جماعات ضخمة وصدورهم ملأى بالأمل فى العدل والكرامة الإنسانية والرخاء والأمان والسلام وكل ما بشر به القرآن ورسوله الكريم ، وكل هؤلاء المسلمين الجدد كانوا معجلين يريدون أن تتحقق كل الآمال التى كانت حبيسة فى صدورهم فى عصور الظلم والفوضى والاستغلال التى عاشوها قبل الإسلام وتطلعوا جميعاً إلى العرب ، والعرب أنفسهم لم يكن لديهم ثابت موثوق فيه إلا نص القرآن ، أما السنة فلم تكن قد دونت بعد فكيف يحكمون فى القضايا التى كانت تطرح عليهم وليست لديهم العدة الكاملة للحكم ، ثم إن المشاكل التى واجهتهم كانت من كل حجم ونوع ، فهناك قضايا التنظيم الكبرى وهناك القضايا اليومية من نزاعات مالية وقضايا أحوال شخصية ومواريث وديون وزروع وتجارات وأموال ، فكيف يحكم العرب فى ذلك كله وليس لديهم الشرع المفصل أو القانون الذى يمكن تطبيقه .

ثم إن العرب كانت لهم مشاكلهم الكبرى فى حركة الدولة وفى الأمصار ، هناك المشكلة السياسية الكبرى وهى مشكلة الإمامة أى الخلافة ، وهى لم تحل الحل السليم ونشأت عن ذلك فتن وحروب بلا نهاية ، وهناك مشاكل العصبيات العربية القديمة أى التى ورثوها من العصر الجاهلى ، والجديدة التى ظهرت بعد الإسلام وقيام الدولة مثل الصراع المرير بين اليمنية الكلبية والشامية القيسية وكل هذه المشاكل الجسام كان لا بد لها من حلول والحلول تحتاج إلى وقت ولكن الناس متعجلون والصبر قليل .

وهذه القضايا والمشاكل كلها كانت سببًا فى ظهور أحاديث منسوبة إلى الرسول لأن الأحاديث أصبحت سلاحًا فى حروب السياسة وفتن العصبيات ومنافسات الأقاليم ؛ فالمسلمون الجدد فى العراق يروون أحاديث فى فضل العراق ، وأهل الشام تظهر فيهم أحاديث فى فضائل الشام ، وأهل مصر يتداولون أحاديث فى فضائل مصر ، والوصاة بالقبط وفتن الخارجية والعرب والبربر فى المغرب تلقى على الشاطىء أحاديث فى ذم إفريقية والبربر .

وهذا كله بدأ يستخدم فى الأحكام ؛ لأن القضاة كما قلنا لم تكن لديهم العدة الكاملة

لإصدار الأحكام المؤسسة على قاعدة الإسلام ، والسنة دخلها زيف كثير وتناقض وظهر القياس واستعمل دون ضابط ، وتحدث الناس فى الإجماع وأعطوه أكثر من معنى ، فأهل المدينة يرون أن الإجماع هو إجماع أهل المدينة وهى دار الهجرة ، وأهل العراق كان لهم فى الإجماع رأى آخر أما الرأى فقد توسع فيه الناس وربما كانوا معذورين فالقضايا كثيرة متوالية ، والناس يريدون أحكاماً وبعض القضاة بدأوا يصدرون أحكاماً صادرة عن الرأى والنظر الشخصى فلم يكن للكثيرين منهم علم تام بالقرآن ومعانيه ، والسنة لم تكن قد دونت بعد .

وسط هذه الظروف التى فرضت نفسها فرضاً ظهر مالك بن أنس وأصله البعيد من قبيلة ذى أصبح من الحميريين اليمنيين هاجر أبوه أو جده إلى الحجاز وصاهروا بنى تيم بن مرة القرشيين أو حالفوهم ، ومالك نفسه ولد فى المدينة حوالى سنة ٩٥ هـ ، ومن سن باكرة بدأ يتعلم ثم مال إلى السماع من الشيوخ وكان السماع كله إذ ذاك قراءة للقرآن ورواية للحديث والآثار ونقدها ، وكان علم شيوخ مالك مرتجلاً كله وبعضهم كانوا ذوى ملكات علمية صحيحة فانتفع بهم وبعضهم لم يكونوا بشىء .

وضرب مالك بن أنس فى مداخل الشباب وتفتحت ملكاته وظهر ذكاؤه وحسن استعداده ، وبدأت شخصيته الوقورة الرزينة والجميلة أيضاً فى الظهور وكان الله قد رزقه هيئة ووسامة وحسن مظهر وذوقاً جيدًا فى الثياب وحرصًا تامًا على النظافة وحسن المظهر ، ولم يكن ذلك عفوًا ولا تكلفًا وإنما كان مالك يحرص عليه عن قصد . قال فى ذلك أبو العباس أحمد بن خلكان فى « وفيات الأعيان » وكان مالك إذا أراد أن يحدث « يحاضر فى الحديث » توضأ وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته وتمكن فى جلوسه بوقار وهيبة ثم حدث . فقيل له فى ذلك فقال : أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ ولا أحدث به إلا متمكنًا على طهارة وكان يكره أن يحدث على الطريق أو قائماً أو مستعجلاً ، ويقول : أحب أن أتفهم ما أحدث به عن رسول الله ﷺ وكان لا يركب فى المدينة مع ضعفه وكبر سنه ويقول : لا أركب فى مدينة فيها جثة رسول الله ﷺ مدفونة (٣ / ٢٨٤) فهذا إذن عالم فقيه مسلم أستاذ يعرف لعلمه وفقهه وأستاذيته وإسلامه قدرها جميعاً ويقدر مسئولية إمام أمة الإسلام .

ومالك لم يبدأ من فراغ فإن طبيعة العلم على المستوى الذى كان فيه مالك لا تعرف

الفراغ وإنما هى أجيال من أهل العلم كل منها يرث علم السابقين عليها ، ويضيف إليها ما يتيسر له فى بحر حياته ثم يسلم الراية إلى الذى يليه وهكذا ، وقبل مالك كانت المدينة المنورة ومكة مثلها فى ذلك مثل بقية أمصار الإسـلام حافلة بالعلم والعلماء ، ومالك ولد سنـة ٩٥ هـ على مـا قلنـاه وهو عنـدمـا فرغ مـن المرحلة الأولى من التعليم ـ ربما فى العشرين من عمره ـ كنا فى سنة ١١٥ هـ وكـان جيل فقهاء المدينة السبعة قد انتهى فما بين سنتى ٩٤ هـ تـوفى فيها سعيـد بن المسيب ، وسنة ١٠٦ هـ توفى فيها قـاسم بن محمد سابع السبعة ، وليس من الضرورى أن يكونوا سبعة وقد يكون التحديد بسبعة ناشئاً عن سحر هـذا الرقم ، فالغالب أن كبار جيل أولئك الأعـلام الأجلاء كان أكثر من سبعة ، فبعضهم يضيف إليهم قبيصة بن ذؤيب ففى حلقة درسه فى مسجد رسول الله ﷺ فى المدينة درس عـروة بن الزبير أحد السبعة وهـو أخو عبد الله الـذى طلب الخلافة وأخيه مصعب الذى أعانه فى مطلبه وفى حلقته أيضاً جلس أبو بكر بن عبد الرحمن وعبد الملك بن مـروان (الذى صـار خليفـة) ، وعبد الـرحمن بن مِسـور وإبراهيم بن عبـد الرحمن بن عوف ، وهناك أيضاً عكرمة وعطاء بن أبى رباح وغيرهم وكان من بين فقهاء المدينة هؤلاء امرأة هى عمرة بنت عبد الرحمن .

هـؤلاء جميعاً كـانوا يتحسسـون طريقهم إلى العلم ؛ لأن العلم كـان لا يخرج عن القرآن والحديث ، فأما القرآن فكان موجودًا ثابتًا مستقرًا ولا سبيل إلى البحث فى أصالة نصه ، وإنما الكلام كان فى تفسيره والتفسير كان فى بداياته .

وأما المشكلـة فكانت فى الحديث فهو لم يجمـع بعد ، بل كان هنـاك خلاف فيما إذا كان يجوز جمعه وكتـابته مخافة أن يختلط بعضه بالقـرآن وانتهى بهم الأمر إلى جواز كتابته ، بل ضرورة ذلك ، وهنا كـانت المشكلة الحقيقية فأين الحديث الصحيح والمدينة تفيض بألوف وكل منهم يروى (أحاديث يقول : إنـه سمعها) فلا بد من وضع قواعد لروايـة الحديث والتأكد من صحته ومعظم الـذين ذكرناهم وغيرهم كثيرون جـدًا كان طلب الحديث هو شغلهم الشـاغل ، ومناقشـاتهم كلهـا كانت تدور حول نقـد ما يصل إليهم من حـديث رسول الله ﷺ وتبين للنـاس أن بعضهم محل ثقـة وأن منهم من ثبت عدم صحة روايته ومنهم من كان بين بين .

والعلم فى ذلك العصر كان القرآن والحديث الصحيح ، وأمـا استخراج الأحكام من

هذين الأصلين الثابتين فهو الفقه أو الحكمة وكان الخلاف كبيراً فى آراء الناس بعضهم فى بعض وابن سعد صاحب الطبقات يقول : إن رواية الحديث علم ، وهو يفرق بين العلم والفقه ، وكذلك فعل النووى . والطبرى فى تفسيره يجعل القرآن علمًا على حدة ، ويقول : القرآن والعلم والفقه ، والعلم هنا هو الحديث ، والفقه هو استخراج الأحكام من القرآن والسنة ، وثمرة الفقه هى الرأى فكانوا يقولون : إن زيد بن ثابت فقيه فى الدين وعالم بالسنة ، أما سعيد بن المسيب فكان فقيه الفقهاء وعالم العلماء ، والذهبى يقول فى طبقات الحفاظ : إن أبا ثور كان أحد أئمة الدنيا علماً وفقهاً ، وعندما كان عطاء ابن أبى رباح يدلى برأيه كانوا يسألونه : أهذا علم أو رأى ؟ وكان يجيب : بل هذا علم .

والخلاصة أن هؤلاء الشيوخ الأجلاء ـ وفيهم صحابة ولكن معظمهم كانوا تابعين وتابعيهم ـ كانوا يبحثون عن الحقيقة أو قل عن القاعدة الصلبة التى يقيمون عليها الحقيقة الإسلامية ، وكانوا جادين الجد كله فى هذا المطلب ، والجميل الذى يدعو إلى الإعجاب أنهم وصلوا فى النهاية إلى بناء قاعدة العلم بالإسلام بنوها بجهد بالغ وعمل متواصل ، فوصلوا إلى قواعد محكمة لتفسير القرآن وموازين دقيقة لنقد الحديث وأصول مقررة للفقه أى استخراج الأحكام والآراء ، والرأى عندهم كان لا بد أن يقوم على أساس من العلم وهذا الأساس يسمى علة الشرع ، وهذا ما يقابل فى القانون الرومانى Ratio Legis وفى الفرنسية Le Mobile Delebi وشيئاً فشيئًا وخلال النصف الأول من القرن الهجرى الثانى تأخذ الصورة ـ صورة العلم والفقه ـ تتضح وإلى جانب سعيد بن المسيب الذى أجمع الكل على علمه وفقهه وجودة رأيه يظهر الزهرى محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب (٥٠ أو ٥٦ هـ ـ ١٢٤ هـ) الذى أجمعت الآراء على أنه من أعلم أهل المدينة بحديث رسول الله ﷺ وأن الأحاديث التى تنسب إليه مرفوعة إلى نافع أحاديث صحيحة فيما عدا ما اختلق ودُسَّ عليه بعد وفاته ، والزهرى كان أستاذاً وصاحباً لمالك فقد تصاحبا وتدارسا زماناً ، والزهرى مات قبل وفاة مالك بخمس وأربعين سنة أى ومالك فى عنفوان نشاطه وعمله .

وظهر أمر ربيعة بن أبى عبد الرحمن وكان أصغر من الزهرى وقد اشتهر بغزارة العلم وصدق الحديث وجودة الرأى حتى لقب بربيعة الرأى ، وإن كانت هذه الشهرة غير دقيقة ؛ لأن الرجل فى الحقيقة لم يكن من أكابر الذين اشتهروا بالرأى ، وكان ربيعة آية فى العلم والخلق والزهد فى الدنيا مع كرم بالغ وتصاون . دعاه أبو العباس السفاح

إلى العراق ليوليه القضاء فذهب وهو مزمع الـرفض ولكنه كان رجلاً عاقلاً مهذباً يخدم الأمـة بعلمه ولا يـرى خيراً كثيراً فى المواجهـة الصريحة مع الجبابـرة ، فـذهب ورفض القضـاء وأبى أن يقبل خمسـة آلاف درهم عطيـة مـن أبى العبـاس وعـاد ليقـول عن العراقيين : « رأيت قـوماً حلالنـا حرامهم ، وحـرامنا حلالهم ، وتـركت بها أربعين ألفاً يكيـدون لهذا الدين » ثـم يضيف : « كأن النبى الذى بعث إلينـا غير النبى الـذى بعث إليهم » وهو يشير بذلك إلى المعتزلة وغلاة المرجئة وغلاة الشيعة والخوارج ، وهنا يقول الأستاذ عبـد الحليم الجندى وهـو مِن أحسن مَن كتب عن الأئمـة الأربعة : وكـان ثمة القياسـون من فقهاء العراق الذين حاربتهم مـدرسة أبى حنيفة ، وكان أبو حنيفة هناك يتـوسط حلقة عظيمـة تعمل عملها العظيم فى الاجتهـاد وإبداء الـرأى ، وربيعة نفسـه صاحب رأى منـذ الصبا ، ناقش سعيد بـن المسيب فى مسألة مجادلاً بالقياس وجـادله سعيد بالسنة (مالك بن أنس لعبد الحليم الجندي ص ٥٢) .

وظهر كـذلك أمر نـافع بن عبد الـرحمن بن أبي نعيم (ت ١٦٩ هـ) وكـان قارئاً جليلاً للقرآن ، وراوياً صدوقاً لحديث رسول الله ﷺ ، وظهر كذلك أمر محمد بن المنكدر (ت ١٣٠ هـ) كبير العلماء والفقهاء قولاً وعملاً ، وكان شـديد الشعور بمسئولية أهل العلم تجاه الأمة ، وكان عابـدًا زاهدًا يعيش للعلم والعبادة ولا شىء غير ذلك وقد كسب مالك منـه فضلاً عظيماً وظهر كـذلك عبد العزيـز بن الماجشون الفقيه الـراوية الجليل الذى تـوفى سنة ١٦٤ هـ ، وهـؤلاء كانوا كبار شيـوخ مالك الذين تكـون فى مدرستهم وتخلق بأخلاقهم وسار فى طريقهم إلى الـذروة التي لم يكن منها بد فى رأى مالك : ذروة جمع هذا العلم كله : القرآن وتفسيره والحديث والآثـار وضبطها وتصفيتها وما يجمع عليه أهل المدينة من الرأى والعمل الصحيح المتـواتر عن رسول الله ثم قياس ما يجد من القضـايا على ما مر منها إذا لم يوجد فى القضية قرآن صريح أو حديث صحيح .

ولكن ما الذى ميـز مالكاً وأظهره من بين هـؤلاء جميعاً ، وكلهم كما رأيت من أجلّ الفقهاء وأصفى المسلمين سريرة وأكثرهم جلالة ؟

ميزه الفكـر العملى الواضح المبتكر ، فهـؤلاء جميعاً يروون الأحـاديث ويفتون فى المسألة بعد المسألة ، والناس يفيدون من ذلك كلـه ولكن الذى كان الناس في حاجة إليه حقاً مجمـوع قانـونى كامل وعملى قابل للتنفيـذ يحل للمسلم كل مشاكلـه العملية على

أساس سليم من العلم بالإسلام والفقه على قاعدة الإسلام ، لقد كانت الأمة كما رأيت في كلام ربيعة الرأى عن أهل العراق أشبه بقارب فى بحر متلاطم والدولة كانت قد ضيعت القواعد وأخضعت كل شىء لصالحها وأخافت الناس وخرجت عن نهج الله واجتاحت الناس تيارات أفكار المعتزلة وغلاة الخوارج والمرجئة والشيعة ، والقاضى يجلس فى مجلس قضائه وتعرض عليه القضايا فيجد فى المسألة الواحدة ألف رأى وقد لا يجد أصلاً فكيف يحكم مهما صحت نيته ، والناس هنا فى حاجة إلى قانون واحد شامل قائم على علم صحيح وإسلام سليم وفقه دقيق يشمل كل التشريعات من العبادات إلى النكاح والمواريث والبيوع أى المعاملات والحدود أى العقوبات والجراحات وهى ما نسميه الجنايات .

وهذا هو الذى تصدى له مالك وهنا عبقريته : وضع ذلك المجموع التشريعى الذى يهتدى به القضاة ويطمئن إليه الناس وتأليفه وتقسيمه على أبواب وفصول وفى كل مسألة يكون هناك رأى واضح يرتاح إليه القاضى وهذا الرأى هو الذى عرف برأى مالك وتبسيط ذلك كله و تقريبه إلى عقول الناس وتسهيل تطبيقه ، وهذا هو الموطأ أى المبسط المسهل المقرب للعقول .

هنا عبقرية مالك وخدمته الجليلة لأمة الإسلام . كان قد سبقه إلى ذلك علماء أجلاء ولكن الواحد منهم يؤلف فى ناحية ويترك عشرات . أما مالك فقد كان الأول الذى جمع العلم والفقه جميعاً وصاغه فى منهج واحد شامل قائم على القاعدة الإسلامية السليمة فى حدود منهج الله ورسوله ، والمنهج هو الطريق الذى اصطلحنا على تسميته بالمذهب ، ومذهب مالك هو الأول وموطأه هو الحدث العظيم فى تاريخ الفقه والتشريع الإسلامى .

* * *

أبـو حَنيفَـة
وَالْمَشـى عَلَى حَـدِّ الْمُـوسِى

أرجو أن يكـون فيما كتبت عن مالك بن أنس والموطأ ما يوضح مقصـدى من هذه الـدراسة ، ومـا أرمى إليه من فتح نهج جـديد فى دراسـة تاريخ أمـة الإسلام والفكـر الإسلامى ، فقد بيَّنت الدراسة المتأنية لتاريخ الفقه كيف أن علماء الأمة وفقهاءها عرفوا كيف يبنون للأمة قاعدة صلبة إسلامية خالصة هى التى حفظت على العالم الإسلامى بعد ذلك وحـدته ، ومكَّنت له من الصمود أمـام الأخطار والصدمات وسـوء الحكم فقد حسب بعض شيوخى الأجلاء وخاصة محمد الطيب النجار وعبد المنعم النمر أننى أتجه إلى بيان السلبيات وخـافوا أن يؤدى ذلك إلى زعزعة ثقة النـاس فى أمتهم وتاريخهم فها هم أولاء يرون الآن كيـف قام البناء الأسـاسى لأمة الإسـلام الواحـدة على أكتاف أهل العلم المخلصين من علماء بالقرآن إلى شيوخ السنة وأئمة الفقه ، ومن هنا يتجلى لقارئى أننى فى الحقيقـة أحـاول أن أؤرخ لهذه الأمـة كما ينبغى التأريـخ لها فى رأيى . فأهل السياسة بعد العصر الراشدى كانت تعنيهم دولهم ومصالحهم فى المكان الأول فإذا بقى فيهم فضل من قـوة وجهد أنفقـوه على الأمة ، والأمـة ابتداء من شيـوخ مالك ثم مـالك وجدت نفسها فى الاعتصام بحبل الله وهو الإسلام وأمنت على نفسها بالشرع الإسلامى الحنيف الذى عرف مالك كيف يوسع قاعدته ويربطه ربطًا متينًا بالأصل الإسلامى من ناحيـة ، وبالـواقع من ناحية أخـرى ، وأصبحت الشريعة ـ القـائمة أصـلاً على القرآن والسنة ـ جذع الشجرة الإسلاميـة الصلب المتجدد الحيوية ، ومن الجذع تفرعت فروع الشريعة التى أظلت أمة الإسلام ووقتها عواصف الدهر وتصاريف الأيام .

ولم تعد الأمـة تعتمد أسـاساً على حكـامها ؛ لأن الأمـة هى جذع الشجـرة الثابت الدائم ، وأصبحت الـدول هى لحاء الشجرة الـذى يتبدل مع الـزمن ، ووقع نتيجة لهذا الانفصال بين الدولة أى السلطـة السياسية المتغيرة المتبدلة والأمة الـدائمة أى السلطة الشرعية الحقيقية ، ولم يعد يعنى الأمة فى كثير أن يتولاها سليمان بن عبد الملك أو أخوه هشام أو أبو العباس السفاح أو أخوه أبو جعفـر فالأمة تمسكت بالإسلام وسارت على المنهج الذى قربه لها مالك ووطأه وأصبحت فى مأمن ، أمـا الدول فقد سارت فى طريقها

حريصة على مــا تصورته أنه صالحها دون نظـر إلى المنهج ، فإذا وافق المنهج صـالحها سـارت فيه ، وإذا تعارض مع هذا الصــالح فلا منهج ولا شرع ولا حتى أخلاق ومن هنا وقع الانفصـال القــاطع بين الأمة والدولــة فى تاريخ الإسلام ، وريــاسة الأمة وإمــامتها الفعلية انتقلت إلى الشيـوخ وأهل العلم والفقه والـدين والورع أولئك هـم حراس المنهج والقائمون عليه وهنــا بالذات يكمن التاريخ الحقيقى للإسلام وأمتــه أما تواريخ الدول فهى ثياب تتبدل على الأمة أو قل توالت عليهــا ، والثياب ليست الرجل وهذه حقيقة عبر عنها توماس كارلايل فى كتابه الجميل Sortus Resor Tus وهى عبارة لاتينية معناها ـ تقريبًا ـــ الخياط يخيط ويعيد الخياطـة كيف يشاء ولكن الرجل لابس الثوب ـــ هو كل شـىء ـ وأظن أن هذا مذهب فى فهم تاريخ الإسلام يريح قلوب كل حريص على الإسلام وأمته وعلى رأسهم الفقهــاء وأهل العلم وهم أهل المنهج ، فقد تبين لى من دراســة تاريخ العلم عند المسلمين أن كل عالم صادق مخلص هو فقيه فى ميدانه وشيخ فى بابه وهو من أهل المنهج ورائد من رواد الأمــة فى طريق الـرشـاد ، والـرائد كما قال رسـول الله ﷺ لا يكذب أهله .

وقبل أن أستطرد فى الكلام على بقية الأئمــة لأبين فضلهم فى الحفاظ على هذه الأمة على المنهج أضرب هنا مثــالاً واحداً يغنى عن كثير ، فعنـدما دخل رسول الله مكـة فاتحاً قال فيما قــال : « إن مكة حـرام » أى لا يجوز فيها قتــال ولا قتل وإليك كلام الـواقدى بنصـه ، وما يقوله الواقدى هنا وارد فى كل كتب الحديث فهو حديث صـحيح مجمع عليه ولا خلاف فيه ، قال الواقدى : فقام رسول الله ﷺ وهذه الخطبة الغد من يوم الفتح بعد الظهر فقال : « **أيها الناس إن الله قـد حرم مكة يـوم خلق السماوات والأرض ويوم خلق الشمس والقمر ، ووضع هـذين الجبلين فهى حرام إلى يوم القيـامة ، لا يحل لمؤمن بالله واليـوم الآخر أن يسفك فيها دماً ، ولا يعضد (يقطـع) فيها شجرًا ، لم تحل لأحد كان قبلى ولا تحل لأحد بعـدى ولم تحل لى إلا ساعة من نهار ثم رجعت كحرمتها بالأمس ، فليبلغ شاهدكم غائبكم فإن قال قائل : قد قاتل فيها رسـول الله ﷺ فقولوا : إن الله قـد أحلها لرسولـه ، ولم يحلها لكم ، يا معشر خـزاعة : ارفعوا أيديكم عن القتـل فقد كثر القتل إن نفع وقـد قتلتم هذا القتيل لأدينـه وإن شاءوا فعقلته** » . (مغازى الواقدى ٢ / ٨٤٤) .

فهنا حديث نبوى لا نزاع فى صحته بتحريم القتل والقتال داخل حرم مكة ، أما ما حدث يوم الفتح فقد أحله الله لرسوله ساعة واحدة ثم حرمه ، وخزاعة وكانت فى حلف رسول الله ﷺ لم تستطع أن تضبط أعصابها عند دخول مكة فقد كانت موتورة من بنى بكر بن عبد مناة لما فعلوه بها غدرًا وعلى صورة دموية بشعة رغم صلح الحديبية فاندفعت يوم فتح مكة تريد أن تأخذ بثأرها من بنى عبد مناة وقتلت منهم رجلاً فأمرهم الرسول صلوات الله عليه بالكف عن القتل لأن القتل لا ينفع ، ولو أنه ينفع لكثر فى الناس ، ومع ذلك كله فقد ودى الرسول قتيل خزاعة من ماله .

إذن فها هنا تبليغ صريح من رسول الله ﷺ بتحريم القتل والقتال فى حرم مكة ، والفقهاء بتحريرهم السنة واجتهادهم فى ضبطها وتحقيقها أكدوا حرمة مكة ليظلوا على المنهج ، فانظر ماذا فعل رجال السياسة واقرأ معى عند الواقدى .. والخبر وارد فى كل مراجع التاريخ الأموى « فدخل شريح (القاضى) على عمرو بن سعيد بن العاص (القائد الأموى وهو من رجال السياسة) وهو يريد قتال ابن الزبير (داخل مكة وكانت دعوته فيها) فحدثه هذا الحديث وقال : إن النبى ﷺ أمرنا أن يبلغ الشاهد الغائب وكنت شاهدًا وكنت غائبًا وقد أديت إليك ما كان الرسول ﷺ قد أمر به فقال عمرو بن سعيد : انصرف أيها الشيخ فنحن أعلم بحرمتها منك : إنه (أى تحريم القتل والقتال فى مكة) لا يمنع من ظالم ، ولا خالع طاعة ولا سافك دم ، فقال شريح : قد أديت إليك ما كان النبى ﷺ قد أمر به فأنت وشأنك .. (مغازى الواقدى ٢ / ٨٤٤) .

فهنا ولمصلحة سياسية خالف رجل السياسة السنة ؛ لأنها لم توافقه فخرج على المنهج وأحل لنفسه قتال ابن الزبير داخل مكة ولو أنه احترم حرمتها وشدد الحصار عليها دون أن ينتهك حرمتها لأخذ ابن الزبير إمساكاً باليد فإن مكة لا تصبر على طويل حصار ، ولكن السياسة عمياء القلب والبصيرة وهنا نرى بصورة واضحة جداً تمسك الفقيه بالسنة والمنهج وخروج رجال السياسة عن السنة والمنهج ، هنا ترى بنفسك فراق ما بين الأمة والسياسة فإن رجل السياسة أحل لنفسه ما حرم الله ورسوله ، والفقيه أبلغه حديث رسول الله ﷺ فأبى أن يسمع فتركه وشأنه وما كان ليستطيع أن يفعل غير هذا وفى ذلك بلاغ واضح لما أريد أن أقول .

وقد كان حرص أهل العلم والفقه الأول على جمع الحديث والتدقيق فى ذلك ،

والاعتماد على القرآن والسنة فى استخراج الأحكام منهما حرصاً على أن يكون العدل فى أمة الإسلام قائماً على قاعدة الإسلام وهى القرآن والسنة لا يجاوزها ، فإن العدل قد يتحقق بالمنطق والإحساس ولكنه يكون فى هذه الحالة مصادفة أو هوى أو مزاجاً ، والشريعة الإسلامية لا ينبغى أن تترك للمصادفة والهوى والمزاج وقد يسكت صاحب الحق عن حقه راضياً طلباً للسلامة أو تهاوناً منه في حق نفسه وهذا لا ترضاه شريعة الله ؛ لأن الحق يظل حقاً دائماً وإن تهاون فيه البعض ، ويظل حقاً وإن تغاضى عنه صاحبه استصغاراً لشأنه فقد يكون لك عند رجل قرش فتتركه فيكون ذلك عدواناً منك على الحق المطلق ويظل حقك قائماً وإن تهاونت فيه ، وقد ضربنا مثل الرجل يعتدى على شرفه فيتغاضى فلا يكون معنى ذلك تجويز : العدوان على العرض ؛ لأن المتهاون لا يصون عرضه ولكن شرع الله يصونه ، وعرض أمة الإسلام واحد .

وخلال القرن الهجرى الأول أى قبل أن يظهر مالك ويتجه إلى إكمال القاعدة بجمع الحديث الشريف ثم الانتفاع به فى وضع تشريع إسلامى كامل يحكم تصرفات الناس وينير الطريق أمام القضاة لكى تكون أحكامهم دائماً قائمة على قاعدة إسلامية سليمة ، كانت أحكام القضاة أحياناً تقوم على التقدير الشخصى والحس السليم فتكون مقبولة وربما عادلة ولكنها لا تكون عادلة عدلاً إسلامياً ؛ لأن العدل الإسلامى لا بد أن يكون مرتكزًا على قاعدة إسلامية : قرآناً وسنة أولاً ثم قياساً وإجماعاً بعد ذلك ، والعدل الإسلامى ينبغى أن يكون مرضياً للجماعة كلها لا لفرد منها فحسب ، وقد ضربت لك مثل الذى يتنازل عن حقه فى الاعتداء على عرضه أو سرقة ماله ؛ فيكون تنازله عدواناً على حق الجماعة ولا يكون عدلاً ، وتلك هى أهمية الإجماع فى رأى مالك ، ولهذا فقد انتهى به الفكر إلى أن يكون الإجماع هو إجماع أهل المدينة من التابعين ومعاصريهم وتابعيهم ممن توارثوا عمل الرسول ﷺ والصحابة وأصبح عملهم قرينة أو حجة ، ومالك كما قلنا عاش فيما بين سنتى ٩٦ ـ ١٧٩ هـ / ٧١٤ ـ ٧٩٥ م على أصح الأقوال فكيف كان يتم القضاء فى المسائل التى تعرض على القضاة كل يوم فى أنحاء عالم الإسلام ؟

هنا ننظر فى كتاب « أخبار ولاة مصر وقضاتها » للكندى المتوفى سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م وهو من أحسن الكتب وأولاها بالثقة فى معرفة أخبار القضاة وطرائقهم فى الحكم فى بلد كبير من بلاد الإسلام وهو مصر فنجد أن القاضى عبد الرحمن بن حجيرة

قاضى مصر فيما بين سنتى ٦٩ ـ ٨٣ هـ يصدر أحكامه بحسب ما يرى أنه العدل دون الاستناد إلى سند من قرآن أو سنة كأنه حكم من أحكام الجاهلية ويزعم أحياناً أنه يستند فى قضائه إلى أقضية صدرت عن عمر بن الخطاب ، ونجد أن الخليفة عمر بن عبد العزيز يقر حكماً أصدره أحد القضاة بحسب ما تراءى له فى موضوع يتصل بالصداق ويقول لم يبلغنا فى ذلك شىء ، والقاضى توبة بن نمر قاضى الفسطاط فيما بين سنتى ١١٥ ـ ١٢٠ هـ (٧٣٣ ـ ٧٣٧ م) كان يخطىء فى تطبيق قول الله سبحانه فى سورة البقرة (٢ / ٢٣٦) ﴿ **لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ** ﴾ فكان يقضى للمطلقة بمال فى كل حالة ، فإذا روجع فى ذلك قال : إنه يستند فى قضائه إلى الآية ٢٤١ من نفس السورة ﴿ **وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ** ﴾ . بل يقرر الكندى : إن واحداً من قضاة مصر كان أمياً لا يحفظ من القرآن إلا ما يقيم به صلاته فكان يقضى بما يتراءى له أنه العدل أو بما نسميه نحن بالمعقول ، وكل هذا كان يبلغ مالكاً ويرى أنه خطأ ؛ لأن التشريع ينبغى أن يقوم على أساس إسلامى والقرآن الكريم والسنة فيهما غناء فإذا أضفنا إلى ذلك عمل أهل المدينة وقدرًا معقولاً من القياس لم يجد القاضى أمامه قضية تستعصى على حل إسلامى سليم .

وهذا هو الذى صنعه مالك عندما وضع الموطأ أو قدم به للمسلمين جميعاً قاعدة سليمة للتشريع والقضاء وربط سد حاجات الناس جميعاً وحل مشاكلهم بالقاعدة الإسلامية ، فلم يعد هناك مجال للحكم بالهوى والقضايا كلها رتبت ونظمت فى الموطأ وأقيم الحكم فيها كلها على أساس إسلامى واحد وربما كان دافع مالك إلى وضع الموطأ ما قاله ابن المقفع فى رسالة إلى أصحابه من أن للسلطان أن يحكم برأيه فى كل ما يتعلق بالمال والإدارة ، أما فيما يتعلق بالدين فلابد من استشارة أهل العلم والفقه والأثر كما قال ، فإذا اعتسف الرأى دون ذلك فهو مسئول عما يصدر من أحكام أمام الله ، ثم إن ما أشار به ابن المقفع من أن يجمع السلطان أهل الفقه فيضعوا قضاء جامعاً يحمل الناس كلهم عليه لقى إنكارًا شاملاً من أهل الفقه ، بل إن مالكًا رفض نفس الفكرة عندما عرض أبو جعفر المنصور على مالك أن يحمل الناس على رأيه ؛ لأن الفكرة الأساسية كانت أن الدولة وقد خرجت عن المنهج لم يعد من حقها أن تتدخل فى التشريع وهذا هو

السر فى ذلك الترحيب الواسع المدى الذى لقيه الموطأ ، وقد تحمس له تلاميذ مالك وخاصة المدنيين والمصريين وأهل المغرب والأندلس حماسة لا نعرفها عند تلاميذ أى إمام آخر ، وقد بلغ من حماسة تلاميذ مالك (مثل أشهب بن عبد العزيز ، وعبد الرحمن ابن القاسم العتقى من المصريين ، والبهلول بن راشد ، وعبد الرحمن بن زياد بن أنعم من أهل المغرب ، ويحيى بن يحيى الليثى، والغازى بن قيس وعبد الرحمن بن زياد بن شبطون ، وعيسى بن دينار من الأندلسيين) لمذهب مالك أن تلاشت أمامه كل المذاهب الأخرى وأصبح رأى مالك ومذهبه هما القول الفصل فى كل الأقضية ولا مكان عندهم لمذهب أبى حنيفة مثلاً .

وقد ظهرت فى أيام مالك وبعدها مذاهب أخرى ولكن مالكاً يفضلها كلها بشيئين : الأول : هو أن موطأه شامل لكل أبواب الفقه والأحكام فلا يجد القاضى مهما كان مستواه عناء فى العثور على حل فيه لما يعرض عليه من القضايا فهو ليس الموطأ فقط إنما هو المريح أيضاً . والثانى : هو أن لمالك فضل السبق إلى وضع تشريع كامل قائم على القاعدة الإسلامية وللسابق فضله الذى لا ينكر .

* * *

وكان أبو حنيفة النعمان بن ثابت رجلاً يختلف عن مالك بن أنس كل الاختلاف فى الأساسيات ، ولكنه كان يتفق معه فى النظرة إلى الحياة والموقف منها ، عاش أبو حنيفة فيما بين سنتى ٨٠ ـ ١٥٠ هـ / ٦٩٦ ـ ٧٦٧ م فهو معاصر لمالك ولد قبله بست عشرة سنة ، ومات قبله بخمس وعشرين سنة ، وعاصر بنى أمية وبنى العباس ووقف من الحكام نفس موقف مالك فلم يدخل فى خدمتهم ولا هو استحل أن يأخذ لنفسه شيئاً من أموالهم ولكن مالكاً كان رجلاً منهجياً فى حياته وعمله فهو يبادر كل يوم إلى مجلس الدرس ويلقى دروسه بنظام تام فلا ينتقل من باب من أبواب الفقه إلى الآخر إلا إذا استوفاه وهو يراجع ما يدونه تلاميذه من كلامه يصححه حرفاً حرفاً وكلمة كلمة حتى يستوثق مما يروى عنه ، أما أبو حنيفة فكان رجل فكر وبديهة فهو غزير العلم وقاد الذكاء وهو يكتفى بالكلام دون أن يحرص على تأليف ، ولكنه ـ مثل مالك ـ يعيش للعلم والفقه ، ولكنه يَكِلُ أمر التدوين لتلاميذه ولم يختلف الناس فى أحد كما اختلفوا فى

أبى حنيفة فأنصاره يغالون فى مديحه حتى يجعلوه فقيه الإسلام بلا منازع ، وخصومه يحملون عليه حتى يتهموه بالمروق ، والمالكية بالذات لا يحبون أبا حنيفة ولا يطيقون ذكر مذهبه ، وفى المغرب وهو معقل من معاقل المالكية يرون أن أبا حنيفة ومن درس عليه أو تبعه فى مذهبه خرج من الدين ، وهم يسمون الحنفية وأهل مدرسة العراق عامة بالمشارقة ، ومن شرَّق عندهم فهو زنديق .

ولكن الحق أن أبا حنيفة من أعاظم المفكرين الإسلاميين وهو شخصية جميلة بل فاتنة ، فقد كان الرجل غنيًا ذا مال من تجارة ناجحة فى البز والثياب ، وكان جميل الطلعة حسن السمت شديد الحرص على مظهره دون تكلف وحياته كلها من أهل النعمة ومعظم ما يقال عن محنته وسجنه وموته فى السجن يغلب أنه مجرد قصص ، والرجل أوذى من جانب أهل السلطان ولا ريب ، وربما يكون قد ضرب أسواطاً حقاً وربما يكون قد دخل السجن ولكن لفترة قصيرة ولكنه لم يمت فى الحبس ولا مات تحت السياط .

ولا يمكن الكلام عن أبى حنيفة على أنه قمة من قمم الفقه طفرت من الأرض دفعة واحدة ، وإنما هو الدرجة العليا فى سلم طويل من أهل الرأى من أعاظم شيوخ العراقيين ما بين كوفيين وبصريين ، فأبو حنيفة يقف فى آخر طريق يبدأ عند عبد الله بن مسعود وأصحابه ، ويمر بإبراهيم النخعى ، وشريح القاضى ، والحسن البصرى ، والشعبى ، وهؤلاء جميعاً كانوا محدثين ملتزمين بالحديث وكانت عنايتهم بالإسناد لا تقل عن عناية المالكية ، ولكن نقطة الخلاف كانت فى طريقة استخراج الأحكام من القرآن والسنة ثم فى معنى الإجماع وفى طريقة استعمال القياس ، وفى الأهمية التى تعطى للرأى الذى يقوم عند الأحناف على الذكاء والفكر الشخصى والمنطق مرتبطًا بالقرآن والسنة فى كل حالة ، وهنا ميزة أبى حنيفة الكبرى فهو رجل يدرس ويتقصى ويجمع الأصول ثم يقول رأيه ، وإذا كان الموالك يقفون خلف الإسناد فإن الأحناف يجعلون الإسناد وراء ظهورهم وإن التزموا به كل الالتزام .

والظاهرة الكبرى التى تميز أبا حنيفة هى ذكاؤه الخارق وجودة رأيه وسلامة فكره وسرعة بديهته دون اهتمام كبير بالتأليف ، فهو على الحقيقة لم يؤلف شيئاً فكتاب الفقه الأكبر المنسوب إليه ليس من تأليفه ، وإنما هو تدوين لبعض تلاميذه عنه ،

والنسخة التى لـدينا منـه كتبها الماتريـدى المتوفى سنـة ٣٣٣ هـ ، ومسنـد أبى حنيفة جمعه الخوارزمى ، وقد جمعه وحققـه من خمس عشرة رواية فهو ليس من تأليف أبى حنيفـة وذلك القعود عن التأليف يـرجع فى الغـالب إلى تهيب أبى حنيفة أمـر التأليف ، وتحرزه من أن يسجل بقلمه شيئًا دون أن يكون واثقًا منه كل الوثوق .

ومن دلائل ذلك مـوقفـه من الحديث ورواتـه وأسـانيده فيقـال : إنـه لم يسلم إلا بصحة سبعة عشر حديثًا ويـزيدها بعضهم إلى خمسين ، وليس ذلك بغريب لأن اعتماد الحجازيين على الحديث واهتمامهم بأسانيده فتح البـاب على مصراعيه ففاضت ألسنة الناس بـالأحاديث فيضًا ، وفى الصراع السيـاسـى الذى اشتد أواره خـلال القرن الأول الهجرى والثـانى استخدمت الأحاديث سـلاحًا ، والسياسـة لا تعرف الإيمان فكل من أراد أن يقول برأى اختلق حديثًا وابتكر له إسنادًا ، ومـالك فى موطئه اعتمد على ما يزيد على الألف حديث ، وجاء نقاد الحديث وتناولها شيـوخ أجلاء بالدرس والنقد فلم يصح لهم منهـا إلا نيف وثـلاثمائة ، وبعضهم جعلها سبعمائة أو ألفـاً وسبعمائة ، ثم جـاء البخارى فجمع كل ما كـان يجرى على ألسنة الناس من الأحاديث بإسنـادها ، واجتهد فى الجمع والتحـرى حتى اجتمع فى صحيحه سبعـة آلاف حديث ، وقد جعـل صحيحه أبوابًا ، ومن هنا فقد تكررت الأحاديث بحسب الأبواب وقد أحصوا الأحاديث المتكررة فى صحيح البخارى بثلاثة آلاف .

وأبو حنيفة بذكائه البعيـد لم يستطع قبول هذا الحشد الهائل من الأحاديث فجعل يدقق وينظر ويعتمد أساسًا على القرآن الكـريم فهو عنده النص الوحيد الذى لا شك فى حـرف من حروفـه ، ومـا دام الأمر كـذلك فقد وسع أبـو حنيفـة نطاق العقل والـرأى والقياس ولكنه لم يتجـاوز القاعدة قط ، والذى يبهرك فى فقهه هـو ذكاؤه الخارق فعلاً وينبغى أن ننبه هنا إلى أن الفروق بين أئمة المذاهب فى الأحكام وطرق استخراجها كانت قليلة جـدًا ، إنما الخلاف كان بين أتبـاع الأئمة وانظـر مثلاً إلى مـا يقوله ابـن حزم عن طريقة أبى حنيفة أى مذهبه فى كتـابيه « الإحكام فى أصول الأحكام » و « المحلى فى الفقه المعلى » وهو كـلام غير معقول من إمام جليل مثـل ابن حزم وسنفصل الحديث فى ذلك عند كلامنا عن ابن حزم .

والحقيقـة أن مـوقف أبى حنيفـة كـان أدق وأصعب من مـوقف مـالك ، فمالك فى الحجاز بعيد عن الدولة ورجالها وهو فى المدينة يلقى دروسه ويؤلف بعيدًا عن السلطان

أما أبو حنيفة فقد عاش وعمل فى العراق مترددًا بين البصرة والكوفة والهاشمية والأنبار ثم بغداد ، والدولة العباسية تريد أن تكسب هذا الرجل العظيم إلى جانبها ولكن غدر العباسيين بالعلويين وضع الرجل فى مأزق فإن قلبه مع العلويين وتصرف أبى جعفر المنصور معهم لا يرضيه فهو رجل من الأئمة والأمة متعلقة بآل البيت والأمة بكت مصارعهم ، والذى فعله المنصور مع عبد الله بن الحسن وابنيه محمد وإبراهيم وبقية العلويين لا تقبله أو تسكت عليه نفس أبية مؤمنة ، ولهذا كان أبو حنيفة بإيمانه العظيم يسير على حد الموسى والأخبار عن مواقفه مع أبى جعفر المنصور أشبه بالأساطير ولا نستطيع قبول معظمها ولكننا نستطيع أن نقول دون حرج : إن محنة أبى حنيفة الحقيقية لم تكن السياط أو السجن وإنما الحياة نفسها إلى جانب طغاة جعلوا السياسة فوق الدين وهانت عليهم الدماء حتى صار دم الإنسان عندهم أهون من دم البرغوث .

ومن هنا فإننا لا يجوز أن نقسو فى الحكم على نفر من أجلاء العراقيين ممن دخلوا فى خدمة الدولة ، ونقول : إنهم باعوا دينهم بدنياهم فما كان ابن أبى ليلى بخادم للسلطان ولا كان شبرمة ، ولكن أبا حنيفة استطاع أن يرفض القضاء والوظائف ولكن لم يكن من الممكن كذلك ألا يكون إلى جانب السلطان أحد من أهل الفقه والدين وإلا ساءت العاقبة ، وابن أبى ليلى تلميذ إبراهيم النخعى من جانب وحماد بن إسماعيل من جانب آخر ، وكلاهما من شيوخ أبى حنيفة فهو عالم جليل يجتهد على قدر ما يستطيع وهو يختلف فى آرائه وفقهه عن أبى حنيفة ولكن ذلك لا يجعله حقًا خادمًا للسلطان أو رجلاً من الحواشى ، حقًا إن طريقته فى استخراج الأحكام لا يمكن أن تقارن بطريقة أبى حنيفة ، فأبو حنيفة ذهن متألق وابن أبى ليلى رجل تقليدى ينظر فى الكتاب والسنة ويقيس قدر استطاعته ثم يفتى أو يقضى ، وفى المساجلات بين الرجلين يتفوق أبو حنيفة الذكى الدقيق الذهن على ابن أبى ليلى الذى لا يصاحبه التوفيق فى استدلالاته وهو يخطىء كثيرًا فى أقيسته ، ولكنه على أى حال حمل المسئولية وتعرض للاختبار وتعرض للنقد ، أما أبو حنيفة فقد كان بعيدًا عن المسئولية وهو يبدى اليوم رأيًا فى المسألة ثم يبدو له فيقول فى اليوم التالى رأيًا آخر دون حرج فهو صاحب رأى يفتى ، أما ابن أبى ليلى فكان قاضيًا ينظر ويحكم فإذا أخطأ فله فضله على أى حال . والشافعى لا يعجبه رأى أبى حنيفة أو رأى ابن أبى ليلى وينقد الرجلين نقدًا شديدًا .

إننا دائماً ننسى فضل العامل الذى يتعرض للمسئولية وإصدار الأحكام واتخاذ القرارات وننسى أن أبا حنيفة والشافعى مثلاً كانا بعيدين عن المسئولية الفعلية فى حين حملها رجل مثل ابن أبى ليلى وأبى يوسف القاضى وتعرضا بسبب ذلك للنقد، وننسى أن أهل الفقه جميعًا لو فعلوا فعل أبى حنيفة والشافعى لما وجد الناس قاضيًا يجلس للحكم بينهم ؛ لأن الرأى الذى يلقى فى مجالس العلم والمناظرة لا يحل مشاكل الناس السائرة، وكبار الفقهاء والأئمة كانوا يتعرضون لما يعتقدون أنه الفقه العالى أو النظريات الكبرى مع أن معظم مشاكل الناس صغيرة والصبر على مشاكل الناس الصغيرة هذه هو الراحة للناس وبه تسير الأمور.

وقد سألت نفسى أكثر من مرة : هل يوجد فعلاً مذهب فقهى متكامل يسمى بمذهب أبى حنيفة أو أن الذى لدينا ذهن متألق وعقل قانونى فقهى حر خفف على الناس حرفية المالكية والتزام أصحابها برأى مالك وخاصة فى الفروع ؟ وكل الفقه الحنفى ليس من صنع أبى حنيفة بل من عمل تلاميذه فالمذهب الحنفى هو مذهب أبى حنيفة وتلاميذه، أما المذهب المالكى فمذهب مالك ومنهجه وطريقته ورأيه وربما يكون المذهب المالكى هو المذهب الفقهى الإسلامى الوحيد المتكامل، أما البقية فآراء واتجاهات تروع النفس بما فيها من نفاذ وذكاء ولكنها فى الحقيقة لا تقدم قاعدة فقهية كاملة، ولو كنت قاضيًا فإننى أتصور أننى أفكر بطريقة أبى حنيفة وأكتب حيثيات الحكم بطريقة الشافعى أما الحكم فى القضية فآخذه من مالك.

* * *

الْإِمَامُ الشَّـافِعِىُّ : العَـالِمُ الْمُفَـكِّرُ
الإِنْسَـانُ فـى أَرْفَعِ صُـورَةٍ

فى بعض مـا مضى من فصول هـذه الدراسـة قلت: إن دول الإسلام بعـد العصر الراشـدى انحرفت عن الخط الإسـلامى وسارت فى طريقهـا لا تعنيها إلا مصـالحها ، فـوقعت القطيعة بينهـا وبين الأمة التى تمسكت بـالمنهج الإسلامى ، ورفضت بـاسم علمائها وفقهـائها ـ أن يكـون شرع الله فى خدمة السياسـة وأصحابها وأهوائهـا ـ ولم أقصد بهذا الكلام أن « كل » دول الإسلام بعد العصر الراشدى خرجت عن المنهج أو أن « كل » خلفاء الإسلام وملـوكه وسلاطينه تخلـوا عن الصراط المستقيم ، فلا شك فى أن الإسلام عرف دولاً فاضلة اجتهدت فى التزام المنهج الإسلامى .

ومن بين الخلفاء كثيرون راقبوا الله واتقوه فى أعمالهم وقدموا لأممهم خدمات جليلة ولكن الذى أردت قـوله هو أن القاعدة الأسـاسية عند تلك الدول كـانت وضع مصلحة الدولة أو القائمين بالأمر فيها فوق صالح الجماعة والأمة بل فوق المنهج نفسه فإن الله سبحانه وتعالى حرم قتل النفس إلا بالحق ، واعتبر العدوان على الأنفس كبيرة الكبائر ، والخلفاء ورجـال الدولـة كانوا يقـولون ذلك ولكنهم أحلـوا لأنفسـهم دم أى إنسان أو جماعة تهدد سلطانهم ودولهم ، كأن دولهم فوق الإسـلام وفوق منهج الله ، وعبد الملك ابن مروان كان بلا شك من أعـاظم خلفاء الإسلام وقد قدم هو وابنـه الوليد لهذه الأمة خيرًا عظيمًا .

وكلاهما كـان حريصًا على الصلـوات والعبادات ولهما فى هـذا المجال مآثـر جليلة ولكن كليهما كان يرى فى نفس الوقت أن من حقه أن يستحل دم أى إنسان يتخوف منه على ملكه ، والحجـاج بن يوسف الثقفى كـان دون شك رجل دولة مـن الطراز الأول بل كانت له عناية بالمساجد والصلوات وكان شديد الاهتمام بالقرآن والمصاحف وله فى ذلك الميدان آثار جميلة لكنه يستحل ـ دون أن تطرف له عين ـ دم أى إنسان أو جماعة تهدد سلطان مولاه عبد الملك أو ابنـه الوليد ، وبأمره وبأمر خليفته انتهك الجنـد حرمة البلد الحرام واقترفوا من الجرائم ما لم يقـدم عليه الجاهليون فى أسود أيـامهم ، وغريب من

الأمر بعد ذلك أن الحجاج بعد أن أنزل بالبلد الحرام ما أنزل قام يصلى لله ويسجد شاكرًا .

ومن بين خلفاء بنى أمية واحد هو عمر بن عبد العزيز وضع صالح الإسلام وأمته فوق صالح البيت الأموى ، فأصبح بهذا وحده خليفة راشدًا خامسًا ، وعندما كتب إلى واليه يقول : « فارفع ـ قبح الله رأيك ـ الجزية عمن أسلم ، فإن الله بعث محمدًا هاديًا لا جابيًا » أنزل بمالية الدولة ضربة قاصمة وهبطت الجبايات إلى الثلث ولكن الإسلام كسب بهذا الأمر مكاسب لا تحصى فإن ملايين المسلمين من الموالى كانوا قد يئسوا من عدل الإسلام ودولته وظنوا أنه دولة جديدة من دول الظلم بسطت سلطانها عليهم لتمتص دماءهم باسم الدين ، وانحرفت بهم الظنون فى طرق ومسالك كلها مهالك وانتهز أعداء الله الفرصة فصبوا سمومهم فى أذهان أولئك المساكين وكادوا يخرجونهم عن الإسلام جملة ، فما راعهم إلا وعمر بن عبد العزيز يعود بهم إلى منهج الله وسنة العدل فتبددت الشكوك وارتد الأمل والإيمان إلى قلوب تلك الملايين ، وعمر بن عبد العزيز حكم من ١٠ صفر ٩٩ إلى ٢٠ رجب ١٠١ هـ / ٢٣ سبتمبر ٧١٧ ــ ٨ فبراير ٧٢٠ م ، فهى سنتان وخمسة أشهر قمرية ، وحوالى سنتين وأربعة أشهر ميلادية ولكنها تعدل فى تاريخ الإسلام دهرًا كاملاً ، وعندما خلفه يزيد بن عبد الملك وارتد إلى السياسة الأولى وضع صالح الدولة فوق صالح الإسلام عادت المظالم الأولى وعاد الانتكاس ولكن أمة الإسلام عرفت أن المسئولية لا تقع على الإسلام بل على عواتق الذين يزعمون أنهم رعاة أمته من رجال الدولة فازداد تمسك المسلمين بالإسلام ونفضوا أيديهم من الدولة وأصحابها جملة . وهذا هو الذى نشط علماء الأمة وفقهائها إلى العمل ، فإن الدين لله وللناس ولا ولاية على الناس إلا لله رب العالمين ومالك الدين ويوم الدين ، ورجال الدولة لا يؤتمنون على الدين أو الشرع ، وإنما الأمة هى الوصية على دينها الحفيظة عليه ، وشيوخ الأمة هم المكلفون بهذا الواجب العظيم ، وكيف يؤتمن رجال الدولة على الدين وهم يتمسكون بأقوال ينسبونها إلى رسول الله ﷺ وهى فى ذاتها إهانة للحس الدينى السليم ، وكيف يمكن أن يقبل الناس حديثًا يقول : إن الله يعز هذا الدين بالرجل الفاجر؟ كيف يمكن أن يعز الدين وهو نور وهدى ورحمة برجل فاجر خارج على الدين بطبعه وتصرفه ؟ وكيف يقبل الناس حديثًا روجه أحلاس

السلاطين يقول : إن الله يَزَعُ بالسلطان ما لا يَزَعُ بالقرآن ! وكيف تعقل نفس مؤمنة أن السلطـان وهـو من البشر يكون أقـوى من القـرآن وهـو كلام الله وقانونـــه وإرادتـه وعزيمته ؟

وإليك الخبر التالى يرويه الإمام الشافعى وهو يؤيد ما نقوله من أن الفقهاء نفضوا أيديهم من ظلمة السلاطين : إن الخليفة هشام بن عبد الملك سأل عن تفسير قوله تعالى : ﴿ والَّذِى تَوَلَّــى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فقال سليمان بن يسار : هو عبد الله بن أبى بن سلول . قال هشام (الخليفة) : كذبت إنما هو على بن أبى طالب ! قال سليمان : أمير المؤمنين أعلم بما يقول ! ثم دخل ابن شهاب الزهرى فسأله هشام ، فقال : هو عبد الله بن أبى بن سلول . قال هشام : كذبت إنما هـو على بن أبى طالب ! قال الزهرى وقد ملأه الغضب : أنا كذبت؟ فوالله لو نادانى مناد من السماء إن الله أحل الكذب ما كذبت ..

قال الشافعى : فما زالوا يغرون به هشاماً حتى قال له : أرحل ! فوالله ما كان لنا أن نحمل (العلم) عن مثلك .

فقال الـزهرى : ولم ذاك ؟ أنـا اغتصبتك لنفسى أم أنت اغتصبتنى لنفسك ، فَخَلِّ عنى .

قال الخليفة : لا ، ولكنك استدنت ألفى ألف (درهم) .

قال الزهـرى : قد علمت وأبوك قبلك أنى ما استـدنت هذا المال عليك ولا على أبيك ! وخرج مغاضبًا .

قال الخليفة للجالسين حولـه : إننا نهيج الشيخ ، ثم أمر فقضى عنه من دينه ألف ألف ، فلما أخبر بذلك ابن شهاب الزهرى قـال : الحمد لله الذى هذا هو من عنده (رواه الأستاذ عبد الحليم الجندى فى كتابه الفذ عن الشافعى ص ٢١٢) .

وكان ابن شهـاب الزهـرى ـ بشهادة الليث بن سعـد ـ يســتدين ليعطى الفقراء والمساكين والعجائز والأرامل والأيتام ، ومن هنا ركبه هذا الدين العظيم .

فهؤلاء الشيـوخ كانوا فعلاً رجـال الأمة وقادتها وحماتها وما كـان أحد ليرغم ابن شهاب الزهرى على الاستدانة لقضاء مصـالح الناس ، ولكنه ألزم نفسه ذلك بوحى من ضميره وإحساسه بمسئوليته .

ويستوقف النظر أن أولئك الأئمة جميعًا كانوا أهلاً للمسئولية الكبرى التى تصدوا لحملها فقد كانوا ـ والأئمة الأربعة الكبار خاصة مضافاً إليهم الإمامان جعفر الصادق وزيد بن على ـ كانوا جميعًا على خلق متين وإيمان راسخ لا تشوبه شائبة وصدق كامل لا يتطرق إليه شك وإخلاص لله ودينه وأمته لا يمسه ريب ، بل كانت لهم جميعًا طلعات بهية وهيئات جميلة ومظاهر فى التعرف والهيبة وحسن الشارة والإشارة ما يفوق كل ما كان للملوك ، مما يؤكد لك أنهم ــ خلقًا وخلقًا شكلاً وموضوعًا ظاهرًا وباطنًا ـ هم رؤساء هذه الأمة من دون الملوك ، فقد كان معاوية بن أبى سفيان بطيئاً مترهلاً لا يحسن الجلوس ، وعبد الملك بن مروان كان إذا أكل غاص فى الطعام بذراعيه حتى تتسخ كل ثيابه فينهضونه بعد الطعام إلى الحمام ليغسلوه ويغيروا ثيابه ، وكان سليمان بن عبد الملك أحول قميئاً تشيح عنه الجوارى حتى امتلأت نفسه حقدًا على كل رجل ذى هيئة ووسام ، فأين هذه الصور من تلك الهيئات الجميلة التى زان الله بها مالك بن أنس ، وأبا حنيفة النعمان بن ثابت ، ومحمد بن إدريس الشافعى ، وأحمد بن حنبل ؟ بل كان الإمام جعفر الصادق آية فى حسن الهيئة وبهاء الطلعة وحسن الشارة حتى كانت العيون تتعلق به أول ما تراه . فى حين كان أبو العباس السفاح شائه الهيئة أشعث اللحية لا يحسن أن يقيم عمامته حتى كانت أغلب الوقت ساقطة تحيط بعنقه .

وقد تعاصر أولئك الأئمة جميعًا وجاءوا فى الوقت الذى اشتدت حاجة الأمة إليهم فيه ، ففيما بين سنتى ١٠٠ ـ ٢٥٠ هـ كان الانحراف العظيم الذى أخرج بنى أمية ثم بنى العباس عن الجادة والمنهج ، وبين هاتين السنتين أيضًا عاش الأئمة الستة الكبار الذين ذكرناهم وعملوا ، فكأنما ابتعثهم الله بالضبط فى هذه الحقبة ليمسكوا بزمام الأمة على الجادة والمنهج ويحفظوها من الانحراف الخطير ، وإليك سنوات ميلادهم ووفاتهم لترى هذه الحقيقة بنفسك :

مالك بن أنس : ٩٤ ـ ١٧٩ هـ / ٧١٣ ـ ٧٩٥ م .

أبو حنيفة حوالى : ٨٠ ـ ١٥٠ هـ / ٦٩٦ ـ ٧٦٧ م .

الشافعى : ١٥٠ ـ ٢٠٤ هـ / ٧٦٧ ـ ٨١٩ م .

أحمد بن حنبل : ١٦٤ ـ ٢٤١ هـ / ٧٨١ ـ ٨٥٥ م .

جعفر الصادق حوالى : ٨٣ ـ ١٤٨ هـ / ٧٠٣ ـ ٧٦٥ م .

زيد بن علي زين العابدين : ٨٠ ـ ١٢٢ هـ / ٦٩٩ ـ ٧٣٩ م .

مصادفـة ؟ لا والله وما يجرى شيء في الأرض إلا بحساب وقدر ، وقـد رأينا كيف اجتهد مالك فى بناء القاعدة العريضة لشريعة الإسلام على القرآن والسنة ثم شد القاعدة بما لا غنى عنه من الإجماع والقياس ، ووضع للناس تشريعـاً شاملاً يعين أهل القضاء والفتوى والـرأى فى تعرف السبيل لحل مشـاكل الناس فما كـل إنسان بحافـظ واعية للقرآن تعرض له النـازلة فتوافيه القريحة بالآيـة أو الآيات التى تتضمن الحل ، وما كل الناس عارفين حديث رسول الله ﷺ كله ، وقد يكـون الرجل حافظًا واعيًا أى عالماً ولكنه يعجز عن استنباط الأحكام فلا يكون فقيهاً ، ولهذا فقد طار الناس بالموطأ طيرانًا ووجد القضاة فيـه سفينة النجاة وتغـالى المالكية فى ذلك حتى أصبح الرأى عنـدهم هو رأى مالك ، وأصحـاب مالك يسمون مذهبهم مـذهب الرأى ولكن الرأى هنـا رأى مالك دون سواه ، فإذا لم يكن هناك رأى صريح لمالك فلا يمكن أن يخرج الـرأى عما يقول به أحد تلاميذه : عبد الرحمن بن القاسم ، أو أشهب بن عبد العزيز ، أو عبـد الله بن وهـب ، أو عبـد السـلام بن سعيد المعـروف بسحنـون ، أو يحيـى بن يحيى الليثى ، ومن فى طبقتهم بل إن صغـار القضـاة انصرفوا عن الأصـول وقصروا همهم على الفـروع أى الأحكام الجزئية « الجاهـزة » حتى ضج الكثيرون من هذا التمسك الحرفى الضيق برأى مالك وأصحابه .

وهذا هو مـا جعل أبا حنيفة يسلك فى تفكيره الفقهى مسلكًا آخر يقـوم أساسًا على القرآن والسنـة ولكنه يـدقق فى السنة فلا يقبل من الأحـاديث إلا ما ثبتت صحتـه متناً وسندًا وأوسع أبو حنيفة المجال للرأى ، ومـالك بن أنس اعتمد على سوابق وشواهد من فقه عمر بن الخطاب وأجلاء الصحابة فأجاز الحكم بما فيه صالح المسلمين إذا لم يكن فى ذلك تعـارض مع أمر من أوامـر الله أو نهى من نواهيـه وسموا ذلك الاستصـلاح أى الحكم بما فيه المصلحة العامة للمسلمين ، وتوسـع أبو حنيفة وتلاميذه فى الاستصلاح حتى خيف أن تطغى هـذه المصالح العـامـة أو المرسلة على نصـوص القرآن والسنـة ، ودخل فى الفقه مبدأ الاستحسان أى أن للقاضى أو ولى الأمر إذا لم يجد نصاً صريحاً أن يحكم بما يستحسنه أى بما يراه حسناً للناس ، وهذا بـدوره فتح بابًا من البلاء لا يسد فالاستحسـان حكم بالهوى والمزاج . قال الشافعى : « أفرأيت إذا قال الحاكم والمفتى فى النازلـة ليس فيها خبر ولا قياس « استحسـن كذا » فلابـد أن يحكم أن جائزًا لغيره أن

يستحسن خلافه فيقول كل حاكم فى بلـد ومفت بما يستحسن فيقال فى الشىء الواحد بضروب من الفتيا ، ثم يقـول فى الرسالـة « لا يجوز لأحد أن يقول بالاستحسـان جاز لأهل العقـول مـن غير أهل العلم أن يقـولـوا بما ليس فيـه خبر بما يحضرهم من الاستحسان ، والاستحسان تلـذذ » فإذا تركت للناس حرية الحكم على أسـاس مراعاة المصلحة العـامة والاستحسان أصبحـت الأحكام تجرى على الهوى ، وأبو حنيفـة أقر الحكم على قاعدة أن الضرورات تبيح المحظورات وأحسن هو تطبيق هذه القاعدة ، فجاء بعض تـلاميـذه فأبـاحـوا للحكـام تخطى الحدود والعـدوان على الأنفس والأمـوال والضرورات تبيح المحظورات ، والأتراك العثمانيون مثلاً أخذوا بمذهب أبى حنيفة وقال لهم شيوخهم : إن فى القـرآن آية تقول إن الفتنـة أشد من القتل فأبـاحوا لأنفسهم قتل إخوتهم وكل من يخشون منافستهم على العـرش تحاشيًا للفتنة وصار السلطان منهم إذا تولى قتل العشرات من إخوته وبنى عمومته تحاشيًا للفتنة وزعموا أن آية الفتنة أشد من القتل تبيح لهم ذلك ، وغاب عنهم أن مقصـد الآية ١٩١ من سورة البقرة بعيـد جدًا عما زعموا ولكى نفهمها ونحسن تطبيقها لا بد أن نقرأها كاملة ونعرف أسباب تنزيلها فهى تقول : ﴿ وَاقْتُلوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُـوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْل وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ المَسْجِدِ الْـحَرَامِ حَتَّـى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُـوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَـافِرِينَ * فَإِنِ انْتَهَـوْا فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَـاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لله فَـإِن انتَهَـوْا فَلاَ عُـدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِيَن ﴾ (البقرة ٢ / ١٩١ ــ ١٩٣) فالآيـات كلها تـدور حول قتال الكفـار فأين ذلك من قتل المسلمين ممن تخشى منافستهم وسفك دم الأبرياء دون جريرة ؟

لا بـد إذن من ضـوابط وروابط لكل شىء فى التشريع ، لا بـد من قـواعد محكمـة لتفسير القرآن الكـريم ، والاستناد لآياته واستخـراج الأحكام منها لا بـد لذلك من علم واسع بالقـرآن الكريم ومعانى ألفـاظه وآياتـه وأسباب تنزيلـه ولابد كذلك من قـواعد وضوابط لقبـول الأحاديث النبوية والاستـدلال بها والاعتماد عليها فى تفسير القرآن أو استخراج الأحكام ولا بد كذلك من تحديد معنى الإجماع .

وهل إجماع أهل المدينة يجزى عن إجماع غيرهم كما يقول مالك ؟ والقياس هل هو عملية قياس بسيطة نأخـذ حكمنا على حالة سابقة ونطبقه على حـالة لاحقة مشابهة أو نتصور أنها مشابهة ؟

كل هذا كـان لا بد من ضبطه ووضعـه على أصول لا يتعداهـا أحد ، فإن التشريع السليم أساس العمـران وتشريع الله سبحانه خير تشريـع فهو سبحانـه الذى خلق كل شيء فأحسن خلقـه وأحكمـه ، ولا يستطيع أى إنسـان أن يطبق أحكام الله سبحـانـه جـزافًا أو تأويلهـا على الهوى فلابـد من قـواعد وضـوابط لهذا التطبيق وإلا أصبحت الأحكام فـوضى ، باختصار لا بد من وضـع الأصول المحكمة لكل ما يتصل بـالأحكام والقضاء ولا بد أن تكون هذه الأصول علماً محدد القواعد واضح الأركان .

وهذا هو الذى هيأ الله له محمد بن إدريس الشافعى وعندما نقرأ تاريخ هذا الرجل نحس فعلاً أنه لم يكن منذ البداية مجرد طـالب علم دخل الميدان وظهرت له فيه مواهب وملكات جعلته يسير سيرًا عاديًا ومنطقيـاً حتى يصـل إلى القمـة كما هى الحال مثلاً مع أئمـة عظماء مثل محمـد بن الحسن الشيبانى أو يـوسف بن يحيى البويـطى (ت ٢٣٢ هـ) أو أبى إبـراهيم إسماعيل بن يحيى المزنى (ت ٢٦٤ هـ) أو يـونس بن عبد الأعلى المصرى (ت ٢٦٤ هـ) ممن طلبوا الفقـه وسـاروا فى طريق العلم ووصلـوا إلى الصدارة بـالعلم والعمل ، ولكن حيـاة الشافعى تبـدو لنا وكأنها تمهيد وإعـداد للعمل العظيم الذى ندب له نفسه فنجده من بدايات سنوات درسه يكون نفسه تكويناً يخالف ما عـرفناه فى تكـوين الشيوخ فهـو يدرس القـرآن والحديث ثم يتجه إلى دراسـة اللغة والبلاغة والشعر والفروسية والرماية ، ويدرس الرياضيات والعلوم كأنه يضبط فكره ومنطقه أو كأنـه يعد نفسه لشيء آخـر إلى جانب الفقه أو لطـراز آخر جديـد من الفكر الفقهى ، كل هذه الـدراسات والتدريبـات ستنفعه فيما بعد عنـدما يشرع فى التأليف فى علم الأصول .

والشافعى قرشى يرجع نسبه إلى المطلب بن عبد مناف والمطلب أخو هاشم بن عبد مناف جد رسول الله ﷺ وكان بنو المطلب أقرب قريش إلى بنى هاشم ، وكان رسول الله ﷺ يتحـدث أحيانـاً باسم بنى هـاشم وبنى المطلب ويقـول : نحن وبنو المطلب هكـذا ويشبك أصابع يده ، واسمه الكامل محمد بن إدريس بن العباس بن شافع بن السائب ابن عبيد بن عبد يزيد بن المطلب بن عبد مناف : وكان هو عظيم الإحساس بهذه النسبة وأهميتها ، وأنت تحس أنه كان بالغ التقـدير لمسئولية هذا النسب ، فما كان يتصرف أو يتكلم إلا عن إحساس بمسئولية نسبـه ، وذلك دون إدلال على الناس به ، ومع ذلك فما

عرفه الناس فى تاريخ الفقه إلا بلقب عالم قـريش وهو نفسه كان يقول : « لا يطلب أحد هذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح ، ولكن من طلبـه بذُلِّ النفس وضيق العيش وخدمة العلماء أفلح » ، ومع هذا التواضع فإنك إذا ذهبت إلى مدفن الشافعى ومسجده فى الحى المعروف بـاسمه فى القاهرة قـرأت على الباب : « عالم قريش يمـلأ طباق الأرض علماً » ويقال : إن هـذا اقتباس من حـديث نبوى نشك فى صحتـه : « اللهم اهد قـريشاً ، فإن عالمها يملأ طباق الأرض علمًا » ، والغالب أن هذا الحديث وضع بعد موت الشافعى .

وقد ولد محمد بن إدريس الشافعى فى غزة وكـان أبوه إدريس قد خرج إليهـا مع زوجه ، وكانت امرأة من الأزد أى يمنية ويقال إنها قـرشية مثل أبيه فهى ـ فيما يقال ـ حفيدة أخت السيدة فاطمة أم الإمـام على بن أبى طالب ، والقول الأول أصح . وقد توفى بعد مولده بقليل وكان مولده فى نفس السنـة التى توفى فيها أبو حنيفة وهى سنة ١٥٠ للهجرة ، وبعد مـوت الأب خرجت الأم بابنها إلى عسقلان وكـانت تسكنها جماعات من الأزد ، ثم خـافت الأم إن هى بقيت فى عسقلان أن يضيـع نسب ابنها القـرشى ويضيع حقه فى بيت مال المسلمين من سهم ذوى القـربى فرحلت به ـ ابن عـامين إلى مكة ـ وفى مكة نشأ محمد بن إدريس ودرس وأيفع ، وكانت أمه امرأة ذكية على قدر من العلم ولها عليه فضل ظاهر سواء فى التربية أو المعونة على الدرس ، وعلى كثرة ما قرأنا عن الأمهات فلا نذكر أن أُماً عملت فى سبيل ابنها ما عملته تلك السيدة الجليلة ، فقد كانت قليلة ذات اليد ومع ذلك فقـد يسرت لابنها كل مـا احتاجـه من مال ليدرس ، وعنـدما وجـدت فيه نجابـة ورغبة فى الرحلة لطلب العلم بـاعت من متاع بيتها وشجعته على الـذهاب وظلت ترقبه بعد ذلك فى صبر وثبات فى حين أن بقيـة الأمهات لا يزلن يتمسكن بالابن ويثبطنه عن الرحلة ليظل إلى جوارهن .

وكان محمـد بن إدريس فى الغاية من الذكـاء وسعة الذهن فقـد أتم حفظ القرآن فى السابعة وظل فى الكُتَّاب بعد ذلك يعين المعلم فى تحفيظ أترابه إذا غاب ، وفى الثالثة عشرة كان يقرأ القرآن فى المسجد الحرام قراءة حسنـة خاشعة يجتمع الناس لسماعها ، وكان يعيش مع أمـه على راتب قليل هو حظه مـن سهم ذى القربى ومع ذلك فقـد كان دائماً حسن الهيئة نظيف الثوب ، وقد افتتن الغلام بالقرآن فداوم على قراءته ودرسه والتفهم له وشغف بحلقات الدرس فصار يلازمها وضاقت يده عن ثمن القراطيس فصار يكتب

على قطع الفخار والخزف والعظم وعظم أكتاف الإبل والخشب ، فإذا أتيحت له الفرصة مر بالـديوان فاستوهب أهل « الظهـور » وهى القراطيس التى كانوا يسـودون فيها ما يكتبون ثم يستغنون عنها وظهورها خالية ليأخذها ليكتب فيها . قال : حتى كانت لأمى حباب (جمع حب وهـو الزير) فملأتها أكتافـاً وخزفاً وكربـاً (أصول سعف النخل) مملوءة حـديثًا . ثم إنى خـرجت من مكة فلزمت هـذيلاً فى الباديـة أتعلم كلامهـا وآخذ طبعهـا وكانت أفصح العـرب فهـذا إذن غلام نـابغة يـدرس فى السن البـاكرة القـرآن والحديث ثم يخرج إلى منـازل بنى هـذيل ليأخـذ عنهم العـربية فى أصفى صـورهـا ، والهذليون معـروفون فعلاً بالفصـاحة وقول الشعر ، وديـوان الهذليين يعد من أجمل نماذج الشعر العـربى البدوى الصافى وأجمل طبعـاته وأصحها عملت فى أوروبـا وقام عليها مستشرق من أواخر القرن الماضى .

وكان كبير الشيوخ فى المسجـد الحرام فى تلك السنين ـ أى ومحمد بن إدريس دون العشرين ـ عبد الملك بن عبد العزيز جُريْجٍ ، وكان عالماً ثبتاً ومحدثاً صادقًا فلزمه محمد ابن إدريس وأخذ علمه كله فلما مات انتقل إلى حلقـة شيخ لا يقل عنه ثقة هو مسلم بن خالد بن فـروة الزنجى ، وكان يتنقل بين حلقته وحلقة سعيد بن سـالم القداح وشيوخ آخرين سيروى عنهم وينسب إليهم أحـاديثه ، ولكن رجلاً لم يـؤثر فيه أثـر سفيان بن عيينة شيخ محدثى عصره وقـد قال فيه فيما بعـد : وما رأيت أحـدًا أحسن تفسيرًا منه للحديث ، وما رأيت أحدًا أكف منه عن الفتـوى وما جاوز العشرين حتى أذن له الشيوخ أن يجلس للإقراء ولكنه وجد أن ذلك يقعد به عن الطلب ففضل أن يظل طالباً ، وفى أثناء ذلك تعلم الركوب والرماية ، وقبل الثانية والعشرين كان قد جمع من العلم ما لا يجمعه غيره حتى الأربعين مع فصاحة ونجابة وبـلاغة وحسن مظهر وزهد فى الطعام وخوف من السمن والبدانة .

ورحل إلى المدينـة المنورة ليسمـع من مالك ولم يكن السماع من مـالك سهـلاً فإن حلقة الرجل كانت فى الغـاية من الضبط والنظام ، ولكن محمد بن إدريس وصل إلى قلب مالك واستحق محبته وإعجـابه وصار من أنجب تلاميذه ثم حفـزته الهمة إلى السماع على شيـوخ العـراق فمضى إلى بغـداد مع ضيق العيش والضنك وسمع من محمـد بن الحسن وأبى يوسف تلميذى الشـافعى ، وكان قد لقى فى المدينة نفراً من تـلاميذ الإمام

جعفر الصادق وأخذ عنهم الكثير من علمه وحفظ كذلك الكثير من أقضية الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وأنت إذ تقرأ حياة الشافعى وتستبعد منها الأقاصيص التى دست فيها فأنت أمام نفس عطشى إلى العلم أبدًا فهو فى درس وسماع وحفظ ومراجعة وتقييد عمره كله ، وهو لا يقف عند الحفظ والتقييد بل هو مفكر يبهر الإنسان بذكائه وجسن فهمه ونفاذ بصيرته إلى لباب الأمور وهو مع ذلك هادىء النفس خفيض الصوت يناقش ويجادل دون أن يغضب أو يرفع صوته وقد درجنا على أن نقول : إن أرسطو أول من وضع للناس مذهبًا فى المعرفة ، وأحق بنا نحن المسلمين أن نقول : إن محمد بن إدريس الشافعى أولى من أرسطو بهذا اللقب فهو يقول : إن أول ما نحرص عليه من العلم هو الحق والله سبحانه هو الحق ، فهو سبحانه بداية العلم وإذا بدأ علمك من الحق وسار مع الحق فقد أمنت العثار ، والعلم لا يصح بغير العمل وكان يقول : « اعلموا أنه إذا صح الحديث عندى ولم آخذ به فإن عقلى قد ذهب » ، وبلغ من إيمانه بالحق أن كان يقول لتلاميذه : « إذا ذكرت لكم أدلة فلم تقبلها عقولكم فلا تقبلوها ، فإن العقل مضطر إلى قبول الحق » .

ولهذا فقد كان يدعو إلى العقل وينهى عن التقليد دون فهم ؛ لأن العلم فى رأيه فهم ولقد طالما قيل لنا : إن أفلاطون علم الإنسانية فن المحاورة وأدبها ، فاسمع إذن إلى الشافعى يقول وهو بعد شاب لم يشرع فى التأليف : لا يمتنع طالب العلم عن السماع لمن خالفه ؛ لأنه قد ينتبه بالاستماع لترك الغفلة ويزداد به ـ أى بالاستماع والإنصات ـ تثبيتًا فيما اعتقد من الصواب ، وعليه فى ذلك بلوغ غاية جهده والإنصاف من نفسه حتى يعرف من أين قال ما يقول وترك ما يترك ، ولا يكون بما يقول أغنى منه بما خالفه حتى يعرف فضل ما يصير إليه على ما يترك ، هذا مع حب للناس وبعد عن الكراهية والبغض ، فلم تؤثر عنه كلمة ذم واحدة فى إمام أو فقيه أو شيخ ، وقد قال مرة « ما كلمت أحدًا مرة إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان » وهذه مرتبة فى الإنسانية ما أحسب أن أحدًا بلغ شيئًا فوقها .

* * *

أحمد بن حنبل
وصراع الدين والدولة

فى سنة ١٩٥ هـ / ٨١١ م دخل الإمام الشافعى بغداد دخلته الثانية وكان الإمام أبو حنيفة قد توفى سنة ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م مخلفًا مدرسته ومذهبه فى الفقه والنظر وحل مكانه فى مشيخة الفقه فى بغداد أحمد بن حنبل ، وكان أحمد يعرف الشافعى وعلمه وفقهه فاستقبله حفيًا به ، وجلس إليه يتذاكر فى العلم ، وكان الرجلان على مستوى عال جدًا من كمال الخلق وعلو الهمة وسمو النفس ، فلم يقع بينهما إلا ما يقع بين الأصفياء من محبة وتقدير ، وكان كلا الرجلين زاهدًا فى الدنيا ومطامعها راغبًا فى العلم وما عند الله . وكان كلاهما يعتبر نفسه خادماً لأمة الإسلام وللبشر أجمعين فارتبطا من سنوات طويلة برباط المودة والعلم وصار ابن حنبل يعلم الشافعى ويتعلم منه ، ولا نعرف فى تاريخ الفكر الإسلامى رجلين صفت نفساهما للدين والعلم والناس كما نجد عند الشافعى وابن حنبل ، وكان كلاهما عفيف اللسان والقلب لا يصدر عنه ما يمس أحداً أو يجرح شعوره فازداد كلاهما بالآخر علماً وورعاً وجاهاً ، وذهبا فى التاريخ مذهب الصفاء القلبى الخالص الذى ينبغى أن يكون عليه كبار الأئمة ليكونوا قدوة للناس ومثالاً .

وقد قضى الشافعى فى بغداد سنتين ونيفاً (١٩٥ ـ ١٩٧ هـ) اكتمل خلالهما عمله وبلغ خلالهما ذروة فكره ، فخلال هاتين السنتين أعاد الشافعى كتاب (الرسالة) وهى مقالة طويلة فى أصول العلم والفقه ، وأحس فى نهاية مقامه فى بغداد أنه بحاجة إلى بلد هادىء يجد فيه جواً علمياً بعيدًا عن بغداد عاصمة الخلافة وتياراتها السياسية المتدافعة فاستقر رأيه على أن يذهب إلى مصر ، فله فيها أستاذ كبير توفاه الله هو الليث ابن سعد وتلاميذ أوفياء سبقوه إليها ومضوا يلحون عليه فى القدوم إليهم ، وفى نهاية ١٩٧ هـ / ٨١٣ م حمل متاعه ورحل إلى مصر واستقر فى الفسطاط ليعيد كتابة رسالته فى الأصول وينشىء على أساسها كتاباً مفصلاً فى الفقه وفروعه ، وقد تحقق له ما أراد ، وفيما بين سنتى ١٩٧ ـ ٢٠٤ هـ / ٨١٣ ـ ٨١٩ م وهى السنة التى توفى فيها الشافعى أتم عمله العظيم فكتب كتاب « الأم » فى أصول الفقه وفروعه فى نحو سبع مجلدات

ضخام خلال تلك السنوات السبع لم يكف الشافعى عن العمل والكتابة والقراءة والمراجعة والتحقيق ، وقد لازمه المرض خلال تلك المدة كلها حتى هد قواه ، وأطفأ جذوة حياته فتوفى عن أربع وخمسين سنة هجرية خلف بعدها للإسلام والفكر الإنسانى تراثًا لا يقل عما خلفه سقراط وأرسطو وأفلاطون مجتمعين ، وفى رسالة الشافعى وحدها - ونصها أقل من مائة صفحة - من مبادىء حرية الفكر واحترامه وقواعده ومناهجه كل ما تحدث به بعد ديكارت ومن تلاه من قادة الفكر الغربى ، ولكننا نحن العرب لا نتدبر ولا نحسن القراءة ولا نفكر وطوال تاريخنا رزقنا الله نعم الدنيا كلها - مادية وروحية - فلم نحسن الإفادة منها ، ولقد أكرمنا الله بالإسلام وهو النور فلم نبصر من نوره شيئاً وعشنا فى الظلام ، ورزقنا أئمة فى مناهج العلم ومباهج الفكر فتركناهم ومضينا نطلب مناهج الآخرين وفكر الآخرين ثم أتانا الله فى أيامنا هذه بثروة من وراء العقول فأبينا إلا أن نحرقها ونحرق بلادنا بها حتى افتقرنا ومضينا نتكفف الناس وكان حالنا فى البداية والنهاية والماضى والحاضر كما قال الشاعر :

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

***

وأنا آتيك هنا بسطور عن « رسالة » الشافعى فى الأصول أى أصول الفقه ، والفقه هو الفكر والفهم ، فهى رسالة فى الفكر ومناهجه ، والشافعى يرتفع بها إلى أعلى مستويات واضعى المناهج الفكرية والعلمية فى تاريخ البشر .

الرسالة مطبوعة فى أول كتاب « الأم » الذى قام على نشره رجل من أجلاء القانونيين فى تاريخنا هو الأستاذ أحمد بك الحسينى المحامى ، ويقول الأستاذ عبد الحليم الجندى فى كتابه عن الشافعى : إن الحسينى بك كان واحدًا من أول أربعة من المحامين فى مصر هم سعد زغلول ، وإبراهيم الهلباوى ، وإبراهيم اللقانى (انظر الهامش ص ١٩٦) وقد شرحها وعلق عليها إمام من أئمة الحديث فى مصر المعاصرة هو المرحوم أحمد محمد شاكر - طيَّب الله ثراه - فى نحو ٧٠٠ صفحة .

ولكى يستوثق القارىء من صحة ما أقول فى قيمة الرسالة ومكانها أقدم هنا أهم ما تنص عليه من المبادىء والقواعد :

١ ـ لقد بدأ ديكارت ـ واضع أساس المنهج العلمى الحديث لأهل الغرب جميعاً بالشك فى كل شىء يسلم به الناس دون تفكير ، ومن الشك يصل إلى اليقين ، فهو يبدأ بالشك فى وجوده نفسه ثم يقول إنه تأكد من وجوده عندما تنبه إلى أنه يفكر ، وما دام يفكر فهو موجود ، وعندما يتأكد من وجوده ينتقل إلى البحث فى وجود حقائق الكون والفكر بادئاً دائماً بالشك ، ومنهجه هنا ذهنى فكرى منطقى رائع ، ولكن أروع منه منهج الشافعى ، فهو يبدأ من حقيقة لا سبيل إلى الشك فيها أبدًا وهى وجود الله سبحانه وتعالى ، والله سبحانه هو الحق وهو اليقين ، فالشافعى هنا يبدأ من اليقين فى الله تعالى ليصل ـ عن طريق الفكر والمنطق ـ إلى اليقين فيما سواه .

٢ ـ ولهذا فهو يبدأ الرسالة بقوله : فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفى كتاب الله دليل على سبيل الهدى فيها ، أى أن كتاب الله يضم البدايات والعلامات المؤدية إلى كل الحقائق .

٣ ـ وبعد ذلك بقليل يذكر قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ ، فالنجوم هنا حقيقة لأننا نراها بالعين ، ونحن عندما نراها بالعين فنستدل برؤيتنا إياها على أننا نحن موجودون ، وهذا هو المعنى الذى أراده ديكارت عندما قال : أنا أفكر فأنا موجود ، والشافعى يقول « أنا أرى وأعقل فأنا موجود » .

٤ ـ وما دامت النجوم تهديك إلى الطريق فى ظلمات البر والبحر فهى أيضاً تهديك إلى خالقها ، ومادامت هذه النجوم والكواكب جميعاً تتحرك فى نظام واحد محكم لا يتعارض شىء فيه مع شىء فلا بد أن يكون محركها واحداً ، وما دام هو يحركها فهو قادر على تحريكها بهذا النظام المحكم ، وما دام هو الذى يحركها كلها بهذا النظام المحكم فهو خالقها إذ لا يعقل أن تكون هناك قوة هى التى خلقتها هذا الخلق المحكم ، وقوة أخرى هى التى تحركها تلك الحركة المحكمة التى تتفق تماماً مع طبيعتها .

فانظر . والله إلى منطق الشافعى فى مطلع الرسالة وقل لى : هل يصدر هذا إلا عن فكر منير علمى منهجى يصل إلى الحقائق عن طريق الفكر المستقل ويرفض الوصول إليها عن طريق السماع أو التقليد ؟

٥ ـ وما دمنا قد سلمنا بأن الله هو الخالق والمحرك والمدبر ، فمن الطبيعى أن يكون هو الهادى والمعلم والمرشد إلى الطريق المحكم ، فكما أنه يحرك النجوم ـ وهى جمادات ـ بإحكام فهو يحركنا أيضًا بإحكـام ، وهو عندما يقول لنا : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا** ﴾ (المائدة ٥ / ٣) فـلا بـد أن يكون هذا حقاً .

٦ ـ ومـا دمت قد سلمت بـأن الإسلام حق وأنـه من الله فأنت تسلم بأن محمـدًا رسول الله ﷺ الصـادق ؛ لأنه هـو الذى نقل إلينا كـلام الله الموحى إليه ، ومـا دمت قد سلمت بهذا فأنت تسلم بالقرآن وبأن كل ما فيه حق وهدى ونور ، وإذن فيكون كل ما فى القـرآن علماً ، وكل ما قـاله رسـول الله ﷺ علمًا ، ويكـون القرآن والسنـة هما العلم وقاعدة العلم .

وهذا هو منهج الشافعى فى الاستدلال ، فقل لى : إن لم يكن هذا أفضل وأوضح من قول ديكارت : أنا أفكر فأنا موجود ، ومن قول سقراط : اعرف نفسك .

٧ ـ ويستطرد الشافعى بهذا المنطق الرياضى المحكم فى بيان أحكام الله فى القرآن وما هـو عام منهـا يصدق على كل شىء ، ومـا هو خاص ينطبـق على شىء بعينه دون غيره ، فمثال العـام قولـه تعالى : ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَـاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُـوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا** ﴾ (الحجرات ٤٩/ ١٣) ، فهذا ينطبق على الخلق أجمعين أمـا قوله تعالى : ﴿ **يَاأَيُّـهَا الَّذِينَ آمَنوا لاَ تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ** ﴾ (المائدة ٥/ ٩٥) ، فهذا خاص ينطبق على الحرم والمحرمين دون سواهم .

٨ ـ ويمضى الشافعى فى شرح منهج القرآن فى التبيان والهدى خطوة خطوة ، فهو لا يهجم على قضية إلا إذا استقرت فى ذهنك سابقتها التى يبنى عليها .

ثم ينتقل إلى وظيفة السنة فيبين لك حكمتها ووظيفتها فيقـول : قال الله تعـالى : ﴿ **وَالسَّارِقُ وَالسَّـارِقَةُ فَاقْطَعُـوا أَيْدِيهما جَزَاءً بِمَا كَسَبَـا نَكَالاً مِن الله** ﴾ (المائدة ٥٥/ ٣٨) ، وسن رسـول الله ﷺ لا قطع فى ثمر ولا كثَـر (شىء فى النخل) وألا يقطع إلا من بلغت سرقته ربع دينـار فصاعدًا ، فمن سرق ليأكل ومن سرق ليسد جـوعه فلا قطع فيه ، وإنما القطع على من عدا على مال النـاس طمعًا فيه ، وعلى هذا الأساس أوقف

عمر رضى الله عنه حد القطع فى عام الرمادة ، وهو عام المجاعة ؛ لأن الدين رحمة وإنسانية وإصلاح ، وحدوده ليست انتقاماً .

وعلى هذا المنهج العقلى المنطقى يسير الشافعى فى بيانه للأصول ، أصول الدين وأصول الفقه والتشريع ، وكل الحجج عنده تقوم على قاعدة واحدة هى المنطق أى الفهم أى الوصول إلى الحقيقة عن طريق التفكير السليم الحر الذى ينتهى إلى الفهم وهو الاقتناع ، فإذا لم يقتنع عقلك بالدين ويسترح إليه قلبك ؛ فلا حاجة بالإسلام إليك ولا سبيل له عليك ؛ لأنك ضال لا ترى الحق ولن تراه حتى يأذن الله لك فى ذلك .

وكل ما فى الرسالة بعد ذلك متعلق بالشريعة والفقه ، ولهذا فإننى أدعه ؛ لأنه يعنى أهل الفقه خاصة ، ولكنه يريك كيف أن هذا الرجل العظيم محمد بن إدريس الشافعى يقف فى طليعة أهل العلم والفكر والمنطق فى تاريخ الفكر الإنسانى كله .

وفى مصر وجد الشافعى بلدًا فيه تقاليد علم وتعليم وقضاء وقانون من آلاف السنين ، وقد سبقه إلى دراسة الفقه وتدريسه فيها إمام من أهل مصر هو الليث بن سعد (٩٣ ــ ١٧٥ هـ / ٧١١ ــ ٧٩١ م) ، وهو مصرى من قلقشندة من أعمال القليوبية ، وكان فقيهاً عاقلاً منطقياً وضع لأهل مصر مذهباً فى الفقه ولكن أهل مصر فضلوا عليه مذهب مالك ، فجاء الشافعى فرد على الليث بن سعد حقه ودرس فقهه .

وكان قد عرفه من قبل فى اليمن على يد يحيى بن حسان وقال فيه : العلم يدور على ثلاثة : مالك والليث بن سعد وسفيان بن عيينة ، وقد ألزم الشافعى نفسه فى مصر بالعمل المستمر فكان يقضى الليل فى العبادة والتأليف والنهار فى الدرس والتدريس .

وقد تأثر الشافعى بتقاليد مصر فى العلم فقد جرت تقاليد العلم فى الحجاز والعراق بأن يجلس الشيخ ويلقى الدرس من بدايته إلى نهايته ، وهم يكتبون عنه وتكون الأسئلة والمناقشة بعد الدرس . أما المصريون فكانت طريقتهم أن يبدأ الأستاذ فيلقى مدخلاً للموضوع الذى سيدرسه ثم تبدأ المناقشة بين الشيخ والتلاميذ ويكون هذا هو الدرس ويكون العلم فى هذه الحالة تبادل رأى بين الأستاذ والطلبة ، ويصبح الأستاذ طالباً والطالب أستاذًا حيناً بعد حين ، وقد استراح الشافعى إلى هذه الطريقة وسار عليها .

وفى مسجد عمرو ـ أو تاج الجوامع كما كان يسمى ـ كان الشافعى يجلس للدرس

فيبدأ النهار ، يدرس القرآن ، ثم يكون الدرس الثانى فى الحديث ، ثم تكون بعد صلاة الظهر مناقشة عامة فى القرآن والسنة ، وبعد الظهر تكون دروس العربية من لغة ونثر ونظم وعروض ونحو إلى صلاة العصر ، ثم يعود الشيخ إلى داره ليستجمع ذهنه ويجمع آراءه ويجلس للتأليف قبل المغرب وبعدها إلى صلاة العشاء وما بعدها إلى الفجر ، وفى الصباح يعطى أوراقه لتلميذه الربيع بن سليمان المرادى ليراجعها ويضبطها قبل أن تقرأ على التلاميذ .

وهذا والله صميم التعليم الجامعى وهو عندنا من ألف سنة ومائتين ثم نقول اليوم إننا نتعلم العلم ومناهجه من أهل الغرب .

ومن هذا الجهد كله خرج الشافعى بكتاب « الأم » أى أم العلم والفقه وأصلهما وهو كتاب جامع مفصل يبدأ بالعبادات ثم يفصل أمر البيوع (القانون المدنى والتجارى) ثم يتكلم عن الزواج والطلاق والمواريث والوصايا (الأحوال الشخصية) ثم يتكلم عن الجنايات والديات والحدود والقصاص (قانون الجنايات) إلى آخر فصوله الكثيرة التى تشمل القانون كله .

وبهذا يكون الشافعى قد جمع بين الأصول والفروع ، والشافعى فى كتاباته يناقش مالكاً ومحمد بن الحسن ، ويعرض لما كان من الخلاف فى الرأى بين على بن أبى طالب وابن مسعود ، وهو فى ذلك كله فى الغاية من الأدب وعفة اللسان وتوقير الأئمة واجتناب ما يجرح الشعور ، فهو لا يقول قط: كذب فلان أو أخطأ فلان ، بل يقول : جانبه الصدق أو فاته الصواب أو كان أوْلى به أن يقول وما إلى ذلك ، وكل ذلك يكتبه الشافعى فى أسلوب عربى رصين بليغ ، وهو يستشهد فى كلامه بالشعر ومأثور الحكمة فهو إذن إمام فى العربية وإمام فى الفقه وقدوة فى الخلق .

* * *

وكل ذلك والرجل مريض فقبل أن يفد على مصر أصابته علة البواسير من طول الجلوس للدرس والتأليف ، واشتدت عليه بمصر حتى كان أحياناً يجلس القرفصاء ليتجنب الألم ، ثم اشتد به المرض فكان ينزف حتى ليسيل الدم من ملابسه وعلى راحلته ، وفى أخريات أيامه اشتدت به علة تصلب شرايين القدم حتى صعبت عليه

الحركة ، ومع ذلك فما كـان يشكو بل يصبر ويتعازم ويمضى فى العمل فإذا زاد كـربه بما كان يعانيه قال :

فلما قســا قلبى وضــاقت مــذاهبى	جعلت رجــائى نحــو عفــوك سلما
تعــاظمنى ذنبـى فلما قــرنتــه	بعفــوك ربى كـــان عفــوك أعظما
فما زلت ذا عفـو عن الــذنب لم تــزل	تجود وتعفـــو منــة وتكـــرمـــا

وصعدت روحه إلى بارئها عند صلاة العشاء ليلة الجمعة ٢٩ رجب ٢٠٤ هـ / ١٨ يناير ٨٢٠ م ودفن بالقرافة بسفح المقطم بمقبرة القرشيين بين قبور أسرة من أسر أهل العلم هم بنو عبد الحكم وسنتحدث عنهم ، وخلال عمره القصير ـ نحو ٥٤ سنة هجرية وضع الشافعى قواعد علم الأصول وخلف للأمة مذهبا كاملاً من مذاهب الفقه وقانوناً عاماً شاملاً .

وبمالك وأبى حنيفة والشافعى تمت أعظم الأعمال فى ميـدان الفقه القائم على العلم والعمل والفكر والنظر لما فيه صالح الناس فى الدين والدنيا .

وبهؤلاء الثلاثة وآخرين كثيرين ذكرنـا أقلهم وضاق المقام عن أكثرهم واستقامت القاعدة السليمة للأمــة على يد رؤسائها الحقيقيين وهم الفقهاء وأهل العلم وبقى تثبيت هذه القـاعدة وصيانتهـا من عبث الدولـة وعدوانها ، وتلك هى المهمة التى ادخـرها الله سبحانه لـرابع الأئمة الكبار وهو أحمد بن محمد بن حنبل الشيبـانى ، وهو عربى من بنى شيبان من بكر بن وائل من بنى معد بن عدنان .

عاش كبـار الأئمة والفقهاء على ما ذكـرنا بين سنتى ١٥٠ ـ ٢٥٠ هجريـة ، خلال هذه الفترة بنت الأمة قاعدتها وأمنت حياتها ومستقبلها ، فماذا فعلت الدولة ؟!

ونحن فى هـذه الـدراسة لا نجبن ولا نجـامل ولا نتستر ولا نخـدع فـلا يصلح فى النهاية إلا الحق ، والحقيقة المرة خير من النفاق الحلو ، فالحاكم الذى يقتل النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق حاكم مجرم لايشفع له حب العلم أو منادمة العلماء أو الإغداق على الشعراء أو إنشاء ما يسمى بدار الحكمة أو بناء مسجد ، والحاكم الذى يعتدى على أموال الناس ظلماً وعـدواناً لص أو قاطع طريق خـارج على منهج الإسلام ، وإن كان ـ

مثل هارون الـرشيد ـ يطلب إلى الواعظ أن يعظـه ، فإذا سمع الوعظ بكى حتى تخضل أى تبتل لحيته ، فالذى يهمنا فى هذه الـدراسة هو الحق والفكر واحترام حقوق الإنسان كما حددهـا الإسلام وبيَّنها فقيه إنســان مثل أحمد بن حنبل وهى حفظ الدين والنفس والنسل (النوع ويراد به هنا الأمة) والمال والعرض (كرامة الإنسان) .

ولد أحمد بن حنبل سنة ١٦٤ هـ وتـوفى سنة ٢٤١ هـ (٧٨١ ـ ٨٥٥ م) ، أى أنه عـاصر من مولـده إلى وفـاته من خلفـاء بنى العبـاس محمـد المهدى ومـوسى الهادى وهـارون الرشيـد ومحمد الأمين وعبـد الله المأمون ومحمـد المعتصم وهارون الـواثق وجعفر المتوكل فهؤلاء ثمانية خلفاء ، ليس منهم واحد لم يعتد على النفس والنسل والمال والعـرض ولم تقتصر أعمال العـدوان هـذه على الأعداء السيـاسيين ممـا قـد يشفع فى الجريمة أو يخفف من مسئـولية مرتكبهـا على أنها جريمة صراع سيـاسـى أو دفاع عن الـدولة أو حمايـة النظام ومـا إلى ذلك ، بل إن جميع هؤلاء بـلا استثناء أزهقـوا أرواح الكثيرين من أبـرياء الناس بـلا جريـرة ، وصادروا أمـوالهم دون حق وأهانـوا الناس وعبثوا بهم واستهانوا بالأمة وعبثوا بكرامة الإنسان وكل هذه حقوق أقرها الإسلام هذا إلى جانب الإقـدام على الخمر وارتكـاب المعاصى وتضييع أمـوال المسلمين والقعود عن الجهاد وهو أول واجبات الإمـام وليس منهم واحد لم يتتبع آل البيت بالأذى والعدوان الشنيع عليهم سواء أقـاموا على الدولـة أم انصرفوا عن السياسـة وجرائمهم فى حق آل البيت من كل نـوع : القتل بـالسم أو بالسيف أو بـالضرب مع الغـدر واللؤم والحيلـة والرشـوة وإفساد الضمائر ، وآل بيت الـرسول هم آل كل مسلم ورحم مـوصولـة بنا واحداً واحدًا إكراماً لرسول الله ﷺ .

ولا أبعد بك فسأقتصر هنا على جريمة الرشيد الكبرى فى حق البرامكة وهى جريمة قتل وعدوان صارخ على المال يبررها معظم مؤرخينا مع أن الإسلام لا يبيح العدوان على النفس والمال إلا على بينـة وشهادة شهـود واستبـلاغ فى البحث والتحقيق ، إنما اخترت هذا الحادث لأدلك على أن غـالبية مؤرخينا يصـورونها لنا على أنها من مفاخر الـرشيد ناسين أنها ـ أياً كانت مبرراتها الشخصية والمالية ـ فهـى جريمة وإجازتنا إياها جاءت نتيجة جريمة فكرية أخـرى ، وهى تواطؤ المؤرخين والكتاب على « غسيل مخ » الإنسان المسلم حتى أصبح لا يحس بـالجريمة إلا إذا وقعت عليـه شخصياً ، وكـان هـو وآلـه ضحيتها ، أما إذا أصابت جاره أو أى مواطن آخر فهى شىء آخر .

ويكفى أن أذكر لك قبل حديث البرامكة أن الخليفة الهادى سلف الرشيد وأخاه الأكبر مات مقتولاً على يد أمه فيما قالوا وزعموا أنه كان يدبر قتل أمه بالسم فسبقته هى بالغدر ، ثم إن يحيى بن خالد البرمكى كان أكثر احتراماً للخليفة الهادى فى غيبته من وزيره العربى الربيع بن يونس وكاد يوقع به لولا شفاعة البرمكى ـ ومع ذلك فقد كان الربيع بن يونس من أكثر الناس سعياً فى الإيقاع بالبرامكة .

وقد تعودنا أن ننظر إلى البرامكة على أنهم أعداء العرب وما كانوا على الحقيقة كذلك ، حقيقة إنهم كانوا من أصل فارسى ولكنهم استعربوا وخدموا بنى العباس وأظهروا كفاية نادرة ، وخالد البرمكى ـ جد الأسرة ـ كان له عظيم فضل على الدولة وجاء ابنه يحيى على مثاله والرشيد هو الذى خوله أمور الدولة وأطلق يده فى الأمور فأحسن القيام بها على طريقة أهل العصر ، وهى التبذير فى المال وقلة الضبط فى الحساب ، والمال أصلاً مال الأمة ولكنه كان يجبى بالعسف والظلم وإرهاق الرعية ، فلم يكن مالاً مباركًا والرشيد كان رجلاً عاطفيًا متقلباً لا يثبت على حال ، وكان فى دواخل نفسه رجلاً صالحاً ولكنه كان صاحب هوى : يستمع للوعاظ فيبكى ويغريه الناس بالرجل فيأمر بقتله ويلاعبه مضحكه ابن مريم بحيل أطفال وكلام جهال فيضحك ، ويحيى بن خالد البرمكى كان يدير الدولة على هوى الرشيد ولكنه لم يكن لصًا ولا خائناً وأولاده الفضل وجعفر ومحمد وموسى كانوا من خيرة رجال الدولة وجعفر بن يحيى بن خالد بالذات كان أقدرهم وكان صاحب الرشيد وصفيه ولكن الحزب العربى برياسة الوزير الربيع بن يونس كان موغر الصدر على أولئك البرامكة بحجة أنهم فرس وكانت معهم زبيدة الهاشمية زوج الرشيد ، ودار الصراع بين الجانبين وانتهى فى مرحلته الأولى بنصر الحزب العربى فنقل الرشيد ولاية العهد من ابنه الأكبر عبد الله المأمون بن الجارية الفارسية مراجل وأقام مكانه أخاه الأصغر محمد الأمين بن زبيدة العربية ، ولم يكن ذلك بالأمر الخطير فإن عبد الله كان يكبر أخاه بستة شهور فهما معاً من سن واحدة تقريباً والذى لا يعرفه الكثيرون أن الرشيد عندما مات وخلفه ابنه الأمين كانت سن الأمين والمأمون أيضاً إحدى وعشرين سنة هجرية أى فى السن التى يكون فيها أولادنا فى السنة الجامعية الأولى ، وهذا محمد الأمين المسكين توضع على أكتافه مسئولية أكبر دولة فى الدنيا ، ثم نقول أنه أخطأ وهل كان يمكن أن لا يخطىء ومن حوله مؤامرات وتدبيرات وهو بعد شاب غر شديد الشوق لمتاع الشباب ووزيره الفضل

ابن الـربيع بن يـونس يوافيـه بما تهفـو إليه نفســه من الجوارى ويهيىء لــه مجالس الشراب .

والرشيد نفســه أحسَّ بالعاصفة ووجـد دولته تفلس شيئاً فشيئـاً ، وكان لا بد أن تفلس فهو وأهل بيتـه يغرفون من خـزانة الدولـة ويلقون من النوافـذ ويهمس فى أذنه الفضل بن يونس أن الأموال عند البرامكة ، وأمـر الرشيد بقتل جعفر بن يحيى البرمكى دون محاكمة وألقى البقية فى السجون ، وصودرت الأموال فلم يوجد لجعفر غير قصره شىء ووجدوا ليحيى أبيه خمسة آلاف دينار ولأخيه الفضل أربعين ألف درهم ولمحمد ابن يحيى البرمكى ٧٠٠٠,٠٠٠ درهم أما الأخ الـرابع موسى فلم يوجد لــه شىء وهذا كلام ابن عبدوس الجهشيارى فى تاريخ الكتاب والوزراء (ص ٢٤١) إذن فأين ذهبت الأموال ؟ أنفقها بنو العباس ورجالهم ووزراؤهم وخدمهم إنفاق السفيه ، والدولة كانت مفلسة وعلى صخرة الإفلاس المالى تحطمت دولة بنى العباس والله سبحانه أمرنا بتدبير شئـون المال ، ولكن أين من يسمع ومن يطيع ، وهارون الـرشيد أصبح يخاف دخـول بغداد بعد أن نقل ولاية العهد من المأمون لـلأمين فقضى معظم أيامه بعيدًا عنها ولهذا نقول : إنــه كان يحج سنـة ويغزو أخرى ، ووضعـت الحرب بين الأمين والمأمون وقتل الأمين على أسوأ صورة ، أما المأمون فأقام فى خراسان تـاركًا بغداد يدبر أمرها عبد الله ابن طاهر بن الحسين ، وهو قاتل الأمين وكان انتصار المأمون على أخيه سنة ١٩٨ هـ ، ولكنه لم يدخل بغداد إلا سنة ٢٠٤ هـ بعد أن حـاصرها سنتين ثم دخلها دخول مدينة معادية وعند دخوله وجد الإدارة فـوضى فقد كانت فى الديوان ٤٠٠٠ كيس رسائل من رجال الدولة لم تفتح أو تقرأ (الجهشيارى ص ٢٥٨) .

ومســاكين النـاس فى بغداد جيـاع ينقضـون على المخـابز ودكـاكين بيع الطعـام وينهبـونها ورجال الشرطـة لا يحرسون إلا قصر الخلافـة وحى الشماسية وهـو حى الأغنياء ، أما بقية بغداد فقد تسلط عليها اللصوص وقطاع الطرق .

وتلك هى حال دولـة الخلافة وأحمد بن حنبل وإخـوانه من أهل العلم يـرون هذه الحال ولا يدرون ماذا يفعلون لأن الإسلام جاء بالذات لكى يقضى على مثل هذه الدول الظالمة ويقيم دولة العدل والناس ينفضـون أيديهم مـن الدولة ويلتفون نحو أئمة الدين وهم أملهم الوحيد ، والمأمون يرى هـذا فيفيض قلبه بالغضب على أئمة الأمة الحافظين

للقرآن والسنة ويحيط بـه رجال الاعتزال والمتكلمون وهم سفسطـائيون فقدوا احترام الناس من أمثال بشر المريسى الثرثار القليل العلم بالدين وثمامة بن أشرس الذى أثار فى بغداد فتنة القول بخلق القرآن ، وكان الشافعى ينفر من الاعتزال وأهله ويحذر تلاميذه من الخوض فى قضايا التـوحيد وخلق القرآن وكان يقول : ألا إن الكلام لا غـاية له وهو مدعاة للخـروج عن الإسلام وقال المأمون مرة : أريد أن أعلن القـول بخلق القرآن لولا مكان يـزيد بن هـارون . فيقول لـه جلساؤه : ومن يـزيد بن هـارون حتى يتقيه أمير المؤمنين ؟ ويزيد بن هارون من كبار الفقهاء .

وتتراكم السحب وتبدأ نـذر المعركـة فالأمة كلهـا تقف مع أئمتها مـالك والشافعى وأبى حنيفة ولـواء الإمامة معقود اليـوم بأحمد بن حنبل إذن فلا بد من إذلاله وعقـابه ليعلم الناس لمن الأمر فى هذه الدولة : رجال الإيمان والقرآن والسنة أم رجال السلطان ؟ ومسألـة خلق القرآن مـا هى إلا تعلة ، والدولـة تريـد أن تذل العلم والفكـر ويأبى الله ورسولـه وأولو العلم ذلك ، وتلك هى حقيقة فتنـة القول بخلق القرآن وامتحـان الناس فيهـا ، وسيكون بطل أهل السنـة فيـه إمام السنـة أحمد بن حنبل وسيسجن ويضرب ويعذب ولكنـه يصبر للمحنة صبر المؤمن الصـامد كأنـه الجبل ، وعلى صخرة الإيمان ستتحطم الدولة .

* * *

أحمــد بــن حنبــل
وَانتِصَارُ الــدِّينِ عَلَــى الــدَّوْلَةِ

ذكرنا كيف هانت الدماء على خلفاء بنى العباس . وكيف أهدرت الحقوق وصودرت الأموال وخرجت السياسة بالخلفاء ورجالهم عن الخط الإسلامى جملة وتفصيلاً ، والخط الإسلامى هو منهج الله فى الناس والخلق ، إنه الإيمان والاعتصام بحبل الله ـ أى وحدة الأمة ـ والعدل فى التصرف والحكم ومراعاة الله سبحانه واتباع سنة رسول الله ﷺ فى العبادات والمعاملات .

وقد ضربنا مثلاً من امتهان الخلفاء لكل قواعد الحق فى الإسلام بما فعله الرشيد بالبرامكة . ونحن لم نقل إن البرامكة كانوا أبرياء صلحاء فى كل عملهم ، ولكننا قلنا : إنه مهما كان رأى الخليفة فيهم وشكه فى صدقهم وأمانتهم وتفكيره فى محاسبتهم فقد وضع الإسلام لذلك كله قواعد وضوابط ، فهناك شرع وقضاء ، ورسول الله ﷺ وضع للناس السنن فى صيانة النفس والمال ، وكان عبد الله بن أبى بن سلول والجدُّ بن قيس من رءوس المنافقين ، وكانا يسيئان لرسول الله ﷺ والمسلمين ولكنهما لم يجاهرا بعصيان أو ارتداد ، فحفظهما رسول الله ﷺ ولم يمسسهما بأذى فى نفس أو مال . وأسامة بن زيد بن حارثة اشترك فى سرية ، وقتل رجلاً بعد أن قال : لا إله إلا الله . ورسول الله يسأله فى ذلك فيقول : تعوذ بها من القتل . ويقول له الرسول الأكرم : هلا شققت قلبه ؟! أى : ما أدراك إن كان صادقًا أم غير صادق ؟

ولكن الرشيد لا يحقق أو يدقق ، ولا يرجع إلى قاض أو فقيه بل هو يقتل ويسجن ويصادر الأموال ، وقاضيه أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم لا يعترض. ولا يبدى أدنى ملاحظة ، وأبو يوسف من أعاظم الفقهاء ، وأوسعهم علمًا ، ولكنه كان من فقهاء الدولة وفقهاء الدولة جزء من النظام وهو مشترك ـ ضمنًا ـ مع خليفته فى المسئولية عما كان .

ومضى هارون الرشيد إلى حال سبيله فى الثامنة والأربعين من عمره ، توفى بعد علة طويلة فقد كان يعانى من الفتق أو الهرينا . وأغلب الظن أنه مات من اشتداد علة السكر . وجاء ابنه الأمين وكانت سيرته ــ مهما قلنا فى مبالغات المؤرخين فى تشويهها ـ

خارجة عن سنن الإسلام وأخلاقه جملة ، وقد التمسنا له العذر لصغر السن ، فقد كان فى الغالب فى الحادية أو الثانية والعشرين من عمره ، وحمل على كتفيه مسئولية دولة عظمى ، وضاع أمر المسكين فى صراع السلطان فى بلاط بنى العباس بين الحزبين العربى والفارسى ، والحزب العربى كان ضعيفًا مفككًا يرأسه الفضل بن الربيع بن يونس ـ وهو مولى عربى ـ ولكن ممثله الحقيقى كان هرثمة بن أعين ، وكان من كبار القادة والحكام ، ولكن الفضل بن الربيع يهمله ويسىء إليه فينضم الرجل إلى الحزب الفارسى طمعًا فى أن يستطيع إنقاذ الأمين من سيف طاهر بن الحسين الفارسى وهو قائد المأمون . ويدخل جند المأمون بغداد ويأخذ هرثمة بن أعين الأمين ، ويحميه ويرجو أن يشفع له عند أخيه ، ولكن طاهر بن الحسين يأمر رجاله فيخطفون الأمين ويقتلونه ويرسلون برأسه إلى أخيه المأمون ، وكل هذه أعمال خارجة عن الإسلام والإنسانية والكرامة ، وجمهور الناس يرى ذلك كله ويتأكد أن هذه الدولة لا يمكن أن تكون دولة الإسلام ، وماذا فعل فرعون وهامان أسوأ من ذلك ليستحقا لعنة الله ؟

والمأمون يدخل بغداد بعد ست سنوات من انتصاره ، يدخلها بعد حصار وهو يشعر أن أهلها يعادونه وتكون له هو الآخر فى الظلم والعدوان على الدماء والأموال حكايات سود ، ولا يشفع له فى هذا أنه كان عالمًا ذكيًا متفتح الذهن ، فهذا شىء آخر والأمة لا تريد من حاكمها إلا الإسلام والعدل والشريعة أى القانون .

وسأضرب لك مثالين ـ من كثير جدًا ـ من خروج المأمون على أبسط قواعد العدالة والشرع فى الإسلام ، فإن عبد الله المأمون فيما يقال وجد أن آل على أولى بالخلافة من بنى العباس . فقرر أن يجعل ولاية العهد فى رجل من أئمة العلويين هو على بن موسى الرضا بن الإمام جعفر الصادق ، وعلىّ هذا كان رجلاً بعيدًا عن السياسة قد يئس منها مثله فى ذلك مثل أبيه موسى الرضا وجده جعفر الصادق فاستدناه المأمون وأكرمه وبايعه بولاية العهد ، والرجل كاره لذلك خائف من بنى العباس يريد المأمون أن يزيده اطمئنانًا فيزوجه من ابنته أم حبيبة ، ويزوج ابنة أخرى له وهى أم الفضل من محمد ابن على بن موسى الرضا (وكلتا البنتين كانتا صبيتين فى حوالى الثمانية من العمر) ! والزواج عقد ولكنه لم يتم ؛ لأن الأمر كله كان خداعاً ، ويأمر المأمون فيكتب اسم ولى العهد العلوى على الدراهم والدنانير ويأمر الخطباء أن يدعوا له على المنابر ، وبعد ذلك

كله يدس لعلى بن موسى الرضا السم ويقتله ظلماً وعدواناً دون جريرة ويعصف ببقية العلويين الذين استأمنوا له ، ففى أية دولة نحن ؟ وبأى شريعة نحكم ؟

وبعد ذلك يتزوج المأمون من بوران ابنة الحسن أخى وزيره الفضل بن سهل ، والذى لا يعرفه الناس أن بوران هذه كانت طفلة فى الرابعة من عمرها ! وهذا الإعذار أو الزفاف البورانى المشهور كان كله خدعة ، وتغطية لجريمة كبيرة هى قتله وزيره الفضل بن سهل زعيم الحزب الفارسى أخى الحسن بن سهل والد بوران ، ثم انظر إلى الإسراف فى التصرف فى أموال المسلمين فى ذلك الإعذار أو الزفاف : لقد صنع الحسن بن سهل كرات صغيرة من العنبر وجعل داخل كل كرة ورقة فيها اسم ضيعة من الضياع ثم نثرها على الناس فمن وقعت بيده كرة كانت له الضيعة بما فيها ، ومن مال من أخذ الحسن بن سهل هذه الضياع ؟ من مال المسلمين ! ويقولون : إن المأمون لامه فى هذا ونسبه إلى الإسراف ولتسأل المأمون : وكيف تأذن بأن يعبث رجالك بأموال الناس على هذه الصورة فى حكمك ؟ والجواب : إن هذا كله كان يتم برضا المأمون ، لأن الدولة كانت بالفعل قد فقدت أهليتها للولاية على أمور المسلمين . فهذا الإسراف كله الذى يصل إلى أن يفرش الحسن للمأمون حصيرًا منسوجًا من الذهب وينثر عليه ألف لؤلؤة من كبار اللؤلؤ فلما رآه المأمون قال : قاتل الله أبا نواس ! كأنه شاهد مجلسنا هذا حيث يقول :

كأن صغرى وكبرى من فقاقعها ... حصباء در على أرض من الذهب

والبيت قاله أبو نواس فى الخمر (ابن خلكان ١ / ٧٢) وفى هذا العصر بالذات كان الفقراء يموتون من الجوع ، واقرأ البخلاء والبيان والتبيين للجاحظ ، وتاريخ الطبرى لترى كيف كان الفقراء يطعمون أولادهم النوى ، ويرقد بعضهم على البيض ليفقس .. وفى عصر المأمون كانت ثورة الزُّطِّ ، وهم مسلمون فقراء من الهنود كانوا يأتون بهم إلى جنوب العراق ليكسحوا الأوساخ ، وينظفوا الترع فإذا قاموا بعملهم طردوهم دون طعام أو مأوى ، فكانوا يتجمعون فى المستنقعات والأخوار ويسطون على أموال الناس وبدلاً من أن ينظر الحكام فى إصلاح حالهم أو يطلبوا من الأغنياء أن يعدلوا معهم كانوا يرسلون الجند ليقتلوهم ، ولنفس هذه الأسباب قامت ثورة الزنج أيام الخليفة المعتمد ، وبدلاً من أن يعطوهم حقوقهم ظلوا يحاربونهم أربعة عشر عاماً حتى أفنوهم .

هذا كله كان يراه أتقياء الفقهاء ويتعجبون . كانوا يقبلون على تدارس القرآن

والحديث ويجتهدون فى التشريع للناس ويعملون على هدايتهم إلى سواء السبيل تاركين دولة الظلم تفعل بنفسها وبأهلها ما تشاء ، وفى مجالس الفقهاء ينتقد الناس الدولة ورجالها والأخبار تصل إلى المأمون ورجاله يحسون أنهم ليسوا سادة هذه الأمة ؛ لأن سيادة الأمة ينبغى أن تقوم على احترام الدين والشرع وكرامات الناس ، ويتبرأون من أفاعيل الخلفاء ، وهل هناك أوقح أو أقبح من أن المأمون دس رجالاً فقتلوا وزيره الفضل بن سهل فى الحمام ؟! فلما قبض الناس عليهم قالوا للمأمون : أنت أمرتنا . فقال : أنا أقتلكم بإقراركم أما ما ادعيتموه علىّ فليس لكم عليه بينة (رواه الأستاذ عبد الحليم الجندى فى كتاب أحمد بن حنبل ص ٣٤٠) .

وأحس المأمون أن سادة الأمة الحقيقيين هم أهل الفقه والعلم والصلاح ، ويهمس فى أذنه فقهاؤه وقضاته أمثال يحيى بن أكثم وبشر المريسى وثمامة بن أشرس بأنه لا بد أن يثبت أنه إمام هذه الأمة كلها ويقهر أولئك الذين يرفضون أن تتدخل الدولة فى شئون العقيدة والتشريع ويعتزون بكراماتهم وإيمانهم ويتجاهلون أمر الدولة كأنها لا تملك عليهم سيادة ، وفقهاء السلطان هؤلاء كانوا يستعملون السلطان للانتقام من كبار الأئمة ومعظمهم كانوا من أولئك المعتزلة الذين ذكرناهم ، ومن الحق أن نقرر أن كبار المعتزلة من رجال مدرسة البصرة أمثال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وأبى الهذيل العلاف كانوا على جانب كبير من التقى والورع مع العلم والزهادة ، ولكن المتكلمين من مدرسة بغداد عاشوا فى كنف الدولة وأقروا مظالمها وارتضوا الخضوع لها باستثناء إبراهيم بن سيار النظام فقد كان صاحب دين وعقل وعلم ، وإن كان من أصحاب المأمون ، وإن الإنسان ليعجب كيف أن رجلاً فى مستوى النظام ينفق علمه فى الكلام فى مسائل دخيلة على طبيعة العقيدة الإسلامية مثل السؤال عما إذا كانت صفات الله جزءًا من ذاته أو أن القرآن قديم أو مخلوق ، ولكن لا شك فى أن رجالاً مثل أبى موسى المردار وثمامة بن أشرس وبشر بن المعتمر كانوا يشعرون أن الناس يزدرونهم ويشكون فى إيمانهم ويوجهون احترامهم كله إلى العلماء الصادقين من أمثال أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وأحمد بن زهير بن حرب .

فما زالوا يحرضون المأمون حتى أوقعوا فى ذهنه أن أئمة السنة يتحدونه واتخذوا مسألة خلق القرآن سلاحاً للمعركة ، والمسألة فى لبابها ليست بذات موضوع بالنسبة

للمسلم الذى يفهم دينه فإننا نقول : إن القرآن كلام الله ولا نسأل بعد ذلك إن كان مخلوقاً أم غير مخلوق ؛ لأننا إذا دخلنا مناطق الخلق والقدرة وذات الله وصفاته أقحمنا أنفسنا فى موضوعات من الغيب الذى انفرد به سبحانه وتعالى ، لأن الكون والخلق أضخم من أن يحيط عقل الإنسان بحدوده ، والإسلام أنقذ الإنسان من الضلال عندما نهاه عن الخوض فيما لا يحيط به ذهنه ولا يضيره عدم الإحاطة به فى شىء حقاً إن الاجتهاد فى العلم فريضة على كل مؤمن ولكن لا تتكلم قط إلا على قدر ما يصل إليه علمك ، فنحن نعرف اليوم كثيرًا جدًا من أسرار الأرض والمجموعة الشمسية ، ولكننا لا نعلم إلا القليل مما يقع خارج مجموعتنا ، فما معنى التساؤل والرجم بالغيب ؟ والقرآن أوحى إلى رسول الله ﷺ ليبلغه لنا لنعيش بما فيه من حكمة ونور ، ولا ينفعنا فى شىء ، ولا هو من شأننا أن نسأل : ولكن ما هى ماهية نور الله ؟ وهل هو نور مثل هذا الذى نراه أو نور آخر ؟ وما معنى أن نسأل : كيف يستوى الله على العرش ؟ وما شكل عرش الله ؟ وما صورة يد الله الواردة فى قوله تعالى : ﴿ **يد الله فوق أيديهم** ﴾ ؟ وما دمنا نقول : إن الله سبحانه ليس كمثله شىء فتكون يد الله ليس كمثلها يد وكرسى الله ليس كمثله كرسى مما نعرف وعين الله لا تشبهها عين نعرفها ، ويكفينا أن نتبع هدى القرآن وأن نأخذ بما فى الآيات المحكمات وندع المتشابهات وهذا كان موقف أحمد بن حنبل ، فقد كان متباعدًا عن هذه القضايا ويأمر أصحابه بتجنبها ، ويقول لمن يسأله فى هذا الموضوع : « اتق الله ولا ينبغى أن تنصب نفسك وتشتهر بالكلام . لو كان فى هذا خير لتقدمنا فيه الصحابة ، هذه كلها بدعة » وكان كثيرًا ما يقول : « من أحب الكلام لم يفلح ولا يئول أمرهم إلى خير » أو « والكلام ردىء لا يدعو إلى خير تجنبوا أهل الكلام وعليكم بالسنن ، وما كان عليه أهل العلم قبلكم فإنهم كانوا يكرهون الكلام والخوض مع أهل البدع ، وإنما السلامة فى ترك هذا . لم نؤمر بالكلام والخصومات » .

وكان الخليفة المأمون يشعر منذ دخل بغداد سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م ، أن أهل البلد وعامتهم لا يوقرونه كما يجب ، وأن قلوبهم كلها مع أهل العلم ممن لا يفرقون بين كبير وصغير وينشرون علمهم فى الناس كافة ، وكان مجلس أحمد بن حنبل يحفل بالناس والكثير منهم من العوام أقبلوا ليستمعوا إليه ، وسواء فهموا عنه أو لم يفهموا فهم يتعظون بالقدوة وينتفعون برؤية رجل كهذا لا نظير له فى الدنيا علماً وفقهاً وجاهاً ومع ذلك فإنه يجلس إلى غيره من العلماء ويسمع منهم ويبلغ من تواضعه أنه استحى مرة

أن يجلس على حصير وهو يسمع حديث رسول الله ﷺ فرفعه وجلس على الأرض ، وكان يجلس فى بيته على لبد قديم رخيص ، ويلبس الثياب الغلاظ مما يشترى بدينار أو نحوه ، وكان مع ذلك فى الغاية من النظافة وحسن السمت ، وكان إذا رأى اليتيم الفقير أخذه وجعل بعض أصحابه يغسله ويشترى له ثياباً جددًا ويعطيه دراهم وحلوى ويطلب إليه أن يأتيه إذا حاجه أمر ، ووقعت فى بغداد مجاعة فامتنع أحمد عن الطعام إلا ما يقيم الأود ، وسئل فى هذا فقال : نجوع إذا جاع الناس ونطعم إذا طعم الناس . وكان الرجل أسمر شديد السمرة أميل إلى الطول وكان حسن الوجه حسن الإشارة خفيض الصوت ، وفى الليالى الشاتية الباردة كان يحمل ما تيسر له من الأكسية إلى بيوت الفقراء ويبكى ويقول : أبكى على فقراء أمة محمد فأين هذا من قول ثمامة بن أشرس فى مجلس المأمون : « وما العامة ؟ والله لو وجهت إنساناً على عاتقه سواد ومعه عصا لساق إليك بعصاه عشرة آلاف منها » وقد سواها الله بالأنعام فقال : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سبيلاً ﴾ (الفرقان ٢٥ / ٤٤) أحمد أمين (ضحى الإسلام ٣ / ١٥٢) وهو هنا مدلس ؛ لأن الله سبحانه قال هذا الكلام فى كبار كفار قريش وكانوا سراة الناس !

ولكن هذا الكلام كان يعجب المأمون ، لأنه هو بدوره كان موتورًا من عامة الناس الذين رفضوا أن يفتحوا له أبواب مدينتهم عندما أقبل من خراسان ، وإذا كان هذا الموقف من العامة يصدر عن سخافة الفكر عند رجل مثل ثمامة بن أشرس ، فقد كان يصدر عن موقف سياسى عند المأمون ، وعندما يتوفى القاضى يحيى بن أكثم ويتولى قضاء بغداد أحمد بن أبى دُوَاد وكان من كبار المعتزلة ، ويأنس منه المأمون استعدادًا لمؤازرته على بسط سلطانه على جمهور الناس وأئمة المسلمين يكشف عن وجهه ، وتخرج المسألة عن نطاق الدين وتصبح سياسية خلاصتها : من صاحب الأمر فى دولة الإسلام ؟ الأمة وقادة الأمة أم الخليفة ورجاله ؟ الكتاب أم السيف ؟

إذن فمسألة خلق القرآن فى حقيقتها مسألة سياسية وهذا هو وجهها الذى خفى عن الكثيرين .

والخليفة المأمون عندما دخل فى المسألة دخلها على أنها مسألة سياسة وسيادة ، فهو الخليفة وصاحب السيادة على هذه الدولة وكل ما فيها ومن فيها ، وهو الذى يهيمن

على شئون الدين والدنيا ، وهو الشرع وممثل الشرع ، وليس من حق أحد من الرعية أن يشرع أو يفتى إلا بإذنه .

وأحمد بن حنبل عندما قبل التحدى وخاض المعركة فى مواجهة الخليفة كان يعرف أنها مسألة شريعة ، وخاضها على هذا الأساس وإن كان هو نفسه بعيدًا عن السياسة ، ولكن المسألة هنا مسألة سيادة القانون أو الشرع ، والشرع هو سيد كل ما فى هذه الدولة ابتداء من الخليفة ، والشرع أمانة عند أهل العلم والفقه ومسئوليتهم هنا كاملة ولا شك فيها ، والخليفة ـ فى نظر الشرع ـ واحد من الرعية ، وسلطانه لا يجوز أن يتخطى الشريعة .

هذا الوضع الضخم للمسألة هو الذى يعطينا حجمها ، وأحمد بن حنبل هو الذى أعطاها هذا الحجم ، وكل المشاكل تأخذ أحجامها من رجالها وابن حنبل كان رجلاً ضخماً كالجبل ، كان ممثل الشرع والحق ورجل الأمة وبهذا الوضع خاض المعركة . السيادة على هذه الدنيا لله وشريعة الله والحق والعدل وليست للمأمون أو الدولة ، هنا لا تراجع ولا تردد ولا مساومة ، والموت هو أهون ما يتعرض له صاحب الفكر والرأى فى هذه الحالة ، وهذا كان مبدأ أحمد بن حنبل ولو أنه أحنى رأسه لكان له ألف عذر ، ولا بأس على المؤمن إذا خاف على حياته أن يتقى سيف الجبار بكلمة أو بانحناءة رأس ، وقد التمس رسول الله ﷺ العذر لبعض المستضعفين فى الأرض عندما تلفظوا بشىء يرحمهم من العذاب .

ولكن أحمد بن حنبل لم يكن مستضعفاً فى الأرض لكى يشترى سلامة نفسه بالتفريط فيما رأى أنه واجبه نحو الله والأمة ، فظل مكانه كالصخرة العاتية وأعز الدين والشرع والأمة بهذه الوقفة وبها أيضاً أصبح أحمد بن حنبل هو الإمام الأعظم ، وعظماء الرجال يحددون مكانهم بأنفسهم ولهذا فهم يصنعون التاريخ .

ولكى تلمس بيدك الوضع الحقيقى للمسألة ـ وهو سياسى كما قلت ـ أورد لك مقتطفات من البيان الذى أذاعه الخليفة المأمون معلناً فيه الحرب على أئمة السنة وداعياً إياهم إلى الخضوع لإرادته :

« أما بعد . فمن حق الله على خلفائه فى أرضه وأمنائه على عباده الذين ارتضاهم لإقامة دينه وحملهم رعاية خلقه وإمضاء حكمه وسننه والائتمام بعدله فى بريته ، أن

يجهدوا لله أنفسهم وينصحوا له فيما استحفظهم وقلدهم ، ويدلوا عليه تبارك اسمه وتعالى ، بفضل العلم الذى أودعهم والمعرفة التى جعلها فيهم ، ويهدوا إليه من زاغ عنه ويردوا من أدبر عن أمره ، وينهجوا لرعاياهم سمت نجاتهم ويقفوهم على حدود إيمانهم (أحمد زكى صفوت ، جمهرة رسائل العرب ٣ / ٤٢ ـــ ٤٧) وهكذا يجعل المأمون نفسه راعياً للدين ، وصياً على الإيمان ، مسئولاً عن الإسلام ، وهو بهذا يريد أن ينتزع لنفسه حقًا أباه عليه وعلى أسلافه أهل العلم والفقه ، فإن الخليفة عندهم سيد فى أمور الدنيا فهى فانية لا تساوى عند الله شيئاً ولكنه ليس إمام الأمة ولا راعى الدين ولا المؤتمن على العقيدة فقد خرج الخلفاء بتصرفاتهم على الدين والمنهج والحق والعدل من زمن بعيد .

ثم يدخل المأمون فى صميم الموضوع ويقول : « مما تبينه أمير المؤمنين بِرويته وطالعه بفكره ، فتبين عظيم خطره وجليل ما يرجع إليه الدين من وكفه (الوكف : العيب والإثم والضرر) ما ينال المسلمين من القول فى القرآن الذى جعله الله إمامًا لهم ، وأثراً من رسول الله وصفيه محمد ﷺ باقياً لهم واشتباهه على كثيرين منهم حتى حسن عندهم وتزين فى عقولهم ألا يكون مخلوقًا ، فتعرضوا بذلك لدفع خلق الله الذى بان به عن خلقه » .

ثم يتهمهم بعد ذلك بالجهل والكفر لكى يستحل بذلك دماءهم : « وقد عظم هؤلاء الجهلة ـــ بقولهم فى القرآن ـــ الثلم (الانكسار) فى دينهم والجرح فى أمانتهم ، وسهلوا السبيل لعدو الإسلام واعترفوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم ، حتى عرفوا ووصفوا خلق الله بالصفة التى هى لله وحده وشبهوه به ، وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال هذه المقالة حظاً فى الدين ولا نصيباً من الإيمان واليقين ، ولا يرى أن يحل أحد منهم محل الثقة فى أمانة ولا عدالة ولا شهادة ولا صدق فى قولهم ولا حكاية ، ولا تولية لشىء فى أمور الرعية » ، ثم يجىء بعد ذلك قرار الخليفة بامتحان القضاة والفقهاء على أساس القول بخلق القرآن فمن أقر بذلك منهم ترك فى وظيفته وحاله ، ومن رفض أخرج من عمله وأنزل به العقاب (اقرأ بقية البيان فى جمهرة رسائل العرب ٣ / ٤٢ ـ ٤٧) .

هذا هو البيان الذى أذاعه المأمون وهو فى الغالب من تحرير أحمد بن أبى دُوَاد كبير القضاة وصاحب الكلمة المسموعة عند المأمون وهو من كبار المعتزلة ، وكان رجلاً عظيم

المهابة واسع السلطان وهو عربى من أياد ، وقد ولد فى قنسرين جنوبى حلب ، وكان عالما بليغًا واسع المروءة بعيد الهمة يتعصب للعرب ، ولكنه كان أولاً وقبل كل شيء يتعصب لنفسه فهو كبير القضاة وعالم الدولة وصاحب رأى السلطان فكيف يزعم أحمد بن حنبل وأمثاله أن لهم كلمة فى الدين فوق كلمته ؟ (انظر ابن خلكان ١ / ٣ ، وأحمد أمين ، ضحى الإسلام ٣ / ١٥٥ وما بعدها ، وعبد الحليم الجندى ، أحمد بن حنبل ٣٧٩ وما بعدها) .

وبدأ رجال الدولة وفقهاؤها فى امتحان الفقهاء وكان ذلك سنة ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م ، وكان المأمون فى دمشق ثم مضى إلى طرسوس لأنه كان معسكرا على حدود دولة الروم وطلب أحمد بن أبى دُاوَد إلى نائبه فى بغداد إسحاق بن إبراهيم (ت ٢٣٥ هـ / ٨٤٩ م) وهو فارسى الأصل عربى خزاعى بالولاء بأن يرسل إليه محمد بن سعد (كاتب الواقدى) ويزيد بن هارون ويحيى بن معين وأبا خيثمة زهير بن حرب (ت ٢٣٤ هـ / ٨٤٩ م) وكان من أكابر أئمة الحديث ومن أكابر أصحاب أحمد بن حنبل ونفرًا اخر فامتحنوا وأجابوا جميعًا بخلق القرآن وأحنوا هامتهم للسلطان .

إلا أحمد بن حنبل لأن ، المسألة إذا كانت فى نظر المأمون وقاضيه مسألة دولة (كما يقول الأستاذ الجندى) فهى فى نظر أحمد بن حنبل مسألة دين وأمة ، وهنا لابد من الوقفة الصلبة والإرادة والعزيمة .

ومعظم الفقهاء سلموا خوفًا من السيف إلا أحمد بن حنبل وصديق له هو محمد ابن نوح فوضعت فى أيديهما قيود حديدية وأرسلا إلى طرسوس ليلقيا العذاب والعقاب ، وعندما عبر الجند بهما الفرات عند الرقة لقيهما الفقيه أبو جعفر الأنبارى ، فقال له أحمد : يا أبا جعفر تعنيت (أتعبت نفسك) .

قال : ليس هذا عناء ، أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك فوالله لئن أجبت بخلق القرآن ليجيبن بإجابتك خلق من خلق الله . ومع ذلك فإن الرجل إن لم يقتلك فأنت تموت ولابد من الموت فاتق الله ولا تجبهم بشيء فجعل أحمد يقول : ما شاء الله . ما شاء الله .

وفى ١٨ رجب ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م وقف الرجلان على أبواب طرسوس على حدود دولة الروم فى تركيا الحالية وعندما دخلا أذنة (فى تركيا) وكان المأمون معسكرًا فيها ، مات المأمون ، مات فى الثامنة والأربعين من عمره كما مات أبوه الرشيد فى تلك السن

وعادوا بهما إلى الرقة (فى العراق) وهناك مات محمد بن نوح لشدة ما لقى من الأغلال والحبس والركوب على الخيل دون سرج أو قتب ، وقبل موته قال لأحمد : يا أبا عبد الله : ألله ألله ! إنك لست مثلى أنت رجل يقتدى به وقد مد الخلق أعناقهم إليك لما يكون منك فاتق الله واثبت لأمر الله .

وتولى بعد المأمون أخوه أبو إسحاق المعتصم ، وكان شاباً عسكرياً لا شأن له بالفكر ، ولكن المأمون أوصاه بأن يطيع أحمد بن أبى دُواد ويستمر فى امتحان الفقهاء فسار فى طريق أخيه بصورة أعنف وأشد .

ويظل أحمد بن حنبل فى الحبس والقيد إلى سنة ٢٢٠ هـ / ٨٣٥ م ، وبعض أحبائه يطلبون إليه أن يجيبهم إلى ما يطلبون تقية فكان يقول : « إذا سكت العالم تقية والجاهل يجهل فمتى يظهر الحق ؟ ثم يقول : ما أبالى بالحبس ما هو ومنزلى إلا واحد ولا قتلًا بالسيف ، إنما أخاف فتنة السوط وأخاف ألا أصبر » ، فهو هنا رجل لا يتشدق بالبطولة ولكنه مؤمن صريح واضح صابر .

وفى السجن يعيش الإمام العظيم مع غيره من السجناء ، ويتحول السجن إلى مصلى ومسجد والإمام أحمد - فى انتظار الموت - يؤم الناس فى الصلاة ويلقى عليهم الدروس ويقول له واحد منهم : لا عليك يا أبا عبد الله فما هما إلا سوطان ثم لا تدرى أين يقع الباقى ! ثم حولوه إلى سجن انفرادى وسجنوه فى دار إسحاق بن إبراهيم والى بغداد وجعل هذا يرسل إليه ويخوفه ويقول : يا أحمد إنها والله نفسك إنه لا يقتلك إلا بالسيف إنه - الخليفة المعتصم - قد آل على نفسه إن لم تجبه أن يضربك ضرباً بعد ضرب وأن يلقيك فى موضع لا ترى فيه الشمس .

وبعد أيام حملوه إلى مجلس المعتصم وكان شاباً فى الأربعين وقد أصر على إذلال الإمام أو قتله وأحمد كان فى السادسة والخمسين من عمره ، شيخًا عظيمًا شديد السمرة شابَ معظم شعره وهو يقف فى قيوده رافع الرأس عليه ثوب أبيض بالغ النظافة وكان أحمد حريصًا دائمًا على نظافة ثوبه وجسده وشعره وكل هيئته .

وفى مجلس المحاكمة حاولوا أن يثنوه عن عزمه فأبى والخليفة كان يتجنب إيقاع العذاب بالفقيه العظيم ، ولكن أحمد بن أبى دُوَاد يقول : يا أمير المؤمنين . ما هو والله إلا ضال مبتدع !

وتتابع الحاضرون يسبونه والخليفة يهاب الإمام ويطلب إلى رجاله مناظرة الإمام والإمام يلزمهم الحجة بعد الحجة ولكنهم فى ضلال ، ويقول الخليفة : « والله لئن أجابنى لأطلقن القيد عنه بيدى ولأركبن إليه بجندى ولأطأن عقبه (أى أسير خلفه) ثم يقول : يا أحمد إنى والله عليك لشفيق وإنى لأشفق عليك شفقتى على هارون ابنى ما تقول ؟ ويقول أحمد : أعطونى شيئًا من كتاب الله .

وعاد الخليفة يقول : يا أحمد ، أجبنى إلى شىء فيه أدنى فرج لك حتى أطلق عنك بيدى .

ويجيب أحمد : أعطونى شيئًا من كتاب الله .

وبلغت المحنة ذروتها فى رمضان سنة ٢٢٠ هـ وأحمد صائم وقد هد السجن والحديد كيانه وعندما تأكد أن العذاب والقتل يكون غدًا طلب خيطًا شد به قيده وأصلح سراويله حتى لا يتعرى إذا أصابه أذى .

وفى الصبح أدخل على الخليفة فى قيوده ولما يئس منه الخليفة قال : عليك اللعنة خذوه واسحبوه وخلعوه ! وعلقوه بذراعيه على خشبة وعروا ظهره وضربوه بالسياط فأغمى عليه ووقع وداسوه بأقدامهم ولما أفاق أتوه بسويق فأبى أن يفطر والوقت كان رمضان وقام فصلى فقال له بعضهم : صليت والدم يسيل فى ثوبك فقال : قد صلى عمر وجرحه يثعب دماً .

وأمة الإسلام كلها كانت تتطلع إلى أحمد ، ذهب الفقيه الكبير أبو عبيد القاسم بن سلام يستطلع الخبر وجعل يقول : أيضرب سيدنا ؟ وبشر الحافى الصوفى يقول : إن كان أجاب فأنا أدخل فأقوم مقامه فخرج رجل يقول لم يجبهم فحمد الله وأخرجوه من العذاب وقيل له : ادع على ظالمك فقال : ليس على الصابر من دعاء على الظالم . وقبل أن يخرج جعل الخليفة فى حل أى عفا عنه .

لقد طالما حدثوك عن موقف سقراط أمام المحنة والموت فهذا أعظم من سقراط !

ثبت للمحنة ونصر الدين وهزم الدولة ، لقد عفا عن الخليفة لأنه حاكم جبار ، ولكنه لم يغفر أبدًا لأصحابه العلماء من أمثال يحيى بن معين وأحمد بن زهير بن حرب ، وفى سنة ٢٤٢ هـ / ٨٥٦ م مات الخليفة المعتصم وخلفه المتوكل فأبطل المحنة وتوفى أحمد فى ربيع الأول ٢٤١ هـ / يوليو ٨٥٥ م عن ثمان وسبعين سنة .

البِدَايَـــةُ العَظِيمَــةُ
أَصْبَــحَتْ نِـهَـايَةً أَلِيمَـةً

كانت مسألة خلق القرآن ومحنة أهل السنة ـ وعلى رأسهم هنا أحمد بن حنبل ـ فى صميمها مسألة سياسية ، والصراع فيها كان صراعًا سياسيًا خلاصته أو محوره : من صاحب الأمر فى دولـة الإسلام ؟ . الخليفة رأس النظام السياسى القـائم ، قائد جيوش الأمة ومـالك أموالها جميعًا : مـا فى خزائن الدولـة وما فى أيدى النـاس ، وصاحب الحق المطلق فى دماء النـاس ؟ . فله الحق المسلم به ـ بصفتـه الخليفة ورأس الأمة. أم العلماء والفقهاء فهم الـذين يعرفون الكتاب والسنـة حق المعرفة ؟. ومن هنـا فهم أعلم الناس بشريعة الله ، وهى القانون الأعلى الذى ينبغى أن يحكم كل شىء. وكل تصرف للناس فى بلاد الإسلام وهم القضاة الذين يفصلون فى خصومات الناس ، وهم أصحاب الفتوى الذين يستفتيهم الناس فيما أهمهم من شئون الدنيا والدين ؟

والخليفة المأمـون (المحرم ١٩٨ ــ ١٦ رجب ٢١٨ هـــ ، سـبتمبر ٨١٣ ــ مارس ٨٣٣ م) فى بيانه الذى أتينا بأطراف منه فى الفصل الماضى يريد أن ينتزع لنفسه إمامة الدين والدنيا ويريد تجريد أهل العلم والفقه من كل سلطة ومكانة ، فهو يقول : أما بعد فإن من حق الله على خلفائه فى أرضه ، وأمنائه على عباده الـذين ارتضاهم لإقامة دينه ، وحملهم رعاية خلقه ، وإمضاء حكمه وسنتـه ، والائتمام بعدله فى بريته ، أن يجهدوا لله أنفسهم ، وينصحـوا له فيما استحفظهم وقلـدهم ؛ ويدلـوا عليه تبـارك اسمه وتعـالى بفضل العلم الذى أودعهم والمعرفة التى جعلها فيهم ويهدوا إليه من زاغ عنه ..

وهــذا كـلام واضح لا لبس فيه . وقـد فهمـه فقهـاء السنة على وجهـه وحقيقتـه فرفضوه ونهضوا يعارضـون السلطان ، وعندما أمر المأمون فى نهاية بيانه كبير قضاته ونائبـه فى بغداد أن يبدأ بامتحـان العلماء والفقهاء فى مسألة القول بخلق القـرآن . كان ذلك فى حقيقتـه إنذارًا لهم جميعًـا بضرورة التسليم بأن الخليفة هـو صاحب الأمـر فى شئون الـدين كما هو صاحبه فى شئـون الدنيا ، أما القـول بخلق القرآن أو رفض ذلك القول فمجرد ذريعة أو نقطة اختبار ، فالتسليم بأن القرآن مخلوق معناه ـ فى الحقيقة ـ التسليم بحق الخليفة فى التشريع والقضاء والتنفيذ بلا معقب .

وأحمد بن حنبل وأضرابه ممن رفضوا القول بخلق القرآن كانوا يفهمون ذلك تماماً ، ويعرفون أنهم إذا رفضوا دعوى الخليفة كانوا خارجين عليه وعلى سلطانه ، ومن حقه فى هذه الحالة أن يعزل أو يسجن أو يعذب أو يقتل منهم من يريد ، شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من العصاة . وأحمد بن حنبل ومعاصروه من أئمة السنة يقفون بذلك على قمة مسيرة فكرية أساسية أشرنا إليها مرة أخرى فى هذه الدراسة ، وهى إنكار أهل العلم لأى حق للدولة فى التدخل فى شئون العقيدة أو الشريعة ، وإذا كان ولى الأمر هو الذى يعين القضاة ، فإن تعيينه إياهم ممارسة لحق إدارى ، لأن أعوان السلطان هم الذين يتولون تنفيذ أحكام القضاة ، ولا يمكن للقاضى أن يأمر رجال التنفيذ بتنفيذ أحكامه إلا إذا سبق هذا أمر بتعيينه قاضياً من رئيس السلطة التنفيذية ، إن أمر التعيين هنا ممارسة لحق إدارى تنفيذى ، ولكنه ليس ممارسة لحق سيادة ، فلا سيادة للخليفة أو السلطان على الدين والعلم والفقه والتشريع وأحكام القضاة . فهنا مجال سيادة أخرى هى سيادة الشرع والقانون ، والأمة — لا الخليفة — هى الوصية على الشرع الحفيظة على دين الله منذ قيام خلافة بنى أمية سنة ٤٠ هـ/ ٦٦١ م . فهى فى نظر الأمة إمامة باطلة قامت على رغم الأمة وعلى خلاف شرع الله ، واقترف خلفاء بنى أمية كل الموبقات التى نهى عنها الإسلام ، فلم يعودوا بذلك أمناء على شرع الله ولا على أمة الإسلام ، وانفصلت الأمة والدين عن الدولة وأصحابها ، وسار كل منهما فى طريق .

***

وعندما قامت دولة العباسيين زعم داود بن على عم عبد الله السفاح فى خطابه الأول فى الكوفة أن دولتهم أتت بشريعة الله ! : « لكم ذمة الله تبارك وتعالى ، وذمة رسول الله ، وذمة العباس رحمه الله أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير فى الخاصة والعامة منكم بسيرة رسول الله ﷺ » ثم لم يلبث هو وآله أن أغرقوا الدنيا فى المقاتل والدماء ، وتعدوا حدود الله على ما بينا فى أكثر من موضع من هذه الدراسة ، واستمرت القطيعة بين الأمة والدولة بل اتسعت ، وزاد التفاف الناس حول الأئمة ، وشعر خلفاء بنى العباس بأن أمر الأمة يخرج من أيديهم ؛ فمضوا يتحينون الفرص لانتزاع السيادة الشرعية من أيدى الفقهاء ، حتى إذا جاءت قضية خلق القرآن اتخذوها ذريعة لانتزاع هذه السيادة ، فلم يوفقوا ؛ لأن أحمد بن حنبل وأضرابه وقفوا لهم هذا

الموقف الصلب ، وثبتوا للمحنة ، ولم يسلموا للخلفاء بذلك الحق ، والفقهاء فى هذا الصراع كانوا أقوى من الدولة ؛ لأن الأمة وقفت معهم ومات فى المحنة من مات ، وضرب أحمد بن حنبل بالسياط ، فلم يستسلم ، وأصبح بثباته رمزًا على تمسك الأمة بالحق وشريعة الله فى وجه الطغيان ، وقد رأينا تقدير العلماء لهذا النفر من علمائهم لثباتهم فى الدفاع عن شرع الله وحق الأمة فيه ، وتصديهم للخلفاء ورجالهم وإزرائهم بالمعتزلة والمتكلمين الذين احتقروا الأمة ، ونظروا إليها نظراتهم إلى البهائم كما رأيت في بعض ما أوردنا من كلامهم ، وخاصة الجاحظ وبشر المريسى وأضرابهما .

وقد رأينا حماسة الناس لأحمد بن حنبل ووقوفهم إلى جانبه أيام المحنة ، لأنهم أحسوا أن القضية قضيتهم ، وأن هذا الرجل إذا لم يحنِ هامته لهم فقد انتصر وانتصروا معه ، فإن جمهور الناس كانوا موتورين من ظلم بنى العباس وعبثهم بالأموال والدماء والحقوق والكرامات ، تواقين إلى من ينصرهم عليهم ؛ فجعلوا عندما سيق أحمد بن حنبل للعذاب يتنسمون الأخبار ويسألون : هل أجابهم ؟ فإذا قيل لهم : لا لم يجبهم طربوا وحمدوا الله ، حتى إذا انتهت محنة الرجل أحسوا أنهم انتصروا على السلطان بانتصار أحمد بن حنبل عليه ، وأصبح هذا الانتصار رمزًا عندهم على سيادة الأمة وسيادة شرع الله .

ورفعوا أحمد بن حنبل إلى مكان لم يرفعوا إلى مثله فقيهًا على كثرة ما عرفوا من أجلاء الفقهاء من أمثال سعيد بن المسيب وسفيان الثورى وسفيان بن عيينة وأبى حنيفة النعمان بن ثابت ، ومالك بن أنس ومحمد بن إدريس الشافعى .

وأنت تفهم من موقف الأمة هذا أنها ليست بالجهل الذى تصور المترفعون عليها من أهل الفكر والعلم الذين ذكرناهم ، فها هى ذى تعرف من حقائق الصراع الدائر أكثر مما عرف محمد بن سعد كاتب الواقدى ، ويحيى بن معين ، وأحمد بن زهير بن حرب ابن أبى خيثمة ، فقد سلَّم هؤلاء للمأمون بما أراد حاسبين أنها قضية فقهية عادية يجوز للعالم أن يخلص نفسه من عذابها بالتسليم الظاهر لصاحب السلطان .

وفى القلب ما فيه ، والله سبحانه أعلم بما فى القلوب ، فأنجوا أنفسهم من العقاب وفاتهم المعنى البعيد الذى فهمته الأمة عندما وقفت مع أحمد بن حنبل ، فهى قضية حق وعدالة وشريعة وأمة ، ولهذا أصبح أحمد بن حنبل هو الإمام عندهم ولا إمام غيره ، ولا

يحسبن القـارىء أن محمـد بن سعـد أو أحمد بن زهير بن حـرب ويحيى بن معين لم يكونوا من أجلاء الفقهاء ، فقد كانوا فعـلاً ممن تفخر بهم هذه الأمة علمًا ودينًا وصدقًا وفضلاً ، ولكن هناك مواقف تتطلب من الناس فوق العلم والفضل : الفهم لمعنى الموقف ومغزاه ، وأحمد بن حنبل كان على مستوى الموقـف ، والأمة كانت على مستوى الموقف ، ويخطىء كل الخطأ من يستصغر الأمة أو ينظر إليهـا نظرته إلى الجاهل الذى لا يفهم . فالأمم بطبعها تحس بالحق وتعرف الحق وتميـز بالإحساس الفطرى بين من يحبونها ويخلصون لها ومن لا يـؤمنون بها ، ففى ١٣ نوفمبر ١٩١٨ ذهب سعد زغلـول وعبد العزيـز فهمى وعلى شعراوى وقابلـوا المندوب السامى البريطـانى فى مصر وهو السير ريجنـالد وينجت وحـدثوه فى أمـر حق مصر فى الاستقلال فـاستصغر الـرجل شأنهم وشأن مصر ورد عليهم رداً يفهم منه ذلك ، فأما عبد العـزيز فهمى وعلى شعراوى فقد اكتفيا بـذلك ، وأما سعد زغلول فقـد أثبت بعد قليل أنه رجل الموقف والمؤهل للمطـالبة بحق الشعب المصرى . ففى ٧ فبراير ١٩١٩ حضر سعد زغلـول باشا مع نفر من كبراء مصر من أمثـال عبد الخالق ثـروت باشـا محاضرة فى دار جمعية الاقتصـاد والتشريع ألقاها قاض بريطانى يسمى برسيفال وقدم بها مشروع قانون للعقوبات وضعته لجنة كانت تسمى لجنة الامتيـازات الأجنبية ، فوقف سعد زغلول بعد المحـاضرة وقال كلمة تعليق عليهـا ختمها بقولـه : « فى سنة ١٩١٤ أعلنت انجلترا حمايتهـا (على مصر) من تلقاء نفسهـا بدون أن نطلبها أو تقبلهـا الأمة المصريـة فهى حماية باطلـة لا وجود لها قانـونًا ، بل هى ضرورة من ضرورات الحرب تنتهـى بنهايتها ولا يمكن أن تعيـش بعد الحرب دقيقة واحـدة » . فدوت هـذه الكلمة فى أرجـاء مصر كلها ، وكـانت الشرارة التى أشعلت ثورة ١٩١٩ ، وبها وبما تلاها من أعمال الإقدام والشجاعة والحكمة تقدم سعد زغلول الصفوف وأصبح زعيم هذه الأمة ، وفهمت الأمة مغزى العبارة فهبت مستجيبة لسعد على بكرة أبيها ، فكأن هذه الأمة التى كان الباشوات والأمراء ينظرون لها على أنها أمة جاهلـة كانت ـ رغم جهلها المزعـوم هذا ـ أذكى وأصدق فهمًا وتقـديرًا للموقف من بقية الباشوات والمثقفين ، ثم سارت بعد ذلك بثـورتها يتقدمها سعد ومن انضم إليه فى مسيرتها الخالدة فى سبيل الحرية والاستقلال .

مثل هذا الشعور كـانت أمة الإسلام تتبادل مع أحمد بن حنبل ، وكـانت تلك الأمة تنتظر من ابن حنبل أن يواصل مسيرته معها ، وسنـرى فيما بعد إن كان قد سار أم لم

يسر ، وإذا كـان أحمد بن حنبل لم يقل إذ ذاك كلمـة تعبر عن إدراكـه الكـامل لحقيقـة الموقف ، مكتفيًا بالعمل دون القول وهذا أبلغ . فإن عالمًا مصريًا من تلاميذ الشافعى هو يوسف بن يحيى البـويطى (ت سنة ٢٣٢ هـ/ ٨٤٦ م) عبَّـر بأجلى بيـان عن حقيقة الصراع قبل أن يمـوت فى سجنه ، فقـد رفض أن يجيب بخلق القرآن فأخـذته المحنـة ، وألقى فى السجن مكبلاً بأغـلال زنتها أربعون رطلاً من الحديـد ، فيكتب من سجنه إلى الربيع بن سليمان المرادى زميلـه فى مشيخة الشافعيـة فى مصر يوصيه بـالاستمرار فى التدريس مكـانه ويقول :« إنه لتأتى علىَّ أوقـات ما أحس بالحديد أنـه على بدنى حتى تمسه يدى إنى لأرجو أن يجزى الله عز وجل أجر كل ممتنع فى هذه المسألة لسيدنا الذى فى بغداد » . « رواه عبد الحليم الجنـدى فى كتابه عن أحمد بن حنبل ص ٣٩٨ عن سيرة البويطى فى طبقات الشافعية لتاج الدين السبكـى » . وقد توفى البويطى فى سجنه مؤكدًا الحقيقة الخالدة من أن مصر موطن الشهداء .

لقد أثبت أحمد بن حنبل بموقفه من السلطان أنه أهل للموقف ، ولكن هل أثبت بعد ذلك أنه أهل للمسئولية التاريخية التى كان هذا الموقف يتطلبها منه ؟

لقـد رأينا سعـد زغلول يثبت بخطـابـه فى جمعية الاقتصـاد والتشريع أنه أهــل للموقف ، ولو أنه وقف عند هذا الخطـاب لكان أهلاً للموقف غير أهل للمسئولية ، ولكن سعد زغلول عندمـا رأى الأمة تستجيب لصوته ألقى بنفسه فى المعركـة وسار فى مقدمة الصفـوف غير هياب فأثبت بـذلك أنـه أهل للمـوقف وأهل للمسئوليـة كـذلك ، ودخل التاريخ على أنه رجل سيـاسة وحق وبلاغة وبســالة وقائد حركـة تحرير كبرى ، وكان بهذا كله جديراً بأمته كما كانت هى جديرة به .

فماذا فعل أحمد بن حنبل للأمة التى علقت عليه الآمـال ، ووقفت إلى جانبه واجفة ساهرة الليل أيام المحنة ؟

لقد انتهت المحنــة فى ذى الحجة ٢٣٣ هـ / يوليـو ٨٤٧ وخرج أحمد بن حنبل من سجنه وعاد إلى بيته ، وكانت سنه إذ ذاك ٦٩ سنة هجرية ، وبقيت له من سنوات العمر ثمانى سنوات فماذا فعل خلالها ؟.

لزم داره وواصل حياة الـزهد والتقشف والتباعد عن السلطـان مع أن الأمة كانت تطلب منه إذ ذاك الكثير ، فقـد كانت أحـوال الناس تسير من سىء إلى أســوأ ، والخليفة

المتوكل الـذى أبطل المحنة لم يفعل ذلك تقـى أو ورعًا ، بل حسب أنه يكسـب الرجل إلى جانبه ، وكان فى ذلك غافلاً أشد الغفلـة عن حقيقة الإمام العظيم كما كان فى غاية الغفلة عن كل ما حوله وكل ما كانت الخلافة تتطلب منه . لقد تولاها واسمه أبو الفضل جعفر ابن أبى جعفر هـارون الواثق بن إسحاق محمد المعتصم فى ٢٣ ذى الحجـة سنة ٢٣٢ هـ ومكث فى الخلافة خمس عشرة سنـة تقريبًا ـ إذ إنه توفى فى شـوال ٢٤٧ هـ / يناير ٨٦٢ م . وخلال هـذه الفترة ارتكب من الموبقـات والمظالم مـا فاق بـه سابقيـه . وهذه المساءات كلهـا كانت تقـع على كواهل النـاس ، والناس كـانوا فى أشد الحاجـة إلى رجل يقودهم للخلاص مما كانوا يعانون منه . لقد كانت وقفة أحمد بن حنبل من السلطان فى مسألة خلق القرآن بداية لحركة كان ينبغى أن تستمر حتى تؤتى ثمارها . وإذا كان هو قد كبرت سنه فإن أفكاره كـانت شابة ولا بد أنه كان فى تـلاميذه من يستطيع مواصلة النضال لو أنه طلب إليهم ذلك ، وقد كان من بين تلاميذه كثيرون جدًا مستعدين للسير فى الطريق ، وما كان على الرجل بعد أن وقف هذه الوقفة ووضع بها حدًا لتدهور شرعى وإنسانى طـويل ألا يخطو الخطوة الأولى فى الطـريق الصحيح فتستمر المسيرة ويتغير وجه التاريخ ؛ لأن أمة العرب والإسلام التى وقفت إلى جانب أحمد بن حنبل وأيدته ضد السلطان كانت أمة قـوية شابة وما زالت بخير بفضل حيوية العقيـدة الإسلامية وقوة الجيش العربى ، ولكن أحمد بن حنبل بعـد هذه الوقفـة استمر واقفًا مكانـه مكتفيًا بما تحمل من عـذاب السجن والسيـاط قـانعًا بما جنى فى مقـابل ذلك من المجـد . فكـانت النتيجة أن وقفته ظلت مجرد وقفـة رجل شجاع وانتهت عند هذا الحد ، بـل إن التدهور الخطير بدأ بعد ذلك ؛ لأن موقف الجمـود بعد الشروع فى المسير خذل الأمة وخيب آمالها فبـدأ اليأس يثقل عليها حتى شـل فكرهـا . وبعد الشلـل جاء الجهل فأكمل المأسـاة ، والحنبلية التى بدأت تلـك البداية العظيمة أصبحت شرًا مستطيرًا على الأمة وعـاملاً من أكبر عوامل إسراع الضعف إلى كيـانها ، وسأفصل لك ذلك على قدر ما يسمح بـه المجال وسآتيك بمقارنات من تجارب أمم أخرى تفتح أمامك مجالات للتفكير والتدبر فى أسباب تخلف هذه الأمـة ، لأن تخلفنا نسبى ، أى أننـا أصبحنا متخلفين بالنسبـة لغيرنا ممن سلكـوا غير مسلكنا ، والحقـائق تتكشف بالمقـارنـة بالنظـائر والأشباه وتتضح أكثـر بالمقابلة مع الأضداد والنقائض .

وقبل أن أدخل فى هذا التوجيه الجديد لموضوع أحمد بن حنبل أحب أن أعطيك فكرة عن حيوية أمة العروبة والإسلام فى نفس ذلك الوقت الذى وقف فيه أحمد بن حنبل بها فى بداية الطريق . وكما هى العادة آتيك بهذه الفكرة فى صورة شاهد حى من التاريخ ، فإننا لم نعرف أبدًا كيف نفيد من مواهب أمتنا التى جعلنا تاريخها سردًا مملاً لتواريخ الدول ووقفات عند أعلام صورناهم على أنهم مصابيح مضيئة وسط ظلام ، وما كان الذى حول هذه المصابيح بظلام قط ، وأمتنا كانت وما زالت عامرة بالخير والمواهب والقدرة على العطاء . وقد رأيت أن رجلاً مثل يحيى بن يوسف البويطى لم يقل ثباتًا ولا بسالة عن أحمد بن حنبل ، بل هو احتمل من التعذيب أضعاف ما احتمل أحمد بن حنبل ثم وهب ثواب ذلك كله له ، ثم مات فى سجنه عزيزاً راضيًا ، فوصل بالشهادة فى سبيل الرأى إلى منتهاها ، ومثل يحيى البويطى كثيرون ولكننا ننساهم لكى نقصر المجد كله على رجل واحد . والخبر التالى يدلك على أن عامة أمة الإسلام كانت من ناحية البسالة والإدراك والإحساس بالشخصية على مستوى لا يقل عن أحمد بن حنبل ، كما كانت الأمة المصرية على مستوى سعد زغلول . والفرق هنا أن سعد زغلول وقف الوقفة التى وضعت حدًا للاحتلال ثم سار فى مقدمة الركب فى طريق الاستقلال فتحولت كلمة ألقيت فى قاعة محاضرات إلى حركة قومية كبرى . أصبحت الوقفة بداية طريق فى حين أن وقفة أحمد بن حنبل تحولت إلى بداية ونهاية فى نفس الوقت ، بل أصبحت بداية لتدهور أشد كما سنرى .

وإليك الخبر الذى أريد سياقه لك وهو وارد عند الطبرى (حـ ٦ / ٥٠٢ وما بعدها) والأغانى (١٧ / ٥٤) والنويرى فى نهاية الإرب (٢٢/ ١٥٥ وما بعدها) فى حوادث سنة ١٩٠ هـ/ ٨٠٥ م أيام هارون الرشيد أى فى نفس العصر الذى نتحدث عنه على وجه التقريب : أن الرشيد لما حصر هرقلة Heraclaa (وهى من بلاد الروم فى آسية الصغرى بعد مناطق الثغور الإسلامية فى الطريق إلى قونية) وألح عليهم بالمجانيق والسهام والعرادات ، فتح الباب ذات يوم ، فاستشرف المسلمون لذلك ، فإذا رجل من أهلها كأكمل الرجال قد خرج فى أكمل السلاح فنادى : قد طال مواقفتكم إيانا ، فليبرز إلىّ منكم رجلان ، ثم لم يزل يزيد حتى بلغ عشرين فلم يجبه أحد فدخل وأغلق الباب ، وكان الرشيد نائمًا فلم يعلم بخبره إلا عند انصرافه ، فغضب ولام جنده وغلمانه

على تركهم إنباهه وتأسف لغوته فقيل له : إن الامتناع منه سيغريه ويطغيه ، وأحرى به أن يخرج فى غد ويطلب ما طلب .

فطالت على الرشيد ليلته ، وأصبح كالمنتظر له ، فإذا بالباب قد فتح ، وخرج الرجل طالبًا للبراز ، وذلك فى يوم شديد الحر ، فجعل يدعو أنه يثبت لعشرين منهم ، فقال الرشيد : من له ؟ فابتدره جلة القواد كهرثمة (بن أعين) ويزيد بن مزيد (الشيبانى) وعبد الله بن مالك وخزيمة بن خازم وأخيه عبد الله وداوود بن يزيد وأخيه ، فعزم على إخراج بعضهم فضج المطوعة حتى سمع ضجيجهم ، فأذن لعشرين منهم فقال قائلهم : يا أمير المؤمنين قوادك مشهورون بالنجدة والبأس وعلو الصوت ومدارسة الحرب ، ومتى خرج واحد منهم وقتل ذلك العلج (الرومى) لم يكبر ذلك ، وإن قتله العلج كان وصمة على العسكر قبيحة وثلمة لا تسد ، ونحن عامة ولم يرتفع لأحد منا صوت (صيت) إلا كما يصلح للعامة ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يخلينا نختار رجلًا فنخرجه إليه ، فإن ظهر علم أهل الحصن أن أمير المؤمنين قد ظفر بأعزهم على يد رجل من العامة من أخفاء الناس (مجهول من بين عامة الناس) وإن قتل الرجل فإنما استشهد ، ولم يؤثر ذهابه فى العسكر ، ولم يثلمه (موت) رجل ، وخرج إليه بعده مثله حتى يقضى الله ما شاء . فقال الرشيد : قد استصوبت رأيكم هذا ، فاختاروا رجلًا يعرف بابن الجزرى ، وكان معروفًا فى الثغر بالبأس والنجدة فقال له الرشيد : أتخرج ؟ قال : نعم ! وأستعين بالله تعالى . فقال : أعطوه فرسًا ورمحًا وسيفًا وترسًا ! فقال : يا أمير المؤمنين أنا بفرسى أوثق ، ورمحى بيدى أشد ولكنى قد قبلت السيف والترس . فلبس سلاحه . واستدعاه الرشيد فودعه وأتبعه الدعاء وخرج معه عشرون من المطوعة ، فلما انقض (نزل) فى الوادى قال لهم العلج ـ وهو يعدهم واحدًا واحدًا ـ إنما كان الشرط عشرين وقد زدتم رجلًا ولكن لا بأس فنادوه : ليس يخرج إليك إلا رجل واحد ، فلما فصل منهم ابن الجزرى وقد أشرف (أطل) أكثر الناس من الحصن يتأملون صاحبهم والقرن (خصمه) وقرينه الذى سيبارزه من المسلمين فقال له الرومى : أتصدقنى عما أستخبرك ؟ قال : نعم . قال : أنت بالله ابن الجزرى ؟ قال : اللهم نعم ! فكر له (خرج له) ثم أخذا فى شأنهما فتطاعنا حتى طال الأمر بينهما ، وكاد الفرسان يقومان وليس يخدش واحد منهما صاحبه ، ثم تحاجزا بشىء (أى استتر كل منهما عن صاحبه

بشىء) فزج كل منهما رمحه واحتضن سيفـه فتجالدا مليًا واشتـد عليهما الحر وتبلد الفرسان وجعل ابن الجزرى يضرب الضربة التى يرى أنه يلغ بها فيتقيها الرومى وكان ترسه من حديد ، ويضربه الرومى ضربة معـزر (أى بكل ما عنده من قوة) فلما يئس كل واحد منهما من الوصول إلى صاحبـه انهزم ابن الجزرى ، فدخلت المسلمين كآبة لم يكتئبوا مثلهـا قط ، إنما كانت هزيمتـه حيلة وعطعط المشركون اختيـالاً وتطاولاً وإنما كانت هـزيمته حيلة منـه فاتبعه العلج وتمكن منـه ابن الجزرى فرماه بـوهق (ضربة سيف) فوقع فى عنقه فما أخطأه وركض فاستلبه عن فرسه فما وصل إلى الأرض حتى فارقـه رأسه فكبر المسلمـون أعلى تكبير وانخذل المشركـون ، وبادروا البـاب يغلقونـه واتصل الخبر بالرشيد فصاح بالقواد : اجعلـوا النار فى المجانيق . ففعلوا وجعلوا الكتان والنفط على الحجارة وأضرمـوا نارًا ورمـوا بها السور فكـانت النار تلصق بـه وتأخذه الحجارة وقد تصدع وتهافت فلما أحاطت بهم النيران فتحوا الحصن مستأمنين ..

وصَبَّ الرشيـد الأموال على ابن الجزرى وقوده (أى رفعه إلى مرتبـة القيادة) فلم يقبل التقويد وسأل أن يعفى ويترك مكانه من الثغـر فلم يزل به طول عمره .. وقد أتيت بهذا الخبر على تواليه حتى تـرى بنفسك أن أمة العرب كانت لا تـزال بخير ، فهذا رجل من العامة التى احتقرها أصحابنا أشـد الاحتقار يثبت أنه أقدر وأثبت من كبار القواد ، وأصحاب ذلك الرجل أثبتـوا أنهم أصحاب رأى حكيم ونظر سديـد وحرص على صالح المسلمين شديد ، والمطوعة هم المتطوعون الذين يخرجون للجهاد فى سبيل الله ويقيمون فى الثغور درعاً لأمـة الإسلام وهم لا يطلبون الأجر إلا من الله سبحـانه ، فهم أصحاب إيمان حق وقد رأيت ابن الجزرى يرفض القيادة ويفضل أن يظل مجاهدًا فى سبيل الله ، ونحن إلى يومنا هذا نعرف أمتنا ونعرف أنها لم تخل ولا يمكن أن تخلو من الرجال ذوى الـرأى والشهامـة والنجدة والاحتسـاب وفى جيرتنـا فى المدينة والقـرية وفى أعمالنـا فى الديوان أو المصنـع أو الحقل أو الجامعة والمدرسة وبقية مناكـب الحياة رجال كثيرون من أهل النجدة والشهامة وطيب الخلق والعفة والدين ،وهؤلاء هم الذين وقفوا إلى جانب ابن حنبل ونصروه ، وهؤلاء هم الـذين رفعوه إلى مقام الإمامـة العظمى وجعلوه بطلاً ، ولو ترك الأمر لأنداده من الفقهاء لخذله معظمهم وأسلموه ، وهؤلاء الرجال الصالحون من غمار الناس بالـذات كانوا ينتظرون من ابن حنبل أكثر ممـا أعطى فإن الرجل كان

إيجابيًا متقدمًا الصفوف حتى انتهت المحنة فلما انتهت وقف مكانه وأصبح سلبيًا وقضى بقية عمره زاهدًا متقشفًا ورعًا اضطره المتوكل إلى المجيء إلى « سر من رأى » ليكون فى معيته فذهب ولكنه رفض أن يكون فى المعية وكان يقول : وماذا يريد هؤلاء منى ؟ (يريد الخليفة ورجاله) .

والجواب : أنهم كانوا يريدون أن يعتزوا به ويستروا بوجوده معهم عيوبهم ، ولكن الذين كانوا بحاجة إليه فعلاً كانوا جماهير أمة العروبة ، هؤلاء فعلاً كانوا فى حاجة إلى بطل يسير بهم لا إلى رمز يقف معهم ، ولو كان مصير أمة الإسلام متوقفاً على زاهد متقشف يقوم الليل ويصوم النهار لكان هذا المصير ظلاماً ويأساً كله ، وقد رأينا فى معابد رهبان البوذية فى هضاب التبت رجالاً على الكفر ولكن إيمانهم وتقشفهم وزهدهم فى الدنيا وحفظهم لكتب ديانتهم يروع القلوب ، ولكن الألوف منهم لم تخرج ببلاد التبت عن أن تكون صحراء جرداء ..

هل تذكر قصة مارتن لوثر الذى حدثتك عنه ؟ فهذا أيضاً رجل دين وقد خرج فى شجاعة وكتب احتجاجه على صكوك الغفران وعلى البابوية فأثار اهتمام الدنيا ولو أنه وقف عند هذا الاحتجاج وعاد إلى كنيسته وأقام يصلى ويتعبد لما تحرك فى الدنيا شىء ، ولما كانت هناك تلك الثورة الفكرية الاجتماعية السياسية التى خرجت بأوروبا من ركود العصور الوسطى ووضعتها على أول طريق سيادة الدنيا ، ذلك أن مارتن لوثر بعد أن كتب احتجاجه هذا تطلعت إليه نفوس أهل الهمة والبسالة من أمته الألمانية ، كما تطلعت أمة الإسلام إلى أحمد بن حنبل وهنا أثبت لوثر أنه رجل الموقف ورجل المسئولية فتقدم وأهاب برجال الفضل والنجدة من الأمة فهبوا إليه سراعاً وحركته التى بدأت بتعليق احتجاجه الشهير على باب كنيسة وتنبرج سنة ١٥١٧ م استثارت الهمم وأيقظت القلوب وعندما استدعوه للمناقشة أو قل للمحاكمة فى كنيسة أوجزبورج ١٥١٨ تحرك الناس لنصره وعندما خاف أنصاره عليه من رجال البابا والإمبراطور فى مجمع « ورمز » خطفوه إلى قلعة أمير من المتحمسين لآرائه ، وبدأ لوثر طريقه العظيم وأقبل فى حصنه على العمل إقبالاً يروع النفس ، فإلى جانب ما ذكرنا من ترجمته الإنجيل والعهد القديم خرج إلى الميدان وأثبت أنه رجل الموقف والمسئولية وابن بجدتها كما نقول : وكتب خطابه المشهور إلى أشراف الشعب الألمانى An Ecn Christlischen

A Del Deutscher Nation وبينما خذل ابن حنبل أهل النجدة من رجـال الأمة الذين تطاولت أعناقهم إليه تقـدم لوثر غير هياب وقاد حركة إيقـاظ الفكر الأوروبى كله ونبه الشعب الألمانى إلى كيـانه ودوره ، وسجل لـوثر اسمـه أول رجال النهضـة فى أوروبا . وأوروبا ـ أيها الأعزة لم تبلغ إلى ما هى فيه اليـوم مصادفة ولا فى سواد ليلة ـ إنما هى بناء ضخم بنته حفنـة من البواسل وأصحاب المواهب حجـرًا حجرًا وأعلوه دورًا دورًا ، وأوروبا ولدت أمريكا واستراليا وسادت الـدنيا .. أتدرى ماذا كانت نتيجة موقف أحمد ابن حنبل عندما وقف فى أول الطريق ؟ لقد ازداد تدهور الخليفة المتوكل وحواشيه حتى أصبح من أسوأ وأفسد من عرف التاريخ من الخلفاء ، والجماهير التى كان يستطيع أن يقـودها فى طـريق البناء تحولت إلى جماهير تخريب ، وحجـر على الفكر ومطـاردة لكل صاحـب رأى ، لقد حسبت الجماهير أن الحنبلية معنـاها الجمـود ؛ لأن أحمد بن حنبل وقف وجمد وتجمعوا عصابات فى بغداد عـرفت بالحشوية أصبحت تهاجم كل من قيل إنه يخالف ابن حنبل وتقتله وتنهب داره .

لقد نجا أحمد بن حنبل وحده ، أما نحن فغرقنا ؛ لأن الأمة التى كانت تعانى بدايات المرض أصيبت بنكسـة ، والمريض إذا انتكس ولم يجد من يعـالجه تـدهـور وسـار إلى طريق الموت والبـداية الطيبة أصبحت نهاية سيئـة وأنت عندما تسأل : مـاذا دهى أمة العرب ؟ فهذه بداية الجواب وسآتيك فى الفصل التالى بما يزيدك بصيرة .

* * *

كان أحمد بن حنبل عمره كله رجلاً متقللاً من الدنيا ، وكان قبل المحنة يجلس مع أصحابه ويقرأ على تلاميذه ، أو يذاكر أهل الحديث فيما جمعوا منه ، ويناقشهم مع الصبر الطويل ، وكان العصر كله (١٥٠ ـ ٢٥٠ هـ / ٧٦٧ ـ ٨٦٤ م) أزهى عصور جمع الحديث وكتابته ، وكان أحمد بن حنبل رابع أربعة اجتهدوا فى جمع الحديث فى ذلك العصر ، والثلاثة الآخرون هم : محمد بن إسماعيل البخارى ، وإسحاق بن راهويه ، وأبو عيسى الترمذى ، ولكنه بعد المحنة تنسك واعتزل وتجهم للدنيا وواصل الصيام ، فكان يسرد الصيام الأيام العشرة لا يأكل فيها شيئاً حتى هزل وضعف واعتل ، وما أمر الله ورسوله بالزهد أو سرد الصيام ولكنها رهبانية فرضها أولئك الرجال على أنفسهم فأضروا بها وبالناس أيضاً . وأحمد بن حنبل الذى كان قبل المحنة من أيسر الناس فى فتاواه ، أصبح بعدها لا يطيق سماع أحد وإذا كان هذا نتيجة المحنة التى مر بها وأثرًا من آثار صيامه وزهده فى الطعام فإن الله لا يرضى أن يطول صيام الرجل حتى يعتل بدنه .

وإذا كان الناس فى حاجة إلى فقه أحمد فقد كانوا أحوج إلى وجوده بينهم ورؤيته يروح ويغدو ويلقى درسه ويأكل ويشرب ، فإن الزمان كان قد مال ميلاً شديدًا واحتاج الناس إلى من يعلمهم كيف يشقون طريقهم وسط المتاعب ، ومهما حدث فقد كان ولابد أن تعيش أمة الإسلام ليعيش بها الإسلام ، وقد رأينا فى حديثنا الماضى كيف أن الأمة كانت فى عافية ما تزال ، فهى تقبل على الجهاد عن عزيمة واستعداد للشهادة عظيم ، فما بالك برغبتها فى الحياة الآمنة الرخية ، وقد خلق الله الناس ليعيشوا لا ليموتوا ، والدين لهذا ينبغى أن يكون طريقاً إلى الحياة الفاضلة ودليلاً لها ولا يصح قط أن يتخذه الناس طريقاً إلى الموت ، والفقه ينبغى أن يكون منهاج حياة لا سبيلاً إلى الموت ، وكتب الفقه لا بد أن تكون كتب حياة لا كتب موتى ، جاء فى سيرة أحمد بن حنبل : جاء « الوزير يحيى بن خاقان يزور أحمد بن حنبل ــ فجعل يخوض فى الطين فى زقاق أحمد حتى بيته ، وعلى البيت ستر هو قطعة خيش ، أما صاحب البيت فعليه كساء مرقوع فأقرأه سلام أمير المؤمنين (المتوكل) وأنبأه أن يسأل الله الدعاء له وأنه بعث إليه ألف دينار

يفرقهـا على ذوى الحاجات فلم يقبلها (رواه عبـد الحليم الجندى ، أحمد بن حنبل ص ٤٤٦) . فأمـا رفض مال السلطـان فقد فهمنـاه ، فما معنى هـذا التعذيب كلـه للنفس والبدن ، ألم ينه رسول الله ﷺ عن مثل ذلك صـاحبيه سعيد بن زيد بن نفيل ، وعثمان ابن مظعون ، واقرأ هذا الخبر من سيرة ابن حنبل يرويه الحافظ الذهبى : وعن المروذى قال : أنبهنى أبـو عبد الله (أحمد بن حنبل) ذات ليلة وكان قـد واصل (الصيام) فإذا هو قاعد فقال : هو ذا يـدار بى من الجوع (أى إنه كان يشعر بدوار) فأطعمنى شيئاً ، فجئته بأقـل من رغيف فأكله قـال : لولا أنى أخـاف العون على نفسى ما أكلـت ، وكان يقوم من فراشه إلى (المخـرج) الباب فيقعد يستريح من الضعف والجوع ، وحتى إنى كنت لأبل الخرقة فيلفهـا على وجهه لترجع إليه نفســه حتـى أوصى (كتب وصيته) مــن غيــر مرض (بتحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر ص ٧٠) .

ففيم والله كان عـذاب النفس هذا ؟ والدين يسر لا عسر ، وكيف يأتم النـاس برجل يموت تحت أعينهم وهم أحـوج إلى رجل يعيش فيهم ليتعلموا منه كيف يعيشـون حياة فـاضلة ، واسمع إلى أحمد بن حنبل يقـول في سيرته التى رواهـا الحافظ الذهبي بعـد السند ، سمعت أحمد بن حنبل يقول (ص ٣٠) : أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه الصحابة وترك البدع وترك الخصومات والجلوس مع أصحاب الأهواء وترك المراء والجدال ، وليس فى السنـة قياس ولا يضرب لها الأمثـال ولا تدرك بـالعقول ، والقـرآن كلام الله غير مخلـوق ، وإنه من الله ليس ببائن منـه ، وإياك ومناظرة من أحـدث فيه .. فكأن السنة هنا هى الجمود فإن الزمان لم يتوقف بعد عصر الصحابة ولا بد أن ظروفاً جديدة تجىء ولا بد للمسلمين من أن يعيشوا زمـانهم فى حدود ما أمر الله به ، وما نهى الله عنه ، والبدعة فى عرف فقهـاء تلك العصور هى رفض الاعتراف بأى شىء ظهر بعد العصر النبوى فكيف لا يستخرج الناس من الأحكام ما يحلون مشاكلهم على ضوء من القـرآن والسنة وكيف يقـال : ليس فى السنـة قياس إذا كـان علينا أن نلتمس لأنفسنـا سبيلاً فى ظروف تتجدد كل يوم فى ضوء القرآن والسنة ؟ وكيف لا تضرب للسنة الأمثال إذا كانت الأمثال من فعل الرسول ﷺ وأصحابه نماذج يحتذيها الناس فى حل مشاكلهم التى تظهر كل يوم وتفـرض نفسها مع ظروف الزمـان المتغيرة ، قلنا لا معنى أو فائدة تـرجى من الجدل فى أشياء لا طـائل وراءها كـالتساؤل عما إذا كـان القرآن قـديماً أو مخلوقاً ، فإن القرآن هو كلام الله وهو بين أيدينـا نؤمن بكل كلمة فيه ونأخذ بما يأمرنا

به ونقف عند ما ينهانا عنه ، ونستضيء بهداه فى حل كل ما يلقانا من مشاكل كل يوم ، وهـذا حسبنا وأى خير يتأتى من السـؤال عما إذا كانت صفـات الله هى ذات الله أو هى شىء ينفصل عنها فإن الله سبحانه هو الحى الخالق ولا إله غيره وهو ربنا حسبنا وهو القوى العزيز العليم الخبير الرحمن الرحيم إلى آخر أسمائه الحسنى التى وصف نفسه بها ، فما حاجتنا إلى التساؤل عما وراء ذلك ، وما عـدا ذلك فهباء وسفسطة ، وفى حدود هذا كله لا بد أن نعيش ، وأئمة الإسلام ينبغى أن يسيروا بنا فى طريق الحياة لا فى طريق الموت ، وأحمد بن حنبل قبل المحنة كان رجلًا مستبشرًا يقعد للطلاب ويصبر على الدرس فإذا آنس من أحد من إخوانـه أو تلاميذه علماً صحيحاً وفطانة وأمـانة أخذ عنه ، وأنت تقرأ مسنده فتجـد فى اختياراته من الأحاديـث ذكاء وحسن تقدير واستقـامة ميزان لا تجدها عنـد غيره ، وأنا ألتمس فى مسنده الأحـاديث ذات المعنى الحضارى فأجـد منها عنده أكثر مما أجد عند غيره ، هذا إلى عنايـة تامة بالنظافة وحسن المظهر ، قال ابن أبى حاتم : ذكر عبـد الله بن أبى عمر البكرى قال : سمعت إسماعيل الميمـونى قال : ما أعلم أنى رأيت أحداً أنظف ثوبًا ولا أشد تعاهدًا لنفسه فى شاربه وشعر رأسه وشعر بدنه ولا أنقى ثوباً وشدة بيـاض من أحمد بن حنبل (سيرة أحمد بن حنبل للحافظ الذهبى ص ٢٥) فتغير ذلك كله من بدايـة المحنة إلى نهاية حياته ، ولم تبق فى ذاكـرة الناس منه إلا الرجل الجهم الصارم الزاهد فى الدنيا والناس والمتفرد بنفسه ، وكان الناس فى حاجة إلى عكس ذلك منه ، فإن الزمان كان فى تدهـور والأحوال تسوء والأمة كانت بحاجة إلى من يقودها فى طـريق الحياة والقوة والخلاص ، وأيام الواثق والمتـوكل بالذات (من ٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ ومن ٢٣٢ هـ ـ ٢٤٧ هـ / ومن ٨٤٢ ـ ٨٤٦ م ومن ٨٤٦ إلى ٨٦١ م) كانت أيام محنة أى محنة للأمة كلها ، لقد كـان بناء أمة لا تزال بخير ، والقلوب عامرة بالخير والاستبشار والقوة والاستعداد للوقوف فى وجه الظلم والتدهور والفساد وكان الشعب العربى القوى فى حاجة إلى زعيم يقـودهم فى طريق الإصلاح فلم يجدوه وظهر أن أحمد لم يكن رجل الموقف ، وليس هذا عتبًا منا عليه فهـذا هو طبعه واستعداده والتاريخ علم حقائق لا تمنيـات ، فقد كان رجل آخرة لا دنيـا وآخرة ، ومن مأثور كلماته ، « أمـا بعد فإن الـدنيـا داء والسلطـان داء والعـالم طبيب فإذا رأيت الطبيب يجر الـداء إلى نفسـه فاحذره والسلام » فى مثل هذا الموقف قال مارتن لـوثر ما معناه : البابا داء والامبراطور داء والعالم طبيب ولهذا فأتصدى للعلاج وسأخوض المعركة لكى يعيش الناس ، وكانت

الظروف فعلاً محتاجة إلى زعيم يقود النـاس ، فقد كان المعتصم قـد أسقط العرب من الديوان أى أخرجهم من جيوش الدولة ، وهذا أمر عجيب لم يسمع بمثله ، وهل تتصور مثلاً أن يصدر قرار بحرمان المصريين من الخدمة العسكرية فى جيش بلادهم ، وتقصر على غير المصريين وكـان هذا القـرار شرًا من بـدايته ؛ لأن العـرب عصب الـدولة وبنـاة مجدها ، وإذا كـانوا قـد تغيروا على الخلفاء ، فإن ذلك كـان بسبب مظالم هـؤلاء وسوء تدبيرهم للأمـور ، ولم يكن العلاج إخراج العرب من الجيـش وشراء الألوف من الأتراك واستخدامهم فى الجيش وشئون الدولة ؛ لأن هـؤلاء مرتزقة أجلاف لا تصلح بهم دولة عربية فكانت النتيجة أن العرب المحـاربين الذين طردوا من الجيش تحولوا إلى ثوار على الدولة ، وقـام فى شمال الجزيرة والحجاز بنو هلال بن عامـر بن صعصعة وبنو سليم ابن منصور ، وتولى رجل يسمى أحمد بن نصر الخزاعى ثـورة عرب بغداد على الخلافة وجندها ولم يكن هذا الرجل جاهلاً ولا جلفـاً إنما كان عربياً ثائرًا ذا رأى وعزة وكرامة ، وكان على صلة بنفر من أكابر رجال العلم والحديث من أمثال يحيى بن معين ، وابن أبى خيثمـة أحمد بن زهير بن حرب ومـن فى طبقتهم ، وكان هـذا الـرجل يقول في الخليفـة الواثق الذى خلف المعتصم هذا الخنزير أو هذا الكافر ، وكان والد هذا الرجل ممن قاموا ضد المأمـون عندما قتل أخـاه وأقاموا شبـه حكومة ببغـداد عندما كثـر اللصوص بها وعندما دخل المأمون بغداد سنـة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م سكنوا ورجوا أن يكون منه خير ، واجتهـد هذا الـرجل وأحمد بن نصر بن مالك الخزاعى فى الأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكر وأنكر القول بخلق القرآن (سنة ٢٣١ هـ) ولكن جند الخليفة الواثق قبضوا عليه وعقد الخليفة مجلساً للنظر فى أمره ورأس المجلس أحمد بن أبى دُوَاد القاضى وأنصاره فقال واحـد منهم : هو حـلال الدم . وقـال آخر : اسقنى دمـه يا أمير المؤمنين ، وانتهى الأمر بأن نهض الخليفـة الواثق وقتل الـرجل حسبة لله تعـالى (الطبرى ٩ / ١٣٥ وما يليها) .

واتسع نطاق ثورة العرب وشملت ديار كندة وربيعة وبنى كلب بن وبرة فى الشام ، ولكنهم كانوا محتاجين إلى زعيم يقودهم فلم يجدوا ، وانكسرت شوكة الثائرين وانتهى أمرهم على يد رجال الخليفة وتلك هى الظروف التى كان الناس فيها محتاجين إلى زعامة رجل من طـراز رجال العصر الـراشدى ، وكـان أصحـابنا رؤسـاء الأمة وهم الفقهـاء

والعلماء يرون هـذا كله ولا يشعرون أنـه يفرض عليهم واجبًا حيـال أولئك الناس إنما حسبهم أن يقرأوا على النـاس أخبار الصحابة وصـلابتهم فى الحق وجهادهم فى سبيل الحق والإسلام ، ولـو وقف واحد منهم محتجًا على هـذا الفساد كما وقف مارتن لـوثر لوجد ألوف الرجال مستعدين لنصرته وإقامة ميزان العدل وتصحيح مسار الدولة كله ، وكما قام أنصـار لوثـر باختطافـه وحمايته فتشجع وسـار فى طريقـه ووقعت الثورة الحاسمة على ركنى الفسـاد إذ ذاك وهما البابويـة والامبراطورية ، فقـد كان من الممكن جدًا لواحد من هؤلاء الفقهاء الـذين كانوا لا يكفون عن القول بأن الإيمان قول وعمل لم يشعروا أن هنا واجباً يناديهم وتـركوا الفساد يستشرى وضاع الأمل . فهل تتعجب أن ينضم بنو هلال بن عامر بن صعصعة وبنو سليم بن منصور إلى حركة القرامطة وهى حركة شيعية مخربة قامت واشتد بلاؤها فى شمال جزيرة العرب خلال القرن الهجرى الرابع وارتكب أصحـابها من الأفاعيل مـا لا يصدق حتى إنهم هاجموا مكـة واقتحموا الحرم الشريف وسرقـوا الحجر الأسـود ومضوا بـه إلى البحرين حيث ظل فى حـوزتهم قرابة العشرين عاماً حتى استرده منهم الخليفة الفـاطمى العزيز الذى خلف المعز لدين الله فى مصر ، وجماع القول فى أحمد بن حنبل ما قاله فيه أبو داود صاحب كتاب السنن : كانت مجالس أحمد مجالس الآخـرة لا يُذْكَرُ فيها شىء من أمـر الدنيا ، ما رأيتـه ذكر الدنيا قط .

وإذا كان أهل السياسة قد خرجوا عن المنهج خروجًا تامًا وانصرف الصالحون من أهل العلم إلى الآخـرة فمن أين يمكن أن ننتظـر الإصـلاح ، وهل الإسـلام دين آخـرة فحسب ؟ وهل سنة رسول الله ﷺ هى مباعدة الـدنيا وإهمال شئونها وتوجيه الجهود جميعًا إلى الآخـرة ؟ إذن ففيم كان جهـاده ﷺ وصبره وشجاعتـه وإقبالـه على الناس يعلمهم ويـؤدبهم ويدلهم على طـريق الصلاح فى الـدنيا إذ لا صـلاح لآخرة النـاس إلا بصلاح دنياهـم ؟ وكيف ننتظر من الناس الصلاح والتقـوى إذا كانوا جياعًـا عريانين مهدديـن بالأخطار والمظـالم ليل نهار ، بل من يـدلهم على طريق الخير إذا كان أعـاظم الفقهاء قد تحولوا إلى أهل عبادة منقطعين عن الناس وكأنهم رهبان بوذيون فى معابد ؟ ومـاذا ينفع الناس أن يقـول رجل يسمى الخلال : سمعت رجلاً من خـراسان يقـول : عندنا أحمد بن حنبل يرون أنه لا يشبه البشر ، يظنون أنه من الملائكة .

كان أحمد بن حنبل رجلاً عظيمًا ومـذهبه جليلاً ، ولكن التطبيق لم يكن سليمًا فلم يستطع المذهب القيام بحركة نافعة للناس إلا بعـد زمن طويل عندما تنبه محمد بن عبد الوهاب فى أواخـر القرن الثامن عشــر الميلادى إلى أن العلم لا تتم فـائدته إلا بالعمل ، ولا صلاح لآخرة الناس إلا بصلاح دنيـاهم ، فانضم إلى الشيخ الإمام محمد بن سعود والاثنان معاً قـاما بالحركة الـوهابية التى كانت خيرًا عظيمًا للعـرب والإسلام جميعاً ، وكل ما نراه اليوم من معالم الرخاء والنهوض والعمران وإصلاح أحوال الدنيا فى جزيرة العرب إنما هـو نتيجة للتطبيق العملى لمبـادىء عظيمة وضعهـا الفقهاء وانتهت ذروتها عنـد أحمد بن حنبل ، ولكن أحمد وأصحـابـه لم ينفعوا النـاس فى أيـامهم ، وصـارت الحنبلية عنـد العلماء خشونة وجمودًا ، يقـول فى وصفهم أبو الوفـا بن عقيل : هم قوم خشن تقلصت أخلاقهم عن المخـالفة ، وغلظت طبـاعهم عن المداخلة وغلب عليهم الجد وقَلَّ عنـدهم الهزل ، وعريت نفـوسهم من ذل المراءاة وفزعـوا من الآراء إلى الروايـات ، وتمسكوا بـالظاهـر تحرجاً من التأويل وغلبـت عليهم الأعمال الصالحة فلم يـوفقوا فى العلوم الغامضة ، بل وفقوا وأخذوا مـا ظهر من العلوم وما وراء ذلك قالوا : ٱلله أعلم بما فيها من خشيـة بارئها ولم أحفظ عليهم تشبيهًا (رواه عبـد الحليم الجندى ، أحمد بن حنبل ص ٣١٢) .

وهـذه الصـورة انعكست بصورة سيئـة عنـد جماهير النـاس ممن لم يجدوا من يقودهم ويهديهم فتحـولوا إلى قوة مخربـة تهاجم دون رحمة أى إنسان يقال عنـه إنه يفكر أو يبـدى رأيًا يخالف مـا ظنوا أنـه رأى أحمد وما كـان لأحمد رأى ، إنما هو فيما يتصل بـالتطبيق والتصرف ـ رجل نقـل وتقليـد ـ ومن أوائل القـرن الرابع الهجـرى أصبحت بغـداد ضحية لشراذم من جهـال الناس زعمـوا أنهم حنابلة وسماهـم الناس الحشوية ، جعلـوا دأبهم إرهاب الناس والعدوان على كل صاحب فكـرة وقد حدث مثل هذا فى تفاصيل الحركة اللوثرية ، فقـد حدث أن تحمس الجمهور لآراء لوثر وأحسوا أن ثورته تفتح لهم باب الانتقام من ظالميهم من رجال الدين والدولة وظنوه يدعو إلى الثورة على النظـام واستعمال العنف وقادهـم فى ذلك نفر من المتحمسين للـدعـوة اللـوثريـة وانفجرت ثـورة الفلاحين وقامـوا بنهب قصور الأغنيـاء وتخريب المزارع فما كان من لوثر إلا أن تصـدى لهذه الحركة فمضى يطوف بـالولايات الألمانية يـدعو الفلاحين إلى

الهدوء والسلام ونشر فى مايو ١٥٢٥ رسالته المسماة : دعوة إلى السلام Ermahnung Zum Frieden ثم لم يلبث أن أعلن الحرب على العنف ودعـا إلى إيقـاف النهب ونشر رسالتـه المسماة : Wider die Rqrherischen und morderlischen Rotten Der Bauern (رسالة ضـد الجماهير من القتلة اللصوص من الفلاحين) ممـا يعطينا مثالاً عن التصرف السليم الحازم للفقيه العـالم المصلح الذى يعلم أن الـدين للدنيـا والآخرة وأن الإيمان علم وعمل فعلاً لا مجرد كـلام فى كتب تستظهر جموع الحنابلة الحشـوية الجاهلـة التى أصبحت حـربًـا على الفكـر بل على الأمن نفســه ، لأن العلماء تخلـوا عن قيادتها وقصروا فى واجبهم نحوها ؛ ولهذا هـاجمت الجماهير بيت أبى جعفر محمد بن جـرير الطبرى المؤرخ المفسر ٣١٠ هــ / ٩٢٢ م ؛ لأنهم اتهموه بـالزنـدقة ، وفى هـذه الظروف لم يعـد هناك مكـان لفكر أو أى شىء يشبـه الفكر بل نصبـوا أنفسهم حماة للدين على طريقتهم وهواهم وتعدوا على النـاس وضربوهم ونهبوهم (انظر : ابن الأثير فى حوادث سنة ٣٢٣ هـ) .

ولا ينبغى هنـا أن نقصر اللوم على الجماهير ، بل يتحمـل العلماء جانبـاً كبيرًا من المسئولية ؛ لأنهم لم يقوموا بواجبهم من التعليم والتوجيه وتركوا السلاطين فى فسادهم من ناحيـة وعامة النـاس فى جهلهم من ناحيـة أخرى فازداد السـلاطين فسادًا وازداد العامة جهلاً .

* * *

فى هــــذا الجـو الخانق ظهـر الأشعـرى وهـو أبـو الحسن على بن إسماعيل بن إسـحاق الـذى ينتهى نسـبه إلى أبى مـوسى الأشـعرى صــاحب رسـول الله ﷺ وهـو رجـل واســـع الذكـــاء عظيـم العلم ، ولكن حظه أراد لـه أن يشب ويـدرس ويتصــدى للتعليم فى عصر غلب عليه الجمـود فقد ولد سنـة ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م ، أى بعـد وفاة أحمد بن حنبل بتســع عشرة سـنة ، وقـد اتجه الفكـر الإسلامى كلـه إلى الماضى وعـاد أدراجه إلى الـوراء كأنما هو قـد وصل إلى آخـر طريق الفكـر البشرى ثم انكفأ عائدًا إلى الماضى والحاضر كلـه لم يعد له وجـود عند ابن حنبل بعـد المحنة وزال

عنده كل مفهوم للمستقبل ، وأصبح هَمُّ المفكرين هـو العودة إلى الوراء بحثًا عن العصر الراشدى وهيهات .

ولد أبو الحسن الأشعرى ونشأ فى البصرة ، وكانت البصرة ما زالت موطن الاعتزال والمعتزلين وكان شيخهم أيـام شباب الأشعرى هو أبو على الجبائى وخلفـه فى الرياسة ابنه أبو هاشم الجبائى ، وعلى هذين درس الأشعرى وكـان شابًا ذكيًا قوى الذاكرة فلم يلبث أن ظهر أمره بين المعتزلة وأصبح من خيرة شبابهم ، ثم من كبار شيوخهم ، وكان المعتـزلة بعـد زوال عصر سلطـانهم فى عصر الخليفـة المتوكل قـد انطـووا على أنفسـهم وتدهـورت آراؤهم ومناحى تفكيرهم وتمادوا فى السفسطة والجدل حتى سألـوا أسئلة بالغة السخف وردوا عليهـا بأجوبة أسخف مثل سؤالهم : هـل يظل رسول الله رسولاً بعد موته أو تنقطع عنه صفة الرسول بموته ؟ ووقف بعضهم عند قوله تعالى ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْـجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (الرحمن ٥ / ٢٧) فقال : إذن فعندما تقوم القيامة ويفنى الكون لا يبقى إلا وجه الله لا غير ، أما بقيـة الله فلا تبقى إلى غير ذلك من المسائل التى تدل على تدهور شديد فى التخريف ، فما هذا بفكر على الإطلاق .

وبين هؤلاء المعتزلـة عاش أبو الحسن الأشعرى أربعين سنـة كان فيها من أئمتهم وكبار رجالهم ، ولكنـه عندما تغير الزمـان وانكشفت حقائق الاعتزال وأقـوال أصحابه وانصرف معظم المسلمين عنهم وانحصرت آراؤهم فى دوائر مقفلـة معظمهـا فى البصرة أعاد الأشعرى النظر فى أمر نفسه فبدا لـه أن الاستمرار فى القول بآراء المعتزلة هباء لا يتحصل منه شىء ، وأن الخير فى أن يعود إلى السنة وأهلها ليخرج من الحفرة التى حكم على نفسه بالعيش فيها ، وقرر أن يعلن الانفصال عن الاعتزال والعودة إلى السنة ولكنه فعل ذلك بطريقة لا تبعث على الثقـة ، فانقطع عن الناس خمسة عشر يوماً خـرج بعدها واتجه إلى المسجد وصعـد المنبر وقال : معاشر النـاس إنى إنما تغيبت عنكم فى هذه المدة لأنى نظرت فتكـافأت عندى الأدلـة ولم يترجح عندى حق على باطـل ولا باطل على حق فاستهديت الله تبـارك وتعالى فهدانى إلى اعتقاد مـا أودعته فى كتبى هذه ، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقده كما انخلعـت من ثوبى هذا ، وانخلع من ثوب كـان عليه ورمى به ودفع الكتب إلى الناس والخبر على هـذه الصورة يدعـو إلى الشك ؛ لأنه يفهم منـه أن أبا الحسن على بن إسماعيل الأشعرى عنـدما اعتـزل الناس أسبوعين ألَّف خـلالهما كتباً

جديـدة فى الفقه على مذهب أهل السنـة ، وكم كتاب والله يؤلف الإنســان فى خمسة عشر يومًا ؟ ثم إن خلعه ثوبه القديم المعتزلى لا يخلـو من ظرف فإن هذا الثوب كان معتزليًا ، ولـم يقل لنا صاحب الخبر إن كان أبو الحسن قد لبس أمام الناس ثوباً سنيًا .

وهناك أخبار تقول : إن الأشعرى رأى رسول الله ﷺ فى منـامه فشكا إليه شكوكه فى مسائل الاعتـزال فقال لـه رسول الله ﷺ : عليك بسنتى . قـال :فانتبهت وعـارضت مســائل الكلام بما وجـدت فى القرآن والأخبـار (أحاديث الـرسول وأخبـار الصحابـة والسلف الصالح) فأثبته ونبذت ما سواه وراء ظهرى وإذا كان الأشعرى قد ولد سنة ٢٦٠ أو ٢٧٠ هـ فيكون هذا التحول الحاسم قد تم سنة ٣٠٠ أو ٣١٠ هـ / ٩١٢ م أو ٩٢٢ ، أى قبل وفاة الرجل بأربع وعشرين أو أربع عشرة سنة ، لأنه توفى سنة ٣٢٤ هـ / ٩٣٦ م ، ويقول ابن خلكان فى المادة التى اختصه بها ـ وهى نـاقصة جدًا ـ وكان أبو الحسن يجلس أيـام الجمع فى حلقـة ابن إسحـاق المروزى الفقيـه الشـافعى فى جـامع المنصور ببغداد (٢ : ٤٤٦) .

وأراد الأشعرى أن يؤكد للناس صدق تـوبته فأعلن أنه يعود إلى السنة على مذهب الإمام أحمد بن حنبل فقال : « ديانتنا التى نـدين بها هى التمسك بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ وما روى عن الصحـابة والتـابعين وأئمة الحديث ، ونحن بـذلك معتصمون ، وبما كان عليه أحمد بن حنبل ـ نضر الله وجهه ورفع درجته وأجـزل مثوبته ـ قائلون ، ولمن خالف قوله مجانبون ، لأنه الإمام الفـاضل والرئيس الكامل الذى أبان الله به الحق عند ظهور الضلال » .

وذلك كان خطأ الأشعـرى الأول فإن الناس لا تصدق هذا التحول الكـامل ـ ١٨٠ درجة كما يقولون ـ دفعة واحدة ، والحنابلة بالذات كانوا من أشد الناس شكًا وريبة فى غيرهم فرفضوا توبته ولم يقبلوه ورموه عن قوس واحدة ، والخطأ الثانى أن الرجل عاد إلى السنة على طريقة المعتزلة أى أنـه بعد أن كان متكلمًا معتزليًا أصبح متكلمًا سنيًا أى أنه أراد أن يدفع عن السنة ويؤيدها بـالمنطق والحجة والجدل مع خصومها ، والحنابلة لا يحبون الجدل ولا يرضون أن يكون مـذهبهم موضع جدل ، إنما هو التسليم المطلق بلا سؤال أو مناقشة كما رأينا ، ولهذا فقد قال فيه أبو الفرج ابن الجوزى وهو من أئمة

الحنابلة : إن الأشعرى ظل على مذهب المعتزلة زمانًا طويلاً ثم تركه وأتى الناس بمقالة (رأى) خبط بها عقائد الناس .

وقد أخطأ الحنابلة فى موقفهم هذا من الأشعرى فقد كان الرجل بعد تحوله صحيح الاعتقاد فى السنة وكلامه كما يتجلى فى كتابه الأشهر « مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين » يدل على ذكاء واسع وفهم دقيق وإلمام بالإسلام ومذهب أهله عظيم ، ومذهبه فى التدليل على حقيقة الإسلام وصحة عقائده يعجب الرجل الذكى الذى يريد أن يسند إيمانه إلى فكر ومنطق ، ولهذا فإن الناس مع الزمن الطويل تبينوا فضل الأشعرى وما يمتاز به بين رجال الفكر الإسلامى من صفاء ذهن واستقامة منطق وصحة اعتقاد ، ولكن ليس من الصواب أن يقال : إن الأشعرى إمام من أئمة السنة لأنه لا يرقى قط إلى مستوى الأوزاعى أو مالك بن أنس أو أبى حنيفة أو أحمد بن حنبل إنما هو مفكر صاحب طريقة فى المنطق والاستدلال ، ومن سوء حظه أنه جاء بعد انحدار شمس الفكر الإسلامى إلى المغيب ، وقد استدار الناس للشمس وكروا عائدين باحثين عن الغد فى الأمس ، فلم يكن لدعوته صدى يذكر وإن كنا نحن نجد فى كلامه متعة وفائدة لأننا على طريقته نحب أن نستند إلى العقل إلى جانب العاطفة ، وهذا المذهب أشبه بالإسلام وأليق بالمسلم ، لأن القرآن ـ كلام الله ـ كتاب عقل وفكر ودعوة إلى الإيمان بالنظر والتأمل والاستدلال .

ومن أكابر تلاميذ الأشعرى الباقلانى وهو أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر ، ولم يذكر أحد لنا سنة مولده أو سنة وفاته ولكنه على أى حال ظهر وعرفه الناس وأخذوا عنه خلال القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى وقد اشتهر بآرائه فى مجلس عضد الدولة البويهى أمير الأمراء وصاحب الأمر فى دولة الخلافة فيما بين شوال ٣٧٢ هـ/ أبريل سنة ٩٨٣ حتى رمضان سنة ٣٧٦ هـ / يناير ٩٨٧ م ، وكانت عاصمته شيراز لأنه كان رجلاً فارسيًا ديلمياً شديد العصبية لجنسه واسمه فناخسرو ويلقب بأبى شجاع ، وكان حاكماً ظالماً متطاولاً على أموال الناس ودمائهم ، وسيرته تدل على أنه كان لصًا بل قاطع طريق ، ولكن ذلك لم يمنع شاعرنا العظيم أبو الطيب المتنبى من أن يمدحه بقصيدة يقول فيها :

وقـــد رأيت الملـــــوك قـــاطبـــة	وسرت حتـى رأيت مـــــولاهـــا
ومن منـــايـــاهـم بـــراحتــــه	يأمـــرهـــا فيهـم وينهـــاهـــا
أبـــا الشجـاع بفـــارس عضد الـــ	دولـــة فنـــاخسرو شهـــانشـــاهـــا
أســـاميـــا لم تـــزده معـــرفـــة	وإنما لـــــذة ذكـــــرنـــــاهـــا

والباقلانـى مشهور عندنا بكتاب « إعجـاز القرآن » وهو كتاب جيـد يدل على علم واسع وفكر رائق ولكنـه لا يكفى لتبرير المكانـة الكبيرة التى يحتلها الرجل فى تـاريخنا الفكرى ولكنه دون شك كتاب عظيم ، بمعيار عصره وفى حدود مستوى العلم فى بدايات عصر الركود والجمود ، وإليك دليلاً على عقلية الفقهـاء فى بدايات عصر الجمود هذا فقد كان من شيـوخ الباقلانى رجل يسمـى أبا الحسن الباهلى البصرى وهـو من أصحاب الأشعرى أى أنه معدود فى جملة المتفتحين فاقرأ عنـه هذه الحكاية التى يحكيها تلميذه أبو بكر البـاقلانى الذى نحن بصدده « كنت أنا وأبو إسحـاق الأسفراييني وابن فورك معـاً فى درس الشيخ الباهلى وكـان يدرس لنـا فى كل جمعـة مرة واحـدة ، وكان منـا فى حجاب يـرخى الستر بيننا وبينه كى لانـراه وكان من شـدة اشتغاله بـالله مثل واله أو مجنون لم يكن يعـرف مبلغ درسنا حتى نذكـره ذلك » ، ويعلق الأستاذ الجليل الشيخ السيد أحمد صقر محقق (إعجاز القرآن الطبعة الرابعة القاهرة ١٩٧٧ ص ١٨) ، ولم يكن الباهلى يحتجـب عن هؤلاء الثلاثـة فقط ، بل كان يحتجب عن كل النـاس حتى عن الجارية التى كانت تخدمه .

وقد سأله تلاميذه فى أول عهدهم به عن سبب إرساله الحجاب بينه وبينهم فقال : إنكم ترون السـوقة وهم أهل الغفلة فترونى بـالعين التى ترون أولئك بها ، فتأمل والله هذا الشيخ الـذى بلغ به الغـرور أن يرفض أن يراه تـلاميذه بعيـونهم التى يرون بها السوقة وهم عـامة الناس مثلى ومثلك فيندس بهاء خلقته الجميلـة ثم يقولون لك إنهم أهل سنة وعلم ودين ، ترى ماذا كان الرسـول ﷺ يقول فى هذا الرجل الذى فاق بغبائه وغفلته أئمـة الكفر فى مكـة الذين رفضوا الجلـوس إلى جانب المستضعفين ممن كـانوا يرون أنهم سوقة منحطون عنهم من أمثال خباب بن الأرت الحداد وبلال الحبشى .

إلى أين وصلنا ؟!

أَبُو حَامِد الْغَزَالِيُّ
يَفْتَحُ لِلنَّاسِ أَبْوَابَ عَالَمِ الْقُلُوبِ

فى الطريق إلى الغزالى نلقى علمًا من أعلام الفكر الإسلامى جدير منا بوقفة طويلة ـ لولا ضيق المقام ـ فقد كان آية فى صدق الإيمان وسعة العلم ودقة الفهم ، وهو الجوينى عبد الملك بن عبد الله بن يوسف المكنى بأبى المعالى والملقب بإمام الحرمين (١٨ محرم ٤١٩ ـ ٢٥ ربيع الآخر ٤٧٨ هـ / ١٧ فبراير ١٠٢٩ ـ ٢٤ أغسطس ١٠٨٥ م) الذى كان بحق أعظم من ظهر من فقهاء الشافعية قبل أبى حامد الغزالى ، وهو بالفعل أنجب أبناء المذهب وأكثر من أفاد من الإمام الشافعى في علم الأصول ، وهو صاحب تآليف كثيرة أهمها « كتاب البرهان فى أصول الفقه » وهو الكتاب الثانى فى تاريخنا الفكرى الذى يحاول أن يضع للمسلمين منهجًا فى التفكير العلمى فى نفس الخط الذى سار عليه الشافعى فى « الرسالة » ، وعندما نقرأ كتاب « البرهان » نعجب بأبى المعالى إمام الحرمين الجوينى ، ولكننا نعجب أكثر بمحمد بن إدريس الشافعى الذى قال فى الرسالة وتقع فى أقل من مائة صفحة ـ أكثر مما قال الجوينى فى ستة أضعاف هذا القدر أو سبعة ، وهنا ـ عندما نضع الكتابين أحدهما إلى جانب الآخر ـ نلمس بيدنا معنى الإمامة فى العلم ومن يستحقها عن جدارة بها ، ويتجلى لنا الشافعى فى مكانه الصحيح وقدره العظيم .

ولد الجوينى فى نيسابور وشَبَّ ونشأ أيام السلطان السلجوقى طغرل بك ، وقد انقضت أيام البويهيين وما عرفه أهل العراق وفارس فى أيامهم من بشاعات وشناعات ، وجاء السلاجقة أهل السُّنة فعز الشيوخ فى أيامهم واستعادت الخلافة العباسية بعض مكانتها الذاهبة ، وظهر جيل جديد من شيوخ السُّنة منهم :أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقى ، وأبو إسحاق إبراهيم بن محمد الأسفراييني ، وأبو نعيم الأصفهانى ، وأنشأ الوزير نظام الملك المدرسة النظامية فى نيسابور ، وأنشأ أخرى على مثالها فى بغداد ، وطاف الجوينى بمراكز العلم يتعلم ويدرس حتى ألم بكل علوم أهل السُّنة فى عصره وظهرت منه نجابة وامتياز وأصبح فى طبقة الشيوخ وهو بعد فى بداية كهولته ، وجلس للتدريس فى المدينة ومكة ، ومن هناك اشتهر أمره وحمل لقب إمام الحرمين وأقبل على

التأليف وكان أحسن ما ألف هو كتاب « البرهان » وقد أراد أن يضـــاهى به الشافعى فى « الرسالة » وقد أجاد فيه وتنـاول كل مسائل أصول الفقه بتفصيل وإسهاب ولكنه لم يأت فيه بجديد ، والميزة الكبرى له أنه يأتى فى الموضوع الذى يتحدث عنه بتعريف له ثم رأى أهل السُّنــة ورأى المعتـزلـة ثم رد المتكلمين من أهل السُّنــة على المعتـزلـة ، ويهتم اهتمامًا خاصًا برأى الأشعرى إذ هو أكبر المتكلمين على مذهب أهل السُّنة ثم يأتى برأيه هو فى النهاية .

ومما يستـوقف نظرك عنـدما تقرأ هـذا الكتاب الجيـد هو أنه ــ من حيث صميم المسائل ـ لا يزيد شيئًا على ما عند الشافعى ، والشافعى توفى على ما نعلم سنة ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م ، ونحن الآن حـوالى ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ، فكأن ثـلاثة قـرون مرت دون أن يخطو العلم خطـوة واحدة إلى الأمـام ، وأمر آخـر يسترعى انتباهك وهـو أن الواقع أو الحاضر لا وجود لـه عنده فهو ينظـر دائماً إلى الماضـى ويستلهم الأفكار منـه ، والأمثلة التى يضربها كلها من الماضـى ومن العصر النبوى وعصر الصحابة فحسب كأن الزمان توقف هناك ، فلا تظفر هنا بمسألة واحدة من عصر الجوينى ولا كلمة تدلك على عصره وظروفـه ، فالماضى وحده هو الحاضر ومســائل الماضى وحدها هى المســائل الجديرة بالاعتبار أمـا المستقبل فلا وجود له أصـلاً ، والغاية الكبرى هى أن تتجمـد الحياة كلها على الصورة التـى كانت عليهـا فى أوائل العصر الراشدى حتـى تقوم الساعـة وينتهى الزمـان ويوضع الميـزان ويقوم الحساب ، وهـذا هو الـذى يجعل هذا الفكـر كله قليل الفائدة لنـا فى مسائل الحيـاة : إنه فكـر عظيم بمفهوم عصره وفى إطار الماضــى والذين يدرسونه يفعلون ذلك لقيمته الفقهية دون أى حساب للزمان أو حياة الناس .

ومن أمثلة المسائل التى يتعرض الجوينى لها ويناقشها : الصحابى إذا روى خبرًا وعمل بخلافه فهل يؤخذ بقولـه أو بفعله ؟ ويقول إمام الحرمين : إن الشافعى يرى هنا أن العبرة بروايتـه لا بعمله ، أى بقولـه دون عمله ، والشافعـى هنا يريـد أن يمحو من الوجـود أى أثر لما وقع بين الصحـابة من اختـلافات ومنـازعات بل حـروب وهو لهذا ينصح بأن نأخذ بكلام الصحابة دون عملهم ؛ لأن كـلامهم كله حسن ، أما أبو حنيفة فيتمشى مع طريقته فى التفكير الواسع ويقول : إنه مادام العمل مخالفًا للقول فلا يؤخذ بـالقول ولا عبرة بـالعمل طبعًـا ، أما رأى الجوينى هنـا فهـو أننا مهما رأينـا من عمل

الصحابى فلا بد أن نحمله على الورع والتعلق بالأفضل وإن ناقض عمله روايته مع ذكره لها ، ولم يحتمل محملاً فى الجمع (أى إذا لم نستطع التوفيق بين القول والعمل) فالذى أراه التعلق بروايته فإنه لا يظن بمن هو من أهل الرواية أن يعتمد مخالفة ما رواه إلا عن ثبت يوجب المخالفة (انظر : البرهان فى أصول الفقه بتحقيق د / عبد العظيم الديب ١ / ٤٤٢ وما بعدها) .

وعندما يتعرض الجوينى لمسألة تحتاج إلى حل مبتكر ينير للناس الطريق تجده يسترسل فى استعراض آراء الماضين ، ومثال ذلك مناقشته لموضوع الإجماع (١/ ٦٧٠ وما بعدها) فبدلاً من أن يقترح اقتراحًا نافعًا مثل إنشاء مجمع لعلماء السُّنة من أهل الأقطار الإسلامية يجتمع مرة فى السنة فى موسم الحج مثلاً ويشترك فيه من يتيسر له الحضور من شيوخ العلم حيث يتبادل الناس الرأى وهو ما قال به الأشعرى ، تجده يستعرض آراء الماضين فى الموضوع بادئاً بنقض رأى الأشعرى وننتهى آخر الأمر كما بدأنا والمسألة تبقى على حالها .

وجدير بالملاحظة هنا أن مفهوم العلم عند عامة علماء المسلمين حتى العصر الحديث هو العلم الدينى أى القرآن والسُّنة وما قاله الأئمة فى مسائل الفقه ، أما علوم المعاش فقلَّ أن يعنى بها أحد منهم ، وإذا هو عنى بشىء منها مثل الطب كان ذلك مقللاً من قدره بين أهل العلم والفقه ، وسنرى عند كلامنا عن الفلاسفة أن اشتغال الكندى بالرياضيات كان عيبًا أخذ عليه وبسببه أوذى ونهبت داره وأخذت كتبه ، وابن سينا وهو من مفاخر الفكر العالمى لا مكان له عند أهل الفقه والعلم ، أما ابن رشد فإن الذين مدحوه من أسلافنا استحسنوا أن يسقطوا من الذكر اشتغاله بالفلسفة وشرحه أرسطو ؛ لأن ذلك يحط من قدره وقد عوقب الرجل على ذلك فعلاً وأمر أبو يعقوب يوسف المنصور الخليفة الموحدى الناس بأن يبصقوا فى وجهه عقاباً له على اشتغاله بالفلسفة .

وفى مدرسة أبى المعالى إمام الحرمين الجوينى تكوَّن أبو حامد محمد بن محمد الطوسى الغزالى ، فقد ولد فى طوس (٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) وفيها نشأ وتعلم ثم رحل إلى نيسابور حيث درس على الجوينى وأعجب به وأخذ عنه طريقته فى التفكير والنظر إلى الحياة واستقلال الفكر ورفض التقليد - أى اتباع شيخ من الشيوخ السابقين ومحاكاته

دون تفكير - وعندما توفى الجوينى سنة (٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م) كان الغزالى قد أتم تعليمه ودرس الأصول ، وجدير بالذكر هنا أن أصول العلم فى تلك العصور كانت قليلة يحيط بها الطالب الذكى فى سنوات قليلة ، فهى القرآن وتفسيره وكتب الحديث المعتمدة وأهمها الصحيحان للبخارى ومسلم ، ثم جامع الترمذى ، ومسند أحمد بن حنبل ، وسنن أبى داود مع شىء من العربية والنحو ، وهذا حسبك إلا إذا أردت التخصص فى أحد علوم الدين كالتفسير والقراءات أو الحديث ، فهنا عليك أن تقرأ كل ما كتب فى ناحية تخصصك ، والغزالى لم يشأ أن يتخصص فى شىء ؛ لأنه لم يرد أن يكون محدثًا أو فقيهًا أو قاضيًا أو صاحب وظيفة ، فهو نفس حرة مطلقة يدرس العلم للعلم ويريد أن يكون أستاذًا فكان أستاذًا ، وقعد يقرأ العلم على الناس مكان شيخه الجوينى وهنا تجلى للناس عن عقل ذكى وقلب بالغ الحساسية وروح شفافة وخلق مستقيم كالسيف وتسامع به الناس فدعاه الوزير نظام الملك للتدريس فى المدرسة النظامية فى بغداد .

ونظام الملك هذا شخصية عجيبة من شخوص عالمى الفكر والسياسة فى ذلك العصر المضطرب ، وهو عصر السلاجقة الأتراك الذين حلوا فى سيادة دولة الخلافة محل البويهيين وهؤلاء الآخرون من صعاليك الفرس ، من فرع من فروع أهل الجبال منهم هم الديلم ، ومواطنهم جنوبى بحر قزوين وقاعدتهم الرى كانت تقوم مقام طهران الحالية ، وكانوا شيعة يسترون عقائدهم ليسودوا دولة الخلافة وكانت فترة سيادتهم من (٣٣٣ - ٤٤٤ هـ / ٩٤٤ - ١٠٥٢ م) من أسود فترات تاريخ الشرق الإسلامى فهم عتاة ظلمة جهلاء يتظاهرون بالعلم ، فلما ذهبت دولتهم وحل محلهم السلاجقة - وهم سنيون - اجتهدوا فى إعادة السُّنة إلى مكانها وأنشأوا مدارس لشيوخ السُّنة ليزيلوا آثار العبث البويهى ، وأكبر هذه المدارس كانت النظامية التى أنشأها نظام الملك هذا ، وهو أبو على الحسن بن على بن إسحاق الطوسى وهو معاصر للغزالى فقد ولد فى قرية مجاورة لطوس سنة (٤١٠ هـ / ١٠١٩ - ١٠٢٠ م) ودخل فى خدمة السلاجقة من أول أمرهم وأصبح وزيرًا لأعظم ملوكهم وهو ألب أرسلان الذى كسب للإسلام نصرًا من أعاظم انتصاراته على الروم البيزنطيين فى موقعة مانزيكارت التى تعرف فى تاريخنا باسم ملاذكرد ، وافتتح بذلك عصر النهوض العسكرى الإسلامى فى الشرق الذى بلغ ذروته أيام الأتراك العثمانيين ، وألب أرسلان قتل سنة (٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م) وخلفه ابنه طغرل بك واستمر نظام الملك وزيرًا له وأصبح السيد المطلق فى

دولة الخلافة لأن طغرل بك عندما تولى كـانت سِنُّه ١٨ سنة هجرية وأصبح نظام الملك يلقب بأتا ـ بـك والأتابك أى خال الأمير أو الوصى عليه ومـدير شئون الدولـة باسمه ، وقد نجح نظام الملك فى إقرار مذهب السنـة ودخل لهذا السبب في منازعات وعداوات مع غـلاة الشيعـة مما انتهى بـاغتيـالـه على أيـدى جماعـة سرية تسمى بـالإسماعيليـة الحشاشين فى العـاشر مـن (رمضان ٤٨٥ هـ / ١٤ أكتـوبر ١٠٩٢ م) وخلـف لنا كتاباً متوسط القيمة فى الإدارة يسمى سياسة نامه أى كتاب السياسة .

ورغم جهـود نظام الملك فقـد ظل الجو السياسى مضطـرباً مكفهرًا ، وفى كـل يوم يقتل وزير أو أمير وتـدور معارك ويهلك الناس والحقيقة أن الخلافة العبـاسية لم تقم لها قائمـة تذكر بعد كـارثة العصر البويهى الذى هبط بـالخلافة إلى درك سحيق وفتح الباب لكل المذاهب الضالة والمعادية للإسـلام لتنتشر دون قيد ، وكان دعاة غلاة الشيعة الإسماعيلية قد زعزعوا قوائم المجتمع بما نشروه فى الناس من الأمل الكاذب فيما سموه المهـدى المنتظر ، وكـان عوام النـاس فى درك سحيق من الفقر والتعـاسة والجهل فقـد استبد بهم الملوك من نـاحية وتخلى عنهم أهل العلم من ناحية ، فلم يبـق قريبًا منهم إلا الداعية الإسماعيلى الذى كان يمنيهم بالخلاص مـن الفقر والذل بقيام دولة المهدى من آل البيت التى تملأ الـدنيـا عدلاً ، ومـا زالت المؤامـرة الكبرى تتسع حتى بلغت ذروتها بقيام دولة الفاطميين فى بلاد إفريقيـة وهى تونس الحالية سنة (٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م) ثم انتقلت إلى مصر سنة (٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م) وأخذت تنـازع الخلافة العبـاسية على السلطـان فى بلاد الشـام ، ومن صحـراء جزيـرة العـرب أقبل القـرامطة وهم شركـاء الفـاطميين يطالبـون بنصيبهم من الغنيمـة وانضم إليهم بنـو هلال ، وبنـو سليم بن منصور وهاجموا العراق ودمشق ودخلوا مكة وسرقوا الحجر الأسود على ما قلناه ، وقد تصدى السلاجقة للفاطميين واستمـرت الحروب قائمة بين الجانبين حتى زمن الغزالى واقتربنا من كارثـة الغزو الصليبى سنة ١٠٩٧ م ، وهى عدوان خطير طـويل على بلاد الإسلام مـا زلنا نستنكـره ونحمل على الذيـن قامـوا به من ملـوك النصرانية الغـربية وأمرائها ونحن أحق باللوم والتنديد ، فإن البلاد لا تغزى من الخارج بل من الداخل كما قال المؤرخ الرومـانى تاكيتوس ، بمعنى أن الأمة إذا كـانت قوية البناء سليمـة التكوين صحيحة الاعتقـاد قائمة على العـدل ، لم يجسر على العدوان عليها أحـد ، والصليبيون عنـدما هـاجمونـا كنـا فى الحضيض من التفرقـة والضعف فعـلاً ، والضعف لم يكن

سياسيًا فحسب بل كان عقائديًا أخلاقيًا فكانت قلوبنا ونفوسنا واعتقاداتنا شتى ، وهنا فى حالات الضعف والتفرق يظهر الأعداء ، ولو لم يهاجمنا الصليبيون لهاجمنا غيرهم ونحن أولاً وآخرًا السبب ، نحن البلاء وأسباب البلاء ، هكذا كنا أيام الغزالى وهكذا نحن اليوم ونحن قوم لا نتعلم شيئًا : لا من التاريخ ولا من الحياة ولا من الدين ، أشقياء بأنفسنا قبل أن نشقى بغيرنا ، ولا يهون قوم على الناس حتى يهونوا على أنفسهم .

فى هذا الجو المضطرب الحافل بالمخاوف والأخطار على أمة الإسلام نشأ الغزالى ودخل ميدان الحياة وكان بطبعه شابًا واسع الذكاء بعيد الغور .

أقبل على التدريس فى النظامية ، وبلغ مكانة كبرى وهو بعد دون الثلاثين وأقبلت عليه الدنيا فخاف إقبالها عليه وأحس أنه مسئول عن هذه الأمة ومصيرها ، وأحس أنها ليست بحاجة إلى زعيم سياسى قوى يسوق الناس بعصاه فإذا مات انفض كل شىء وعاد إلى ما كان عليه ، بل هى بحاجة إلى معلم يعود بها إلى الأصول ويبدأ معها الطريق ، هنا تتجلى لنا أستاذية الغزالى فهو لم يكن أستاذ مدرسة أو جامعة إنما أستاذ أمة ، ولأنه أستاذ أمة فقد بدأ بنفسه يعلمها ويهذبها وقال لنفسه : لقد ضللنا الطريق فلنعد إلى نقطة البداية ، والبداية هنا هى الله سبحانه .. من هنا نبدأ ونسير خطوة خطوة لنرى أين ننتهى ، وهو عندما بدأ من جديد لم يعد إلى قراءة الكتب لأنه كان يحفظها ، ولكنه عاد إليها ليعيشها ، فهو إذا عاد يتدبر القرآن اجتهد فى أن يعيش القرآن وهو لا يكتفى بقراءة الأحاديث إنما هو يعيش السُّنة لأن العلم لا ينبغى أن يكون دراسة فحسب بل معايشة أو قل تجربة شخصية قلبية يعيشها الإنسان . لكى يعيش الغزالى التجربة الجديدة هانت عليه الدنيا ؛ لأن الدنيا الرخيصة التى يتهافت الناس عليها لا تساوى عناء عيشها ، وها هو ذا أستاذ عظيم فى النظامية يتمتع بجاه عظيم وصيت كالطبل ولكنه هو نفسه لا يشعر فى داخل نفسه أنه شىء ، إنه ضائع محير فقير . ولكى يجد نفسه لا بد أن يتخلى عن الحوائل التى تحول بينه وبين نفسه وهى الوظيفة والمال والجاه وغرور الدنيا ، والإنسان إذا انتصر على متاع الدنيا وأحس أنه لا يحتاج إليه لأنه أقوى منه أصبح فى أصفى حالاته ، وعندما يصبح الإنسان فى أصفى حالاته يصبح أقوى من الجبال ، وترك الغزالى ما هو فيه وتخلى عن الوظيفة والجاه والمال فلم

يتمسك منه إلا بما يقيم أمر العيال ـ أى الأسرة ـ ولم يكن ذلك سهلاً فإن الجاه محبوب والمال مطلوب والصيت غلاب ، والقصة كلها يحكيها أبو حامد فى أروع كتبه على الإطلاق وهو « المنقذ من الضلال » .. وهى قصة نفس حيرى هائمة بالحق تطلبه لنفسها قبل أن تطلبه للناس وقد كتبه الغزالى بمداد قلبه ؛ لأن الخصلة الكبرى التى تميز الغزالى عن غيره هى الصدق : الصدق مع نفسه ومع الله سبحانه أولاً . واستمع إليه يقول فى ذلك الكتاب العظيم :

« وهذه الحركة قدرها الله تعالى وهى من عجائب تقديراته التى لم يكن لها انقداح فى القلب فى هذه العزلة كما لم يكن الخروج من بغداد والنزوع عن تلك الأحوال مما خطر إمكانه أصلاً بالبال ، والله تعالى مقلب القلوب والأحوال وقلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن وأنا أعلم أني ـ وإن رجعت إلى نشر العلم ـ فما رجعت فإن الرجوع عود إلى ما كان ، وكنت فى ذلك الزمان أنشر العلم الذى يكسب به الجاه وأدعو إليه بقولى وعملى وكان ذلك قصدى ونيتى ، وأما الآن فأدعو إلى العلم الذى به يترك الجاه ويعرف به سقوط رتبة الجاه » .

« وهذا هو الآن نيتى وقصدى وأمنيتى بعلم الله ذلك منى ، وأنا أبغى أن أصلح نفسى وغيرى ، ولست أدرى أأصل إلى مرادى أم أخترم (أموت) دون غرضى ؟ ولكنى أومن إيمان يقين ومشاهدة أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وأنى لم أتحرك ولكنه حركنى ، وأنى لم أعمل ولكنه استعملنى ، فأسأله أن يصلحنى أولاً ثم يصلح بى ويهدينى ثم يهدى بى ، وأن يرينى الحق حقًا ويرزقنى اتباعه ويرينى الباطل باطلاً ويرزقنى اجتنابه » .

إذن فالغزالى يريد إصلاح زمانه ولكنه يرى أنه لا يستطيع إصلاح غيره إذا لم يكن هو صالحًا ، ولهذا فهو يريد أن يعتزل ليتأمل ويفكر لا بحثًا عن الحق فهو يعرف الحق وهو الله سبحانه ولكن الذى كان يبحث عنه هو الطريق إلى الحق ونقطة البداية هى ترك الجاه والمركز ، لا احتقاراً لهما بل لكى يستطيع أن يرى بوضوح ، وكان الناس فى أيامه قد ذهبوا مذاهب شتى بعيدًا عن الحق ، والبعد عن الحق فى رأى الغزالى هو سبب الضلال والبلاء والضعف وتفرق أمور المسلمين ، وطالت عزلة الغزالى إحدى عشرة سنة كما قال (من ذى قعدة ٤٨٨ ـ ذى قعدة ٤٩٩ هـ / ١٠٩٥ ـ ١١٠٥ م) .

وفى عزلته عرض فى نفسه ما قرأ من آراء المتكلمين والمعتزلة والباطنية والفلاسفة ورأى أنها كلها لا تؤدى إلى إيمان أو استقرار النفس بل إلى الحيرة والشك وضعف اليقين ، وقال فى كلامه عن الفلاسفة « حتى إن ابن سينا فى وصية له كتب فيها أنه عاهد الله تعالى على كذا وكذا ، وأن يعظم الأوضاع الشرعية ولا يقصر فى العبادات الدينية ولا يشرب تلهياً بل تداويًا وتشافيًا ، فكان منتهى حالته فى صفاء الإيمان والتزام العبادات أن استثنى شرب الخمر لغرض التشافى فهذا إيمان من يدعى الإيمان منهم وقد انخدع بهم جماعة وزادهم ضعف المعترضين عليهم إذا اعترضوا بمجاحدة علم الهندسة والمنطق وغير ذلك مما هو ضرورى لهم على ما بيَّنا علته قَبل .

وبينما كان المعتزلة ومعظم أهل العلم عندنا يحتقرون العوام ويرون أنفسهم أرفع درجة منهم حتى أن واحدًا منهم هو أبو بكر الباهلى الذى ذكرناه كان يستر وجهه عن طلابه لأن طلابه يرون بعيونهم السوقة فتصبح بهذا غير جديرة بأن ترى وجهه ، فاستمع إلى الغزالى يقول فى المنقذ من الضلال : « ومن نظر فى أقوال رسول الله عليه الصلاة والسلام وما ورد من الأخبار فى اهتمامه بإرشاد الخلق وتلطفه فى جر الناس بأنواع الرفق واللطف إلى تحسين الأخلاق وإصلاح ذات البين ، وبالجملة إلى ما لا يصلح إلا به دينهم ودنياهم . حصل به على علم ضرورى بأن شفقته على أمته أعظم من شفقة الوالد على ولده» .

ويختم الغزالى كتابه المنقذ باليأس من العلم الدنيوى الذى يزيد الإنسان غفلة عن الحق وغرورًا بنفسه ، ويقول « أما العلم الحقيقى فيزيد صاحبه خشية وخوفًا ورجاء وذلك يحول بينه وبين المعاصى إلا الهفوات التى لا ينفك عنها البشر إلا فى الفترات وذلك لا يدل على ضعف الإيمان ، فالمؤمن مُفتَّن توّاب وهو بعيد عن الإصرار والإكباب » .

* * *

ويخرج الإنسان من قراءة « المنقذ من الضلال » بأن الغزالى لم ينته إلى نهاية بل إلى بداية ، بداية طريق الإنسان نحو الصلاح ، ولا بد أن نقول هنا : إن الغزالى كان مكثرًا من الكتابة وكلما أحس أنه وصل إلى شىء سارع فكتب به رسالة ، وهذا يدل على تفاؤله وحسن رجائه فى الله والناس ، فهو يسعى إلى ما فيه خيرهم أبدًا وهو يشركهم فى كل ما

يدور فى ذهنه ، وقد أحصى الدكتور / عبد الرحمن بدوى فى كتاب (مؤلفات الغزالى) عشرات من هذه الكتب التى يعتبر كل منها قطعة من الإيمان والحق والصدق ، وإذا كان المنقذ يعرض علينا كيف درس الغزالى كل صنف من أصناف العلوم والاتجاهات وانتهى إلى زيفها جميعًا ، فإنه ألَّف فى كل علم واتجاه فكرى رسالة صغيرة تدل على علم حقيقى وعمق فى النظرة وطلب صادق للحق . فكتب كتاب (تهافت الفلاسفة) ردًا على أهل الفلسفة (وأسرار الباطنية) دحض فيه حججهم ورد على التعليمية الذين كانوا يقولون : إن كل زمان يحتاج إلى معلم ، ورسول الله ﷺ معلم زمانه ، ويحتاج الأمر بعده إلى معلمين يرشدون الناس وهؤلاء المعلمون هم دعاة المهدية من الشيعة ، وهم يقولون إنهم يعدلون الرسول ﷺ ، بل إن له كتابًا جميلاً فى مناقشة النصارى عنوانه (الرد الجميل على أتباع عيسى بنص الإنجيل) وهو فيه رجل هادىء منطقى إنسانى بعيد عن التعصب والغرور لا يقول شيئًا من جارح الكلام ؛ لأن الغزالى كان إنسانًا رقيق القلب مرهف العاطفة على خلق عظيم .

* * *

وانتهى الفكر بالغزالى إلى التصوف أى الانقطاع للفكر والتأمل والعبادة وهو فى تصوفه إيجابى أى أنه يبحث عن طريق الهداية ، وفى تصوفه وعزلته كتب أشهر كتبه وهو (إحياء علوم الدين) وهو كتاب جميل ولكنه حزين ، لأن الغزالى لا يحيى فيه علوم الدين لكى يعيش بها حياة محترمة ، بل لكى يموت ميتة شريفة ، فهو طريق إلى الموت لا إلى الحياة ، وكان الغزالى يقول فيه : « لقد ضاعت الدنيا ولم يبق لنا إلا الدين فلنتشبث به لأنه طريق النجاة » ، وقد يكون الغزالى أراد بإحياء علوم الدين إحياء الأمل فى نهوض المسلمين ولكن هذا غير واضح على أى حال ، وكل ما أستطيع قوله بإخلاص أنك تقرأ « المنقذ » فى بداية حياتك لتجد الطريق الأمثل للإيمان والحياة الصالحة ، وتقرأ « الإحياء » إذا أحسست بقرب النهاية لتصل إلى السلام بسلام .

والكتاب ضخم ولكنه رغم ضخامته ممتع ؛ لأنك تحس أنك فيه مع رجل مخلص صادق أمين ، وأقسام الكتاب الكبيرة أربعة : قسم العبادات ، وقسم العادات ، وهو يريك فيه طريق المعاملات الشريفة على أساس الورع والتقى والدين الصحيح ، ثم قسم

المهلكات : وفيه يحذرك من مهالك النفوس ومعاطب الأرواح ، وقسم المنجيات : وهو طريقك إلى النهاية التى يرتجيها كل مؤمن .

وأجمل فصول الكتاب ذلك الذى يتحدث فيه الغزالى عن القلب وهو مركز الإحساس المؤمن الصادق ، إنه الضمير إنه صلتك بالله سبحانه ويقول « إن القلب هو العالم بالله وهو المتقرب إلى الله وهو العامل لله وهو الساعى إلى الله وهو الكاشف بما عند الله ولديه » ، لهذا القلب الصادق المؤمن الذى نسميه نحن الضمير الحى .

والتصوف عند أبى حامد تصوف إيجابى أى أنه انصراف عن دنيا الناس للبحث عن الطريق إلى الخلاص ، ولهذا فإن تصوف الغزالى لم يكن انقطاعًا عن الدنيا بل الخروج من متاعب حياة الناس إلى راحة القرب من الله ، ولهذا فهو لم ينقطع عن الدنيا أبدًا حتى وهو بعيد عنها فقلبه مشغول دائمًا بالناس ، وخلاص الناس ، ولهذا فقد كان الغزالى لا يطول اعتزاله بل يعود إلى الدنيا يهدى الناس كتابًا جديدًا .

والحق أن العالم الذى عاش فيه الغزالى كان عالمًا حزينًا حقاً ، وعالم الإسلام الذى عرفه وجاهد فى سبيل خلاصه كان عالمًا بشعًا لا يصدق من يراه أن هذه هى الأمة التى وعدها الله بأن تكون خير أمة أخرجت للناس إذا هى دعت إلى الخير وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر ، فلا هى دعت إلى الخير ولا أمرت بالمعروف ولا نهت عن المنكر ، فكانت أضعف أمة عرفها الناس ، ففى منتصف صيف ١٠٩٧ م نزل الصليبيون أرض الشام ليجدوا المسلمين فى أسوء حالة يمكن تصورها ، فالحروب دائرة بين بقايا السلاجقة والفاطميين ، وإنطاكية بيد حاكم أرمنى مسلم يسمى ياغيسيان ودمشق بيد أمير صغير وحلب بيد آخر والخليفة العباسى تحول إلى سيد إقطاعى له إقطاع صغير يعيش منه والفاطميون يملكون جنوب الشام ، وقبل نزول الصليبيين يحققون نصرًا (عظيمًا) فيستولون على بيت المقدس ، وعندما يسمعون بأن الصليبيين نزلوا بلاد الشام رحبوا بهم وظنوا أنهم يستعينون بهم على إخوانهم المسلمين ، ولكن الحقيقة تتكشف لهم عندما يرون أن الصليبيين سائرون نحو بيت المقدس فيسرعون بالانسحاب منها ـ وفى سنة ١٠٩٨ م يدخلون القدس ويقتلون فى يوم واحد ٧٠,٠٠٠ من المسلمين ، فماذا يفعل الغزالى المرهف الحس وهو يرى عالمه الإسلامى يتدهور إلى

هذا الحضيض ؟ هنـا يشتد حـزنه ولكنه لا يقنط قـط من رحمة الله ، ودين الله لا بد أن ينتصر فى النهاية ، هكذا قال القرآن وكل ما فى القرآن صدق وحق .

وإلى طوس يعود الغزالى ليتدبـر أمر المسلمين ، وفى ١٤ جمادى الثانية ٥٠٥ هـ / ١٩ ديسمبر ١١١٢ م يغادر هذه الـدنيا إلى عالم البقاء ووصيتـه الأخيرة للناس : « لقد ضاعت الـدنيا فلم يبق إلا الـدين فتشبثوا به . واعتصمـوا بحبل الله جميعًا ولا تفـرقوا ليعود لكم العز من جديد ، أيقظوا القلوب فإن القلب الصاحى هو طريق الخلاص » .

وبهذا القلب الحى أصبح أبو حامد الغزالى حجة الإسلام ومحيى الدين وأصبح فى نفس الوقت أعظم مفكر إسلامى تعرفه ـ وتعترف به ـ الدنيا ، فالمؤلفات عنه وعن فكره وآرائه مئات فى كل لغات البشر وهى تفوق كل ما كتبه الغربيون عن غيره من مفكرينا ، إنه عند أهل الغرب يقف فى أعلى مستويات البشرية ، وهو أجمل صورة بشرية للإسلام تعرفها الدنيا !

* * *

ابنُ حَـزمِ القُرطُبِـىّ
صَرخَةٌ فِـى سُكُونِ اللَّيـلِ

ما زلنـا بعيدين جداً عن فهم حقيقـة الأندلس : كيف قام ؟ وكيف عـاش ؟ وكيـف مات ؟ .. الغـالبية العظمى منا لا تـزال تنظر إليه على أنـه حلـم ليل شتـاء قارس البرد طويل ، هذا الحلم يسميه الكثيرون بالفردوس المفقود ، الفردوس الذى أنشأناه فى عصر بطـولتنا هنـاك على الأرض الأوروبية فيما وراء البحـار ، وبعد أن أنشأه جيل الأبطـال جاءت أجيال غير الأبطال تصرفت في الكنـز الموروث تصرف السفهاء ، والهواية العربية المفضلة على طـول التاريخ هى قتل بعضنا بعضـاً هواية غريبـة مارسناهـا من شباب تاريخنـا إلى شيخوخة هذا التـاريخ ، ولا زلنا نمارسها بإتقان عجيب إلى اليـوم ، وانظر حولك وقل لى إن كنت أبالغ أن العالم كله يتعجب من مهارتنـا فى هذه الرياضة العجيبة التى لا ينافسنا فيها غيرنـا ، فقانون الدنيا خارج نطـاقنا : أنا وأخى على ابن عمى وأنا وابن عمى على الغريب ، أما نحن فقانوننا الفـريد فهو : أنا والغريب على ابن عمى ، وأنا وابن عمى على أخى ، ثم تجىء بعد ذلك رائعة فلسفة الفناء العربية : أنا والدنيا كلها على نفسى ، والأوطان عندنـا ضياع موروثة ننادى عليهـا ونتغنى بحبها ثم يمسك بعضنا بخناق بعض فلا تنتهى المعـركة إلا وقد ضاعت الأرض وما عليها ، وهنـا نبدأ فى البكاء عليها إلى آخر الـزمن ، والبكاء على الأوطان الضائعـة هو الإضافة العبقريـة الوحيـدة التى أضفناها إلى « ربرتورا » الموسيقى العالمية .

والأندلس هنا نموذج مثالى فتحناه فى أربع سنوات وضيعناه فى ثمانمائة ، وبكيناه إلى الآن أربعة قـرون ، وفى نيتنا ـ بمشـيئة الله ـ أن نظل نبكيه ملايين القـرون المقبلة وعندما تقوم الساعة سنسبح إلى الجحيم الذى نستحقه فى بحر الدموع .

أنشأناه فى أربع سنوات (٧١١ ـ ٧١٥ م) ، ثم عدنا إلى رياضتنـا المحببة : صيد بعضنا بعضاً ، القدماء منا فى الأندلس أخـذوا يقاتلون الجدد ، والعرب يقاتلون البربر ، والعرب الشـاميون يقاتلـون العرب اليمنيين ، وكنا أيامهـا ـ أولاً عن آخر ـ مائة ألف مسلم فى الأندلس كله ، ومساحة الأنـدلس ٦٠٠,٠٠٠ كيلو متر ، ومع ذلك كان بعضنا يقول لبعض : اخرجوا عنا فإن بلدنا يضيق بنا ولا يحملنا وإياكم .

ومـرت أربع وأربعون سنـة ونحن نقـاتل بعضنـا بعضاً حتى إذا كنـا على وشك القضاء تداركتنـا رحمة الله بعبقرى حقيقى من بناة الدول هو عبد الـرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك بن مروان الملقب بالـداخل إلى الأندلس ، جمعنا بعصاه وأقام لنا ومنا دولة ولدت فى (الخامس عشر من رمضان ١٣٨ هـ / ٢٢ فبراير ٧٥٦ م)، وكأنها فرصة العمـر أتاحها الله لنا بفضله ، وفى رعـاية تلك الإمارة الأموية عشنـا فى رغد وقوة وازدهار حتى أكرمنا الله بأعظم أمراء هذه الدولة وتاسعهم وهو عبد الرحمن بن محمد ابن عبد الله المعـروف بالثالث أو الناصر فى (صفـر سنة ٣٠٠ هـ / سبتمبر ٩١٢ م) ، فمضى بنا صعدًا فى القوة وجمع ما انتقص من شملنا ، وجعل الإمارة خـلافة فى أواخر (٣١٦ هـ / أوائل ٩٢٩ م) ، فأصبحت فى عالم الإسـلام بذلك ثـلاث دول خلافـة : العباسية والفـاطمية والأموية الأنـدلسية ، ومضى عبد الرحمن يحكـم وقد جمع شبه الجزيرة إلى لوائه حتى استتمت سنـوات حكمه ٥٠ سنة هجريـة وتوفى فى (٣ رمضان ٣٥٠ هـ / ١٧ أكتـوبر ٩٦١ م)، بعـد أن نقش اسمه بحـروف من نار ونـور على أنه أعظم وأقوى وأحكم وأقدر من تولى أمورنا من الخلفاء وأطولهم حكمًا ، فأما النار فلأن عبد الرحمن الناصر استخـدم لتوجيه دولته من القوة والعنف ما لم يعـرفه خليفة قبله وربما قام لـه فى ذلك عذر ؛ لأن داء التفرق فينـا عويص مـزمن ، وحكامنا الأقـوياء فى الماضى كانوا أشبه برجال مطافىء كلما أطفـأوا النار فى ناحية اشتعلت فى ناحية أخرى ، وأما النـور فلأن الأندلس فى أيـامه أضاء بنـور حضارى باهـر وصلت أشعته إلى قلب ألمانيا ، فأقبل ملوك الأرض إلى بـلاد الناصر يتأملون وراء هذا الملك الـزاهر والحضارة الوارفة التى لم تعرف لها الدنيا فى ذلك الحين مثيلاً ، وفى قاعة السفراء ذلك البهو الزاهر من قصر الزهراء الذى بناه فى مدينـة الزهراء على سطح جبل العروس المطل على قرطبة جلس الناصر يستقبل السفـراء فى أبهة ملوكية قـامت على العدل والجهد البـالغ ، وكان الناصر عجيبة بين حكام الإسلام ما وعد إلا وفى ، ومـا قال إلا صدق ، وما عاهد إلا كان عند عهـده ، إنما كانت شدته وعنفـه على الخارج على سلطان دولة الجماعـة السـاعى فى تفريق عصا المسلمين .

وبعد النـاصر جاء ابنه الحكم المستنصر أعلم ملـوك الإسلام وأعدلهم جميعًـا بعد عمر بن عبد العزيز (٣٥٠ ـــ ٣٦٦ هـ / ٩٦١ ـ ٩٧٦ م) الذى جعل الأندلس دار علم وفضل ، وتـراخت يـده بعض الشـىء فبـدأت الفتنـة تعـود ، وتطلع حكـام النـواحى

للاستبداد بنواحيهم وتجلى ذلك بعد وفاة الحكم المستنصر فى (٣ صفر ٣٦٦ هـ / ١٦ أكتوبر ٩٧٦ م) ، فقام طاغية سياسى يسمى محمد بن أبى عامر ونهض من صفوف الكتاب إلى صفوف العسكريين وقبض على زمام الملك من (٣٧٠ هـ : ٩١٧ م تقريباً) ، واستبد بالأمر استبدادًا تامًا من دون الخليفة الرسمى الصبى هشام المؤيد ابن الحكم المستنصر ، وفى طريقه إلى السلطان المطلق ارتكب هذا الطارىء الطاغية كل جريمة وموبقة ، وإذا كان عبد الرحمن الناصر لم يغدر فى حياته بإنسان محسن مستقيم فإن محمد بن أبى عامر الذى تلقب بالمنصور لم يدع إنسانًا محسنًا مستقيمًا طموحًا إلا أطاح به ، واستغنى عن كبار رجال الدولة الذين كانوا سند الدولة الأموية ابناً عن أب عن جد ، وأنشأ لنفسه بطانة سوء من النهازين الغادرين ليعينوه على ظلمه وكسر وحدة جيش الأمة فأنشأ لنفسه جيشًا خاصًا به من مرتزقة البربر الذين جلبهم من المغرب وجمع حوله نفراً من الوزراء بعضهم من أصول طيبة وبعضهم من أصول خسيسة ، ومازال هذا الرجل يحكم حتى وافاه الأجل المحتوم فى (رمضان ٣٩٢ هـ / أغسطس ١٠٠٣ م) والبلد يضج من ظلمه وغدره وخلفه ابنه عبد الملك المظفر فى رياسة الحزب العامرى ورياسة الدولة حتى (صفر ٣٩٩ هـ / أكتوبر ١٠٠٨ م) وبعد سنتين فى (١٦ جمادى الأولى ٢٩٩ هـ / ١٥ فبراير ١٠٠٩ م) انفجرت الثورة على العامريين وعادت الخلافة الأموية القرطبية عودة هزيلة ، وثارت الفتنة الأهلية بين جيش الدولة الأصيل القديم وجيش المنصور المرتزق ، واستشرت الفتنة وقامت ولم تقعد حتى نهاية الأندلس ، وغرق الأندلس فى بحار الفتنة واختفى فى ليل التاريخ الطويل .

* * *

مدخل لم يكن منه بد لكى نعرف أين وفى أى ظروف عاش وعمل أبو محمد على بن حزم .

فى أيام الطاغية محمد بن أبى عامر المنصور ظهر أمر بنى حزم ، وأصلهم من قرية صغيرة تسمى الزاوية من كورة (مقاطعة) لبلة Liebla على المحيط الأطلسى عند الحدود بين إسبانيا والبرتغال ، وهاجر أبوه بأسرته إلى قرطبة ودخل فى خدمة المنصور محمد بن أبى عامر وصار فى جملة وزرائه واكتسب من الوزارة مالاً كثيرًا اشترى منه

قصرًا فى شرقى قرطبة فى حى يسمى منية المغيرة ، وقصرًا آخر فى غربها عند باب الوراقين واشترى كذلك ضياعًا فى كورة لبلة واحدة منها فى قرية صغيرة تسمى منتليشم ، وإلى هذه الضيعة سيلجأ ابن حزم بعد يأسه من السياسة ويتفرغ للتأليف .

وفى أيام وزارة أبيه أحمد بن سعيد بن حزم ولد على بن أحمد بن سعيد بن حزم مدار حديثنا هذا فى فجر الأربعاء (٣٨٤ هـ / ٧ نوفمبر ٩٩٤) فى قصر أبيه فى منية المغيرة وتربى كما يقول فى بيت نعمة ومال كثير وخدم وحشم وأصل أسرته فى الغالب من عجم أهل الأندلس ولكنه يزعم أن بيته أموى بالولاء ويرجع نسبه إلى رجل يسمى سفيان بن يزيد كان مولى ليزيد بن أبى سفيان ، وهذه النسبة الأموية كانت بالنسبة لابن حزم مرضًا نفسيًا فقد ظل طول عمره يفخر ببنى أمية الأندلسيين ، ويتعصب لهم وهذا معقول فإن الأندلس الإسلامى لم ير العز إلا فى أيام البيت الأموى وبنهايته سنة (٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م) ، بدأت نهاية الأندلس ولكن الذى لا نقبله من رجل فى عقلية ابن حزم هو تعصبه البالغ لبنى أمية عمومًا وهو تعصب يجعله فى إحدى صفحات « جمهرة أنساب العرب » من تأليفه يأنف أنفًا شديدًا من أن يقال إن واحدًا من أبناء عبد شمس ـ خصوم بنى هاشم ـ كان فقيرًا ، وفى كتاب آخر من كتبه هو « المفاضلة بين الصحابة » نجده يحاول الحط من مكان على بن أبى طالب وإن تبرأ من ذلك (ص ٢٣٦ وما يليها) .

ومن حسن الحظ أن أبا محمد على بن سعيد بن حزم كان كثير الكتابة عن نفسه ، فقد خلف لنا كتابًا جميلاً ـ سنتحدث عنه ـ يسمى طوق الحمامة فى الألفة والإلاف « أى فى الحب والمحبين » ، جاءنا فيه بكثير من تفاصيل حياته الأولى فى قصور أبيه ونشأته بين جوارى القصور قال : « ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيرى لأنى ربيت فى حجورهن ونشأت بين أيديهن ولم أعرف غيرهن ، ولا جالست الشباب إلا وأنا فى حد الشباب وحين تبلغ وجهى (ظهر شعره) وهن علمننى القرآن وروينني كثيرًا من الأشعار ودربنني فى الخط ولم يكن وكدى (همى) وإعمال ذهنى منذ أول فهمى وأنا فى سن الطفولة جدًا إلا تعرف أسبابهن والبحث عن أخبارهن وتحصيل ذلك وأنا لا أنسى شيئًا مما أراه منهن » (الطوق ص ٤٦) .

ومات أبوه سنة (٤٠٢ هـ / ١٠١١ م) والفتنة الأندلسية فى بدايتها واضطر إلى

مغادرة قرطبة عندما دخلها البربر أعداء بنى أمية وتتبعوا أنصار بنى أمية فذهب إلى بلدة فى شرق الأندلس هى المرية ليحتمى بمولى من موالى العامريين يسمى خيران ، ولكن خيران لم يطمئن إليه فأخرجه منها ، فلجأ إلى بلنسية حيث نادى الناس برجل من الأمويين هو عبد الرحمن بن محمد المهدى وبايعوه خليفة ولقبوه بالمرتضى ، فاتخذ ابن حزم وزيرًا ، وهى وزارة كما ترى جد هزيلة لأن المرتضى لم يلبث أن قتل ، وعاد ابن حزم إلى قرطبة حزيناً فى صحبة صديق له ، وفى رمضان (٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م) بويع لرجل آخر من بنى أمية يسمى عبد الرحمن المستظهر ، وكان شابًا نجيبًا يرجى منه خير ولكنه تولى فى غمار فتنة لا ترحم فعمل ابن حزم وزيرًا له شهورًا قليلة ثم أصبح وزيرًا لهشام المؤيد ، وزارة هزيلة أخرى ، وعندما نفى هشام المعتد آخر خلفاء بنى أمية وألغيت الخلافة الأموية الأندلسية نهائيًا فى (ديسمبر ١٠٣١ م) طلق ابن حزم السياسة وانصرف إلى العلم ، وكان هذا من حسن حظه وحظنا .

وكان ابن حزم قد دخل ميدان الطلب قبل ذلك بسنوات ، وكانت سنه عند دخول ميدان العلم بعد الثالثة والعشرين ، وقد دخل ميدان العلم فى ظروف هى أشبه بالمصادفة ولكنه عندما بدأ يقبل على العلم اكتشف نفسه وعرف أن العلم هو ميدان حياته وسبب وجوده ؛ فأقبل يلتهم الكتب التهامًا فقرأ كل ما تيسر له من تفاسير القرآن الكريم ، ودرس كل كتب الحديث من صحاح ومسانيد وكتب سنن وأربعينات ومستدركات وزوائد ، ثم درس اللغة والشعر والأدب واستبحر اطلاعه على تاريخ الإسلام ، وقد رزقه الله عقلاً راجحًا وذهنًا صافيًا وذاكرة لا أظن أننى عرفت لها شبيهًا فقد كان يقرأ الشىء مرة واحدة فينطبع فى ذهنه ولا ينساه ، وكان ذا عقل ناقد : يقرأ الشىء ويزنه بميزان منطقه أو يرفضه أو يستصفى منه ما يرى أنه ينفعه ، وقد درس على عدد كبير من الشيوخ أهمهم أبو عمر بن الجسور ، وأبو الخيار مسعود بن مفلت ، وهذا الثانى كان من أجلِّ الفقهاء وأوسعهم علمًا ، وفى أثناء الدراسة تنقل ابن حزم من المذهب المالكى إلى الشافعى واستقر فى النهاية عند رأى أهل الظاهر وشيخهم داود ابن على الظاهرى وهذه الجماعة كانت أبعد أصحاب المذاهب عن التفكير ، فهم يأخذون كل شىء على ظاهره فلديهم مثلاً حديث يقول : إن الكلب إذا ولغ فى إناء أحدكم فقد أصابه نجس ولا بد من تطهيره ، فإذا قيل لهم : فإذا ولغ فى الإناء خنزير فماذا يكون

الحكم ؟ قالوا : لم يرد فيه نص فلا تجب فيه طهارة ، وإذا قرأ أحدهم قول الله سبحانه فى أول سورة التكوير : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ .. ﴾ إلى آخر الآيات وسئل فى تفسير ذلك قال : هى كما ترى ومعانى الألفاظ عندك فى معاجم اللغة ونحن لا نذهب إلى ما وراء ذلك ، وقد بيَّن هو فى كتبه الأسباب التى جعلته يطمئن إلى قول أهل الظاهر فقال : إن الفقهاء فرقوا أذهان الناس وخرجوا بهم عن القرآن والسُّنة عندما توسعوا فى استعمال القياس ، فأصبحنا نجد فى المسألة الواحدة عشرة آراء فما فوق فبأيها يأخذ المؤمن ؟ والتفسير الحقيقى لوقوف ابن حزم عند مذهب السُّنة هو أنه رفض كل الفكر الفقهى قبله واكتفى بالقرآن والسُّنة ، وهذا ظاهر من سأمه الدائم من المذاهب جميعًا .

ولم يقف اطلاع ابن حزم عند هذا الحد بل نظر فى كتب اليهود والنصارى واليونان وأحاط بكل ما فيها إحاطة نادرة ، وجعل فى أثناء ذلك يناقش العلماء ويناظرهم ولكن طريقته فى المناقشة كانت بعيدة جدًا عما أمر الله به فى كتابه العزيز فى أمر الدعوة والجدل ، فقد أمرنا الله بأن ندعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة وأمرنا إذا تجادلنا أن نجادل بالتى هى أحسن ، ولكن ابن حزم لفرط ذكائه وسعة علمه وضيق صدره بما كان يسمع ويقرأ من سخف ، كان قد أصبح ذا صبر قليل على الناس فكان إذا جادل أو ناظر لم يكن له هم إلا تحطيم خصمه ، وفى ذلك يقول معاصره مؤرخ الأندلس الكبير أبو مروان حيان بن خلف بن حيان : « ثم عدل إلى الظاهر فنقحه وجادل عنه ولم يكن يلطف صدعه بما عنده بتعريض ، ولا يرقد بتدريج بل يصك به معارضه صك الجندل ، وينشقه انشقاق الخردل ، فينفر عنه القلوب ويقع به المغلوب ، حتى استهدف إلى فقهاء عصره فمالوا عليه وأجمعوا على تضليله وشنعوا عليه وحذروا سلاطينهم من فتنته ، ونهوا عوامهم عن الدنو منه فطفق الملوك يقصونه عن بلادهم إلى أن انتهوا به إلى منقطع أثره من بادية بلدة لبلة ، وهو فى ذلك غير مرتدع ولا راجع : يبث علمه لمن ينتابه من بادية بلده من أصاغر الطلبة الذين لا يخشون فيه الملامة ، يسمعهم ويفقههم ويدارسهم ، وأكمل مصنفاته لم يجاوز عتبة باديته لزهد الفقهاء فيها حتى لأحرق بعضها بأشبيلية ومزق علنًا » .

وابن حيان يبالغ هنا ولا شك ، وكان هو الآخر طويل اللسان عنيف النقد لا يكاد

يرحم من لسانه المرير أحدًا ويبدو أن العصر كله كان عصر مرارة وآلام وضيق نفس وخوف وصراع ، ولا عجب فنحن فى أيام فتنة وابن حزم لم يكن هادىء النفس زاهدًا فى الدنيا يائسًا من الناس ولم يكن ينظر إلى الوراء بل إلى الأمام كغيره من كبار فقهاء عصره ، بل خلق بطبعه إنسانًا حساسًا شديد الاهتمام بمصير الجماعة الإسلامية ، وفى كتاباته إشارات كثيرة جدًا إلى سوء الحال ووقوع رؤساء الأندلس فى الفتن والحروب حتى أضاعوا الأندلس ، وإذا كنا نأخذ عليه عنفه وحدة لسانه فلا بد أن نحمد له حماسته واهتمامه ونزوله الميدان يجادل عما كان يراه حقًا ، ولو أنه وجد أمراء الطوائف فى عصره من يستمع له ويعى مقالته فربما كان له أثر مباشر فى إنقاذ الأندلس ، ولكن ملوك الطوائف جميعًا كانوا من ناحية المستوى الإنسانى فى درجة من الهبوط لا تصدق ، وفى تلك الظروف التى ضاعت فيها الوحدة واشتد ضغط الخصوم من النصارى على البلاد واستولوا على بعض العواصم الكبرى مثل طليطلة والاشبونة ومجريط وقورية ، وانحدار حدود الأندلس الإسلامى إلى مجرى الوادى ، نجد هؤلاء السخفاء ملوك الطوائف يتهالكون على الدنيا ويسرفون فى اللهو إسراف الخلى الذى لا يخشى غائلة والمأمون بن ذى النون صاحب طليطلة قبل سقوطها فى يد ألفونسو السادس ١٠٨٥ م ينفق مئات الألوف على قصر يبنيه فى طليطلة ويتألق فيه تألق كبار الملوك ، والمعتضد بن عباد صاحب إشبيلية ينشىء فى قصره حديقة يسميها حديقة الرءوس يجعل فيها من جماجم من يقتلهم من خصومه المسلمين أصصًا يزرع فيها الزهور وابنه المعتمد الشاعر المشهور يتخذ لجاريته اعتماد الرميكية ــ وأصلها بائعة لبن ــ حديقة أرضها من المسك والعنبر المعجونين بالعطور لتسير فيها حافية كما كانت تفعل أيام الفقر وبيع اللبن والسير حافية فى الطرقات ، وأبو عبد الله الحائك وزير آخر بنى جهور يتخذ لنفسه دارًا خاصة بالغلمان يسميها بيت اللذة لكى ينعم فيها بشذوذه الحقير ، وباديس بن حبوس منشىء دولة بنى زيرى فى غرناطة سكير لا يكاد يفيق من الخمر ليل نهار ، وهذه مذكرات حفيده المعروفة باسم « التبيان » المشهورة عندنا باسم مذكرات الأمير عبد الله الزيرى فتحدث عن ذلك الانحطاط كله بأجلى بيان ، وأمامك كتاب « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » لابن بسام الشنترينى تجد فيه العجب من أمر أولئك الناس .

فى هذا المناخ الفاسد من يسمع لابن حزم أو يفكر فيما يقول ؟ ! لقد كان الرجل آية في الخلق والعلم والإيمان ، وكان قلبه يحترق على مصير وطنه الذى أحبه فأبغضوه وخافوه وصاروا يطردونه من بلادهم واحداً بعد الآخر ، وآخر من فتح له أبوابه رجل من الطارئين على الإمارة يسمى أحمد بن رشيق ، استقل بجزيرة ميورقة وهى كبرى الجزائر الإسبانية التى تعرف باسم البليار ، فذهب إلى هناك سنة (٤٣٠ هـ / ١٠٢٩ م) ومضى يجادل الفقهاء على مذهبه في العنف حتى قضى على فقيه البلد وكان رجلاً بسيطاً محدود العلم يسمى أبا الوليد بن اليارية الميورقى وكان مالكيًا ، وقد أراد هذا الرجل مجادلة ابن حزم مدافعًا عن المالكية فهوى عليه ابن حزم بكل ما أوتى من عنف وسفَّه رأيه وأظهر ضعف علمه بالحديث فغلط فى بعض ما روى ، فسجنه ابن رشيق حتى يتوب عن خطئه ثم أخرجه وقد هلك ومضى الرجل للحج فمات فى الطريق من شدة ما ناله من القهر .

ويبدو أن ابن رشيق أسف على ما فعل فأبغض ابن حزم وسجنه أيامًا ثم أخرجه من بلده فاتجه بعد ذلك إلى أشبيلية فلم يجد هناك من يسمع له فقرر الانسحاب من الدنيا ومضى إلى ضيعته فى منتليشم قرب لبلة قرب الحدود الجنوبية للبرتغال ، وهناك انقطع للتأليف ولم يعد يزوره إلا نفر من أصاغر الطلبة كما يقول ابن حيان ، وفى عزلته تلك قضى نحو عشرين سنة يكتب فى حماسة غريبة حتى بلغت مؤلفاته المعروفة لنا قرابة ٥٣ كتابًا ورسالة ، بعضها فى مجلدات كبيرة تصل إلى ثمانية مجلدات وبعضها فى أربعة ، ومنها ما لا يزيد على بضع ورقات وهى تغطى كل مجالات الفكر الإنسانى فيها فهو فقيه مؤرخ نسابة أديب وشاعر وناقد أدبى ، وصاحب تأليف مبتكر تفرد به بين أهل الأدب والفكر فى العصور الوسطى وهو كتاب « طوق الحمامة » وهو من أمتع ما تقرؤه عن الحب لولا صعوبة أسلوبه تجعل الوصول إلى ما يريد قوله عسيرًا بعض الشىء ، وبهذا الكتاب الصغير وصل ابن حزم إلى درجة جديرة فى الآداب العالمية ولا أظن أن كاتبًا عربيًا ذاع أمره هذا الذيوع فى العالم كله إلا ألف ليلة فهو مترجم إلى لغات العالم جميعًا وطبعاته ذائعة تجدها فى كل مكان فى طبعات شعبية (بيبر ـ باك) وأجمل ترجماته الإسبانية ، وقد قام بها الأديب المستشرق الأسبانى اميليو غرسية غومس ، وقدم للترجمة فيلسوف أسبانى معاصر كبير هو اورتيجا إى جاست (١٨٨٣ ـ

١٩٥٥) فقال فى مقدمته : إن هذا الكتاب وحده يدل على أن الأدب العربى جدير بالاحترام كله ، وإن قراءته إياه غيرت من نظرته إلى الفكر الإسلامى وهى شهادة لها قدرها من واحد من أعاظم مفكرى عصرنا .

وتوفى ابن حزم فى منفاه الذى ارتضاه لنفسه فى (٢٨ شعبان ٤٥٦ هـ / ١٧ يوليو ١٠٦٤ م) توفى صابرًا محتسبًا صافى النفس ويبدو أن علته التى مات منها كانت السرطان ؛ لأنه عانى من أوصاب المرض شيئًا كثيرًا وقد تحمل آلامه فى صبر وقال : « لا جعلنا الله من الشاكين إلا إليه وأعادنا إلى أفضل ما عوَّدنا ، إن الذى أبقى لأكثر من الذى أخذ ، والذى ترك أعظم من الذى تحيف ومواهبه المحيطة بنا ونعمه التى غمرتنا لا تحد ولا يؤدى شكرها والكل منحه وعطاياه ولا حكم لنا فى أنفسنا ونحن منه وإليه منقلبون وكل عارية فراجعة إلى معيرها وله الحمد أولاً وأخيرًا عودًا وبدءًا وأنا أقول : إذا ما صح لى دينى وعرضى .. فلست لما تولى ذا اهتمام جعلنا الله وإياك من الصابرين الشاكرين » (طوق الحمامة ص ١٥٣) .

وهذه العبارة وحدها من ابن حزم تدل على أن ما نقرأه من نقده فى كتبنا مبالغ فيه ، ومن المعروف أن فقهاء السُّنة من أعنف الناس على من خاصمهم وخالف رأيهم أو نقد مذاهبهم ، وفى دراستى هذه تبينت من قسوتهم البالغة على خصومهم ما جعلنى أشك كثيرًا فى تقديراتهم ، وأنا ألتمس لهم العذر فى هذا العنف لأن خصوم السُّنة وأهلها كثيرون جدًا وكانوا فى الغاية من العنف والبعد عن الضمير ، ومعظمهم بعيدون عن الإيمان الصحيح ولم يكن هناك مفر لأهل السُّنة من اتخاذ هذا العنف كله ولولا تلك الصلابة لأصاب السُّنة والجماعة بلاء شديد ، ومذاهب السُّنة والجماعة هى الصخرة العاتية التى حفظت الإسلام خلال العصور السود التى مرت به وبأهله ، ولهذا فإننى أرجو القارىء أن يعيد النظر فيما يقول بعض العلماء من أمثال الحافظ الذهبى الذى قال فيه : « وقد امتحن هذا الرجل وشدد عليه وشرد من وطنه وجرت عليه أمور لطول لسانه واستخفافه بالكبار ووقوعه فى أئمة الاجتهاد بأقبح عبارة وأحط محاورة وأبشع تمرد » حقًا إن ابن حزم عنيف جدًا فى مناقشته وعنفه هذا يتجلى فى مجادلاته مع أهل المذاهب فى كتابه « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » ، ولكننا إذا أمعنا القراءة وجدنا للرجل عذره فإن لهم وقفات طوالاً ومحاورات لا معنى لها عند نقط من الفقه لا تستحق

هذا العناد كلــه مثل جدلهم فى المسح على الخف وكلامهم عن الـرأى فيمن يتبول واقفًا ، ولكن ابن حزم لم يهاجم قط واحدًا من كبار الأئمــة ولا هو وقع بلسانه فى مالك أو أبى حنيفة أو الشــافعى ، فهو لا يذكـرهم إلا بإكبار أما منــاقشته فللرأى فى ذاتــه ، وهنا لا نعيب عليه حـدته فى دحض حجج مخالفيه فهذه هــى طريقته وهذا مـزاجه ويكفى ابن حزم أنه لم يفر من الميدان ولا هو لجأ إلى العزلة إلا مضطرًا ، وقد عرض نفسه ببسالته للكثير من الأذى وكــان من الممكن جدًا أن يلقى حتفــه ؛ فَـلأَقَلّ من ذلك بكثير قتل غيره فهو فقيــه مناضل ومفكر بــاسل وهذه هى الفضيلــة الكبرى التى تجعل ابن حزم عَلَمًا فريدًا من أعلام الفكر فى تاريخنا .

* * *

ويعتبر ابن حزم من المفكرين المسلمين القلائل الذين يحتلون مكانًا صدرًا فى تاريخ الفكر العالمى ، ومكانه هذا لا يدانيــه إلا قلائل آخرون أهمهم : أبو بكر الرازى الطبيب ، وأبو على بن سينا الفيلسوف ، والإدريسى الجغـرافى ، وابن خلدون المؤرخ ، وابن رشد الفيلسوف ؛ وأبو القاسم الزهراوى الجراح .

والعمل الأكبر لابن حزم كتاب « الفصل فى الأهـواء والملل والنحل » وهو أول تاريخ للأديان فى تاريخ الفكر العالمى ، وابن حــزم فيه مؤرخ ومفكر من مستوى عالمى فعلاً ، فهو يبدأ بدراسة فكرة التـدين ذاتها وكيف أن الإنسان بطبعه محتاج إلى عقيدة يطمئن إليها قلبــه ويستعين بإيمانه فيها إلى مصيره فى هذه الحيــاة ، وهو لا يركز كـلامه فيما يتردد عند عامة فقهائنا من أن الإسـلام هـو دين الفطرة بل يقول : إن الوثنية هى ديانة الفطرة الأولى وإن الوصول إلى التـوحيد مرحلة فكرية عــالية لم يصل إليها الإنسـان إلا بهدى من الله ، وقد حاول كارل بارك Karl Barth أعظم اللاهوتيين فى عصرنا أن ينقض رأى ابن حزم ليقول : إن الوصول إلى التوحيد كان نتيجة للفكر الإنسانى فلم يستطع ، وتكلم ليفى شتراوس عن فكرة التوحيد وحاول أن يجد لها طـريقًا عقليًا يمر بإخناتون فلم يوفق ، والمستشرق الأسبانى ميجل آسين بلاثيوس Mijuel Asin Palacias يقف هنا إلى جــانب ابن حزم ، وفى ندوة كبرى عقـدت فى السوربون سنــة ١٩٤٦ قدم آسين رأى ابن حزم وحججــه المنطقية ولم يستطع الصمود لــه كبار المفكـرين الماديين الذين ينكرون النبوات والوحى جميعًا ، وآسين دون شك هو الرجل الوحيد الذى أعرف أنه قرأ ابن حزم كامــلاً حتى كتبـــه الفقهية الخالصـــة مثل « الإحكام فى أصول الأحكـــام »

و « المُحلىّ فى الفقه المُعلى » وهى كتب فقهية لا يصبر على مطالعتها إلا أهل التخصص فى الفقه وكل هذه قرأها آسين بلاتيوس ، وكتابه عن ابن حزم ضخم يقع فى خمسة مجلدات وقد دخل به آسين عضوًا فى مجمع اللغة الإسبانى ، وقال يومها دوق إلبا رئيس المجمع : إننا نستقبل اليوم عضوين فى مجمع الخالدين ابن حزم القرطبى وآسين بلاتيوس . ومن ذلك الحين أصبح ابن حزم جزءًا من تاريخ الفكر الأسبانى وهذا شىء مستغرب لأن ابن حزم فى دراسته كلها يقف على أرض صلبة جدًا من الإيمان بالإسلام وكتاب الله وسُنة نبيه ، والمفكرون من أهل الغرب لا يقبلون هذا الموقف أصلاً ولكنهم قبلوه من ابن حزم لأن الرجل علامة متبحر فعلاً ، فهو يتحدث عن اليهودية حديث الدارس المتمكن ، وكلامه عن النصرانية كلام لاهوتى متخصص فى مذاهب النصرانية وهو يتدرج فى الكلام حتى ينتهى بك فى كتاب « الفصل » إلى الإسلام ، وهنا فقط يقول : إن الإسلام دين الفطرة ويورد الأدلة على أن الإسلام منحة الله الكبرى لأهل العقول .

وكنت أود أن أحدثك عن كتاب « طوق الحمامة » وهو رائعة ابن حزم فى الأدب الجميل المبتكر ولكنك لا بد قد قرأته أو عرفت عنه ما يعنيك ، وابن حزم فيه رجل صريح لا يخفى شيئًا فهو يقص عليك تجاربه فى الحب وعلاقاته مع النساء حديث المسلم العفيف ، فهو يؤكد لك أنه لم يرتكب معصية قط ولا قارف ما يغضب الله ، إنما هو رجل صادق قوى يتحدث دون خوف من الناس وحسبه خوفه من الله سبحانه .

ولكن صوت ابن حزم تردد فى ظلام ليل الأندلس ، فقد كانت الأندلس كلها قد اشتعلت نارًا واستسلم الناس فيها إلى اليأس وانقطاع الأمل وتركوا الأمور تجرى فى أعنتها إلا هذا القلب اليقظ والعالم المناضل الذى يبدو لنا بحياته ونشاطه وحماسته كرجل وجد الناس نياماً فأطلق شكاته تشق سكون الليل فتقلب الناس فى مضاجعهم وتململوا من هذا الذى حاول إيقاظهم من السبات فلعنوه وشتموه ثم انقلبوا على الجانب الآخر واسترسلوا فى نوم القرون .

* * *

أَبُو الْعَلَاءِ الْـمَعَرِّى : نُورُ الظَّلَام
أَبُو الطَّيِّبِ الْـمُتَنَبِّى : ظَلَامُ النُّورِ

عندما نصل إلى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى تنتابنا حيرة كبرى . فهذا هو عصر التدهور السياسى المحزن . إنه عصر البويهيين والقرامطة والفاطميين ، الذين زلزلـوا قواعد الحكم فى عالم الإسـلام ، الحاكم البويهى الديلمى المهيمن بسلطـانه على خليفة المسلمين فى بغـداد يصبح عمليًا رئيس عصـابة لصوص ، وأمـوال الناس تجمع بالقهـر وتنفق فيما يضر أمة الإسـلام ، والقرامطة يغيرون على العـراق والشام ومصر والحجاز ويسرقـون الحجر الأسـود ، والخليفة الفاطمـى فى مصر والشام يضع أبشع نظام لاستخـراج الأموال من الناس ، ومصر قبل الفـاطميين كانت أكبر بلـد صناعى فى عالم الإسلام . كنا نصدر للعالم كله ـ شرقًا وغربًا ـ ورق الكتابة من البردى ، ومصانع النسيج فى تنيس وشطا ودبيق كانت تصنـع نصف النسيج المستعمل فى العالم العربى كله ، فأفنى الفاطميـون ذلك كله ، والأعراب أحرقوا أشجار مصر والمقـريزى يقرر ذلك عندما نقطع الأشجار تحترق الزروع .

هذه هى أسباب ما يسمى بالشدة أو المجاعة المستنصرية ، ومصر التى كانت تطعم العالم جـاعت ، والخليفة الفـاطمى جلس فى قصره على حصير وفى رجله قبقـاب . جلس ينتظر رغيفين تـرسلهما إليه إحدى المحسنـات ، وبغداد مـدينة النور أصبحت مـدينة الظلام ، والخليفة العباسى أصبح موظفًا بويهيًا ، وفقيه لا يخاف الله يسمى أبا الحسن على الماوردى يكتب فى السياسـة كتـاباً يسميه « الأحكام السلطانيـة » ، يحلل فيه ولاية اللص والسارق والفاسق والمجنـون ، وأهل العلم فى عالم الإسلام لا يعرفـون إن كانوا يبكون أو يضحكون ، وفى شرق إيران تقوم دولة بويهية أخرى على رأسها ركن الدولة ، وتدخل فيهـا الرى وهمذان وأصفهـان ، بعد قليل تقع الحرب بين ركن الـدولة وديلمى آخر يسمى وشمكير بن زيـار الديلمى ، كل البويهيين ينتسبون إلى الـدولة إلا وشمكير هذا ، أخيرًا ينتصر ركن الدولـة وأولاده يرثونه ، كل بلاد العـراق وفارس تصبح قسمة بين فخر الدولة وعماد الدولة ويمين الدولة وزفت الدولة .

فى بلاد الموصل وحلب تقوم دولة عربية ذات صيت بعيد عندنا هى الدولة الحمدانية (٣١٧ ـ ٣٩٤ هـ / ٩٢٩ ـ ١٠٠٣ م) نحن نخدع أنفسنا فى أمر بنى حمدان هؤلاء ، وخاصة الفرع الحلبى الذى يتولاه سيف الدولة أبو المحاسن على (٣٣٣ ـ ٣٥٦ هـ / ٩٤٤ ـ ٩٧٧ م) ، هذا هو صاحب المتنبى الذى يزعمون لنا أنه كان يحارب الروم وينتصر عليهم ، ويقولون : إنه أنزل بالروم هزائم قاصمة واستولى على زبطرة وعرقة وملقية ، وهزم قسطنطين بن فردس الدمستق عند مرعش وأسره ، والحكاية كلها أقل من ذلك بكثير ، لأن قسطنطين هذا كان شابًا صغيرًا فى الجيش البيزنطى كان يخدم فى جيش الامبراطور « قسطنطين ليكابينوس » (٩٢٤ ـ ٩٤٥ م) فى فترة من أضعف فترات تاريخ الدولة البيزنطية ، والقائد فردس هو Pordas Damasticus ولم يكن من كبار رجال الدولة ، وستنهض الدولة البيزنطية بعد ذلك فى أيام قسطنطين السابع الملقب بلابس الأرجوان (٩٤٤ ـ ٩٥٥م) Porghyrs Genitus وتتمكن جيوشها من غزو بلاد المسلمين وعبور نهر الفرات والاستيلاء على أنطاكية فى الفترة الثانية من تاريخ الأسرة المقدونية ، وقد تمكن خلالها بعض أباطرة الدولة من أمثال نقفور فوكاس (٩٦٣ ـ ٩٦٩ م) ويوحنا تسيصكيس الذى يسميه العرب يوحنا الشميشق (٩٦٩ ـ ٩٧٦ م) من غزو شمال الشام والتمهيد للحروب الصليبية وغزو الفرنجة لبلاد الشام .

كان هذا القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى عصرًا عسيرًا على أهل الإسلام ، فقد وهنت فيه قواهم واشتدت الخصومات بين حكامهم حتى خيف على مصير الإسلام ، وزاد الخطر عليهم عندما انتقلت الدولة الفاطمية من إفريقية إلى مصر سنة (٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م) واشتد الصراع بينها وبين الدولة العباسية ولا تسل عن سوء حال الناس فى ذلك العصر ، وسنرى أن تشاؤم أبى العلاء المعرى كان يرجع إلى حد كبير إلى سوء أحوال المسلمين .

* * *

ومن عجب أن هذا العصر بالذات حفل بعدد من فحول الشعراء الذين يعدهم النقاد قممًا للشعر العربى على مر العصور وإليك بعض الأسماء ـ وأنت تعرفها كلها ـ مع تواريخ حياتها :

أبو الطيب المتنبى (٣٠٣ ـ ٣٥٤ هـ / ٩١٥ ـ ٩٦٥ م) .

أبو فراس الحمدانى (٣٢٠ ـ ٣٥٧ هـ / ٩٣٢ ـ ٩٦٨ م) .

الشريف الرضى (٣٥٩ ـ ٤٠٦ هـ / ٩٧٠ ـ ١٠١٦ م) .

أبو العلاء المعرى (٣٦٣ ـ ٤٤٩ هـ / ٩٧٣ ـ ١٠٥٨ م) .

أبو بكر أحمد بن محمد الصنوبرى المتوفى (٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م) .

وهؤلاء وغيرهم كثيرون يعدون من أعاظم شعراء العربية على مر العصور ، ولكن واحدًا من هؤلاء الكثيرين لم يشعر بالواقع الأليم الذى كانت تعيشه أمة الإسلام والعروبة فى ذلك العصر ، كما شعر به أبو العلاء المعرى ، بينما كان كل من ذكرنا من أهل المواهب الشعرية الباهرة قد انفصلوا تمامًا عن واقع أمتهم العربية ولم يهمهم فى شىء تعاسة الناس وانعدام الأمان على النفس والمال والأهل والولد وضياع الإنسان العربى وشيوع شكوك الناس وانتشار الآراء الضالة المضلة ، وانصرفوا عن ذلك كله كأنهم كانوا يعيشون فى كوكب آخر ، فأنفقوا ملكاتهم وأشعارهم فى غزليات كاذبة ومدائح شائنة استجداء للمال ، بل إن بعضهم مثل مهيار الديلمى ـ وهو عبقرية شعرية لا شك فيها ـ كان يقول القصيدة العصماء فى استجداء فرو خروف أو ثوب أو أكلة ثريد .

هنا نعرف قيمة أبى العلاء المعرى ، وهو بصدقه وإخلاصه وإحساسه المرهف بآلام البشر وإنسانيته التى تروع النفس ، يعتبر دون شك من أعاظم شعراء الإنسانية على الإطلاق ، فهذا الرجل الذى حرم نور البصر من سن الثالثة ، وشوه الجدرى وجهه حتى أصبح يخجل من أن يطلع بوجهه على الناس ، رزقه الله بصيرة منيرة يرى على ضوئها كل حقائق الحياة ، وفى حالته وحالة غيره من الشعراء يصدق قول الله سبحانه فى آية تروع النفس من سورة الحج ، وسآتى هنا بها وبآيات قبلها ليكتمل فهم القارىء لها وإحساسه بها ، فإنه لا يفسر القرآن إلا القرآن (٢٢ / ٤٥ ـ ٤٦) **﴿ فَكَأَيِّنْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا * أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ ﴾** فأما

القرية التى أهلكها الله وهى ظالمة فهى إشارة إلى بلاد الإسلام التى ظلمت نفسها فسلط الله عليها الهلاك ، وبلاد الإسلام كانت بالفعل خاوية على عروشها ، والمسلمون هم الذين خربوها بأيديهم ، والبئر المعطلة إشارة إلى منابع الخير التى تعطلت بفعل الحكام الظالمين الذين يسكنون القصر المشيد ، وهو معطل أيضًا بسبب الدسائس والمؤامرات التى كانت تملأ الحجرات والأبهاء والدهاليز .

وأما الذين لم يسيروا فى الأرض ليروا الحقائق ويسمعوها ويتحدثوا بها فهم أولئك الشعراء والكتاب الذين عاشوا وماتوا فلم يروا إلا قصور الخلفاء والأغنياء التى وقفوا على أبوابها يتسولون وعيونهم مفتوحة ولكنها لا ترى من الحق شيئًا لأن قلوبهم فى الصدور عمياء ، إلا قلب أبى العلاء فهذا الرجل كان يرى ببصيرته المنيرة كل شىء ويحس كل شىء حتى آلام الحشرة الصغيرة كان يحس بها ، واسمع إليه يقول :

تسريح كفك برغوثاً ظفرت به أبر من درهم تعطيه محتاجًا

كلاهما يتقى ، والحياة له عزيزة ، ويمنى النفس مهتاجًا

وهذا فى إحساسى .. أعظم شعر قاله إنسان . تصور أن أبا العلاء يدعوك إلى تسريح البرغوث الذى تظفر به يدك رحمة به ، وهو يرى ذلك من أعمال البر وهو أفضل عنده من الإحسان إلى محتاج بدرهم ، لأن البرغوث مسكين لا حيلة له فى إيذاء الناس بخرطومه الذى يدسه فى جسدك ليشرب دمك ، فهذه طبيعته وهكذا خلقه الله وهو إذ يفعل ذلك لا يشعر أنه يؤذيك وإنما هو يتقى الموت ويمنى النفس بالحياة مهتاجاً أى سعيدًا بها مقبلاً عليها ، مثله فى ذلك مثل المحتاج الذى ينتظر منك الدرهم ليأكل ويتقى الموت ، وأبو العلاء بمثل هذا الإحساس الإنسانى المرهف يرتقى عندنا إلى مستوى من الإحساس رفيع ، وهذا الإحساس هو الذى جعله وهو الكفيف البصر يرى حقائق الحياة حوله ويحس تعاسة الناس وظلم الحكام ويقول :

يارب أخرجنى إلى دار الرضا عجلاً فهذا عالم منكوس

ظلوا كدائرة تحول بعضها من بعضها فجميعها معكوس

وأرى ملوكًا لا تحوط رعية فعلام تؤخذ جزية ومكوس

واستمع معى إلى الدكتورة عائشة عبد الرحمن ـ بنت الشاطىء ـ تقول فى كتابها

البديع عن أبى العلاء المعرى (ص ٢٢٣) : فهو وحده - ولا أحد سواه - من يجرؤ على أن يصدع جبروت الحكام وطغيان الولاة بمثل قوله :

مل المقام . فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

وتأمل معى قوله إن هؤلاء الأمراء هم أجراء الأمة التي يظلمونها ، فهذه مقالة رجل يفهم من شئون الحكم والحكام قدرًا لا يقل عما فهمه جان جاك روسو ، وفولتير ، وسان سيمون وكل مفكرى الثورة الفرنسية وعصر الأنوار .

واقرأ معى قول أبى العلاء :

يسود الناس زيد ثم عمرو كذاك تقلب الدولات دولة

ورب شهادة وردت بزور أقام لنصها القاضى عدوله

ومن شر البرية رب ملك يريد رعية أن يسجدوا له

أجل ، فالقاضى يقبل شهادة الزور ويستعين فى ذلك بشهود يعرف أنهم مزورون ، ولكنه يعتبرهم عدولاً أى أهل عدالة ، والحاكم يريد من الناس أن يسجدوا له .

لأمر ما أحس أن أبا العلاء يشير هنا إلى ملك مثل عضد الدولة البويهى وإلى قاضٍ مثل أبى الحسن الماوردى .

وهل نفذت بصيرة رجل إلى مثل ما وصلت إليه بصيرة أبى العلاء ، عندما قال ساخرًا من حكام العصر وفقهائه :

لم أرض رأى ولاة لقبوا ملكاً بمقتدر وآخر قاهرًا

هذى صفات الله جل جلاله فالحق بمن هجر الغواة مظاهرًا

كم قائم بعظاته متفقه فى الدين يوجد - حين يكشف - عاهرًا

وعلمت قلب المرء يغرق فى هوى دنياه . خاب مكاتماً ومجاهرًا

أتعرف سر قوة أبى العلاء وشجاعته ؟

لقد استغنى عن الدنيـا والناس ، وزهد الراحة والنعيم ، أصيب بالعمى والـدمامة وهو بعـد فى الثالثة من عمره ، فـانكب على العلم يدرس ويحفظ وقد رزقه الله عقـلاً كله نور وذاكـرة واعية لا نظن أن إنسـانًا وهب مثلهـا ، كان يقرأ الكتاب الكبير مـرة واحدة فيحفظ كل ما فيه : هكـذا يقول المؤرخون ، وهذه مبالغة لا شك والحكـايات هنا كثيرة جدًا وليس من الضرورى ـ لكى نعرف قوة ذاكـرة أبى العلاء ـ أن نصدق أنه سمع مرة رجلين أعجميين يتشاجران بلغة تركيـة أو فارسية لا يفهمها ، فلما دعى للشهادة قص كل ما سمعه من كلام أعجمى كأن ذاكرته شريط تسجيل .

وبهذه الذاكرة وعى أبو العلاء كل علوم عصره وكل ما وصلت إليه البشرية من علم قبله ، ولكن الذى وهبه أبو العلاء من الإحساس الإنسانى كان أعظم لقد كان إحساسه الإنسـانـى مرهفًا يحس بكـل شىء ، لقد أحس بـدمامـة وجهه بعـد الجدرى فقرر ألا يتزوج ، لم يشأ أن يضايق أى امرأة أو جـارية لا يعجبها وجهه وبعد فترة قصيرة من الشباب حاول فيها أبو العلاء أن يقهر سجن الظـلام الذى فرضه القدر عليه ، اقتنع أن الحياة لا تساوى العناء فذهب إلى حلب ـ قـرب قريته معرة النعمان ـ ليستصفى ما فى خزائن كتبها من علم ، وعاد إلى قريتـه ثم نهض مرة أخرى إلى بغداد حيث رأى علماؤها فيه عقلاً عجيبـاً وعلماً أعجب ، لقد اعترف الناس هناك بفضله وعلمـه وتأكدوا أنه أعلم أهل زمـانه وأشعرهـم ، بهذه الشهادة وصل أبو العـلاء إلى ذروة ما يطمح إليـــه رجل العلم ، فكَرَّ راجعًا إلى قريته حيث حكم على نفسه بالسجن فى بيته بقية العمر ، وقد طال عمره حتى نيف على الثمانين لهذا سموه رهين المحبسين ، كان الناس يزورون بيته من أقطار العالم الإسـلامى ليروا عجيبة عصره علمًا وشعرًا ، كما كان أهـل أوربا يزورون فايمار ليروا جيته عجيبة أهل الشعر فى عصره ، كان يقرىء الدروس على من يلم به من طلاب العلم La Poesie Andalovse Enarabe Elassique au xo Siécle La Ecat-ologia Musulmana en La Comedia Divina ويملى على كاتب له مـا يشاء ، كان ذهنه خصبًا جدًا ومؤلفاته تعد بالعشرات منها هذا الكتاب العجيب الذى يسمى برسالة الغفران ، وهى عمل أدبى ممتع فريد فى بابه صـاغه أبو العلاء فى صورة رد على رسالة بعث بها إليه رجل يسمى على بن منصـور الحلبى المعروف بابن القـارح ، وابن القارح وجه إلى أبى العلاء بضعة أسئلة فى الأدب والفلسفة والدين والزندقة والتصوف وشئون

أخرى ، فصاغ أبو العلاء الرد فى صـورة أدبية رائعة لم يسبق إليها ، فقد تصور أن ابن القارح قام برحلة فى دار البقاء ليستجلى بنفسـه حقائق ماسأل عنه فركب جملاً كريمًا من جمال الجنة خلق من ياقوت ودر ، وسار فى الجنة على هواه أو على هوى الجمل يلقى أهل الجنة ، ورأى يوم الموقف وشهد ما فيه من هول وشناعة ، وقد أقام فى الموقف ستة أشهر ينتظـر الإذن فى دخول الجنة حتى أعيـاه الحر والتعب ، ثم تمكن من العودة إلى الجنة ولقى فيها نـاسًا وشعراء ، ثم قصد إلى النار فـركب دابة من دواب الجنة ومضى فمر فى طريقه بجنـة العفاريت (وهم جن مسلمون) ثم وصل إلى الجحيم فرأى إبليس مضطربًـا فى السلاسل والأغلال ، ويمـر فى رحلته تلك بعدد كبير من الشعـراء ورجال الأدب ، فرأى فى الجنة جماعة ممن كان يحسب أنهم فى النـار ، ورأى فى النار ناسًا كان يـرى أنهم لا بـد أن يكونـوا فى الجنـة ، فيسأل الأولين عن سبب الغفـران لهم ويسأل الآخرين عن سبب حرمانهم من الغفران ، فيقال له : إن هذا دخل الجنة ببيت من الشعر وذاك دخل النار ببيت من الشعر ، ولهذا سميت الرسالة برسالة الغفران .

والرسـالة ذات طابع قصصى جميل ، وأبـو العلاء يكشف فيها عن عـالمه الداخلى الغنى ، وهو عـالم مرح فيـاض بالدعـابة وخفـة الظل والذكـاء والفهم العميق لشئون الدنيا والناس وأسرار الوجود ، والكتاب مبتكر كلـه فى طريقته وأسلوبه وفكرته ، ولكنه عسير على الفهم ولهذا فإنى أنصحك ألا تقرأه إلا فى صحبة ناشرتـه ومحققته الدكتورة العلامة عـائشة عبد الرحمن ، التى أنفقت من عمـرها المديد ـ بإذن الله ـــ سنوات طوالاً أهدتنا بعدها النص الكامل المحقق لذلك العمل الفريد مع دراسات وشروح هى الغاية فى العمق والشمولْ .

ويحسب الكثيرون أن دانتى الليجيرى اقتبس فكرة الكـوميديا الإلهية من رسـالة أبى العلاء ، ولكن اثنين من أكابر الباحثين فى الغرب هما هنرى بيريس فى كتابه La Pa-sie Andagause en Arabe Elassijue aux, Siecle ، وميجيل آسين فى كتابـه عن صور قيام الساعة عند المسلمين والكوميديا الإلهية La Ssealelag, a Nusulmone en La Canedie Dioine أثبتا أن دانتـى لم يقرأ رسالـة الغفران ولا سمع بأبـى العلاء ، ولكن الذى حدث هو أن بعض صور الجنة والنـار فى رسالة الغفران دخلت فى تفاصيل قصـة المعراج التى بـدأت قصيرة فى حـديث معـروف رواه ابن عباس عـن عائشـة أم

المؤمنين ، ثم تطورت مع الزمن وانصبت فيها صور كثيرة جدًا من الأدب الشعبى العربى ، منها بعض الصور مقتبسة من رسالة أبى العلاء وبعضها مقتبس من رسالة « التوابع والزوابع » لابن شهيد الأندلسى وواحدة من تلك الصور الشعبية لقصة المعراج هى التى وصلت إلى دانتى فسطا عليها ونال بها المجد ، كما أثبت ذلك آسين بلاتيوس وأنريكو شيرولى ، وقد فصلنا أمر ذلك فى كتابنا عن تاريخ الأدب الأندلسى .

* * *

ولا أدرى لماذا أشعر كلما قرأت شيئًا من شعر أبى العلاء قفزت إلى ذهنى القصيدة الذائعة الصيت لتوماس فيرنز اليوت T . S . Eliat وهى الأرض اليباب أو الويست لاند والفرق بين حياة أبى العلاء وحياة ذلك الشاعر الإنجليزى الأمريكى المولد جسيم ، فقد كان أبو العلاء شقيًا بنفسه وبالدنيا والناس فى حين أن اليوت عاش ناعماً رخى الحال ، وإذا كان شعر الموت والضيق بالحياة طبيعيًا من أبى العلاء ، ويكفينا فخرًا بأبي العلاء أنه عبقرية عربية من أهل القرن العاشر فاقت بمراحل أعظم عبقرية شعرية غربية من أهل القرن العشرين فإن الأرض اليباب غير طبيعية من ت . س . اليوت ، ولكن العبقريات تتلاقى وقد لقى اليوت من الكرامة بقصيدته تلك أضعاف ما لقي أبو العلاء بشعره العظيم ، مع أنه دون شك أشعر وأعمق ، واليوت فى قصيدته متكلف مسرف في الإغراب ، وفى قصيدته أبيات إغريقية وأخرى لاتينية أو المانية أو إيطالية وهو يعرض فى كلامه علمه الواسع بالآداب واللغات ، وقد شقيت أنا بها زماناً حتى أسعفنى الحظ بترجمتها مع شروح فياضة قام بها الأستاذ الأديب العراقى مولدًا المصرى روحًا وخفة ظل الدكتور عبد الواحد لؤلؤة .

رحم الله أبا العلاء ، لقد عاش فى ظلام ومن الظلام عم الدنيا بأنوار قلبه وبصيرته ولم يكتف بحبس نفسه فى بيته بل حرم نفسه الزواج وحرم على نفسه أكل اللحم والبيض وشرب اللبن وأكل العسل ، لأن الحيوانات والأسماك فى رأيه خلقت لتعيش وتسعد لا لكي تذبح وتخرج من الماء فتختنق وتؤكل ، والدجاجة تبيض لنفسها لا للناس ، واللبن تصنعه الحيوانات لأولادها ، والعسل يخرجه النحل لنفسه ، فبأى حق نسطو على ذلك كله ؟ فاسمع لهذا الإنسان الصافى الرفيع يقول :

فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالمًا	ولا تبغ قوتاً من غريض النبائح
ولا تفجعن الطير وهى غوافل	بما وضعت فالظلم شر القبائح
ودع ضرب النحل الذى بكرت له	كواسب من أزهار نبت فوائح
فما أحرزته كى يكون لغيرها	ولا جمعته للندى والمنائح
سحبت يدي من كل هذا وليتنى	أبهت لشانى قبل شيب المسائح

وأبو العلاء فى البيت الأخير يأسف لأنه لم ينتبه إلى ذلك كله قبل أن يشيب شعره ، وأبو العلاء عربى صميم من فرع من قبيلة تنوخ ، نزل جنوبي حلب فى شمالى الشام وسكن قرية معرة النعمان ، واسمه أحمد بن عبد الله بن سليمان ، ولد ونشأ فى بيت كريم موسر وعاش خمساً وثمانين سنة كلها نور وخير وبركة للناس ، وكلها شقاء وتعب وحرمان له، وقد عبر عن رأيه فى الحياة ببيت من الشعر أمر بأن يكتب على قبره :

هذا جناه أبى علىّ	وما جنيت على أحد

* * *

ومن أبى العلاء أنتقل بك إلى أبى الطيب أحمد بن الحسين الجعفى المعروف بالمتنبى (٣٠٣ ـ ٣٥٤ هـ / ٩١٥ ـ ٩٦٥ م) ، وهو أشهر شعراء العربية على الإطلاق ، وكنت أحب أن أختصه بحديث وحده ولكننى ـ صدقنى ـ لم أجد عند المتنبى ما أملأ به حديثًا كاملًا ، وهذا ليس تاريخاً للأدب العربى ، وإنما هو تاريخ للفكر . ونحن هنا نبحث عن الأفكار الأصيلة النابعة من الإسلام أولاً ، ثم من العروبة ثانيًا ، والآراء التى تعطى الفكر العربى قيمته الحقيقية وهذا هو ديوان أبى الطيب بين يدى أقرؤه ربما للمرة العاشرة وهو حافل بالشعر العظيم البليغ الرنان ، فإن الرجل قد وُهِبَ ملكة فريدة جدًا فى صناعة الشعر وكان مثله فى ذلك مثل أبى العلاء غاية فى الاطلاع والعلم والذكاء ، وكان إلى جانب ذلك رجلاً فخمًا عظيم الهيئة جميل الصورة وفارسًا نجدًا يبهر العيون ، ولكن شعره العظيم كله يدور حول موضوع واحد هو أبو الطيب المتنبى ، فقد عاش الرجل فى الدنيا وكأنه ينظر فى مرآة ليس فيها إلا رسمه ، والدنيا كلها عنده حاشية على

حياته ، ومهما تقرأ من شعره فأنت لا تجد فيـه إلا المتنبي ، وهو يفخر بنفسه من مطلع الديوان إلى آخره وليس فى قلبه مكان لغيره من البشر وأبو العلاء كان يقول :

فـــلا هطلت على ولا بـأرضـى   سحـــائب ليس تنتظم البـــلادا

أما أبو الطيب فيقول :

ملث الغيث أعطشهــا ربــوعــا   وإلا فــاسقهــا السم النقيعــا

رجل يقول : إذا لم تمطر السماء على البشر أجمعين فأنا لا أريد المطر ، ورجل يقول اللهم أحـرق الأرض وأعطش أهلهـا أو اسقهم السم ، رجل أخـرج النـور من الظـلام ، ورجل أخرج الظلام من النور .

***

وقد وهب الله أبـا الطيب المتنبي ملكة شاعـرية لا أظن أن أحدًا من العـرب قد وهب مثلها ، فهـو يأتى فى شعره بما يشبـه المستحيلات ، وقـد سبق أن أوردت من شعره فى سياق كـلامى عن أبى بكر البـاقلانى كيف استطـاع أن يصنع من اسم عضد الـدولة البويهى وألقابه كلها شعرًا صحيحًا حيث قال :

أيـا شجـاع بفـارس عضـد الـدولـة   فنـــاخسرو شهنشـــاهـــا

أســاميــا لم تــزده معـــرفـــة   وإنما لـــذة ذكـــرنـــاهـــا

والبيت الأول هنا لا يتصور أحـد كيف صاغه هذا الرجـل ، والبيت الثانى يريك أن المتنبي أعجبه من نفسه أنه استطاع صياغة هـذا البيت فقال : إنما لذة ذكرناها ، وكأنه يريد أن يقـول هنا : إنما صغت هذا البيت لذة أو تلذذًا ، وهذا بـدوره يكشف عن ناحية أساسيـة فى فهم المتنبى وهى أن شعره لا يصـدر عن القلب إلا فى النادر ، فهـذا الرجل الذى يعتبره الكثيرون رمز العروبة أو لسان قوميتهـا ، قال هذا الشعر فى مدح عدو من كبار أعداء العروبة والإسلام وهو عضد الدولـة بن بويه ، فقد كان فارسيًا لحماً ودماً ، وكان مسرفًا فى دعـوة الشيعية الفارسية ، والإسلام محا رسم كسرى شـاهنشاه فجاء

هذا الشقى وأراد وضع شاهنشاه على رقاب أهل الإسلام ، ومع ذلك فقد كان يخدم الخليفة العباسى رمز السنة والجماعة وكانت دولة البويهيين كلها دولة « كفرة فسقة روافض » وليس هذا كلامى وإنما هو كلام فقهاء السُّنة المعاصرين لعضد الدولة ، ولا أدرى كيف رضى شاعر العروبة أن يهين نفسه بمدح هذا الرجل وأمثاله ، بل إنه مدح بشعره رجلاً تركيًا أو فارسيًا لا يكاد يفهم العربية واسمه تلِّير بن تشكروز ، وقد كنا نستنكر منه مدحه لكافور الإخشيدى طلبًا للمال ، ولكن ما ذنب أهل مصر حتى يهوى عليهم بلسانه ويقول فيهم ما لم يقله أحد فيهم ؟

تركنا أرض مصر لكل فدم	له باع يقصر عن ذراع
نفوس لا تليق بها المعالى	وأخلاق تضيق عن المساعى
أقمت بها ومن محن الليالى	مقام الأسد فى كهف الضباع
أقول ـ وقد نأوا ـ بعدًا وسحقًا	لشر الخلق فى شر البقاع

فإذا قلنا ـ على مذهب الكثيرين ـ إنه لم يذم بهذا الشعر أهل مصر بل حكامها إذ ذاك من الكافورية والإخشيدية ، فماذا نقول فى قوله إن مصر شر البقاع ، وقد كانت فى ذلك العصر أوفر بلاد الإسلام أمنًا وخيرًا ؟ ولكنه المتنبى الفياض القلب بالكراهية للناس أجمعين ، وأنا أعرف أننى أفجع بمثل هذا الكلام ناسًا كثيرين ممن ما زالوا يقولون : إن المتنبى شاعر القومية العربية وقد غضب علىَّ شيخنا محمود محمد شاكر لأقل من ذاك بكثير ، ولكنى أجد أن مؤرخ الأدب العربى فى عصرنا وهو شوقى ضيف يخرج الجزء الخامس من تاريخه العظيم للأدب العربى فى قرابة ٨٠٠ صفحة ، فلا يمنح المتنبى منها إلا تسع صفحات ، وهو يذكره ضمن شعراء المديح ولو استطاع شوقى ضيف أن يقول أكثر من ذلك لقال ولكنه لم يجد ، والحقيقة التى تخرج بها من ديوان المتنبى أن شعره كله مدح فى نفسه ، وأياً كان موضوع قصيدته فلا بد أن يدور فى نهاية الأمر على شخصه ، وهو يزعم لنفسه أن الله لم يخلق شاعرًا سواه .

***

فَلَاسِفَةُ الْعَرب :
وَضَعُوا الْفِكْرَ الْعَرَبِىّ فِى صَمِيمِ
الْفِكْرِ الإنْسَانِىّ !

هنا فى عالم الفلاسفة لا بد لنا من الحذر البالغ ، لا بد أن تعرف أين تضع رجلك قبل أن تخطو لأنك هنا فى معبد جليل له طقوسه ولغته ومصطلحه وكهنته أيضًا ، وبعض كهنة معبد الفلسفة يطلبون إليك أن تخلع نعليك وتتوقر وتتأدب وتتهذب وأولى قواعد هذا التأدب هى أن تترك خارج المعبد لغتك التى تعودت أن تستعملها وتستبدل بها لغة الفلاسفة ، وليس من الضرورى أن تفهمها المهم أن تستعملها ولن تكون أول من يفعل هذا فقد سبقك إليه الدكتور فاوست عندما أغواه مفيستو فيليس اللعين ورد عليه شبابه ووضع فى كفه يد هيلين لتمضى به فى عالم المتعة واللذات والضياع فى النهاية ، فقد قال له : لا بد أن تتكلم اللاتينية لا تقل الأرض ، بل قل تيرا ساكرا ولا تقل السماء بل قل كويليو لازولى ، لأننا فى عالم الفلاسفة هذا إذا جهلنا شيئًا وضعنا له مصطلحًا لاتينيًا عجيبًا يخفى جهلنا ، وهذا هو يا عزيزى هو الهوكوس بوكوس وهو مفتاح السعادة ورأس الحكمة .

ومعبد الفلسفة ولد إغريقيًا وسيظل إلى الأبد إغريقيًا فى روحه ومصطلحه وموضوعاته ، والأربعة الكبار فى تاريخ الفلسفة الإغريقية الذين عرفهم العرب وترجموا لهم وتأثروا بهم كانوا إغريقاً وثنيين ولم يعرفوا إلا الإغريقية والوثنية ، وكان جهد فلاسفة العرب منصبًا على إدخالهم الإسلام وتعليمهم العربية فلم يوفقوا فى ذلك وظلت الفلسفة فى جملتها شجرة غريبة فى تربة الفكر العربى ، ولهذا فلم يكن لها فيه أثر يذكر والذى حدث هو العكس : فلاسفة العرب هاجروا بفكرهم إلى عالم الغرب وأصبحوا مفكرين عالميين ، أولئك هم : سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو ، ثم أفلوطين وهو بلوتينوس الإسكندرى وهو مصرى إسكندرانى عاش بعد الميلاد فيما بين سنتى (٢٠٥ ٢٨٠ م) وإليه تنسب الأفلاطونية الجديدة أو النيوبلاتونيزم وقد عاش وثنياً ومات وثنياً ولكن أثره فى الفكر المسيحى الوسيط عظيم وقد عرفه الناس عن طريق تلميذه

فورفيريوس الصورى وقد تأثر به اللاهوتيون المسيحيون تأثرًا عظيمًا ، وكذلك كان له الأثر البعيد عند فلاسفة الإسلام ونحن مدينون فى معرفة ذلك للدكتور عبد الرحمن بدوى وكتابه الجليل « أفلوطين عند العرب » هؤلاء الأربعة الكبار هم شيوخ فلاسفة المسلمين ، وأنت لا تفهم الفيلسوف المسلم إلا إذا عرفت أستاذه اليونانى ، فابن سينا مثلاً أخذ أفكاره الفلسفية من كتب أفلاطون ، ولكى تفهم ابن سينا لا بد أن تعرف أفلاطون وكتبه ولغته ، وابن رشد كان مفتونًا بأرسطو ولا سبيل لك إلى فهم ابن رشد إلا إذا عرفت أرسطو وآراءه ولغته ومصطلحه ، ونتيجة هذا أن فلاسفة العرب اجتهدوا فى إنشاء لغة عربية فلسفية خاصة بهم وهى لغة عسيرة لم يبتكروها هم بل ابتكرها لهم المترجمون السريان أو نصارى الحيرة الذين تولوا نقل عيون كتب الفلسفة اليونانية إلى العربية مثل : يوحنا بن ماسويه ، وحنين بن إسحاق ، وقسطا بن لوقا ، وإسحاق بن حنين ، وهؤلاء كانت لغتهم العربية ركيكة جدًا بل هى أحياناً ليست عربية أصلاً فهى لغة خاصة تستطيع أن تسميها جريكو ـ آراب أو جريكو ـ سيرياكو آراب ، وقد تأثرت كتابات فلاسفة العرب بهذه اللغة فجاءت عربيتهم عسيرة على الفهم وهذا كان فى جملة الأسباب التى زهّدت جمهور المسلمين فى الفلسفة .

والفلسفة كلها كانت ضرورية ونافعة قبل الأديان السماوية ؛ لأنها كانت السبيل العقلى الوحيد لمعرفة أسرار الكون والوجود ، أما بعد الأديان وبالنسبة للمسلمين خاصة فلم تعد لها وظيفة فإن الإسلام فى ذاته نظام عقلى كامل وسبيل واضح لفهم أسرار الكون والحياة والموت ، ومن هنا فقد أصبحت الفلسفة كلها بالنسبة للمسلمين العارفين بأمور دينهم ترفاً عقلياً لا لزوم له ، ومن سوء حظ الفلسفة أنها دخلت عالم الفكر الإسلامى فى عصر تكاثرت فيه الزندقات والآراء الضالة وانحرافات غلاة الشيعة ودسائس المجوس ومن إليهم فاندرجت فى نظر أهل السُّنة والجماعة ضمن الأخطار الكبيرة على الإسلام وأهله ونفروا منها نفورًا شديدًا حتى قال بعضهم : إن الفلسفة مشتقة من السفه وهذا بدوره جعل طريق الفيلسوف شاقًا وعسيرًا وخطرًا فى عالم الإسلام ..

ولكن المسلمين فى عصر النهوض الفكرى العظيم لم يستطيعوا تجاهل الفلسفة فإن الإسلام أدخل فى نطاقه بلادًا كثيرة كانت أسماء سقراط وأفلاطون وأرسطو تدوى

فيها كالطبل ، والدنيا كلها كانت تقول : إن أرسطو هو المعلم الأول ، والفكر الإسلامى فى عصر السيادة كان متعطشًا إلى المعرفة ، فاقتحم عالم الفكر اليونانى وعرف كبار الفلاسفة ، وبعد أن أنشأ المأمون دار الحكمة تدفقت المعرفة الفلسفية فى ميدان الفكر الإسلامى تدفقًا وأقبل عليها الناس يدرسونها ويستكشفون ميادينها فوجدوا بالفعل أن مفكرين من أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو جديرون بكل احترام ولهم نظريات وآراء وسبل إلى المعرفة تؤيد الفكر الإسلامى وتزيده غنى وثراء ، فقد كان أولئك الفلاسفة الكبار رجالاً أفاضل آتاهم الله عقولاً نيرة وأخلاقًا فاضلة ومذاهب فى الحياة جميلة وخاصة فى نواحى التأمل وطلب المعرفة عن طريق الفكر والمنطق والخلوة والزهد فى مطالب الجسد ، لأن الإنسان إذا طوع شهوات جسده لمطالب عقله وروحه ازدادت بصيرته نفاذًا ، ومن هنا فقد اندفع نفر من طلاب المعرفة المسلمين نحو الفلسفة الإغريقية اندفاعًا شديدًا فقد رأوا فى تساميها على المادة عوناً لهم على صفاء النفس وسلامة الاعتقاد ، والفارابى عشق أفلاطون لأنه كان بطبعه ميالاً إلى الزهد فى الدنيا والخلوة بنفسه والتأمل ، ومن هنا فإن الباب الواسع الذى دخلت منه الفلسفة اليونانية ميدان الفكر الإسلامى هو باب الزهد فى الدنيا وطلب السمو النفسى عن طريق التأمل .

ثم إن الفلسفة اليونانية لم تدخل ميدان الفكر الإسلامى وحدها ، بل دخل معها من الفكر اليونانى الرياضيات والطب والهندسة وكل ما كان يطلق عليه اسم علوم الأوائل .

وإذا كان القليلون من الناس يحتاجون إلى الرياضيات فإن البشر جميعًا فى حاجة إلى الطب والدواء والعلاج ، ومن هنا فقد كان معظم فلاسفة المسلمين رياضيين وأطباء وبفضل الطب عاشوا ونجوا من الهلاك ، فالفارابى وابن سينا وابن طفيل وابن باجة وابن رشد كانوا أطباء ، وبسبب الطب رعاهم الملوك ولم يسمعوا إلى كلام الوشاة فيهم إلا فيما ندر .

ومن أسعد المصادفات التى أعانت الفلسفة على تثبيت أقدامها فى عالم الإسلام قيام دولتين من عظيمات دول الإسلام فى المشرق هما الدولة السامانية والدولة الغزنوية ، وقد قامتا فى ظل الدولة العباسية على مذهب أهل السنة والجماعة فى إيران وما يليها شرقًا من بلاد أفغانستان وشمالاً من بلاد ما وراء النهر ، فأما الدولة السامانية

فتدخل فى عداد الدول الفارسية (٢٦١ ـ ٣٨٩ هـ / ٨٧٤ ـ ٩٩٩ م) وقد مدت نفوذها على إيران وما وراء النهر ، وهى فارسية الاسم ولكنها عربية الروح سُنية المذهب ، وكان للكثيرين من سلاطينها ميول أدبية فكرية واشتهر الكثيرون منهم بسلامة الاعتقاد والإخلاص للإسلام على خلاف البويهيين ، وفى ظلهم عاش الفردوسى وكتب الشاهنامة بالفارسية ، وابن سينا الذى نال عندهم المنزلة الرفيعة ، وفى رعايتهم كتب مؤلفاته العظيمة ، ومثله فى ذلك أبو بكر الرازى الطبيب وهذان بالإضافة إلى أبى القاسم الزهراوى الأندلسى هم أعاظم أطباء الدنيا خلال العصور الوسطى كلها ، وفى أيام هذه الدولة أيضًا عاش وأزهر وألف أبو نصر الفارابى .

وأما الدولة الثانية فهى دولة الغزنويين وهم ترك خلفوا السامانيين فى شرقى إيران وما وراء النهر ثم دفعهم الصراع مع السامانيين إلى دخول الهند فهم أصحاب الفتوح العظيمة هناك وهم الذين وضعوا الأساس المتين للهند الإسلامية وهم منسوبون إلى غزنة من بلاد أفغانستان وقد دامت دولتهم فى أفغانستان والهند طويلاً (٣٥١ ـ ٥٨٢ هـ / ٩٦٢ ـ ١١٣٦م) وهم أتراك من أهل السُّنة والجماعة أيضًا ، وفى ظلال هؤلاء عاش وعمل علماء وفلاسفة كثيرون ذكرنا من بينهم أبا الريحان البيرونى .

ولن ندخل هنا فى تفاصيل فلسفات الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد فهذا مطلب عسير علىَّ ولا أنا أستطيعه وله أساتذته ورجاله ، ولكنى أقول بصفتى طالباً من طلاب المعرفة وخادمًا لها : إن الذى خرجت به بعد القراءات الطويلة هو أن أهمية الفلسفة فى تاريخ الفكر العربى والإسلامى ترجع فى المكانة الأولى إلى أشخاص الفلاسفة فربما لم يكن للفارابى وابن سينا مثلاً أثر يذكر فى صلب الفكر الإسلامى ولكنهما يعتبران رغم ذلك قمتين من قمم المجد فى تاريخ الفكر الإسلامى ، فقد كان الرجلان كما سنرى على خلق عظيم وإيمان بالإسلام ثابت ولهما صورة إنسانية مشرقة يزهى بها تاريخ الفكر الإسلامى وإذا كانا لم يوفقا إلى زرع شجرة الفلسفة فى التربة الإسلامية فقد نجحا إلى حدٍ كبير فى إضفاء ثوب إسلامى على أفكار أفلاطون وأرسطو وتم لهما ذلك نتيجة للجهد العظيم الذى بذلاه فى التوفيق بين مذاهب الفلاسفة وعقيدة الإسلام ، وعلى الرغم من سوء ظن عامة أهل السُّنة فى الفلاسفة عامة فإن الفكر الفلسفى الإغريقى دخل الفكر الإسلامى وكان له الأثر الطيب فيه ، وإن كان هذا الأثر

محدودًا ، وأهل السُّنة وإن نفـروا من أسماء سقراط وأفلاطون وأرسطـو فإنهم أخذوا عنهم الكثير من المنطق ومنهج الفكر وقوة الحجة وصحـة القياس وإذا أنت قرأت شيئًا من كتابات الفارابى وابن سينا عن أفلاطون وأرسطو خيل إليك أن هذين كانا مسلمين بالخلق والشخصية وأسلوب الفكر واحترام الرأى ونزاهة النفس ومثل هذا يقال عن ابن طفيل وابن باجة وابن رشد فى الأندلس .

وليس أدل على عظيم تأثير الفكـر الفلسفى على الفكـر العربـى من أن المدرسـة الفلسفية أخرجت فى عصرنا هذا من أعـلام الفكر أضعاف ما أخرجت المدارس الأدبية أو التاريخيـة ، ولطفى السيد ومصطفى عبـد الرازق ومنصـور فهمى وإبراهيم مـدكور ونجيب محفوظ وزكى نجيب محمود والشيخ عبد الحليم محمـود وفؤاد زكريا وجورج شحاتـة قنواتى وعبـد الرحمن بـدوى ومحمد عبـد الهادى أبو ريـدة وأنيس منصور وتوفيق الطويل وحسن الساعاتى وعلى عبد الواحد واف ، كل هؤلاء وغيرهم كثيرون من مؤسسى الفكـر العربى الحديث تكونوا فى مـدرسة الفلسفة فلابـد أن دراسة الفلسفة فيها شىء لا يوجد فى غيرها من الدراسات .

والحق أن المسلم الحق لا يحتاج إلى الفلسفة ليفهم شئون دينـه ولكنه يحتاج إليها فى ضبط منطقه وصقل ذهنـه وتوسيع أفقه وتصـويب تفكيره وهذا هو الـذى غاب عن أهل السُّنة والجماعة عندمـا نفروا من الفلسفة وحاربوها ، فقد حسبـوها فى مجموعها محاولة للتشكيك فى حقيقة الدين والوحى والـرسالات أو حيلة للقضاء على الدين نفسه بمحاولـة الوصـول إلى حقائق الـوجود عن طريق آخـر غير طريق القـرآن فرفضـوها واعتبروها خطرًا على الدين ، وهم على حق فى هذا الموقف إذا ذكرنا ما تعرض له الإسلام من تدبيرات وأخطار جاء بعضـها من داخل أمة الإسـلام وبعضـها الآخر من خارجها مما ملأ قلوب أهل السُّنة والجماعة بـالفزع ولم يعد لديهم من هدوء النفس أو حسن الظن بالدنيا والناس ما يأذن لهم فى أن يستمعـوا إلى كلام فيلسوف يتحدث فى لغة هى أقرب إلى الألغاز أو شطحات غلاة الشيعة .

ومن هنـا فإن الفلسفة لم يكن لها من وجهـة النظر الإسـلامية وجـود حقيقى فى تاريخ الفكـر الإسلامى ، ولكن فلاسفـة المسلمين بما تميزوا به من فكـر سوى وخلق متين وزهد فى الدنيا وإقبال على كل ما يرتفع بـالروح عرفوا كيف يوسعون لفلسفاتهم مكاناً رحبًا فى تاريخ الفكر الإنسانى .

وهذا هو الذى يعنينا فى هذه الدراسة ولهذا فإننا سنديز الكلام هنا على خمسة من فلاسفة المسلمين بهروا الدنيا بمناهجهم فى الحياة والتفكير وما ألفوا من كتب جليلة وكذلك النتائج الباهرة التى وصلوا إليها على رغم ما زعمه إيرنست رينان وأمثاله من أن الفكر الإسلامى والشرقى عامة غير خلاق أو مبدع بطبعه وتلك دعوى واهية فندها وأحسن الرد عليها إبراهيم بيومى مدكور بمنطقه الرفيع وأسلوبه السهل الممتع .

ونبدأ بالكلام على الكندى أبى يوسف يعقوب بن إسحاق المتوفى (٢٥٢ هـ / ٨٦٦ م) فيلسوف العرب الأول وهو رجل فاضل ونفس متعطشة أبدًا إلى العلم والمعرفة ، ولد فى الكوفة فى بيت عربى كريم فأبوه كان فيما يقال عامل الكوفة ومعظم المؤرخين ينسبونه إلى شجرة ملوك كندة ، وفى الكوفة درس ونضج ذهنه وظهر أمره ثم مضى إلى بغداد واتصل بالخليفة المأمون وحظى برعايته واستهوته علوم الأوائل فدرس الرياضيات والهندسة والموسيقى والطب وأقبل على ما وجده فى دار الحكمة من كتب فلاسفة اليونان يلتهمها التهامًا ، ودار الحكمة معبد علمى أنشأه الخليفة المأمون للقيام بنقل علوم الأوائل إلى العربية على أيدى مترجمين ذكرنا بعضهم ، وكانت مذاهب الاعتزال فى أوجها فدخل فيها ولكن أمره لم يشتهر بين كبار المعتزلة ، وأقبل على التأليف فكتب رسائل كثيرة جدًا فى الرياضيات والهندسة والطب والنجوم والموسيقى ، ويقال إن عدد مؤلفاته بلغ حوالى ٢٨٠ مؤلفًا لم يبق لنا منها إلا رسائل قليلة منها رسالته إلى الخليفة المعتصم ورسالة أصغر كتبها لولى عهده أحمد وقد نشر الرسالتين مع دراسة طيبة الدكتوران أبو ريدة والخضيرى ، وهو يتكشف فى هاتين الرسالتين عن افتتان بالأوائل وعلومهم وبالفلسفة بصورة خاصة ، فهى عنده صناعة الصناعات وحكمة الحكم وهى علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الإنسان ، وغرض الفيلسوف هو الوصول إلى الحق عن طريق الفكر والتأمل والعمل ، ولكنه أغضب أهل السُّنة عندما قال : إن الفلسفة هى الجهد الذى يبذله الإنسان حتى تماثل أفعاله قدر استطاعته أفعال الله .

وقد جعل الكندى حياته عملاً كلها فهو لم يقتصر على الفلسفة بل درس الموسيقى وأتقن العزف وألَّف فى العلم الموسيقى ودرس الطب ومارسه وبرع فيه واشتغل بصناعة الأدوية وعالج صناعة السيوف وتكلم فى البصريات ، وهذا الجهد العظيم هو الذى طار باسم الكندى إلى أهل الغرب فى العصور الوسطى وبعض كتاباته التى ضاعت أصولها العربية نجدها اليوم فى ترجماتها اللاتينية .

والكندى مسلم صادق الاعتقاد فى كل مناحى تفكيره فهو على خلاف ما يتهمه به خصومه ، مؤمن بالله ورسله وكتبه وهو لا يسلم بكل آراء أرسطو كما فعل غيره من فلاسفة المسلمين ، وله كلام كثير جميل فى الدفاع عن النبوة والوحى وينسب إليه ابن النديم فى الرد على الملاحدة رسائل كثيرة .

وبلغ الكندى ذروة مجده أيام الخليفة المعتصم (٨٣٣ ـ ٨٤٢ م) ولكن نجمه أفل أيام المتوكل (٨٤٧ ـ ٨٦١م) الذى أبطل بدعة الاعتزال فأصابت الكندى محنة ونهبت داره وأعطيت كتبه لآل شاكر المنجمين فظلت فى حوزتهم حتى نالتهم المحنة بدورهم فنهبت دورهم وضاع ما فيها من الكتب بما فى ذلك كتب الكندى ، وقد مات الكندى بعد موت المتوكل بخمس سنوات سنة (٢٥٢ هـ / ٨٦٦ م) بعد أن سجل اسمه فى سجل الفكر العربى بصفته أول فلاسفة المسلمين ورائدهم فى ذلك الميدان .

وإذا كان أول فلاسفة العرب عربيًا صريحًا فكذلك كان آخر كبارهم وهو ابن رشد ، وكلاهما كان آية فى الذكاء والاطلاع والإقبال على العمل ، وهذه الحقيقة تنهض دليلاً ينقض ما ذهب إليه ابن خلدون من أن أعلام العلم فى الإسلام كانوا من غير العرب فى غالبيتهم .

وإذا كان الكندى رجلاً واسع المعرفة يضرب فى كل علم ، فإن أول فيلسوف حق فى تاريخ الفكر الإسلامى هو أبو نصر الفارابى (٢٥٩ ـ ٣٣٩ هـ / ٨٧٣ ـ ٩٥٠م) وهو تركى الأصل والمولد عربى الفكر واللغة والثقافة ، واسمه أبو نصر محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان ولد فى فاراب فى جمهورية قازاق السوفيتية اليوم فى شمال شرق نهر جيحون فى قلب آسيا ، ونشأ بطبعه زاهدًا متصوفًا عاشقًا للعلم والفكر محبًا للعزلة وقد دفعه حبه للعلم إلى الذهاب إلى العراق فدخل بغداد وقرأ الكثير من كتب الأوائل على يد أبى بشر متى بن يونس وكان من أقطاب المترجمين فى دار الحكمة ، وعلى يده درس كتاب المنطق لارستطاليس ثم مضى إلى هران فى شمال العراق وكانت داخلة فى إدارة سيف الدولة الحمدانى واتصل به الفارابى ودخل فى خدمته زمنًا قصيرًا ثم عاد إلى بغداد ليواصل دراسة فلسفة أرسطو ثم زار مصر سنة (٣٣٨ هـ / ٩٤٩ م) وعاد إلى حلب وعاش فى بلاد الحمدانيين حتى توفى سنة (٣٣٩ هـ / ٩٥٠ م) فى دمشق عن ثمانين عامًا .

وكان الفارابى من أهل الإخلاص للعلم والزهد فى الدنيا وخيرها فقد كان يستطيع أن يشغل أرفع المناصب ولكنه زهد فى ذلك كله وعرض عليه سيف الدولة الأموال فاكتفى منها بأربعة دراهم فى اليوم يقيم بها أوده ، وكان مع زهده بهى الطلعة حسن الصورة ميالاً إلى العزلة والخلوة بين أحضان الطبيعة ، قال ابن خلكان : إنه كان مدة مقامه فى دمشق لا يرى غالبًا إلا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض يؤلف كتبه هناك ، وقيل : إنه كان يسهر الليل فى مطالعة الكتب على مصابيح الحراس فما كان لديه مال لمصابيح توقد طول الليل .

وكان الرجل واسع العلم بالتركية والفارسية إلى جانب العربية ومع ذلك فإنه لم يدرس اليونانية أو اللاتينية وهذا أمر يدعو إلى العجب فما دام مفتوناً بكتابات أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان فلماذا لم ينفق بعض وقته فى دراسة اليونانية واللاتينية ليقرأ الكتب فى أصولها بدل الاعتماد على المترجمين ؟ يقول جميل صليب فى كلامه عن الفارابى : وترجع مكانة الفارابى إلى أنه أنشأ مذهبًا فلسفيًا كاملاً ، وقام فى الفلسفة العربية بالدور الذى قام به أفلوطين فى الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، وكما لقب أرسطو بالمعلم الأول فكذلك لقب الفارابى بالمعلم الثانى . وقد خلف الفارابى كتبًا كثيرة جدًا معظمها اقتباسات من أرسطو . أما آراؤه الفلسفية ففيها شكوك كثيرة لا يرضى عنها أهل الإيمان ولكنها أعجبت أهل الغرب فترجموا الكثير من كتبه إلى اللاتينية ، وهذه يد كريمة نحمدها له ، إنه واحد من أولئك الذين وضعوا الفكر العربى فى صميم الفكر الإنسانى ، والفارابى فى تاريخ الفكر الإنسانى شىء عظيم واسمه عندهم لاتينى الصورة الفارابيوس .

ولكننا نحن معاشر العرب والمسلمين نقرأ الفارابى ونشعر أنه بعيد عنا جدًا ، فهو عقل عظيم فعلاً ولكن قلبه خال مما نسميه نحن ببشاشة الإسلام وعندما أقرأ كتابه « آراء أهل المدينة الفاضلة » أحس أن هذا الرجل لم يقرأ القرآن قراءة تدبر مرة واحدة ولكنه قرأ كتب أفلاطون مرات ، وهو لا يعرف أمة الإسلام التى تقوم أساسًا على القلوب ، وإذا كان الغزالى قد قال : القلب خارج عن ولاية الفقيه ، فإننى أسمح لنفسى بأن أقول : الإسلام خارج عن ولاية الفارابى وإن عقله لم يكن مسلمًا لا ولا كان قلبه ، ونظريته فى النبوة ليست إسلامية ولا وجود للقرآن أو السُّنة فى فكره .

* * *

وندخل إلى عالم ابن سينا فنجد أنفسنا أمام رجل آخر كل ما فيه يحببه إليك ، فهو صورة إنسانية جميلـة ظاهرًا وباطنًا وهو فى داخل نفســه مسلم صادق يعرف القرآن معرفة جيدة حتى إن له فى تفسيره مشاركـة ، وهو فيلسوف بمعنى الكلمة يفكر تفكير الفلاسفة ويعيش حيـاة فيلسوف أبيقورى ، وهو يحب الحيـاة ويقبل عليها ويعيشها بكيانه كلـه وهو يؤدى صلواته ولكنه يجد متعـة فى شىء من الخمر وهو لا يخفى ذلك ولا ينافق ولا يتظاهر ولا يخدع نفسه أو الناس .

وابن سينا أبو على الحسين بن عبد الله بن الحسن بن على قضى عمره كله يتنقل فى نواحى إيران فلم يدخل بلاد العرب قط ولم يحج إلى بيت الله على قدر علمى إلا أنه أجمل مثال للفارسى المتعرب روحًا ومنطقًا ، ولد فى قرية أخشنة قرب بخارى سنة (٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م) وتوفى فى همذان سنـة (٤٢٨ هـ) بعـد حياة قصيرة لم تـزد على ٥٧ سنة ولكنها كانت حياة رحبة عميقة شاملـة فقد نال الوزارة وتمتع بالسلطان والجاه ، ولكن هواه الحقيقى كان العلم ، وقد أعطانا السمـرقندى فى كتاب « جهار مقالة » أى المقالات الأربع صورة بديعة لفيلسوف عالم وزير يبدأ نهاره قبل الفجر فيكتب ما تيسر له حتى يرفع أذان الفجر فيصليه مع تـلاميذه ويجلس إليهم بعد ذلك يعلمهم ثم يخرج إلى دار الـوزارة فى موكب يحيط بـه ألف فـارس ويعود إلى بيتـه بعـد ذلك فيتناول غـداءه ثم يستريح بعض الوقت ويصحـو فيصلى العصر ثم يمضى إلى أميره فيجالسه وينـادمه حتى صلاة المغرب ويعـود إلى بيته ليجتمع بتلاميذه حتى إذا فـرغوا من القراءة حضر المغنون وتهيأ مجلس الشراب بآلاته .

وقد وهب الله هـذا الإنسان الـرفيع عقلاً من نـور ونفسًا من صفاء ، فـأحاط بكل علوم عصره وألف شيئـًا عظيمًا جدًا فى كل فن ، وهو فيلسـوف عظيم وطبيب أعظم وقد طبَّقت شهرتـه الآفاق فى الطب ، وكتابه المعـروف باسم القانـون فى الطب طبع فى روما سنة ١٥٩٣ ، وكان قد ترجم إلى الـلاتينية فى القرن الثانى عشر وطبعت هذه الترجمة فى أوروبا أكثـر من عشرين مرة وظل الكتاب يـدرس فى جامعات الغرب إلى القـرن الثامن عشر وقد أحصى الأب جورج شحاته قنواتى من مؤلفاته ٢٧٦ رسالة وكتابًا تشمل كل فرع من فروع المعرفة ، وكتبه الرئيسيـة الثلاثة : الشفاء ، ومختصره المسمى بالنجاة ، والإشارات والتنبيهات مـوسوعات رفيعة المستوى . أمـا كتبه الإسلامية فمنهـا رسالة

التوحيد وإثبات النبوة ورسالة القضاء والقدر وقصيدة الجمانة الإلهية فى التوحيد ، وكتاب الشفاء يتناول قضايا الفلسفة الكبرى : المنطق والرياضيات والطبيعيات وإذا كان قد سار على نمط أرسطو فى مبادئه وابتعد عنه فى غاياته ومقاصده فمرد ذلك إلى نزعته الأفلاطونية ورغبته فى بناء فلسفة جديدة تجمع بين مبادىء الفلسفة اليونانية وأصول العقيدة الإسلامية (جميل صليب : تاريخ الفلسفة العربية ص ٢١٤) .

وقد ساهم ابن سينا ـــ أو افيسينا كما عرفه أهل الغرب ـــ فى بناء الفكر العالمى بأوفر نصيب وهو من مفاخر الفكر الإسلامى وما زال مشهد موته يؤثر فى نفوسنا إلى اليوم ، فقد كان الرجل شيخ الأطباء وشيخ المرضى فى آن معًا لأن حب الحياة وإقباله عليها أصابه بداء القولنج وهو الالتهاب المزمن المتقرح للمصران الغليظ وقد عجز عن مداواته ، فلما أيقن باقتراب المنية اغتسل وتاب إلى الله وتصدق بماله على الفقراء وأعتق مماليكه ثم أصابه نزيف حاد سقطت معه قوته وأسلم روحه لبارئها .

وننتقل إلى أقصى غرب مملكة الإسلام فنلقى حشدًا من أهل الفلسفة نقف منهم عند اثنين : ابن طفيل وابن رشد وهما أندلسيان .

فأما ابن طفيل فهو أبو بكر محمد بن عبد الملك القيسى (٤٩٤ ـ ٥٨١ هـ / ١١٠٠ ـ ١١٨٥ م) وأصله من وادى آش وهى مدينة جميلة فى مداخل جبال البشارات شمالى غرناطة ويسمونها هناك جواد يتس ، ودرس الطب والفلسفة وله فى الطب أرجوزة لم تطبع بعد ، أما شهرته فترجع إلى قصته الفلسفية المسماة بـ « حى بن يقظان » وهى حكاية طفل ولدته أميرة وأرادت التخلص منه فألقت به فى جزيرة مهجورة من جزائر الهند وهناك تبنته غزالة فأرضعته حتى نما وأدرك وأخذ يفكر فى أمر نفسه ثم التقى برجل فيلسوف زاهد يسمى آسال ، علمه الكلام والتفكير وما زال حى بن يقظان يتدرج فى التفكير مرحلة بعد مرحلة فى رعاية صاحبه آسال حتى وصل إلى العلم بالله ثم مضى مع آسال إلى عالم الناس فراعه ما وجد من شقاء الناس لغلبة الشهوات الجسدية عليهم فتركهم على حالهم وعاد إلى جزيرته مع صاحبه فعاشا ينعمان بلذة العقل والإيمان والتحرر من الشهوات حتى أدركهما الموت .

قصة جميلة نابعة من قلب مسلم مؤمن يجد المتعة الكبرى فى الوصول إلى الله عن طريق الفكر والاستنباط ولهذا فهى تسمى أسرار الفلسفة الإشراقية ، أى إشراق النفس

بنور الله ، وقد تـرجمت إلى لغات العالم أجمع ، وقد قال فيها غـرسيه خومس : إنها من أعاظم المؤلفـات التى أهداها الفكـر العربى إلى الفكـر العالمى ، أما أورتيجـا أى جاست فيلسوف إسبانيا الأوحد فقال إنه بعد أن قرأ قصة حى بن يقظان فى ترجمتها الإسبانية ارتفع الفكر الإسلامى فى نظره درجات .

وننتقل إلى أبى الوليد محمد بن رشد الأشبيلى (٥٢٦ـ٥٩٥ هـ/ ١١٢٦ـ١١٩٨م) الـذى عاش فى ظل الموحـدين مثله فى ذلك مثـل أستاذه ابن طفيل ، ونحن مع ابن رشـد نعيش مع فقيه مسلم متفلسف ألف فى الفقه الإسلامى كتابًا فـريدًا هو « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » ودافع عـن الإسلام والعقيدة السمحة فى كتابـه البديع « الكشف عن منـاهج الأدلة فى عقـائد الملة وتعـريف ما وقع فيهـا بحسب التأويل من الشبه المزيفـة والبدع المضلة » ، وأشـهر كتبه عندنا « فصل المقال وتقدير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصـال » وهو أحسن ما ألف المسلمون فى التوفيق بين مذاهب الفلاسفة ومذاهب أهل الاعتقاد .

أما فى الفكر العالمى فابن رشـد يسمى أفرويش وهو اسم عرف به عند أهل بلده من الأندلس فى حيـاته وسموه أفـرويش وهو أعظم من درس فلسفـة أرسطو ، وعكف على شرحها فى العصـور الوسطى ، وهو شيـخ أهل الغرب فيها ولم يقتصر جهـده فى ميدان الفلسفة على شرح أرسطو ، بل هـو فيلسوف أصيل وقد ترجمت كل مؤلفـاته وشروحه الفلسفية إلى اللاتينية وعكف عليها أهل العلم والفكر يدرسونها هناك وكانت من أصول الدراسة فى جامعات باريس وكيمبردج وسالرنـو ، فهو أستاذ من أساتذة الدنيا وشيخ من شيوخ الدنيا ، وفيه ألف إيرنست رينان كتاب « ابن رشد والرشدية » .

وقد شقى ابن رشـد بالفلسفة فقـد عاش فى عصر الموحدين (٥٢٦ ــ ٥٩٥ هـ / ١٢٢٦ ـ ١١٩٨ م) ورضى عنه الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن على ثانى خلفاء الموحـدين وغضب عليه خليفته أبو يـوسف يعقوب المنصور وتقـرب بإيذائه إلى الفقهاء والجماهير فأمر به أن يوقف فى مجلس فسيح وأمر الناس أن يمروا به ويبصقوا فى وجهه وهـذا كان عندنـا جزاء شيخ مؤمن غـامر بنفسه حبًـا فى العلم وأوسع للفكر الإسلامى مكانًا رحبًا فى تاريخ الفكر الإنسانى .

وحياة ابن رشد على هـذه الصورة توجز مصائر أهل الفكر الحر فى عـالمنا العربى غير السعيد ، وهو مصداق لما بدأت به هذه الفصول من أن القاعدة الجارية عندنا هى أنا أفكر فأنا غير موجود !!!

الصُّوفِيَّةُ : وَصْفَةٌ شَعْبِيَّةٌ لِعِلَاجِ أُمَّةِ الإِسْلَامِ مِنْ حَالَةِ اكْتِئَابٍ نَفْسِيٍّ جَمَاعِيٍّ

التصوف داخل عالم الإسلام وخارجه ظاهرة نفسية وجدانية ، ومن ثم فما كان ينبغى أن يكون له مكان فى بحثنا هذا عن تاريخ الفكر العربى ، ونحن مهما نقرأ من كتابات أعلام الصوفية فى الإسلام من الحارث بن أسد المحاسبى إلى أبى حامد الغزالى ومحيى الدين بن عربى ، فإننا لن نجد فيها فكرًا بل عاطفة ووجدانًا ، وحتى إذا وجدنا فيها فكرًا فإنه فكر خاص لا يفهمه أو يستسيغه إلا الذين أوتوا بطبعهم ميلاً وجدانيًا وتذوقًا روحيًا يمكنهم من الاستمتاع بكتابات الصوفية ، وإدراك مغازيها ومضامينها وهذا يفسر لنا كيف أن أكبر من أحب الفكر الصوفى الإسلامى ودرسه وكتب عنه هو رجل إنجليزى من أهل اليسار رينولد ألن نيكلسون Renolad Allen Nickalson وكان أستاذًا للغات الشرقية وحضارة الإسلام فى جامعة كيمبريدج ، وقد وهب معظم جهده لدراسة التصوف الإسلامى ، ومقدمته لكتاب « اللُّمَع » لأبى نصر السراج تدل على تذوق حقيقى لكلام صوفية المسلمين .

وقد نشر وترجم إلى الإنجليزية من كتب الصوفية المسلمين ما بين عربية وفارسية ما لم يدانه فيه أحد من المتخصصين فى التصوف والفلسفة عندنا ، هذا والرجل إنجليزى مسيحى ولا يعلل شغفه بالتصوف الإسلامى إلا بأنه هو نفسه كان صاحب مزاج تصوف ، وهذا المزاج هو الذى أعانه على تذوق كتابات السراج والعطاء وابن الفارض ومحمد إقبال وكانت فى إقبال - فيلسوف الشعر الإسلامى المعاصر - نزعة صوفية ظاهرة ولكنى عندما رددت النظر فى ظاهرة التصوف فى عالم الإسلام تبينت أنها فى مجموعها صورة من صور ردود الفعل التى نجمت عن الظروف السياسية والاجتماعية السيئة التى عاشت فيها شعوب أمة الإسلام من منتصف العصر الراشدى ، وهى ظروف جعلت تسوء عامًا بعد عام فإذا كان المسلمون أنصاف تعساء فى العصر الأموى فقد أصبحوا تعساء فى العصر العباسى الأول ، وتعساء بؤساء فى

العصر العباسى الثانى ، ثم تعساء بؤساء فقراء إلى بداية العصر العثمانى ، ثم تعساء بؤساء فقراء أشقياء بلا أمل فى النجاة إلى مطالع العصر الحديث .

وهذه الظروف السياسية والاجتماعية الأليمة التى عاشتها أمم الإسلام هى التى جعلتها كلها تدخل في حالة نفسية عامة يمكن أن نسميها بالاكتئاب الجماعى Eallac-tine de Jessian فلم يسلم من هذا الاكتئاب خليفة أو أمير أو خفير أو فقير ، فأما أهل القوة والغنى واليسار فقد التمسوا الخروج أو الهروب من حالة الاكتئاب هذه بإغراق أنفسهم فى بحار الخمر والقيان والنسوان ، وقد روينا فيما روينا حالة الخليفة المتوكل الذى أراد التخلص من القادة الأتراك الذين فرضوا سلطانهم عليه فدبر مؤامرة للفتك بهم ، وفي انتظار ساعة الصفر جلس مع ندمائه يشرب ويأكل حتى شرب أربعة عشر رطلاً أى كوبًا من الخمر ، وفى سكرة الخمر قتله ابنه وتولى مكانه ، وإليك هنا حالة الخليفة القاهر العباسى (شوال ٣٢٠ ــ جمادى الأولى ٣٢٢ هـ / أكتوبر ٩٣٢ ـ مايو ٩٣٤ م) ، الذى خلع وخلفه المستكفى فأراد القاهر أن يغيظ خلفه فخرج يوماً ووقف بجامع المنصور يطلب الصدقة من الناس وقصد بذلك التشنيع على المستكفى ، فرآه بعض الهاشميين فمنعه من ذلك وأعطاه خمسمائة درهم ، ولما علم المستكفى بذلك منعه من الخروج وظل محبوسًا إلى أن مات وذلك فى عهد الخليفة الطائع لله (٣٣٤ ـ ٣٦٣ هـ) (الفخرى لابن طباطبا ص ٢٤٩) فإن لم تكن هذه أحوال ناس مرضى نفسانيين فقل لى كيف يكون مرض النفس ؟

وإذا كان هذا هو حال الخلفاء فتصور أنت كيف كانت حال غير الخلفاء من عامة الناس ! حالة الاكتئاب الجماعى هذه هى التى أتاحت الفرصة للطامحين إلى السلطان وأذكياء المغامرين ليزعموا للجماهير المريضة البائسة أن الخلاص من مشاكلها لن يكون إلا على يد المهدي المنتظر ، وهو رجل من عترة المصطفى ﷺ يختاره الله سبحانه ويخرجه إلى الدنيا وقتما يشاء ليملأ الدنيا عدلاً ، وهو الآن مستتر وهم وحدهم يعلمون أين يكون لأنهم دعاته ، وهم درجات وطبقات ، ولكى يكون الإنسان من السعداء الذين تشملهم نعمة المهدى لا بد أن يؤدى الزكاة إلى الدعاة ، والداعى يأخذ الزكاة ويدس فى جيبه ما يشاء ويعطى الباقى للذى فوقه ، فالذى فوقه وهكذا حتى لا يصل إلا عُشر المجموع إلى المهدى المنتظر المستتر بقرية تسمى سلمية من بلاد الشام .

فتصور أن مجموع ما كان يصل إلى المهدى المستتر هذا بعد كل تلك السرقات أصبح مع الزمن أكداسًا تملأ سراديب حفرها تحت الأرض يبلغ طول بعضها كيلو مترات وعمقها فوق العشرين مترا ، وشيئًا فشيئاً اتسعت شبكة الدعاة هؤلاء حتى شملت كل بلاد الدولة الإسلامية ؛ لأن عملية الدعوة أصبحت أكبر بزينس Businss خلال القرن الهجرى الثالث ، وفى نهايته سنة (٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م) ظهر المهدى المنتظر فى القيروان فى تونس بعد تمهيد طويل ، وسمى نفسه عبيد الله المهدى فإذا به لا هو بمهدى ولا هو بمنتظر ، وربما لم يكن من نسل الرسول قط ، وأول ما فعله هو أن قتل داعى دعاته أبا عبد الله الشيعى وأخاه أبا العباس المحظوم وبموتهما ماتت أسرار الدعوة ومخازن أموالها وتلك هى الدولة الفاطمية التى أغرقت بلاد المغرب فى الدماء قبل أن تنتقل إلى مصر سنة (٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م) أيام خليفتها الرابع وهو المعز لدين الله ، والمعز انتقل إلى مصر بخلافته وأهله وجنده حتى عظام أجداده ، فقد أبى له كرمه إلا أن يقدمها هدية لأهل مصر الذين حلت بهم السعادة بحلوله فى أرضها ، ولكن أهم شىء حمله المعز إلى مصر هى أمواله وهذه لم يهدها إلى أهل مصر ؛ لأنها كانت قطارًا طويلاً من الجمال وكل جمل يحمل حجرى طاحون من الذهب الخالص وزنهما قنطار ، وهذه هى الطريقة العجيبة التى حمل بها هذا المعز قناطير الذهب التى تجمعت من أموال الزكاة والذى جمعه المعز وسلالته من أموال المصريين لم يسمع بمثله حتى أفلست مصر إفلاسًا وعرفت المجاعة الكبرى أيام المستنصر وتلك هى نعمة المهدى المنتظر الذى قال فيه شاعر عظيم هو ابن هانىء :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار ... فاحكم فأنت الواحد القهار

وهو بيت من الشعر يدخل به ابن هانىء هذا جهنم من كل باب .

أما أهل السُّنة الذين اعتصموا بالقرآن والسُّنة فلم يجدوا لأنفسهم علاجًا هو أنجع من التجمع والجمود والعودة إلى الماضي على ما وصفناه .

***

وبقيت هنا وهناك نماذج قليلة من البشر لم يعجبها الحل الشيعى ولا أقنعها الحل السُّنى ، وهذه اتجهت بنفوسها إلى الله مباشرة فهو سبحانه الشافى المعافى ، والطريق

الذى سلكوه إلى الله هو طريق الزهد والتخلى عن الدنيا والاعتصام بالفقر ؛ لأن الفقير المفلس لا يطمع فيه أحد فلا هو يخشى أن يعتدى عليه لص أو يقتله سلطان ، وهكذا أصبح المفاليس سعداء الدنيا وأكثرهم أمناً وأمانًا ، وقد حكى التنوخى فى « نشور المحاضرة » (مائدة الحديث) حكاية رجل ضاقت به الدنيا فركب حماره ووقف على باب أحد الأغنياء وقال له : أبيعك نفسى فأكون عبدًا رقيقًا لك وتطعمنى . فنظر الرجل إليه وقال : لا ، ولكن آخذ الحمار فهو أنفع . فقال الرجل : وتأخذنى معه أخدمه .

فى أمان الفقر ووراء درع الزهد مضى أولئك الناس يلتمسون الطريق إلى الله ، ولا بد أن نسلم أن هناك ناسًا يفطرهم الله على الشوق إلى المجهول والاتجاه إلى البحث عن راحة النفس فى الزهد وتعذيب النفس ، فكما يوجد فى الهند والصين ناس يجدون السعادة فى الخلوة والزهد وتعذيب النفس ، فقد عرفت المسيحية رجالاً مثل سمعان العمودى الذى قضى معظم عمره قاعدًا على رأس عمود رخامى يصلى لله ويتعبد من فوقه وكأنه لم يكفه هذا فصار يطلى نفسه بالعسل حتى تزحف عليه جيوش النمل والهوام ، وعندنا فى الإسلام وفى نفس القرن الثالث الذى ذكرناه رجل يسمى أبا سعيد ابن أبى الخير علق نفسه من رجله بحبل وتدلى فى بئر عامر بالهوام ووجد فى ذلك طريقًا للسعادة والخلاص .وهذا الطراز الفريد من الناس عرفوا عندنا بالصوفية قضوا أعمارهم باحثين عن الطريق إلى الله ، وبعضهم وصل إلى الاتصال بالله فى زعمه دفعة واحدة كأنما دعاهم الله سبحانه إلى نفسه ؛ وهؤلاء هم أصحاب الحالات أو الأحوال ، وهم درجات لأنهم انتقلوا من حالة الجهل والحيرة إلى حالة العلم والرضا الإلهى ، والله سبحانه ألقى فى قلوبهم العلم كله إلقاء نعمة منه وفضلاً ، ومثالهم المشهور لدينا هى رابعة العدوية البصرية وهى أم الخير رابعة بنت إسماعيل مولاة آل عتيك التى كانت حية ترزق سنة (١٨٥ هـ / ٨٠١ م) ، وكانت تهيم فى وديان الضلال حتى هبطت عليها رحمة الله فزهدت فى الدنيا واعتزلت الناس ، ثم أصبحت من أصحاب الأحوال ورزقها الله العلم كله وأجرى على لسانها الشعر الجميل فى العشق الإلهى ، وروى الناس عنها شعرًا جميلاً لانعرف إن كانت قد قالته حقًا أم هو نسب إليها مثل قولها تخاطب الله سبحانه وتعالى :

أحبك حبين : حب الهوى وحبك ، لأنك أهل لذاكا

فأما الذى هو حب الهوى فشغلى بذكرك عمن سواك

وأمـــا الـــذى أنت أهل لــــه   فكشفك للحجب حتى أراكـــــا

فـــلا الحمــــد فى ذا ولا ذاك لى   ولكن لـك الحمـــد فى ذا وذاكـــا

والوصول إلى هذه « الحالة » مفـاجأة تعتبر عندهم نعمة الله الكبرى ، فيدخلون فى حالـة « الوجـد » التى تجعلهم لا يجدون لـذة إلا فى الزهد والبعـد عن النـاس والنشوة بالوجد أى الحب الإلهى ، ومن الأمثلة الدرامية لذلك حكاية رجل يسمى جعفر بن حرب المتـوفى سنة (٣٤٨ هـــ / ٩٥٩ م)و كـان فى نعمـة كبيرة ، فإذا هـو ذات يوم يجتـاز الشارع فى مـوكبه إذ سمـع قارئًا يقـرأ قول الله سبحـانه ﴿ أَلَمْ يَـأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُـوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله وَمَـا نَزَلَ مِنَ الْـحَقِّ ﴾ . فصاح : بلى والله قـد آن ! ونزل عن دابته وفرق جميع أمواله ولزم العبادة حتـى مات ، وفى نفس السنة توفى عالم زاهد كان يصوم الدهر ويفطر كل ليلة على رغيف ويترك منه لقمة ، فإذا كانت ليلة الجمعة تصدق بذلك الرغيف وأكل كل تلك اللقم التى استفضلها (شوقى ضيف ، تاريخ الأدب العربى ٥ / ٢٦٩) ، ومثل ذلك كثير جدًا فى كتب الصوفية وطبقاتهم .

وهناك نفـر آخر من أهل الزهـد والتصوف ، أى لبس الصوف لا تنـزل بهم نعمة الوجد نزولاً مفاجئًا دون تعب ، ولا بد أن يشقوا طريقهم إليها ، وينتقلوا وهم فى الطريق وحياة الزهد من درجة إلى درجة حتى يصل إلى الوجد أو الإشراق أى إشراق النفس بنور الله ، وهو عنـدهم الوصـول إلى الله وصاحبه يسمى الـواصل ، وتلك الدرجـات عندهم تسمى المقامات ولهذا فهم أصحـاب المقامات وأولها عندهم مقام الورع ثم مقـام الزهد ثم الفقر ثم الصبر ثم المراقبـة ثم الرضا ثم القرب ، ومن القـرب ينتقل السعيد منهم إلى حال المحبة أى محبة الله ، وكل هذه مصطلحات أخذوها من ألفاظ القرآن الكريم وبينهم خلاف فى ترتيبها .

وأول من نعـرفه من أصحـاب المقامـات هـؤلاء هو ذو النـون المصرى ، وهو أبـو الفيض ثوبان بن إبراهيم المتـوفى سنة (٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م) ، وهو من أهل أخميم من صعيد مصر ، وهو أول من نسمع أن اسمه ذو النون من المسلمين ، والأغلب أن جدًا من أجـداده الأقباط هـو الذى أسلم وكـان اسمه زنـون Zenon وهـو اسم علم إغـريقى معروف ، فـإذا صدق هذا الحدس فيكـون ذو النون المصرى سليـلاً متأخرًا مـن قوم أنطونيـوس المصرى الذى تقـرر كتب التاريخ أنـه ابتكر الـرهبنة وأدخلهـا المسيحية ،

والرهبنة كانت عندهم الانخلاع عن الدنيا والخروج إلى البرية لمحاربة الشيطان عدو الله ومسكنه البريـة أى الصحراء ، وأنطونيوس انتصر على الخوف من الشيطـان وخرج إلى الصحـراء ليغزوه فى عقـر داره ، والقصـة كلها مـرويـة فى كتاب لاتينى يسمى حيـاة أنطونيوس Vite Antamii ، وأنطونيوس المصرى هذا لقى فى إحدى جولاته فى الصحراء الأنبا بولا السواح أى الجوال فى الأرض فى مواجهة عدو الله إبليس .

وعلى هذا فـلا يكون ذو النـون المصرى قد طفـر من فراغ بل هـو مواصـل لتقليد مصرى قديم له قواعده وتقاليده ، لأن رجلاً آخـر من أقباط مصر هو الأنبا باخوميوس ابتكر فكرة الأديرة ، أى الانقطاع فى الصحـراء لمحـاربة الشيطان جماعة فنشأت الأديرة التى أصبحت تقليدًا مسيحيًـا عظيمًا ، وباخـوميوس وضع للديـارين أو سكان الـدير نظاماً فى الحياة والعبادة ، وذو النون المصرى يبدو لنا كأنه صدى بعيد لذلك كله .

وإذا كان الزهد والتصوف ـ تاريخيًا ـ رد فعل لحالة اليأس والكآبة التى كانت أمة الإسلام تعيشهـا خلال العصر العباسـى خـاصة ، فإن ذا النـون كان أول من تكلم عن المعرفة الصوفية التى تأتى إلى الإنسان من الله قذفًا فى القلب دون دراسة أو عناء ، فهى معرفة تتأتى لصاحبها نتيجة للخلوة الطويلة والـزهد فى الدنيا والرياضات الصوفية ، فهى إذن معـرفة يلقيهـا الله فى قلب المؤمن ، فـالله سبحـانه يكشـف عن قلبه الحجـاب ويطلعه على العلوم كلها فهى معرفة باطنـة ولها أحوال ومقامات ، وقد سئل ذو النون : كيف عرفت ربك ؟ فقال : عرفت ربى بربى ، ولـولا ربى ما عرفت ربى ، وكان ذو النون يرى أن الوصول إلى الوجد والمعرفة الإلهية فضل يؤتيه الله لمن يشاء بعد أن يتأهل لذلك بالصبر والعبـادة وانكسار النفس ، وهى لهذا امتيـاز مقصور على الذين يستحقـونه ، ومن ثم فلا يجوز أن تتكشف أسرار الصوفية لكل الزهاد .

ويجىء أبو يـزيد البسطامى (ت ٢٦١ هـ / ٨٧٥ م) وهـو أبو يزيـد طيفور بن عيسى بن آدم ، وهـو فارسى من أهل بسطـام فى خراسـان ، فيمضى بالفكـر الصوفى خطوة أخرى فى طـريق الرياضات الـدينية فيقول : إن الإنسان إذا استمـر فى المجاهدة وكان صـادقًا فى زهـده وحبه لله فنيت ذاتـه فى ذات الله وأصبح هو والله شيئًـا واحدًا ، وانتشر مذهبه هـذا بين متصوفة الفرس حتى أصبح بطـلاً قوميًا ونسبوا إليـه معراجاً روحيـاً إلى السماء فـاقترب من العـرش واستضـاء بأنـواره وذاع صيتـه بين الأتـراك

العثمانيين فى العصر الأول من عصور تاريخهم ، وهو عصر الغزاة ، فتبرك باسمه رابع سلاطينهم وهو بايزيد وهو فى التركية بايازيت ، وأخذ نفس الاسم سلطانهم الثامن وهو بايازيت الثانى ، وعلى يديه أصبح للصوفية لغتهم الخاصة التى ينفردون بها مثل قوله : للخلق أحوال ولا حال للعارف لأنه محيت رسومه وفنيت هويته بهوية غيره ، وغيبت آثاره بآثار غيره و « غيره » هذا هو الله سبحانه ، وفى مثل هذا الكلام نرى كيف أن التصوف شفى نفسه من حالة الكآبة بنسيان نفسه وفقدان شخصيته واتخاذ شخصية أخرى تعيش فى عالم آخر بعيد عن عالم الناس وهو عالم الوجد الصوفى ، ومصداق ذلك قوله : منذ ثلاثين سنة كان الحق مرآتى ، فصرت اليوم مرآة نفسى لأننى لست الآن من كنت ، ومثل هذا الكلام كان يصدر عن أبى يزيد فى حالة من حالات غيبوبته عن الدنيا والواقع .

وفى نفس طريق المجاهدة الصوفية سار الجنيد (ت ٢٩٧ هـ / ٩١٢ م) وهو أبو القاسم الجنيد بن محمد ، وهو فارسى سُنى من أهل نهاوند ، وكان يرى أن الصوفى لا ينبغى أن ينقطع عن الدرس والعلم انتظارًا للعلم اللدنى ، الذى يأتى من لدنه أى من عند الله قذفًا فى القلب ، وليس هذا بغريب ؛ لأن الجنيد كان فقيهًا واسع العلم وقد ذهب إلى أن الصوفى يصل إلى الفناء فى ذات الله عن طريق الرياضات والمجاهدات والزهد فى الدنيا مع الإقبال على العلم .

وفى حلقة الجنيد ظهر الحلاج ، وهو أبو مغيث الحسين بن منصور (٢٤٤ - ٣١١ هـ / ٨٥٨ - ٩٢٢ م) ، وهو فارسى من أهل البيضاء قرب اصطخى وقد ذهب مع مذهب الاتحاد بالله عن طريق المجاهدات والخلوات والسياحة فى الأرض إلى درجة لم يسبقه إليها غيره فقد كان فيما يبدو يعانى من اضطراب شديد نفسى جعله يهيم فى وديان بعيدة من التخيل المريض ، وصار يقول عبارات مثل : أنا الحق أى أنا الله ، وقد قضى عمره يتجول فى الأرض وحج مرتين ، وأمثال هؤلاء الناس من أهل التخريف الذى نسميه بالشطح يفتنون الجماهير بما يقولون من عبارات تجمع بين الجنون والحكمة ، وهو الصورة الخالدة فى تاريخ الفكر العربى للمجذوب الشعبى الذى يستولى على ألباب العوام فينسبون إليه الكرامات والخوارق ، وقد تبرأ منه شيخه الجنيد ، وقد وصل فى بعض سياحاته إلى الهند وأخذ عن مجاذيبها أعمالاً عجيبة تشبه السحر فافتتنت به

الجماهير فأسرف فى شطحاته ليستزيد من إعجاب الجماهير وقد بلغ به ذلك مبلغاً جعله يقول أشياء تخرجه عن الإسلام جملة ، وهذا هو الذى أخاف الدولة وأهل السُّنة منه خاصة وقد كانت له قدرة على صياغة أشعار غريبة تطير فى الناس طيرانًا مثل قوله يخاطب الله سبحانه :

مـــــــــزجت روحك فى روحى كما تمزج الخمـــــرة بـــالماء الـــــزلال

فـــإذا مســـــك شـــىء مسنـــــى فـإذا أنت أنـــــا فى كل حـــــال

ولا ندرى إن كان الحلاج قد وصل به الهياج النفسى إلى الدرجة التى أخرجته عن الإسلام فجعل يقول : إن روح الله سبحانه حلت فيه ، ولكن الذى لا شك فيه هو أن الرجل وصل به الوجد إلى درجة جعلته أشبه بصورة السيد المسيح فى أخريات أيامه ، وهنا أفتى الفقهاء بكفره وقبض عليه رجال الدولة وحاكموه وحكموا بموته ونفذوا الحكم فيه على ملأ من الناس .

وفى موقف الموت كان الحلاج لا يخشى الصلب حيًا ، فنظر إلى خشبة الصلب والمسامير التى ستدق فى جسده وقال : هؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلى توصيًا لدينك وتقربًا إليك فاغفر لهم ، فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لى لما فعلوا ما فعلوا ولو سترت عنى ما سترت عنهم لما ابتليت بما ابتليت ، وهى عبارة جعلت المستشرق الفرنسى لوى ماسينيون يرى أن أبا منصور الحلاج قد تسامى به الوجد حتى وصل به إلى لباب المسيحية بل المسيح نفسه ، فأمضى سنوات طويلة من عمره يجمع أخبار الحلاج وأشعاره وكتب كتابه المشهور « محنة الحلاج » Lapassiomdap Happay وهو كتاب جليل الظاهر خبيث الباطن .

ومن حسن الحظ أن غالبية أهل التصوف لم يصل بهم الهرب من الواقع الكئيب إلى هذا الحد ، فظلوا فى موقف وسط بين العلم والوجد الصوفى الذى هو فى الحقيقة هروب من الواقع ، وعلى هذا المذهب سار القشيرى أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن وهو عربى (٣٧٦ ــ ٤٦٥ هـ / ١٠٦٨ م) ورسالته المنسوبة إليه (القشيرية) مزاج مقبول من العلم والتصوف وهى تعود بنا إلى الخط المأمون : خط المحاسبى ومن سار فى طريقه حتى نصل فى النهاية إلى أبى حامد الغزالى وهو أجمل صورة وصل إليها التصوف الإسلامى ، فهو تصوف عاقل يقوم تصوفه على العلم الواسع والفقه الحسن

مع الزهد فى الدنيا والتماس الصفاء النفسى عن طريق التعبد والرياضات ودرة أعماله وهو « إحياء علوم الدين » كتاب علم وتصوف فى آن واحد .

ولكن مفكرًا مسلمًا آخر هو ابن عربى لم يستطع الوقوف عند هذا الحد المأمون الذى وقف عنده الغزالى ، وهو أبو بكر محمد بن على بن عربى (٥٦٠ ــ ٦٣٦ هـ / ١١٦٤ ــ ١٢٤٠ م) وهو أندلسى من أهل مرسية نشأ فى بيت عربى قديم ودرس القرآن والسُّنة والفقه على يد أعلام بلده ، ولكن مزاجه العصبى الشديد الحساسية مال به إلى طريق التصوف ، وجدير بالذكر أن العصر الذى عاش فيه ابن عربى كان عصر المحنة الأندلسية الكبرى التى وصلت إلى ذروتها فى أواخر العصر الموحدى وهو العصر الذى عاش فيه ابن عربى ، لقد وصل ابن عربى فى مجال العلوم الدينية إلى أرفع الدرجات ولكن مزاجه الخاص مال به إلى الزهد والتقشف والسياحة فى الأرض فخرج عن الواقع تمامًا ، وأصبح يعيش فى عالم روحى وجدانى منفصل عن الدنيا ، وفى سياحاته اكتسب علمًا كثيرًا ومر بأحوال صوفية متوالية ، فتصور أنه لقى الخضر وهو نبى خيالى خالد لا يموت لا نزال نراه فى أخبار الفقهاء ، والصوفية يقولون : إنه عبد الله الذى لقيه موسى عليه السلام ، وفى ليلة من الليالى تصور محيى الدين بن عربى أنه تزوج زواجًا صوفيًا بكل نجوم السماء ، وفى سياحاته مر بمصر وآسيا الصغرى وبلاد الروم ، وقد حج ابن عربى أكثر من مرة وخلف وراءه تراثًا من الأدب الصوفى جليلاً ، وكتابه الأشهر « الفتوحات المكية » كتاب فقه وتصوف فى نفس الوقت لأن ابن عربى لم يفقد أبدًا الاتصال بالحقائق الإسلامية الكبرى ولكن اللغة التى كان يستعملها فى نثره وشعره جعلته يقول أحيانًا كلامًا يتصور معه قارئه أنه مسلم مسيحى ، وهذا هو الذى فتن فيه عالمًا إسبانيًا جليلاً من أهل الاستشراق وهو ميجيل آسين بلاثيوس Mi-guil Asin Papadis الذى ذكرناه فى حديثنا عن الغزالى فأطال دراسة حياته وكتبه وكتب فيه كتبًا أجلها « الإسلام فى ثوب نصرانى » .

وابن عربى يعتبر من المفكرين العرب الذين دخلوا ميدان الفكر العالمى ، فإن أهل الغرب أعجبوا به بفضل ما كتب عنه آسين بلاثيوس .

وفى ظروف الفوضى وانعدام الأمان التى عمت بلاد الإسلام جميعًا خلال القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى وما بعده ساد جماهير المسلمين شعور

شامل بالخوف وانعدام الأمان على النفس والمال ، وانتشر الفقر نتيجة لجشع الحكام فى أموال الناس ، واشتدت على الناس وطأة الكآبة وخاصة عندما ترامت إليهم أخبار تغلب النصارى على معظم الأندلس الإسلامى وجرؤ الروم البيزنطيون على بلاد الإسلام فاجتاحوا شمال الشام والجزيرة العراقية ، واستبد الخوف بجماهير الناس فلم يعد الهروب من الحياة والانخلاع عن الدنيا كافياً لعلاج حالة الضياع التى كانت تتزايد مع السنين ، وهنا برز من صفوف الصوفية رجل فريد فى بابه هو أحمد الرفاعى (٥١٢ ـ ٥٧٨ هـ / ١٦١٨ ـ ١٦٨٢ م) وحياته تبدو لنا وكأنها رمز على اتجاه جديد فى تاريخ الحركة الصوفية فى بلاد الإسلام ، فقد ولد بقرية تسمى أم عبيدة من أعمال واسط فى العراق الأوسط ، وهو منسوب إلى جده السابع رفاعة وهو ينتسب إلى جماعة من أشراف الحجاز ، وقد هاجر جده رفاعة من الحجاز إلى المغرب ثم الأندلس وهناك شهد محنة الإسلام الأندلسى ثم عاد إلى مكة وفيها ولد أبو الحسن والد أحمد الرفاعى ومنها هاجر إلى البصرة ثم إلى أم عبيدة حيث والد أحمد بن أبى الحسن الرفاعى ، ونشأ أحمد فى كنف خاله شيخ الطريقة البطائحية فدخل الطريق وأخذ العهد ولبس الخرقة على يد خاله ، والعهد كان عقدًا شفويًا بين الشيخ والمريد يتعهد فيه المريد بأن يدخل فى طاعة الشيخ ويتبع طريقته فى العبادات والمجاهدات حتى إذا رأى الشيخ منه جدًا فى العبادة واستعدادًا للسير فى طريق الصوفية ألبسه الخرقة ، وهى ثوب من قماش غليظ لا يخلعها المريد بعد ذلك ويترقى فى مراتب الصوفية من درجة إلى درجة حتى يصل إلى مشيخة زاوية ، وقد يصل بعد ذلك فى مقامات الصوفية إلى الإمامة ثم القطبية ، وكانوا يقولون: إن عمار الدنيا يقوم على أقطاب يكرمهم الله بالولاية والقدرة على الإتيان بالكرامات أى خوارق الأعمال ويكونون أوتاد الأرض ، وللأقطاب أبدال أى رجال مرشحون لوراثة القطبية إذا مات أحد الأقطاب ، ونشأ أحمد الرفاعى فقيهًا عالمًا فلم يقنع بالانتظار حتى يلقى الله فى قلبه العلم كرماً منه وفضلاً فدرس وتفقه وصار يأمر أصحابه بتوقير العلم والعلماء ، ونهى الصوفية عن التبطل والعيش على إحسان الناس ولم يقبل بين مريديه إلا صاحب حرفة يعيش منها ومن لم يكن صاحب حرفة استحثه على تعلم حرفة يعيش منها ، وحفز مريديه على العمل فى خدمة الناس ، والتجمع فى الليل فى زواياهم حيث يقومون بأورادهم وأذكارهم جماعة فانتشرت زوايا الرفاعية وكثر

مريدوها وأصبحت كل زاوية مركـزاً لنشاط اجتماعى واسع فى خدمة الناس ، واشتهر عنه قـوله : طريقى دين بـلا بدعة ، وهمة بـلا كسل ، وعمل بلا رياء ، وقلب بـلا رياء ، ونفس بلا شـهوة ، وكان ينفق وقته فى خدمة الناس ويقول : « إن تجارتى خدمة النساء والأرامل واليتـامى ، وأحب أن أشـهـد نفسى فى خـدمتهم دائمًا ، و إذا رأيت يتيمًا يبكى تهتز مفاصلى وترتعد أعضائى حنانًا له ، وشفقة عليه وأخاف من بكائه » .

* * *

الفِكْرُ العَرَبىُّ يَدْخُلُ العَصْرَ الحَجَرىَّ

من أوائل القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ينتاب أهل العلم فى العالم الإسلامى فزع شامل مصدره إحساس عام بأن الدنيا فى انتظار قارعة تكون إنذارًا بقيام الساعة . فالأندلس ـ درع عالم الإسلام من ناحية الغرب ـ قد تهدم والطوفان وصل حدود مملكة غرناطة ، وهى فى طريقها إلى الزوال والمد الصليبى الإسبانى البرتغالى وصل إلى بلاد المغرب ودولة المرينيين هناك تصدعت ، وانتقلت مسئولية الدفاع عن الغرب الإسلامى إلى جماعات الصوفية المجاهدة التى أشرنا إليها فى الفصل السابق والزوايا المغربية أصبحت حصون الإسلام ، وجماعات الصوفية أصبحوا جنده والطريق يتمهد لقيام أولى دول الشرفاء فى المغرب الأقصى ، وهى دولة السعديين الأشراف الحسنيين وأولهم أبو عبد الله محمد المهدى بن القائم (٩٥٥ ـ ٩٦٤ هـ / ١٥٤٨ ـ ١٥٥٧ م) .

أما على أطراف العالم الإسلامى الشرقية فالصورة أشد قتامًا ، والسحب تتجمع والنذر تتوالى فهناك فى غربى إيران وخراسان وما وراء النهر وطخارستان وغرجستان وهى بلاد الأفغان الحالية كانت الأمور استقرت على وضع قلق ولكنه معقول ، فالبلاد تقاسمها أمراء إقطاعيون يتميزون بصلاح وحرص على الإسلام ، وكانوا جميعاً أتراكاً من جماعات الأوزبك الذين سينتسب إليهم مماليك مصر والشام ، وكانوا أهل سُنة فيهم حب للعلم والخير ، وحبهم للعلم حفزهم على الإكثار من إنشاء الرباطات للصوفية المجاهدين ، وكانوا مجاهدين حقًا ، ثم المدارس لتعليم آلهم وأولادهم العربية والقرآن والسُّنة وكانت تقع بينهم الحروب .

ولكنهم كانوا يتحدون معاً ساعة الخطر وإلى شمالهم ـ شمالى نهر جيحون ـ كانت تنزل قبائل الأتراك الخطا ، وكانوا مسلمين وبلادهم كانت غطاء يحمى بلاد الإسلام ، ومن إحدى مدنهم وهى فاراب ظهر أبو نصر الفارابى الذى تحدثنا عنه آنفاً .

ولدينا عن أحوال ذلك الطرف الشرقى لبلاد الإسلام معلومات قيمة أتانا بها عالم مسلم من أهل النصف الثانى من القرن السادس وأوائل النصف الأول من القرن

السابع الهجرى هو ياقوت الحموى (٥٧٥ ـ ٦٢٦ هـ / ١١٧٩ ـ ١٢٤٩ م) وهو بشخصيته ونشاطه واهتماماته يعتبر رمزًا على أهل العلم فى ذلك العصر ، فهو رومى من بلاد الدولة البيزنطية فى آسية الصغرى ، أسره المسلمون صغيرًا وصار إلى ملكية تاجر من حلب فسماه ياقوتًا وأصبح اسمه ياقوت الرومى الحلبى ، وظهرت منه نجابة فاقبل يدرس العربية والدين والحساب ؛ فاعجب به سيده وأعتقه وجعله شريكًا له فى متجره ، ولكن ياقوتًا كان ذا ميل إلى العلم عظيم فمضى يدرس ويقرأ ويلتهم الكتب التهاماً واستعرب الرجل روحًا وإحساسًا فسمى نفسه شهاب الدين أبا عبد الله يعقوب ابن عبد الله الحموى ، وانتابه خوف داخلى على مصير أمة الإسلام فمضى يجوب بلادها من حدود الهند إلى مصر ، وفى سنة (٦١٥ هـ / ١٢١٨ م) كان فى مرو يقرأ فى مكتباتها الكثيرة وكان قد شرع فى تأليف كتابه الأشهر « معجم البلدان » ، وهناك بلغته أخبار اجتياح جموع المغول شرق الدولة الإسلامية واستيلائهم على سمرقند وبخارى وبلاد ما وراء النهر ، فحمل المسكين كتبه وأوراقه وفر أمام الزحف المغولى حتى وصل إلى حلب ، وهناك لقى كرامة من الوزير ابن القفطى ؛ فاستقر فى كنفه ومضى يكمل معجمه ثم نهض مرة أخرى فجاب بلاد الإسلام وعاد إلى حلب فأتم كتابه معجم البلدان ثم أتبعه بمعجم الأدباء وتوفى فى (٢٠ رمضان ٦٢٦ هـ / ٢٠ أغسطس ١٢٤٩ م) مخلفاً لنا ذخرين من أجلِّ ما تفخر به مكتبة الحضارة العالمية ، واحد هو معجم أبجدى لكل بلاد الدنيا مع مقدمات ودراسات غاية فى القيمة العلمية ، والثانى قاموس أبجدى بأعلام العلم فى تاريخ الإسلام ، وقد افتتح الرجل بذلك عصر الموسوعات فى تاريخ الفكر العربى ، وما الذى جعل ياقوت الحموى يجتهد هذا الاجتهاد فى عمل هذين السجلين العظيمين عن بلاد الإسلام وتاريخها العلمى ؟

السبب فيما أرى كان شعورًا خفيًا بأن العاصفة المغولية التى فر أمامها هى القارعة المنذرة بالويلات لأمة الإسلام ، وكانت كارثة الأندلس فى ذهن هذا الرجل وهو يكتب ففى كتاباته عن بلاد ما وراء النهر وما كان فيها من عمران إسلامى ثم ما أصابها من التخريب بعد ذلك ، وأسباب ذلك البلاء فى ذلك ما يؤكد لنا إحساس هذا الرجل بذلك البلاء القادم وحرصه على أن يترك لنا صورة جغرافية وحضارية لعالم الإسلام قبل قيام الساعة .

فقد كان الرجل كما قلنا فى مرو على نهر سيحون عندما أتته أنباء اقتحام المغول بلاد الإسلام فاستمع إليه يصف الناس أى أفراد الأمة ، فى بلاد خراسان وما وراء النهر « فى أهل هذه البلاد عدل حقيقى وبقية من عدل العمرين وأهلها صالحون وعلى الخير مجبولون » وهو يقول إن « اسبيجاب (شمالى ما وراء النهر) والطالقان ومرو وساوة ، كانت إذ ذاك من أعمر بلاد الله وأنزهها وأوسعها خصبًا وشجرًا ومياهًا ورياضًا مزدهرة » (معجم البلدان : ١ / ١٧٩ ، ٤ / ٧ ، ٥ / ١١٤) .

أما حكام البلاد فلا يعجبونه فهم على العادة أهل ظلم وشر ، وهو يقول : إن خراب بلاد كرمان مثلًا (جنوب خراسان) خربت باختلاف الأيدى عليها ، أما بلاد العراق فقد تخربت بسبب مداومة العساكر السلجوقية ومرورهم عليها ونزولهم فيها .. وخلاف السلاطين وقتال بعضهم بعضًا إذ كان كل من ملك لا يحتفل بالعمارة إذ كان غرضه أن يحوصل (يملأ حوصلته) ويطير فجلا عنه أهله واستمر خرابه (ياقوت ١ / ٤٩٦ ، ٤ / ٤٥٤ ، ٥ / ٣٢٥) .

وقد ذكرت لك أن خبر دخول التتار فى بلاد الإسلام وصل ياقوت وهو فى مرو سنة (٦١٦ هـ / ١٢٢٠ م) وقد أقام فيها ثلاثة أعوام كانت من أجمل فترات عمره لما فى أهلها من طيب الخلق وحسن العشرة وهو يقول : إنه فارقها وفيها عشر خزائن للوقف (خزائن كتب أى مكتبات) لم أر مثلها جودة وكثرة وهو يعد فيها أربع مدارس وعددًا عظيمًا من الخانقاوات « التكايا » ويضيف أن كتب هذه المكتبات والمدارس والتكايا كانت تعار لمن أراد بدون رهن .

وهذه المدارس والتكايا انتشرت انتشارًا واسعًا فى عالم الإسلام كله حتى عد المقريزى من مدارس القاهرة ما يزيد على أربعين كلها تدرس نفس العلوم : الحديث والفقه واللغة ولكل منها أوقاف واسعة وشيخ المدرسة يكون في نفس الوقت ناظر الوقف وهو صاحب التصرف فى أمواله ، فكانت مشيخات المدارس موضع تنافس الشيوخ وتقاتلهم ، ومن هنا فإن كثرة المدارس والمشيخات ونظارات الأوقاف أصبحت ميادين قتال بين العلماء والسلاطين استخدموا تلك الوظائف للسيطرة على العلماء .

وهاتان حقيقتان أحب أن ننتبه إليهما : الأولى أن العلم تجمد وأصبح كتبًا مكررة فى نفس الموضوعات تحت عنوانات مختلفة ، والعلماء تحول جهدهم من الطلب الحقيقى

إلى طلب الوظائف ومشيخات الأوقاف ، فقلَّتْ الكتب الجديدة حتى أصبحت نادرة ، وقل العلماء الصالحون الذين عصمهم الله من فتنة الوظائف وأموال الأوقاف ؛ حتى أصبحوا نوادر ، والسبب فى ذلك واضح وهو أن العلم فى كل زمان ومكان لا يتقدم إلا فى عصور الرخاء والعدل والحرية ، أما مع الظلم والاستبداد فلا يكون علم أو خير أبدًا ، وما دامت حركة الحياة قد بطؤت كما يبطؤ نبض الحيوان نائم الشتاء فقد تجمد العلم أيضًا ولم يصبح العلم فكرًا بل حفظًا ، وكبار علماء العصر السابع الهجرى وما بعده أصبحوا يسمون الحفاظ ، وبعضهم كان يحفظ مكتبة كاملة وأنت تذكر بالطبع ما كانوا يحكونه عن أهل الصين القدماء من أنهم كانوا يضعون رجلى البنت فى قالب من حديد فيتوقف نمو الرجلين ، فأذكر هنا أن نظم الحكم الجامدة الظالمة كانت قوالب من حديد وضع فيها الفكر العربى فوقف نموه ، وتستطيع أن تقول : إن الفكر العربى كله وضع فى فريزر ضخم محافظة عليه من الضياع فجمد حيث وضع وما دام العلم قد أصبح حفظًا واستظهارًا فقد فقد روحه وطلاوته وأصبح الشيوخ - إلا من عصم ربك - نسخًا بعضهم من بعض ، وكل منهم أصبح خزانة كتب متنقلة وكل منهم وقف يرقب الآخر ويحصى عليه خطأ فى كلمة أو حديث أو رواية ، فبدأت ظاهرة تستطيع أن تسميها الحرب الأهلية بين العلماء ، واجتهد كل منهم فى تجريح غيره وتزكية نفسه لكى يفوز بالمشيخات ووظائف التدريس وأموال الأوقاف ، ومن هنا فإننا نشهد للعلم وأهله من القرن السابع فما بعده منظرًا لا يروق ولا يسعد أبدًا ، وهذا حكم عام وله استثناءات كثيرة مسعدة وأحب أن أبدأ بها هنا حتى لا تضيق نفس القارىء بما ترى من مظاهر حرب العلماء مع بعضهم وتدهورهم فى النهاية .

* * *

أقول : إن عصور الحفاظ أو خزائن الكتب الحية هذه لم تخل من نماذج جليلة جديرة بكل تقدير ، وأبدأ هنا بذكر الشيخ محيى الدين النووى المتوفى سنة (٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م) وهو أحفظ أهل زمانه بلا ريب فقد حفظ القرآن الكريم وتفسير الطبرى وحفظ كتب الحديث الستة الرئيسية البخارى ومسلم ومسند أحمد وسنن أبى داود

وسنن ابن ماجة وسنن النسائى بشروحها هذا إلى عدد كبير من كتب الفقه والأدب حتى أصبح هذا الشيخ الجليل خزانة كتب متنقلة ، ولكن الذى ميزه عن غيره هو التزامه بواجب العلماء فى توجيه أهل الحكم إلى الطريق السوى وشجاعته الباهرة فى ذلك الميدان ، وقد عاش الرجل فى عصر الظاهر بيبرس ثانى سلاطين المماليك البحرية وهو عصر العلماء الكبار ومشاهير أولياء الله ، وأشهر من نذكره منهم عز الدين بن عبد السلام ، والسيد أحمد البدوى الولى المشهور بمصر ، فكان النووى أشجع العلماء فى مواجهة السلطان بيبرس وأجرأهم عليه وهو فى هذا المجال يفوق عز الدين بن عبد السلام بمراحل ، فقد نطق بالحق عندما سكت عنه عز الدين بن عبد السلام رغم دعواه العريضة فى ذلك ، فقد كان ابن عبد السلام شيخًا كثير الدعوة لنفسه يتظاهر بالجرأة فى الحق وله فى ذلك مواقف كثيرة ولكنه فى الحقيقة كان من فقهاء السلطنة ، وقد غطى بدعواه العريضة على شيوخ أجلاء ربما كانوا أعلم منه وأتقى وأشجع ، وأكبر الأمثلة على ذلك الفقيه المصرى تقى الدين بن دقيق العيد فقد ضايقه عز الدين بن عبد السلام وزاحمه فى بلده مصر ، ووجد ابن دقيق العيد الفقيه الجليل أن يترك الميدان لابن عبد السلام ويلزم بلده قوص .

وقد كان الظاهر بيبرس رغم اتساع ملكه فى حاجة دائمة إلى المال ؛ لأنه كان يكثر من شراء غلمان الأتراك لكى يستعين بهم فى حروبه ضد بقايا الصليبيين ، ولكى ينشىء لنفسه عزوة وقوة عسكرية خاصة به ، وكان لهذا يشتد على الناس فى جمع الأموال ، وكان عز الدين بن عبد السلام يقر الظاهر بيبرس على الكثير من ذلك ، أما النووى فكان لا يتردد فى الكتابة إلى السلطان دفاعًا عن الناس ، وقد احتفظ لنا السيوطى فى كتاب « حسن المحاضرة » بالكثير من نصوص تلك الخطابات ، وتقرأ فى أحدها أن السلطان بيبرس عندما اشتط فى فرض الجبايات على أهل الشام كتب إليه الإمام النووى يقول : « إن أهل الشام من هذه السنة فى ضيق وضعف حال بسبب قلة الأمطار وغلاء الأسعار وقلة الغلات والنبات وهلاك المواشى وأنتم تعلمون أنه تجب الشفقة على الرعية ، ونصيحته (أى نصيحة السلطان) فى مصلحته ومصلحتهم (مصلحة الرعية) » .

وقد غضب الظاهر بيبرس من كلام النووى واستنكره ، فهاجم العلماء وغيرهم بسكوتهم عن نصيحة طغاة التتار عندما كانوا سادة شمال الشام ، وأخذ يهدد العلماء

بالعقاب إذا هم لم يكفوا عن الاعتراض عليه ، فيكتب إليـه النووى يقول : وأما ما ذكر فى الجواب (جواب السلطان) أننا لم ننكر على الكفـار كيف كانوا فى البلاد ، فكيف يقاس ملوك الإسـلام وأهل الإيمان وأهل القرآن بطغـاة الكفار ، وبأى شىء كنـا نذكـر طغاة الكفار وهم لا يعتقـدون شيئًا من ديننا ؟ .. وأمـا أنا فى نفسى فلا يضرنى التهـديد ولا يمنعنى ذلك من نصيحة السلطان ، فإنى أعتقد أن هذا واجب علىَّ وعلى غيرى وما ترتب على الواجب فهـو خير وزيادة عند الله وأفـوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعبـاد ، وقد أمرنا رسـول الله ﷺ أن نقول الحق حيثما كنا وألا نخاف فى الله لـومة لائم ونحن نحب السلطان فى كل حال وما ينفعه فى آخرته ودنياه .

وقـد أراد السلطان بيبرس أن يحرج النـووى ويضطره إلى الموافقـة على الضرائب المجحفة فجمع العلماء جميعًـا وجعلهم يوقعـون بالموافقـة بما فيهم عز الديـن بن عبد السلام ، ثم استدعى محيى الـدين النووى ليوقع فرفض وقال لـه : أنا أعرف أنك كنت فى الرق للأمير بندقدار وليس لك مـال وقد منَّ الله عليك وجعلك ملكًا وسمعت أن عندك ألف مملوك كل مملوك له حياصة (ثوب موشى بالذهب) من ذهب وعندك مائة جارية لكل جاريـة حق (بضم القاف) من الحلى فإن أنفقت ذلك كلـه وبقيت مماليك بـالبنود والصوف بدلاً من الحوائص وبقيـة الجوارى بثيابهن دون الحلى أفتيتك بأخذ المال من الرعية فغضب الظاهر وقال : أخـرج من بلدى (دمشق) فقال : السمع والطاعة وخرج إلى قريتـه نوى . فقـال الفقهاء : إن هذا من كبـار فقهائنا وصلحـائنا وممن يقتـدى به فأعده إلى دمشق فرسم برجوعـه ، فامتنع الشيخ وقال : لا أدخلها والظاهر بها ، فمات الظاهر بعد شهر .

وهذه الحكـاية تدحض القصـة التى لا يصدقها العقل والتى يـرويها السيوطى فى حسن المحاضرة عن أن عـز الدين بن عبـد السلام أفتى بضرورة بيع المماليك بما فيهم السلطان ؛ لأنهم ملك الأمة والحقيقـة أن عز الدين بن عبد السلام كـان مع فقهه وعلمه من فقهاء السلطـان وكان فى أكثر أمـره يوافق السلاطين على مـا يريدون ، ولكنـه كان يستبسل مع رجال السلطان وكـان السلطان لا ينكر أن يهان بعض رجالـه أمام الناس حتى تنكسر نفوسهم ، بل إن عز الدين بن عبد السـلام كان قبل ذلك يوافق سيف الدين قطز على مـا يريـد من فرض الضرائب على النـاس للاستعانـة بالمال على حـرب التتار والفرنج ، وكان السلطـان سيف الدين قطز أول سلاطين المماليك بعـد الأيوبيين محببًا

إلى الشيـوخ والناس لإخـلاصه فى جهـاد التتـار فى حين أن المماليك البحريـة ورأسهم بيبرس البندقدارى كانوا يدبرون للقضاء عليـه للاستيلاء على السلطنة ، وعندما خرج قطز لحرب التتار عند عين جالوت كان رأى بيبرس وأصحابه أن ينسحبوا إلى مصر أمام التتـار ، ولكن متطوعـة المصريين وأهل الشـام كانـوا قـد دخلوا المعـركـة وبدأ التتـار يجتاحـونهم بالخيل والسيـوف ، فنادى قطز المماليك ودعـاهم إلى دخول المعـركة فلم يسمعوا له فغضب وخلع عمامته ورمـى بها إلى الأرض وهدد المماليك بالعقاب ، ودخل المعركـة فأحرج المماليك البحـرية واضطروا إلى دخـول المعركـة وانتصر المسلمون مع سلطانهم قطز ، وخاف بيبرس والمماليك البحريـة من انتقام السلطان فقتلوه فى بلبيس وأعلن بيبرس نفسه سلطانًا ولهذا نفر منه أهل مصر وصانعه الشيوخ ومنهم عز الدين ابن عبـد السلام ، أمـا الشيخ النووى فلـم يرهب بيبرس وظل على مـوقفه منـه ، وأراد بيبرس أن ينتقم من النـاس فأسرف فى فرض الضرائب فكـان الشيخ النووى هـو الذى وقف له ، وأراد بيبرس أن ينزع ملكية أراضـى الـزراعة من الناس بحجة أنها ملك لبيت المال ، فأقـره على ذلك عز الـدين بن عبد السـلام الذى يقـول السيوطى إنـه أفتى ببيع السلطـان نفسه ، ولكن النـووى اعترض على ذلك وقال : إن ذلك أمـر لا يحله أحـد من علماء المسلمين . وظل ثابتًا فى موقفه حتى تراجع السلطان عن رأيه .

وليس معنى ذلك أن عـز الديـن بن عبد السـلام لم يكن من أعـلام شيوخ القـرن الثامن الهجرى ، فقـد كان فعلاً شيخًا جليلاً ولكنه كـان ذا دعوى عريضة وجمع كبير مثله فى ذلك مثل الشيخ رشيد رضـا فى العصر الحديث ، فقـد كان الشيخ رشيد رضـا من تلاميذ الشيـخ محمد عبده ، وكان يقول برأى شيخه فى ضرورة العناية بالارتقاء بالناس وتعليمهم وتحاشى الدخـول فى خدمة أهل السلطان ، ويـرى أن تلك هـى الخطوة الأولى للنهوض بأمم الإسلام ، ومحمد عبده الذى كـان فلاحًا مصريًا مثله فى ذلك مثل الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد ظل على مذهبه إلى آخر حياته ، أما رشيد رضـا فلم تكد تلوح له فرصـة الوزارة حتى ينسى مبدأه ويسرع إلى دمشـق ليكون وزيرًا فى الوزارة التى ألفها فيصل بن الحسين بن على عندما توج نفسه ملكًا فى دمشق ، وعندما عصف الفرنسيون بمملكة فيصل الشـامية وتبناه الإنجليـز وجعلوه ملكًا على العـراق أسرع الشيخ رشيد ودخل فى خدمة الملك عبد العزيز آل سعود فى نجد وصـار من جملة وزرائه .

وفيما عدا النووى وابن تيمية فيما بعد فإننا نجد أنفسنا أمام علماء هم مكتبات متنقلة كلهم حفاظ يحمل الواحد منهم حمل مكتبة فى رأسه ، ولكنه عاجز عن أن يأتى بفكرة ذات بال ؛ لأن الفكر العربى والإسلامى كله كان قد دخل فى العصر الثلجى وجفَّتْ شجرته وأصبح من ذلك الحين إلى مطالع العصر الحديث تراثًا ماضيًا لا نبض فيه ولا حياة ، وإن كان ذا قيمة عظيمة .

وحالة الكوما هذه التى دخل فيها الفكر العربى هى التى جعلت شيوخه يهتمون بالماضى وحده ، كأن أمة الإسلام قد جمدت مكانها ولم يعد لها مستقبل ، والحق أن أهل العلم فى ذلك العصر من القرن السابع الهجرى ـ الثالث عشر الميلادى أجادوا وأبدعوا فى خدمة الماضى ، وقد اتجهت هممهم نحو أربعة أنواع من النشاط الفكرى :

ـ **الشروح** والتعليقات والإضافات إلى كتب ماضية .

ـ **التاريخ** : فهذا عصر كبار المؤرخين وأصحاب الحوليات .

ـ **الموسوعات** : فهذا عصر الموسوعيين وأولهم ياقوت الذى بدأنا به هذا الفصل ثم القلقشندى صاحب« صبح الأعشى » وابن فضل الله العمرى صاحب « مسالك الأبصار » والنويرى صاحب « نهاية الأرب » .

ـ **التراجم** : فهذا عصر ابن حجر العسقلانى والسخاوى وابن عساكر ، فأما عن الشروح والتعليقات فهى تنفعنا فيما نلتمس من العلم بأصحاب التفاسير والمحدثين ولكننا لن نفيد منها شيئًا ينفعنا فى حاضر أو مستقبل ؛لأن شروح البخارى مثلاً مثل عمدة القارى وفتح البارى عبارة عن نقول من كُتب الماضين وآراء لبعض المعاصرين وكل ما تقرأ فيها عبارة عن نقول يأخذها شيوخ عن شيوخ وحتى فى حل المشاكل الراهنة لهم التى كانوا يستفتون فيها كانوا لا يحاولون قط إدخال الحاضر فى حسابهم ، كأن الزمان قد تحجر عند السلف ووقف ، وفتاوى الحسن البصرى وابن سيرين تؤخذ كما هى وتطبق على مشاكل القرن الثامن الهجرى وما بعده وعندنا كتاب ضخم يقع فى أحد عشر جزءًا من القطع الكبير يسمى نوازل الو نشريسى وهو عالم من أهل المغرب من أهل القرن التاسع الهجرى والنوازل يراد بها القضايا ، وهو يعرضها ويقدم لنا آراء العلماء فيها فتتعجب كيف أن هذا الرجل يعيش فى الماضى بكل كيانه فهو لا يعرف إلا آراء الماضين ، بل هو نفسه يلغى نفسه فلا يذكر رأيًا خاصًا به .

وهذه المؤلفات المتأخرة فى الفقه والتفسير والحديث وشروحه تزيد فى ضخامة المكتبة العربية ولكنها لا تقدم لنا شعاعًا جديدًا من نور ، وأمثال هذه الكتب سهلة التأليف فإنها نقول يوضع بعضها إلى جوار بعض ، وربما وجدنا فيها فقرات من كتب قيمة ضاعت الآن كما هو الحال فى تاريخ ابن كثير المسمى بالبداية والنهاية وهو كتاب جليل ولكن صاحبه كان يرى أن التاريخ قد انتهى وتوقف عند السلف الصالح ، فالبداية عنده هى العصر النبوى والنهاية هى القرن الخامس الهجرى مثلاً ، وفى هذا التيار تسقط من الحساب كل المؤلفات فى علوم المعاش كالطب والهندسة والصيدلة والجغرافية ، فلا نجد منها شيئًا جديدًا ، بل ينحط مستوى العلم ومكان كتاب الشفا لابن سينا نجد « تذكرة داود » ، ومحل الإدريسى نجد ابن الوردى ، ومحل كتاب « الحيوان » للجاحظ نجد كتاب « حياة الحيوان » للدميرى ، وكل هذه مؤلفات تفيض بأحاديث الخرافة والأوهام ، بل يعود الناس إلى القول بأن الأرض مسطحة وأنها محمولة على قرن ثور وينسى الناس جميعًا ما أجهد الإدريسى والبيرونى وأمثالهم أنفسهم فيه من البرهنة على كروية الأرض .

وأما الموسوعات فربما كانت خير ما خلفه لنا عصر الجليد هذا وهى فى مجموعها كتب ألفها رجال ممن كانوا يعملون فى دواوين الإنشاء أى سكرتاريات الدول ، وهم يؤلفونها لأمثالهم فيقدمون فيها خلاصة للمعلومات التى ينبغى أن يحوزها الإنسان ليكون كاتبًا محترمًا فى دواوين السلاطين ، وهذا النوع من التأليف بدأ فى تونس على يد رجل ممن كانوا يخدمون فى ديوان الإنشاء عند الحفصيين وهو أبو الفضل أحمد بن يوسف التيفاشى المتوفى سنة (٦٥١ هـ / ١٢٥٣ م) ، وقد ألف موسوعة لاستخدام رجال ديوان الإنشاء جعل عنوانها « فصل الخطاب فى مدارك الحواس الخمس لأولى الألباب » ولم نعثر على الكتاب كاملاً ولكننا عثرنا على فصول منه اعتبرت كتبًا قائمة بذواتها مثل أزهار الأفكار فى منافع الأحجار وموضوعه المعادن ، ونزهة الألباب مما لا يوجد فى كتاب وموضوعه الأدب ، وقد اطلع على هذه الموسوعة أبو الحسن على بن سعيد المغربى (٦٠٥ ـ ٦٨٥ هـ / ١٢٠٨ ـ ١٢٨٦ م) وهو موسوعى أندلسى غادر بلاده الأندلس سنة (٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ ـ ١٢٤١ م) ومضى يذرع بلاد الإسلام حاملاً علمًا غزيرًا عن الأندلس حمله معه إلى المشرق ومضى يطوف به على عواصم الإسلام ، يعيش منه ويزهى به ، وقد خلف لنا ذخيرة ضخمة من الكتب تعتبر من أهم

ما نعتمد عليه فى التاريخ الفكرى للأندلس ، وفى مروره بتونس أراد أن يستقر فيها ولكن قريبًا له خاف منه فلم يزل حتى أخرجه إلى المشرق ، ولكن على بن سعيد اطلع هناك على موسوعة التيفاشى وربما يكون قد نقل منها كتابًا كاملاً من كتبه فى الجغرافيا وهو بسط الأرض فى طولها والعرض .

ولكن الموسوعيين المشرقيين لم يظهروا فى مصر والشام إلا بعد قرن من الزمان فإن النويرى صاحب نهاية الأرب توفى سنة (٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) ، وابن فضل الله العمرى صاحب مسالك الأبصار توفى سنة (٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م) ، والقلقشندى توفى سنة (٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) ، وهذه الموسوعات بين أيدى الناس فلا حاجة لى إلى الكلام عنها فى هذا الموجز فليس فيها فكر جديد حى ، إنما هى صناديق من المعلومات المجمدة ، وعندما نقوم نحن اليوم بتحقيقها ونشرها فإننا نسمى هذا العمل إحياء التراث أى إخراجه من الثلاجة وإدخاله غرفة الإنعاش .

وهذا العصر هو عصر مشاهير المؤرخين المتأخرين ، ابن خلدون والمقريزى وابن تغري بردى وابن حجر العسقلانى والسخاوى .

فأما ابن خلدون فقد تحدثنا عنه فيما مضى ، وأما مؤرخو العصور المتأخرة وعلى رأسهم تقى الدين المقريزى فجماعون يأخذ بعضهم من بعض ويضيف إلى سجل التاريخ ذكر الحوادث إلى أيامه ، وأعظم أولئك المؤرخين مكانًا تقى الدين المقريزى المتوفى (٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) ، وهو مؤرخ موسوعى فعلاً خَلَّف لنا ثروة عظيمة القيمة من المؤلفات فى التاريخ مثل « السلوك لمعرفة دول الملوك » ، وهو تاريخ عالمى مرتب على السنين وأهميته ترجع إلى ما كتب عن عصره وهو عصر المماليك وهو تلميذ ابن خلدون ، ولكن أثر ابن خلدون عنده لا يظهر إلا فى كتاب صغير من كتبه يسمى « إغاثة الأمة بكشف الغمة » وهو تاريخ اقتصادى اجتماعى لمصر والشام ، وهو من هذه الناحية فريد فى بابه ، وللمقريزى كتاب « الخطط » وهو وصف دقيق موسع لبلاد مصر وخاصة القاهرة مع تاريخ عام لمصر ووصف قيّم للمجتمع المصرى فى عصره .

ويلى المقريزى فى سجل المؤرخين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى وهو تلميذه وهو أمير المؤرخين المصريين أدبًا وذوقًا ، وإن لم يكن أوسعهم علمًا ، وهو من بيت كبير إذ إنه ينحدر من بيت مملوكى ، ولهذا فإن معاصره ابن حجر العسقلانى يعيره دائمًا

بأنه تركى ويقول : وماذا يجىء من تركى ؟ ولكن أبا المحاسن وهب نفسه للتاريخ وأصبح مؤرخ عصره يسجل الحوادث يومًا بعد يوم حتى إنه كان إذا بارح مصر كلف رجلاً آخر بأن يسجل الحوادث مكانه .

ثم نأتى بعد ذلك إلى كبار أصحاب كتب التراجم وعلى رأسهم محمد بن عبد الرحمن السخاوى (٨٣١ ــ ٩٠٢ هـ / ١٤٢٨ ــ ١٤٩٦ م) ، وهو واسطة عقد أصحاب كتب التراجم وكان رجلاً واسع العلم بصورة لا تصدق فقد حوى صدره من العلم ما لم يَحْوِهِ صدر عالم آخر ربما فى التاريخ ، وهو تلميذ ابن حجر العسقلانى المتوفى سنة (٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م) ، وبدر الدين محمود بن أحمد العينى (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) ، وأستاذ جلال الدين السيوطى المتوفى (٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) .

والقيمة العلمية التاريخية لهؤلاء المؤرخين وأصحاب التراجم لا تحتاج إلى بيان ولكن الذى يحتاج منا إلى وقفة هنا هو موقف معظم أولئك الأعلام بعضهم من بعض واتجاههم إلى التجريح والشتم وتتبع معايب بعضهم بعضًا مما يضفى على صورة العلماء فى ذلك العصر ظلالاً قاتمة ، فهم لم يغادروا أحدًا إلا جرحوه ، والمثال المعروف لهذا العدوان كان ابن حجر فهو لم يدع عالمًا إلا ناله بلسانه وورث عنه هذه الخصلة الذميمة تلميذه شمس الدين السخاوى ، ويكفى أن أذكر لك هنا ما قاله فى ابن خلدون من أنه يتبسط بالسكنى على البحر وأكثر من سماع المطربات ومعاشرة الأحداث ، وتزوج بامرأة لها أخ أمرد ينسب إلى التخليط فكثرت الشناعة عليه (الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ٤ / ١٤٥ ترجمة رقم ٣٨٧) ، فإذا كان هذا قوله فى ابن خلدون فتصور ما قاله فى غيره وهو كثير جدًا ومعيب جدًا ، وهو قطعًا يشين السخاوى ؛ لأن معظم هذا العدوان كان ناشئًا عن التنافس على مشيخات المدارس وأوقافها .

ولكن الطامة الكبرى في عدوان العلماء بعضهم على بعض تتجلى لنا في كتاب شائن ألفه جلال الدين السيوطى فى ذم شيخه السخاوي وسماه « الكاوى فى تاريخ السخاوى » ، وقد صاغه السيوطى فى صورة مقامة بذيئة اللفظ اعتدى فيها على شيخه فأخرجه من جملة العلماء أصلاً ، بل لم يستح من أن يعتدى على شرف الرجل ، والسبب الحقيقى فى ذلك العدوان هو التنافس على وظائف التدريس وما فيها من الأوقاف ، ولعن

الله الحرص فقد أذل أعناق الرجال ، وما رأيك فى رجل يقول فى شيخه وأستاذه وهو على ذلك حقير نقير لا يباع فى سوق العلم بقطمير ، ولا نسبه فى الأنساب عال ، ولا حسبه إذا قومت الأحساب غال ، ولا يزداد إلا جهلاً على كر الأيام والليالى .

فهل فهمت الآن لماذا جعلت عنوان هذا الفصل الفكر العربى فى العصر الحجرى ؟



الأَدَبُ الشَّعْبِيُّ الْعَرَبِيُّ
أَجْمَلُ هَدَايَاهُ لِلْفِكْرِ الْعَالَمِيّ

فى سنة ١٧٠٤ ظهر فى باريس الجزء الأول من الترجمة الفرنسية التى صنعها أنطوان جالان Antoine Galland (١٦٤٦ ـ ١٧١٥ م) لقصص ألف ليلة فأثارت فى الناس عاصفة من الإعجاب والتشوق ، ومع أن الحكايات التى يتضمنها المجلد الأول من ألف ليلة وليلة ليست أحسن ما فى تلك المجموعة الفريدة من الأدب الشعبى العربى . إلا أن إعجاب الناس بذلك المجلد الأول كان عظيماً ربما لأنه يتضمن فى بدايته الوعاء العام الذى يربط الحكايات كلها بعضها إلى بعض ، وهو موضوع الملك شهريار وأخيه الملك شاه زمان ، وهو الموضوع الذى اشتهر عندنا باسم شهر زاد بعد أن أعاد توفيق الحكيم صياغته فى قالب فكرى مسرحى رفيع يدور حول طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة .

هذا الوعاء العام فى صورته كما وردت فى أصل ألف ليلة بالغ الجمال والفتنة ، فهو ليس مجرد حكاية الملك شهريار مع شهر زاد ابنة الوزير التى ابتكرت حكاية تسلية الملك كل ليلة بحكاية تتوقف بها عند كل فجر عند نقطة تشويق أو « ساسبنس » ، لكى يبقى عليها الملك ولا يقتلها كما فعل بسابقاتها ، بل إنها تضم قصصًا أخرى لا تقل عن هذه طرافة ، فهناك قصة الملك شاه زمان مع زوجته والعبد الذى فاجأهما معاً فقتلهما ، وهناك قصة شهريار وامرأته وجواريها العشرين وما كن يفعلنه كل يوم من خيانة شهريار ، وهناك حكاية الجنى الذى اختطف فتاة فاتنة ليلة عرسها وحبسها فى صندوق وضعه فى قاع البحر حتى إذا اشتاق إليها مضى فأخرجه وفتحه وأخرج البنت واستمتع بها ثم استلقى واضعًا رأسه على حجرها ساعة ، ثم أعادها إلى الصندوق ووضعه فى قاع البحر ومع هذا كله فقد استطاعت هذه الماكرة أن تنتقم منه ؛ فقد خانته مع سبعمائة وخمسين رجلاً أضافت إليهم شهريار وأخاه ، وحكاية هذه البنت مع الجنى هى التى جعلت الأخوين يتعزيان عما فعلت نساؤهما معهما ، لأن المرأة منا ـ كما قالت هذه الماكرة للملكين الأخوين ـ إذا أرادت أمرًا لا يغلبها شىء ، كما قال بعضهم :

لا تأمنن إلى النساء ... ولا تثق بعهودهن
فرضاؤهن وسخطهن ... والغَدْرُ حشو ثيابهن
بحديث يوسف فاعتبر ... متحذرًا من كيدهن
أو ما ترى إبليس (م) انسرج آدمًا من أجلهن

هذا الوعاء القصصى الطريف الذى يخرج من القصة ومن هذه الأخيرة قصة ثالثة ورابعة وخامسة وكلها قصص طريف جذاب شائق ، والقصص كلها ساذجة فى ظاهرها ولكنها عميقة فى باطنها ، هذا كله إلى جانب ما أطلع به الرجال منذ الأزل من الخوف من غدر النساء وما تناولته الأخبار من ذكاء النساء وسعة حيلهن ، هذا هو الذى أعجب الفرنسيين وجعلهم يقبلون على مطالعة هذا النوع الطريف من القصص والحكايات ؛ لأن القرن الثامن عشر كله كان فى معظم بلاد أوروبا عصر تدهور خلقى ، فلكل رجل مهما كان مركزه من الملك إلى الوزير إلى القس إلى المحترف الصغير له عشيقته أو عشيقاته والسيدات المستهترات Les Jemes Go Lantes كن طرائف ذلك المجتمع ، فوجد الناس فى حكايات ألف ليلة وليلة ما هو أطرف وألطف مما كانوا يحكونه عن عشيقات الملوك والفرسان والقساوسة ، وفى ذلك العصر وقعت حادثة الدوقة الغنية صاحبة الأملاك الواسعة فى جنوبى فرنسا ؛ فبنت ديرًا جعلت فيه أربعين راهبًا يختزنون فى ديرهم براميل النبيذ التى تملكها الدوقة فكانت تخرج لهم كل ليلة برميلاً فيتهافتون عليه يشربون كأسًا بعد كأس بدلاً من الصلاة ، فإذا استولت الخمر على رءوسهم أقبلت وقضت ليلتها معهم ، وعندما اعترض على ذلك واحد منهم وحرض إخوانه على رفض الشراب للانصراف للعبادة والصلاة ؛ أمرت بإخراج أربعين برميلاً أغرقت فى كل واحد منها راهبًا ، وقالت : هذا جزاؤكم رفضتم أن تشربوا الخمر ففيها وبها تموتون !

طبيعى إذن أن يقبل الناس فى فرنسا على تلك القصص العربية التى قدمها لهم انطوان جالان فمضى يقدم لهم جزءًا بعد جزء حتى بلغت أجزاؤها تسعًا عام وفاته سنة ١٧١٥ ، وبعد عامين من وفاته نشر المجلد الحادى عشر سنة ١٧١٧ م .

وتوالت طبعات هذا المجموع الفريد من القصص الشعبى الذى أصبح عنوانه علمًا

من أعلام الفكر العالمى : Lesmilleetuna Nuits Cantes / Arabes Tsactuits en Jancai وترجم إلى الإنجليزية بجزء من عنوانه فسمى Arabian Nights .

وكما هى عادة الأوروبيين فى كل ما يرون فيه نفعًا لهم أو متعة وطرافة مضوا يبحثون ويدرسون ، فتدافع العلماء يبحثون عن مخطوطات ألف ليلة وتاريخها ويترجمونها إلى لغاتهم ، وعندما طبعت مطبعة بولاق نص ألف ليلة الكامل سنة ١٨٣٥ م ، أقبل عليها وترجمها إلى الإنجليزية ذلك المستشرق الأيرلندى العجيب إدوارد وليام لين الذى ترجم ضمن ما ترجم قاموس لسان العرب لابن منظور كاملاً ، ترجم هذا الرجل ألف ليلة كاملة وأخرجها للناس فى عشرة مجلدات (١٨٣٨ ـ ١٨٤٨ م) وأسرع المستشرق الألمانى مكسميليان هاينست Macmilian Hapnsht إلى تونس حيث أتى بنسخة مخطوطة من ألف ليلة وترجمها إلى الألمانية ونشرها فى بريزلاد (١٨٢٥ ـ ١٨٤٣ م) واستمرت الترجمات تتوالى والأبحاث تتوارد حتى فرغ لألف ليلة واحد من أكابر المستشرقين الألمان وهو أنيوليتمان Enua Littmamn ونحن نعرفه جيدًا فقد كان من أساتذة الجامعة المصرية الأهلية التى أنشئت سنة ١٩٠٨ م ، وأخرج للناس فيما بين سنتى (١٩٢١ ـ ١٩٢٨ م) ترجمة ألمانية للنص الكامل المحقق دون تهذيب أو تعديل لألف ليلة فى خمس مجلدات ، ثم أتبعها بمجلد سادس وضمنه أوسع وأعمق دراسة لذلك الأثر الأدبى العظيم الذى أصبح معتمد الباحثين جميعًا عن أصل هذه الحكايات وتاريخها وتحليل مادتها ، وتتبعها منذ كانت أسطورة هندية لا قيمة لها نقلت إلى الفارسية فأخذت بعض المادة القصصية من هناك ، لأن المفكر الإيرانى تميز بالميل إلى القصص وابتكار الصور القصصية ، ولكن الإضافة الفارسية قليلة والذى زاد فى أهميتها فى الظاهر هم العرب الذين انتهت إليهم صياغة ألف ليلة فقد أحبوا أن يضيفوا إلى قصصهم طابع الغرابة فبحثوا لحكاياتهم عن مواطن بعيدة عجيبة حتى يستطيعوا أن يطلقوا لخيالهم العنان ، وهنا نجدهم يمعنون فى البحث عن المواطن العجيبة فيقولون مثلاً : حكى والله أعلم أنه كان فيما مضى من قديم الزمان وسالف العصر والأوان ملك من ملوك ساسان بجزائر الهند والصين صاحب جند وأعوان وخدم وحشم وله ولدان ، فكيف يكون من آل ساسان ثم يكون بجزائر الهند والصين ؟

وهذا يدل على أن هذه القصة قصة الملك شهريار وأخيه شاه زمان ، دخلت بلاد

العرب بدائيـة جدًا آتية من أصل بعيد وراء إيران لم يتبين القصـاص الشعبى استحالة وجود ســاسان فى جزائر الهند والصين ؛ لأنــه في الحقيقة كان يطلب الغـريب البعيد فى ذاته دون تدقيق .

وقد أخذت قصص ألف ليلة صورتها الأولى فى بغداد ربما فى القرن الهجري الثالث التاسع الميـلادى ، لأن المسعودي وهو من أهل القرن الـرابع الهجرى يذكرهـا باسمها الفارسى : هزار إنسانه (أى ألف خرافة) وقال : والناس يسمون هذا الكتاب ألف ليلة وليلة ، وهو خبر الملـك والوزير وابنته وجـاريتها « كذا فى طبعة بـولاق » ، أما فى الطبعة المصرية الجاريـة وهى طبعة محمـد على صبيح فتقول ودايتهـا والأصح أختها ، وهما شيرا زاد ، ودينـا زاد ، ومثل كتـاب فرزه وسيماس ومـا فيهـا من أخبـار ملوك الهنـد والوزراء ، ومثل كتاب السندباد ، ومثلها من الكتب فى هذا المعنى .. (مروج الذهب طبعة باريس ١٩١٤ جـ ٤ / ٨٩ ـ ٩٠) وهذا الخبر يدل على أن ألف ليلة فى دورها البغدادى كانت تقتصر على حكاية شهر زاد .

وفى القاهـرة ربما ابتداء من العصر الفـاطمى ـ أخـذت مجموعـة القصص تتجمع وتأخذ صيغـة وأسلوبًـا واحدًا ـ وأضيـف إليها حكايـات جديـدة ذات طابـع مصرى خالص ، وبعـض هذه الحكايـات المصرية جميل محكم الصيـاغة مثل حكـاية مسرور التاجـر مع معشوقتـه زين المواصف ، وبعضها ضعيـف مبتذل مثل حكايـة أبى صير وأبى قير ، ولكن القصص كلها أعيدت صياغتها فى القـاهرة والغالب أن إعادة الصياغة تمت على ألسنـة القصاصين الشعبيين فى المقـاهى ، ولم تكتب القصص إلا فى منتصف العصر المملوكى ، فإن الأسلـوب ركيك جدًا بل عامى وجهل الكاتب واضح فهـو لا يكاد يقيم عبارة صحيحـة ، ومن عجيب الأمر أن هـذه الركاكـة نفسها تضفى على القصص حلاوة خاصة ؛ لأنها تؤكد لنا أن هذا القصاص صادق ، وأنه صانعه وواضعه مباشرة دون تزويق ، وهذا هو الجميل ؛ لأن ألف ليلة فى هذه الصيـاغة تعتبر تصويرًا للأحوال الاجتماعية التى صدرت عنهـا والعقلية التى كتبتها حتى الشعر هنـا عامى الروح وإن كان صـاحبه ـــ الكاتب ـ قـد حاول أن يجعلـه شعرًا فصيحًا ، خـذ مثلًا هـذه الأبيات الطريفة التى تقرأها فى قصة الصياد مع العفاريت :

يـــا حـــرقـــة الـــدهـــر كفى	إن لم تكفـــــى فَعفًـــــى
فـــــلا بحظى أعطـى	ولا بصنعــــــة كفـى
خـــــرجـت أطلب رزقـى	وجـــــدت رزقى تـــــوق
كـم جـــاهـل فى ظهــــور	وعـــــــالم متخفـى

ونحن عندمـا نقرأ ألف ليلـة ينبغى أن نـذكـر دائماً أنها تصور أحـلام الفقـراء المتاعيس ، فإن المواطن المسلم أو العـربى المقهور وضـع أمله فى العفـريت الذى يعصف بالسلاطين ، وانتظر الخلاص من تعاسته فى كرم الخالق سبحانه القادر على العطاء من غير حساب ، فكثر الكلام عن الكنوز والسحرة والساحرات .. والفقير المعدم الذى سئم امرأته التى يـراها أمامه ليل نهار فى أسمالها الباليـة ووجهها البائس جلس فى مقهى فى الليل يستمع إلى أوصـاف بدر البـدور وست الحسن والجمال وتصـورهـا بين يديـه ، وحَلَّق به الحلم فتصـور أمه قمـر الزمـان ، وهنا تبدو لنـا أوصاف النســاء الجميلة ـ والخارجة عن الحشمـة أحيانًا ـ تصـويرًا لأحلام أهل تلك العصـور وشوقهم إلى المرأة الجميلة البيضـاء السمينة التى لا يتمتع بها إلا المماليك والســلاطين ، واستمع مثلاً إلى صورة الجمال الأنثوى كما تصوره الحَمَّـال فى قصة الحَمَّـال والبنات : « فنظر الحمال إلى من فتح له الباب فوجدها صبيـة رشيقة القد ، قاعدة النهد ، ذات حسن وجمال وقَدٍّ واعتدال ، وجبين كَفُـرَّةِ الهلال ، وعيون كعيـون الغزلان ، وحـواجب كهـلال رمضان ، وخدود مثل شقائق النعمان ، وفم كخاتـم سليمان ، ووجه كالبدر فى الإشراق ، ونهدين كـرمانتين بـاتفـاق ، وبطن مطوى تحت الثيـاب كطى السجل للكتـاب » . فهذه فتـاة الأحلام إذن كما تصورها الحَمَّـال الشقى وهو طول اليوم يحمل الأثقال ، وقد تعود أن يحمل البضائع وحـوائج الناس حتى الباب فقـط ، وهنا يعطى أجره الـزهيد ويصرف ، ولكنه فى عالم الأحـلام ينفتح أمامه الباب على يد هذه الجاريـة الحسناء ويدخل القصر فيجد بنات أخريات يداعبنه ويطعمنه ألذ الطعام ويسقينه أحسن الشراب » .

ولكن أكثر ما فتن الناس فى الغرب فى ألـف ليلة هو ذلك الخيال الخصب فى رحلات السنـدباد مثـلاً ، فهناك خيـال طلق يخلق بحارًا ومحيطـات وسفنًا وأسماكًـا فى حجم الجزائر وطيورًا تفـوق فى ضخامتهـا أحجام أضخم الطائرات فى أيـامنا ، وطـائر الرخ

يبدو لنا كأنه طائرة جامبو هائلة والسندباد مربوط فى رجل الرخ ، وكأنه معلق فى صندوق عجلات الطائرة ، وهنا عفاريت وجنيات ومردة ضخام لكل منها عين واحدة وسط وجهه ، وهنا أخطار تتوالى ومغامرات بلا نهاية ، وفى كل مرة يعود التاجر سليمًا معافى إلى البصرة ليحمد الله الرحمن الرحيم ويسجد له سجود الشاكرين ، ومثل هذا يقال عن مصباح علاء الدين والمارد الذى يخرج من القمقم وحكايات على بابا والأربعين حرامى ، إلى آخر هذا القصص الجميل الذى كان سمار المقاهى يهربون من عالم حياتهم الكثير ، والقصاص يحكى وشاعر الربابة ينشد ثم ينقضى ذلك كله وينفض الشاعر ويعود التعيس إلى بيت الشقاء .

وحكايات ألف ليلة وليلة تسىء الظن بالنساء ، وهذه هى صورة المرأة فى عقل الرجل فى العصور الوسطى ، وإذا كان العربى المسلم قد وكل المرأة إلى دينها وأمانتها وحسن تربيتها ، فإن الأوروبى لم يطمئن حتى إلى ذلك وابتكر حزام العفة تلبسه المرأة طوال غياب زوجها ، ولكن مؤلفى القصص لم يحرموا المرأة نصيبها من الأحلام فهى تحلم بالشاب الجميل والرجل الذى يملأ العين ، ولهذا ابتكروا للنساء صورة التاجر الشاب الوسيم الحسن البصرى والأمير قمر الزمان ، وهنا أيضًا نجد المرأة ترسم صورة محبوبها الذى تحلم به وتُمنِّى نفسها بالحصول عليه والهرب إليه من زوجها الشقى الفقير .

وبعض حكايات ألف ليلة أصبحت موضوعات قصصية ترددت بعد ذلك فى الأدب العالمى كله ، ولم تلق حكاية من النجاح فى هذا المجال ما لقيته قصة « النائم الذى صحا » وهى تحكى لنا قصة رجل فقير تعيس أدركه النوم إلى جوار حائط فى الطريق فمر به رجل غنى أو ملك فى موكبه فزاد التندر به فأمر غلمانه بأخذه إلى القصر وهناك سقوه حتى غاب عن الوعى ، ثم ألبسوه فاخر الثياب بعد أن أدخلوه الحمام فلما أفاق وجد نفسه فى ثياب الأمراء فى قصر كأنه فى جنة الخلد ، ووضعوا أمامه ألذ الأطعمة والأشربة ، وجعلوا يتسلون بما يصدر عنه وهو يتصور أن الله رحمه وأدخله عالم السعداء إلى آخر أيامه ، فلما فرغوا من التندر به انتظروا حتى غلبه الشراب ونام ، فلما صحا وجد نفسه فى نفس أسماله التى كان فيها عندما وجدوه ناعسًا إلى جوار الجدار فى الطريق .

هذا هو القالب الذى أخذه الأديب الأسبانى الأشهـر كالديرون دى لاباركا ، وصبه فى مسرحيته الخالـدة « إنما الحياة حلم » La Nida es Suena وحكى فيه حكاية الملك سجيموندو الـذى فقد ملكه فى عالم الواقـع ووجده فى عالم الأحلام ، وفى مونـولوجاتها الطويلـة عرض كـالديـرون فلسفته فى الحيـاة وذلك أيضًا هـو القالب الـذى صب فيه شكسبير مسرحيته « النوء » The Tangest واستعار الخيال العربى ليحكى فيه قصة الملك الذى نفاه أعداؤه فى جزيرة ، وهناك التقى بالصبى الملائكى اللطيف اربيل .

وفى نهاية مجموعة ألف ليلة تجد قصة جميلة سأحكيها لك فى مقام قائم بذاته بعد الفراغ من هـذه الدراسـة هى قصة الجارية تـودد ، وهـى حكاية جـارية معلمـة فاقت العلماء بعلمها وأحاطتهـا بكل العلوم الإسلامية فى العصر الـذهبى ، وتمتعت إلى جانب ذلك بوفاء عظيم ، هذه القصة التي وصلت إلى الأندلس قبل أن يترجم جالان ألف ليلة إلى الفرنسية وقد أخذها أديب أسبانى آخر كبير هو لاب دى فيجا Lap De Vega وأنشأ على مثالها قصـة الفتاة تيـودور La Dancelle Teadar حتى الاسـم مأخـوذ عن العربية ، فإن الذين ترجموا قصة الجارية تودد ، فأخذها لاب دى فيجا وجعلها الآنسة تيودور ، وألـف ليلة حـافلة بالقصـص القصيرة التى ترد فى تضـاعيف الحكـايات الطويلة ، وهذه القصص القصيرة دائماً حكـايات حلوة قصيرة ، وقد أشرت فيما سبق إلى قصة الفتـاة التى خطفها المارد وحبسـها فى صنـدوق وضعه فى قاع البحر ليخـرجه ويستمتع بها وقتما يشاء ، فانتقمت منه وخانته سبعمائة واثنتين وخمسين مرة ، فهذه الحكاية أخذها أناتول فرانس وحكاها بأسلوبه الجميل المشرق فلقيت من الناس إعجابًا عظيمًا ، أما حكاية قمر الزمان وبدر البدور فقد أخذها الموسيقى النمسوى فرانز ليهار وأنشأ عليها أوبريت من ألطف ما عمل وسماها « أبو الحسن » .

ويطول بنـا الكلام إذا أردنـا أن نتتبع الأثر البعيـد الذى كـان لألف ليلـة فى الفكر الغربى كله ، فإن تلك المجموعة من القصص الشعبى أصبحت من زمن طويل جزءًا من الفكر الغربى بل الحضارة الغربية ، ومـا أكثر الروايات والمحلات والعطور التى تحمل أسماء ألف ليلة وشهر زاد وعـلاء الدين والسندباد وعلى بـابا ، والسبب فى ذلك أن هذه الحكايات الشعبية التى تبدو فى مجموعها ساذجة بل بدائية تنطوى على حكمة إنسانية كبرى هى قصص صـادق ، خرج من قلـوب نـاس طيبين فلقى القبول من كل القلـوب

الطيبـة ، ودون تكلف أو حتى تحمل وجـدت الإنسانيـة فى تلك الأحـلام حكمة الحيـاة الكبرى فالحياة كلها فى نهاية الأمـر حلم ، وهنا فى ألف ليلة أحلام الحب والنعيم والغنى والجاه والمغامرات والعجـائب والإيمان بالله وقدرته ، وهـذه كلها موضوعـات إنسانية عامة ، ومن هنا جـاءت عالمية ألف ليلة وهى رغم ما يبدو فيها من سـوء الظن بالدنيا لا تفقد الأمل فى فرج الله أبـدًا ، وحكاية معروف الإسكافى أكبر مثال لـذلك ، فذلك الإسكافى المسكين الذى يعانى غصص الحياة من امرأته سليطة اللسان .. « فاطمة العرة » ينتهى به الأمر إلى الهرب من وطنه نجاة بنفسه من تعقب امـرأته له وشكواها إياه إلى القاضى مرة بعد أخرى ، فيهرب إلى عوالم بعيدة قاصية حيث يصيب المال الكثير ثم يدركه الفقر مرة بعـد أخرى ، وفى النهاية يـرزق المال الوفير ثم يصبح ملكًا عظيمًا ، ويتـزوج امرأة جميلة فينجب ابنًا وسيمًا وفاطمة العرة تلاحق معـروفًا حتى تكاد تظفر به وتراه نائماً وفى أصبعـه خاتم سليمان فتسللت إلى القصر ومـدت يدهـا لتسرق الخاتم وهنا هـوى عليها سيف الأمير ابن الملك معـروف وهنا تقرأ : « ثـم إن الملك معروفًا زعق على أتبـاعه فأتوه مسرعين فأخبرهم بما فعلته زوجته فاطمة العرة ، وأمرهم أن يأخذوها ويحطوها فى مكـان إلى الصبـاح ففعلـوا كما أمـرهم ، ثم وكل بها جماعـة من الخدام فغسلـوهـا وكفنوها وعملوا لها مشـهدًا ودفنـوها ، وما كان مجيئها من مصر إلا لترابها ولله در من قال :

مشينـــاهـــا خطى كتبت علينـــا ومن كتبت عليـــه خطى مشـــاهـــا

ومـن كـــانت منيتـــه بـأرض فليس يمـــوت في أرض ســـواهـــا

وهناك نوع آخـر من الأدب الشعبى العربى نجده دائماً على هامـش الحياة الأدبية لأن أصحابه كانوا ثـوارًا على مجتمعهم منكرين لما فيه ، وهم فى الأدب الجاهلى يسمون الشعراء الصعـاليك لأنهم كانـوا أعزاء النفوس ، لا يـدخلون فى قـوالب الحياة الـراتبة ومثالهم المشهور فى الجاهلية الشنفرى وهـو عمرو بن مالك الأزدى المتوفى فى الجاهلية سنة ٥٢٥ م ، ولم يعجبه قومه لأنـه اتهمهم بالجبن ، فانخلع عنهم وانضم إلى الشعراء الصعاليك وقال :

وفى الأرض منأى للكـــريم من الأذى وفيهـــا لمن شــــاء القلى متعـــزل

وخاصم قومه وأنشأ فيهم لاميته المشهورة بلامية العرب ومطلعها :

أقيمــوا بنى أمــى صــدور مطيكم فإنــى إلى قــوم ســـواكم لأميل

ولى دونكم أهلــون سيــد عملس وأرقط زهلــول وعــرفاء جيل

وخرج إلى البرية وصار يعيش من الغارة على القبائل التى يجبن رجالها عن الدفاع عن أنفسهم وحماية الضعفاء ، مثله فى ذلك مثل عروة بن الورد وأهله الذين لجأ إليهم وهم الصعاليك الجوالون أمثاله الذين يألفون القفر والوحوش أكثر مما يألفون الناس ، ولامية العرب لم يضعها نقاد الأدب العربى بين عيون الشعر الجاهلى بل إن محمد بن سلام الجمحى صاحب « طبقات فحول الشعراء » لم يذكر فى كفاية الشنفرى أو عروة ابن الورد ، مع أن لامية العرب هى أجمل ما قيل فى العرب وأصدقه وأكثره إخلاصًا ، واقرأ عن أولئك الصعاليك كتاب الدكتور يوسف خليفى لترى أن الصعاليك كانوا فى أرفع مستويات الشاعرية والصدق الأدبى ، بل إن البروسيين الألمان عندما وضعوا نشيدهم القومى أخذوا من لامية الشنفرى بعض معانيها ، بعد أن ترجمها إلى الألمانية المستشرق النمساوى هامر بورجشتال Hammer Burgtell .

وعلى طول تاريخ الأدب العربى يسير تيار أدب الصعاليك ، وهو يدخل ضمن ما نسميه اليوم بالأدب الشعبى ويتجلى هذا التيار الشعبى فى أدب المقامات : قطعة أدبية مصوغة فى قالب من السجع تقص حكاية صعلوك ذكى مثقف يعيش من التسول والكدية وسعة الحيلة ، فأدب المقامات صعلوك بموضوعه مسجوع متكلف بقالبه ، وهذا التكلف أفقده قيمته ، وفى القرن الرابع الهجرى يظهر بديع الزمان الهمذانى وهو أبو الفضل أحمد بن الحسين المتوفى سنة (٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م) ويصوغ إحدى وخمسين مقامة كل منها مشروع قصة لا تكمل أبدًا ، إنما هي معرض ألفاظ وسجعات وحيل وطرائف يرويها أديب وهمى يسمى عيسى بن هشام ، وبطلها صعلوك متنكر فى صورة تاجر متجول يدعى أبا الفتح الإسكندرى وهو صعلوك واسع الحيلة لطيف المدخل بليغ العبارة خفيف الظل يقول: إنه أسعد أهل زمانه لأنه يعيش بالتسول فهو على بريد الدنيا ومساحة الأرض وخليفة ذى القرنين الذى بلغ المشرق والمغرب حيثما حل لا يخاف البؤس يسير حيث شاء يأخذ أطايب كل بلدة .

وبعد ذلك بنحو القرن تظهر مقامات الحريرى ، وهو أبو القاسم محمد بن على الذى ولد فى البصرة وعاش سواحًا يتسول بمقاماته (٤٤٦ ـــ ٥١٦ هـ / ١٠٥٤ ـ ١٢٢٢ م) وينشىء خمسين مقامة على غرار مقامات البديع ، ولكنها أقل قيمة لإسراف الرجل فى السجع والإغراب ، وراوى مقامات الحريرى رجل وهمى هو الحارث بن همام وبطلها أبو زيد السروجى وهو صعلوك متسول صاحب حيل ، حياته كلها احتيال للحصول على المال والطعام ولكنه واسع الثقافة حاد الذكاء بليغ العبارة ، وقد بلغ الحريرى بمقاماته من الشهرة ما لا يستحق ، بل إن سلفستردى ساس المستشرق الكبير نشر المقامات فى أدق صورة وعمل لها فهرسًا للألفاظ لأن الناس كانوا يقولون فى القرن الماضى : إن مقامات الحريرى أبلغ ما أنشأه العرب مع أنها أسوأ وأثقل وأكذب مقال للنثر العربى .

ولكن الصعلوك الحقيقى الذى تستطيع أن تقول إنه أديب موهوب صادق ومتسول متكسب هو الوهرانى التلمسانى الذى اكتشفنا مقاماته أخيرًا ، وقام على نشرها الأستاذان إبراهيم شعلان ومحمد نغشى (القاهرة ١٩٦٨) ونحن لا نعرف عن الوهرانى إلا أنه ركن الدين محمد بن محرز بن محمد ، وأنه توفى سنة (٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م) ، ولم يؤرخ له أحد لأنه كان صعلوكًا يعيش على هامش الحياة الفكرية التقليدية ولكن كتاباته تكشف عن نفسه وظروف حياته لأنه كأى صعلوك فى تاريخ الفكر الإنسانى يعيش الحياة الواقعة دون تزويق ، وهو نفسه جزء من ذلك الواقع وهو رجل مثقف جدًا ، ففى المقامة الأولى من كتاب مقاماته وصناماته يتحدث ساخرًا عن كل دول زمانه من أقصى الغرب إلى إيران ويختمها بقوله متحدثًا عن عبد المؤمن بن على خليفة الموحدين فى المغرب ، فصنعت له ذوو التيجان وخدمة الإنس والجان ولو أن للقلم لسانًا وللورقة إنسانًا لتألمت وتظلمت ولأنشدتك فى الملا قول الشيخ أبى العلاء :

جلوا صارماً وتلوا باطلاً وقالوا : صدقنا فقلنا نعم

ولكن السكوت عن هذا أنجح ومسالمة الأفاعى أصلح ، وهذه مقالة مفكر حر يشعر أنه مخنوق ولا يستطيع أن يفصح عما فى صدره ، والمقام الأول فى الكتاب (ص ١٧ وما بعدها) تحفة أدبية فكرية يصف الرجل فيها رحلة تخيلها فى عالم الإسلام لا تقل طرافة عن « رسالة الغفران » ، بل هى أشد لذعًا وأقسى نقدًا ، والمقام مصوغ فى قالب

مقامة بديعة ذات خيال واسع وعلم عظيم ، وفيهـا يلم بالجنة والنار ويستعرض رجال التاريخ الإسلامى من أيام معاوية بن أبى سفيان ويجعلهم كلهم فى النار .

وإذا كـان بديع الـزمان قـد تستر خلف شخصيـة الصعلوك عيسى بن هشـام ، والحريرى اخترع شخصية الصعلوك أبى زيد السروجى ، فإن الوهرانى فى مقاماته هو الصعلـوك نفسه ، ومن هنـا فهـو يصور لنـا شخصية الصعلـوك أصـدق تصويـر . والطريف أن شخصيـة الصعلوك انتقلت إلى الأدب الإسبـانى ربما عن طريق مقـامات الحريرى ، فقد اشتهـر أمرها فى الأندلس وأكبر شراح مقامـات الحريرى هو الشريشى الأنـدلسى . وقـد فتن أدبـاء الإسبـان خـلال القـرنين السـادس عشر والسـابع عشر بشخصية الصعلوك العـربى ، ونشأ عندهم نوع من القصص الجميل يسمى بقصص الصعاليك Lanaveliareaco والبكـارو Picora الإسبـانى هو بـالضبط الصعلـوك العربى . وقصص الصعاليك خلف لنا آثارًا قصصية بديعة فى الأدب الإسبانى أشهرها وأجملها هى قصة لاتاريو دى تورميس La tari llede tormes التى تنسب أحيانًا إلى رجل يسمى قزمـان الفاراتشى Cuzmande Alfarache ربما كان عربيًـا مورسيكياً متنصرًا اسمه قـزمان بن الفرج ، وتنسـب أحيانًا إلى مـاتيو اليمان Mates Alemak ولاتـاريـو بطل القصة غـلام مسكين لطيف يعمل قـائدًا لقس أعمى غـايـة فى التجل ، ومغامـرات لاتاريـو أو عصا الأعمى من هـذا القس البغيض ، وغيره ذات طابع عـربى خالص مقتبس من المقـامات العربيـة ، وواحد من أكبر الأدباء والمؤلفين الإسبـان وهو مننذ يلايو Marcaline Mauomler يفخر بالفوفيلا بيكاريسكا ويقرر أنها من أجمل هدايا الفكر العربى للفكر الإسبانى .

وكنت أحب أن أحدثك بإفاضة عن أعظم صعلوك فى تاريخ الأدب الشعبى العربى ، وهو الزجال الشاعر الأندلسى أبو بكر محمد بن قزمان المتوفى ٢ أكتوبر ١١٦٢م خلال العصر الموحدى ، وهو الزجال القديم الوحيد الـذى عثرنا على ديوانه كاملاً وهو مكتوب بلغة أنـدلسية : عربيـة أسبانية مغـربية ، ولكى تفهم ابن قـزمان لا بد أن تعـرف هذه اللغات ولا بـد أن تكون عالمًا بفقه اللغـات أى فيلولوجيا ، ولهذا فإن أحـدًا من العرب لم يقرأ أزجال ابن قزمـان إلا الدكتور عبد العزيز الأهوانى وكاتب هـذه السطور ، أما بقية من درسوه وفهمـوه فمن الأوربيين : خوليان ريبرا ونيكل وليفى بروفستـال وخاصـة

غرسيه غـومس ، وقد نُشِـرَ الديوان وطُبِعَ بحـروف لاتينية بعنوان El lanciones de lamguromon وألف فيه غـرسيه كتـابًا ضـخمًا فى ١٥٠٠ صفحة عنـوانه To de Jlr Gyman أى ابن قزمان كاملاً ، وهو يؤكد أن هذا الرجل أعظم عبقرية شاعرية أندلسية وهو على حق ، وابن قزمان صعلوك يسكن حجرة يصفها هو بأنها قاحلة مع أن أباه أو عمه كان وزيرًا ، وأزجاله كلها تصوير واقعى رائع للمجتمع الأندلسى فى عصر التدهور وهو سكير وزيـر نساء ومتسـول ، ولكنـه موهوب طريف سـاحر فى أسلوبـه وآية فى الذكاء ..



عَصْرُ الرّكُودِ وَمَدَاهُ

الشائع الذى يجرى عليه التاريخ عندنا أن يقسم التاريخ العباسى إلى عصرين الأول والثانى : فالأول هو عصر القوة . والثانى هو عصر الضعف والتدهور . وقد آن أن نعيد النظر فى هذا التقسيم ، فإن العصر العباسى الثانى وهو عصر التدهور طويل جدًا يمتد من (٢٣٢ تقريبًا إلى ٦٥٦ هـ) ، وهى سنة استيلاء المغول على بغداد وقضائهم على الخلافة العباسية فيها ، ثم إن الدولة العباسية والمجتمع الإسلامى من حولها دخل فى تطورات كثيرة غيرت شكل الخلافة وطبيعتها وصورة المجتمع الإسلامى وخصائصه خلال تلك الحقبة الطويلة جدًا من السنين ، ولهذا فإنى أقترح هنا ـ وهذه وجهة نظر ـ أن نقسم العصر العباسى إلى خمسة عصور لكل منها طابعه وخصائصه .

ومن هنا فقد أصبحت تسمية « العباسية » زائفة وتحتاج إلى استبدال ، وما دام هذا التاريخ الذى أكتبه يمثل فى جملته وجهة نظر جديدة ودعوة إلى إعادة النظر فى التاريخ الإسلامى العام وحضارته وتاريخ الفكر العربى ، فإنى أطرح رأيًا جديدًا وتقسيمًا جديدًا فيما يلى :

١ ـ **العصر العباسى الأول** : وهو عصر قوة الدولة وصعودها وازدهارها السياسى .

ويمتد من بداية خلافة أبى العباس السفاح وينتهى بنهاية خلافة أبى جعفر هارون الواثق بالله ابن المعتصم (٧٥٠ ـ ١ ديسمبر ٨٤٧ م / ١٣ ربيع الأول ١٣٢ ـ ٢٣ ذى الحجة ٢٣٢ هـ / ١٣ نوفمبر) .

٢ ـ **العصر العباسى الثانى** : وهو عصر تدهور الخلافة وسيطرة الجند التركى عليها من بداية خلافة المتوكل أبى الفضل جعفر بن المعتصم إلى بداية عصر أمراء الأمراء ، أى القادة المفوضين فى الحكم باسم الخليفة المستضعف ، ويدخل فيها عصر سيادة البويهيين وإليهم تنتهى ذروة عصر أمراء الأمراء (٢٣ ذو الحجة ٢٣٢ إلى سنة ٤٧٤ هـ / ديسمبر ٨٤٧) إلى أن تبدأ سيطرة البويهيين على الخلافة فى (جمادى الأول ٣٣٤ / ديسمبر ٩٤٥) على يد معز الدولة أحمد بن بويه وتنتهى بطغرل بك أول سلاطين السلاجقة سنة ٤٤٧ .

٣ ـ **العصر العباسى الثالث** : ويبدأ من نهاية العصر البويهى وبداية العصر السلجوقى أثناء خلافة أبى جعفر عبد الله القائم بأمر الله ابن القادر وهو السادس والعشرون من خلفاء بنى العباس باستيلاء طغرل بك على بغداد وتفويض الخليفة القائم بالله السلطة له ، وهذا العصر هو عصر سيادة الأتراك على شرق الدولة الإسلامية سيادة كاملة ، فلم يبق للخليفة ورجاله أو للعرب إلا سلطان ثانوى ، وينتهى باستيلاء المغول على بغداد (٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) ونهاية الخلافة العباسية فى بغداد .

٤ ـ **العصر الرابع** : وهو ليس عباسيًا ، إنما هو مغولى ؛ لأن الخلافة العباسية زالت من بغداد وسيطر المغول على شرق الدولة الإسلامية كله ، ودخلوا الإسلام وأقاموا دولة الأيليخانات فى إيران والعراق ويمتد من سنة ٦٥٦ هـ وهى سنة سقوط بغداد ويستمر إلى سنة (٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م) وهو تاريخ بداية استيلاء الأتراك العثمانيين على شرق الدولة الإسلامية أيام السلطان سليم الأول ياووز ، ويتميز هذا العصر بسيادة المغول فى العراق وإيران ، والأيوبيين ، ثم المماليك البحرية فى مصر والشام والحجاز وينتهى بها ببداية العصر التركى العثمانى .

٥ ــ **العصر الخامس** : وهو العصر العثمانى الصفوى ، وفيه قامت الدولة الصفوية فى إيران وبسطت سلطانها على العراق حتى نهض الأتراك العثمانيون وأخرجوا الصفويين من العراق وأعادوه إلى سيادة السُّنة على يد السلطان سليم الأول ، أما بلاد الشام ومصر ثم بلاد ليبيا وتونس والجزائر فقد دخلت فى الدولة العثمانية ، ويستمر العصر العثمانى إلى دخول الحملة الفرنسية مصر (١٢١٥ هـ / ١٧٩٨ م) وبه يبدأ عصر النهوض الذى سنتحدث عنه لاحقًا .

* * *

وهذا التقسيم جديد ، وقد خالفت فيه التقسيمات التقليدية التى أصبحت عندنا قوالب جامدة لا تتغير ، وقد أقمت هذا التقسيم على أساس التحولات الاجتماعية والحضارية الحاسمة التى مرت على الجناح الشرقى من بلاد العروبة والإسلام ، لأن العصور هنا ليست سياسية فحسب بل هى اجتماعية ثقافية ، بل ديمغرافية أى

سكـانية أيضًـا ، فخلال العصرين الأخيرين (الـرابع والخامس) ساد المغـول أولاً ثم الأتراك ثم العثمانيون بعد ذلك ، والمغول بعد أن قضوا على خلافة بنى العباس أسلموا ، وحملوا لـواء دولة الإسلام فى إيران والعـراق وبعض الشام ، وأنشأوا دولاً تسمى دول الإيلخانات التـى أدخل أمراؤها عناصر ثقـافية مغولية فى إيران والعـراق ، وبعض هذه الدول شيعيـة وبعضها سُنيـة ، وبلاد إيران والعـراق وبعض نواحى الشـام ما زالت تحمل آثـار عصر الإيلخـانـات ، وعصر الصفـويين والأتـراك العثمانيين ، فـالتركيب السياسى الاجتماعى فى إيران والعراق الـذى أدخل هذه الخلافات المذهبية الحادة التى لا تـزال هذه البـلاد تعانيهـا إلى اليوم ، فقـد كانت بـلاد إيران مثـلاً سُنية قبل الشـاه إسماعيل الصفوى والشيخ صفى الدين الأردبيلى الذى تنسب إليه الدولة الصفوية كان سُنيًا ، ولكن إيـران بدأت فى التحول إلى دولـة شيعية أيام الشيخ حيـدر الأردبيلى الذى تـولى رياسـة جماعة الصفـويين سنة (٨٥٩ هـ / ١٤٥٥ م) ، ولم يكن اعتماده على الإيرانيين بل على التركمان ، ومعظم الإيـرانيين الأصلاء أهل سُنة إلى يومنـا هذا ، ولكن الشيعية حمل لواءها التركمان وهم أتراك مسلمون من وسط آسيا ، ومازالوا موجودين إلى اليوم فى جمهورية تركمانستان الداخلة فى الاتحاد السوفيتى سابقًا ، وجدير بالذكر أن الشيخ حيدر الأردبيلى تزوج من سيدة مسيحية روسيـة هى دسبينا ايكاترينا De-spina Ecatrine ابنـة ملك مملكة طـريزون المسيحيـة وقـد أسلمت هذه السيـدة على المذهب الشيعى ، وعندما قامت دولة الأتراك العثمانيين وأخذت تبسط سلطانها على كل الجناح الشرقى لبلاد الإسلام نهض لمقاومته إسماعيل الصفوى ابن الشيخ حيدر ، وقد كان الأتراك العثمانيون يرفضون لواء السُّنة ، وكان لا بد أن يقع الصراع بين الصفويين والعثمانيين فـرفع إسماعيل الصفوى لـواء الشيعة وتـزعمه وعمل على نشره فى إيـران بالقوة ، ولكنه انهزم أمام العثمانيين فى معركة نشالديران الحاسمة فى (رجب ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م) ، واحتل السلطـان سليم تبريـز ثم أخـلاها ولكنـه أخـرج وسط العـراق وشماله من الشيعية ورد العراق إلى السُّنة ويخطىء من يظن أن أهل إيران كلهم شيعة ، بل إن غالبية الإيـرانيين أهل سُنة ، والشيعة الإثنى عشرية هناك ـــ وهم الذين يسمون بالجعفرية ـ أقلية ، وكانـوا مغلوبين على أمرهم بسبب استبداد التركمان الأتراك ، وكان إسماعيل الصفوي شيئًـا يشبه آيـة الله روح الله الخمينى ، فقد كـان شديـد العصبية للشيعـة وقد حـول الشيعيـة إلى عصبية قـومية ، الإثنى عشريـة فى مـواجهة الأتـراك

العثمانيين السُّنيين وحتى محمد بهلوى وأخوه رضا بهلوى شاه إيران الأخير كان سُنيًا ، ثم تحول إلى الشيعة الإثنى عشرية ، وخلفه فى ذلك الشاه محمد رضا بهلوى آخر شاهات إيران وكان أشد عصبية فى شيعيته من الخمينى ، وكان يضمر للعرب والسُّنة كل شر ، وقد قصمه الله وقضى عليه بعد أن كان قد أعد قوة عسكرية رهيبة وبدأ العدوان على العرب باحتلال جزر أم موسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى ، وهو المسئول عن عصبية الخمينى وآيات الله ، وهم أئمة الشيعة الإسماعيلية الاثنى عشرية الذين يحكمون إيران اليوم لأنه بجبروته الدموى سفح دماء الألوف ومن بينهم ابن آية الله روح الله الخمينى ونفاه من إيران إلى العراق ، والعراقيون لم يأذنوا له فى المقام فى بلادهم مراعاة لمشاعر الشاه فأخرجوه من بلادهم فلجأ إلى فرنسا واستقر فى باريس .

وأخذ يعد العدة للانتقام من الشاه دفاعًا عن مصير بقايا التركمان الذين أصبحوا إيرانيين مع الزمن ، وهؤلاء هم عصب الحركة الخمينية اليوم ولولا أن ثورتهم عليه نجحت لأبادهم الشاه ، وهذا يفسر لك استبسال الثائرين مع الخمينى على الشاه ، حتى أنهم كانوا يواجهون المدافع بأجسامهم ويستولون عليها ، وهذا يفسر لك أيضًا عداء الخمينى للنظام العراقى الحالى الذى طرده أيام كان منفيًا فى العراق ، فهو عداء انتقام لا من العرب فى جملتهم بل من رجال النظام العراقى البعثى الذين طردوه مجاملة للشاه ، ولهذا فإن أول مطالبهم اليوم هى إسقاط حزب البعث العراقى ونظامه . حقائق لا بد أن تعرفها لكى تفهم ما يدور هناك من صراع دموى اليوم وهو صراع غير قابل للحل إلا على أساس سقوط أحد النظامين : الخمينى أو البعثى العراقى . ونحن العرب قليلاً ما نفهم حقائق تاريخنا فنتحمس ضد الإيرانيين ونحسب ذلك دفاعًا عن العروبة ، وننسى أن العراق كان فى حربه مع إيران يصر على أن يسمى الإيرانيين بالمجوس ، وهم ليسوا مجوسًا ولا غالبيتهم شيعة إنما الأغلبية سُنية ، وكيف لا يغضب السُّنى الإيرانى عندما يقال إنه مجوسى ؟ وإن وحدة إيران لا بد أن تتفكك وتنشأ مكانها دويلات إيرانية تركمانية وخوارزمية وإيرانية وتركية وعربية .

وهذا الوصف الموجز لتطور الأوضاع السياسية فى العراق وشمال الشام وما يليها شرقًا إلى حدود الهند يشرح لك سبب وجود الأقليات الدينية الغريبة فى العراق والشام حتى لبنان ، فهناك عرب وأكراد وترك وتركمان وشراكسة ، وهناك شيعة من كل لون :

شيعية وإثنى عشرية وزيدية ، وهنـاك سُنة وهنـاك إسماعيلية حشاشـون من الذين كانـوا يريدون إبادة أهل السُنـة وعلى يدهم قُتِلَ نفر من أعلام السُنـة مثل عماد الدين زنكى أول أبطـال الإسلام فى حـربهم مع الصليبيين ، وهناك دروز وهم بقـايا مـذهب شيعى ابتكره رجل يسمى حمزة الـدرزى أثناء سيـادة الفاطميين على بلاد الشـام أيام الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، وهم مسلمون لفظًا لا معنى ، وهناك نصيرية علوية وهم شيعـة شـواذ فى عقيـدتهم أوشاب نصرانيـة يسمـون أنفسهم مسلمين ، وهنـاك مساحرة يعبدون الشمس ، وهناك نحو عشر طوائف مسيحية منها واحدة هى من بقايا الصليبيين هم الموارنة الكاثوليك ، هنا نفهم لماذا قال ابن قيم الجوزية فى إحدى رسائله : « إن شر مـا فى زمانـه هو أنك لا تعـرف من هو جـارك فكل رجل من جيرانك من جنس ودين ، فلا أدرى وربك أين ذهب العرب ؟ وأين ذهب الإسـلام ؟ » وهذا السؤال صادر عن ابن قيم الجوزية لا منى .

هـذا الخليط الغريب من الأجنـاس والأشكال والأديـان يضع أصبعك على السبب الأكبر فيما يسمى بالركـود ، يجوب العالم الإسلامى سياسيًا وفكريًـا وحضاريًا ، فقد انحلت عقدة الأمة واختفى العرب من ميدان السياسة والسيادة ، أو صاروا قلة لا تذكر أو تـؤثـر والسيـادة أصبحت لأجنـاس المغـول والترك والتركمان والأكـراد والشركس القوقازيين بل الأرمن والكرج بضم الكاف ، وهؤلاء جميعًـا كانوا حديثى عهد بالإسلام والـذين أقبلوا على العـربية منهم قليلـون ، فـانحط مستوى الفكـر والمفكرين وكثـرت المدارس وتكاثر فيها الطلاب وكلهم يدرسـون المبادىء الصغيرة ، ولم تعد هناك بلاطات ملـوك عظماء يجيـزون أو يهبـون الألـوف ثم إن البـلاد فى مجمـوعهـا قـد افتقـرت : الصليبيون نهبـوا وخربوا من ناحيـة ، والمغول والتتار خـربوا من ناحية أخـرى ، بعد الحرب الصليبية الأولى جاءت الثانية والثالثـة إلى التاسعة سوى القليل من الصليبيات التى لا تحسب ضمن كبـار الصليبيات ، ومغـامـر فارس فـرنسى يسمى جود فـروا صاحب بوايـون خرج من بلده لا يطمع فى أكثر من ضربة أو نهبـة يجد نفسه ملكًا على مملكـة تسمى بيت المقدس (١٠٩٩ ـــ ١١٠٠ م) ، ويخلفـه على العرش فى قلب بـلاد الإسلام ثمانية عشر ملكًا ولا تنتهى إلا سنة ١٢٤٣ م ، وفـارس آخر يسمى بوهيموند يجد نفسه أميرًا على إمـارة واسعة قاعـدتها أنطاكية (١٠٩٨ ـــ ١١١٠م) ويعقبه على

إمارتها خمسة عشر أميرًا ولا تنتهى هذه الإمارة إلا سنة ١٢٦٨ م ، وكذلك الأمر مع إمارة الرها شمالى العراق التى استمرت من ١١١٨ إلى سنة ١١٤٤ م .

وقل شيئًا شبيهًا بذلك فى إمارة طرابلس وأحس الأوربيون ضعف ديار الإسلام فتقاطر الألوف من الفرسان والمهاجرين واللصوص على بلاد الشام وكل واحد من هؤلاء يقتل ويسرق وينهب ويستولى على الأراضى والأموال .

وأسوأ من ذلك ما فعله المغول والتتار أيام جنكيز خان الذى خرب بلاد ما وراء النهر ودمر سمرقند وبخارى ووسط إيران ، وهولاكو الذى خرب بغداد وجعلها قاعًا صفصفًا وهدم من المدارس والمساجد ألوفًا ، وأحرق وأغرق من الكتب مقادير تفوق كل تصور ، كل هذا أفقر عالم الإسلام ، وأكمل ما ارتكبه طغاة الملوك ووزراؤهم ولهذا كان شرق عالم الإسلام فى إيران والعراق قد تحول إلى خراب شامل ، وبغداد التى كانت زهرة مدن الدنيا أصبحت قرية مهجورة مخربة والعراق كله غرق فى الفقر والخراب ، وكيف يرتقى فكر فى هذه الأرض اليباب كلها ، واقرأ عن ابن واصل والمقريزى تفاصيل الأهوال التى نزلت بأمة الإسلام فى تلك العصور السوداء .

* * *

من هذا الخراب كله استثنى الله سبحانه بلاد مصر ومعظم الشام فإن جهاد عماد الدين زنكى ونور الدين محمود ، ثم صلاح الدين الأيوبى انتهى بإعادة الوحدة الإسلامية وقضى على اثنتين من إمارات النصارى وكسر ظهر المعتدين الصليبيين ، وأقام دولة الأيوبيين (٥٦٤ ـ ٦٤٨ هـ / ١١٦٩ ـ ١٢٥٠ م) ، والمماليك البحرية (٦٤٨ ـ ٧٨٣ هـ / ١٢٥٠ ـ ١٣٨١م) ثم البرجية (٦٨٤ ـ ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م) هذه الدول صانت مصر والشام من الخراب ، بل كسرت ظهر المغول والتتار ثم استخلصت بقايا الشام من الصليبيين ، فظلت سلطنة مصر والشام حصن الإسلام والعروبة والفكر الإسلامى العربى ، فتقاطر العلماء عليها وأصبحت بلادها فى مصر والشام مثابة الفكر العربى وموئله ، ومن غرائب خصائص مصر أن الفاطميين حكموها من (٣٥٨ ـ ٥٥٥ هـ / ٩٦٨ ـ ١١٦٠ م) وأنشأوا الجامع الأزهر ليكون

حصن الدعوة الشيعية وأقاموا الدعاة ومراكز الدعوة وأنفقوا الأموال ليكسبوا مصر إلى الشيعية ، ثم انتهى أمرهم فيها بعد قرنين من الزمان دون أن يخلفوا فيها شيعيًا واحدًا وبقيت مصر كتلة إسلامية سُنية واحدة يعيش معها أقباط مصر « وهم الطريق المستقيم بين المسيحيين فى هدوء وأمانة » ، والجامع الأزهر تحول إلى أكبر مركز للإسلام والسُّنة من أيام صلاح الدين ، وما فعله هذا الجامع الجليل الذى يعتبر بحق أعظم جامعة فى الدنيا منذ تحويله إلى مسجد وجامعة للسُّنة ، والجامعة أيام صلاح الدين (٥٦٤ ـ ٥٨٩ هـ) لا يفى بتفصيله هذا الموجز ، فمن أقاصى المغرب ومن الأندلس الذاهب ونواحى المغرب ومن قلب إفريقية إلى أقصى بلاد الملايو وأندونيسيا تقاطر طلاب العلم يدرسون ويحفظون ويعلمون والطلاب يدرسون ، بل أنشىء فيه ما يمكن أن يسمى بمدينة جامعية ، فقام فيه رواق المغاربة ورواق الملايو ورواق الأتراك ورواق السودان ورواق شنقيط (مالى) ، وغيرها وألوف بعد ألوف من الطلاب درست فيه وعاشت على جراياته وأوقافه ، وهذا الجامع وحده تكفل بإحياء علوم السُّنة جميعًا إلى يومنا هذا فوق الألف عام ، والأزهر ولد مئات المدارس ومعاهد العلم حتى إنَّا لنجد اليوم أزهرًا فى أندونيسيا وآخر فى ماليزيا وأزهرًا فى السودان وإن شاء الله سينشأ أزهر فى قلب أوروبا وآخر فى قلب أمريكا .

فى حدود سلطنة مصر والشام هذه التى أخذ الفقر يشتد عليها بسبب سوء سياسات الأيوبيين والمماليك وحيلهم إلى سرقة الرعية حتى بلغت السرقات والنهب ذروتها بعد دخول مصر والشام فى دولة الأتراك العثمانيين ابتداء من سنة (٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م) لأن الأتراك العثمانيين بعد أن بلغت دولتهم ذروة قوتها أيام سليمان القانونى (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦ م) تحولت إلى دولة سرقة ونهب لأموال الرعية لأن الأتراك بطبعهم يأخذون ولا يعطون وكانت إدارتهم إدارة جمع أموال ، وفى كل ناحية أقاموا جماعة من أهل القوة يقولون الضبط (ضبط الأمن) والربط (ربط الأموال) فلم يضبطوا الأمن ولكنهم ربطوا الأموال وجعلوا عليها فى مصر والشام جماعة من بقايا المماليك وهم البكوات فاشتد الفقر والخراب وهبط العلم والفكر نتيجة لذلك أكثر فأكثر ، لأن بكوات المماليك فى العصر التركى كانوا ـ حرفياً ـ لصوصاً بل قطاع طرق .

هذا هو الإطار السياسى والاجتماعى الذى نشأ فيه وتزايد ركود الفكر والعلم ،

والركود هنا معناه أن الفكر توقفت مسيرته لقلة طالبه وندرة القادر عليه ، وقد تحدثت سابقًا عن بعض مظاهره وأضيف الآن تفاصيل أخرى ، فكل مذهب من مذاهب الفكر توقف بل تراجع وهبط مستوى الفكر هبوطًا تامًا ، ولم يعد يظهر من العلماء إلا قلة ذكرنا فيما مضى بعضهم ابن خلدون الذى يعد سراجًا توهج فى الظلام ، وابن بطوطة محمد بن محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى (٧٠٣ ـ ٧٩٩ هـ / ١٣٠٣ ـ ١٣٩٦ م) وهو أعظم رحالة فى التاريخ حتى العصور الحديثة ، فهذا الرجل النابغة ولد طلعة رحالة ندب نفسه للطواف فى بلاد الإسلام ووصفها وصفًا دقيقًا وقدم تقريرًا عنها إلى أمة الإسلام يطمئنها فيه على أنها ما زالت بخير بعد نكبات المغول والصليبيين ، وهذا التقرير البديع العظيم يسمى « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » ، وهذا الرجل الكريم يهتم جدًا بذكر مراكز العلم والدراسة والزوايا والخانقاوات وزوايا الصوفية التى كان أصحابها لا يعرفون فى دولة الإسلام العريضة حدودًا أو قيودًا ، والعالم المترحل والتاجر المكتسب وطالب العلم الطموح والحاج التقى يحل حيث شاء من عالم الإسلام سهلًا ويلقى أهلًا ؛ لأن دار الإسلام واحدة وأمة الإسلام واحدة وقلوب الناس ظلت دائمًا عامرة بالخير ، أما الحكام فكانوا فى مجموعهم أوشابًا ضارة لا يحسب لهم فى حساب الحضارة حساب .

* * *

وسنخصص بقية هذا الحديث لمن حملوا لواء العلم والفكر والأدب فى عالم الإسلام فى عصور الركود ، وسنختار منهم خيار الخيار وسنتحدث كذلك عن استمرار ظاهرة الموسوعية والحرص على تسجيل التراث محافظة على أمجاد أمة العروبة والإسلام من الضياع .

فى طريقنا إلى قلب عصر الركود يلقانا شاعر زهدى يبدع حقًا هو ابن الفارض أبو حفص عمر بن على السعدى ، وهو مصرى ولد فى القاهرة سنة (٥٧٦ هـ / ١١٨١ م) فى بدايات العصر الأيوبى وظهوره هنا إرهاص بانتقال مركز الفكر إلى مصر ، وقد خلقه الله روحًا صافية زاهدة فى هذه الدنيا فدرس علوم الدين وتزهد وسكن موضعًا من جبل المقطم كان يسمى وادى المستضعفين لتجمع الزهاد فيه ، وتاقت نفسه إلى الحرمين

فخرج إلى الحجاز بعد وفاة والده وأقام هناك خمس عشرة سنة تفتحت خلالها عليه فيوض الحب الإلهى وتجلى عن شاعر زهدى لم يصل إليه فى تاريخ الفكر الإسلامى نظير ، وطار شعره الزهدى كل مطار ، وعندما وصل مصر عائدًا من الحجاز لقى أهلها مرحبين به ، واتخذ لنفسه مجلسًا فى قاعة الخطابة بالأزهر الشريف ، وظل يلزم مكانه يتعبد ويقول شعر الحب الإلهى حتى توفى فى القاهرة سنة (٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م) ودفن فى سفح جبل المقطم .

كان ابن الفارض زاهدًا صادق الزهد ، وشاعرًا رائع الشاعرية ، وكان يرسل معانيه الزهدية فى أبيات فى رقة النسيم وديوانه حافل بأبيات مثل قوله :

صفاء ولا ماء ولطف ولا هواء　　ونور ولا نار وروح ولا جسم

وتائيته الكبرى ديوان الحب الإلهى ، وتقع فى ٧٦٠ بيتًا ليس فيها بيت ركيك أو معنى متكلف أو مبتذل ومطلعها :

سقتنى حميا الحب راحة مقلتى　　وكاس محيا من عنا الحسن جلت

ومن أقواله فى الحب الإلهى :

فإن شئت أن تحيا سعيدًا فعش به　　شهيدًا وإلا فالغرام له أهل

وهو يتحدث فى ديوانه عن الحب الإلهى الصافى ، ومن أجمل أبياته قوله :

خفف السير واتئد يا حادى　　إنما أنت سائق بفؤادى

وقد شبهه مؤرخ التصوف الإسلامى رينولد نيكلسون بأعظم المتصوفات الكاتبات فى الغرب المسيحى ، وهى تيريزا دى جنوس أو تيريزا دى سيجوفيا (شقوبية بأسبانيا) وكتابها الصوفى المسمى بالمنازل أو المقامات Les Morodas قطعة من الأدب الزهدى المسيحى البديع ، وتيريزا هذه هى التى أنشأت جماعة الراهبات الحافيات Les Des-Colzas وقد أنشأت تلك الجماعة أديرة للراهبات ومراكز لعلاج الفقراء فى نواحى الدنيا كلها ، واحد منها مشهور عندنا فى شبرا فى مصر وهى كنيسة ست تيريزا التى يتبرك بها المسيحيون .

وإذا كان ابن الفارض شاعرًا رفيع الشعر ظهر فى بداية عصر الركود كأنه شهاب

شق السماء فى ظلام الليل ، فلنذكر شاعرًا زهـديًا آخر من أهل مصر هو البوصيرى أبو عبد الله شرف الـدين محمد بن سعيـد البوصيرى ، الذى ولـد فى بوصير قـوريدس بين الفيوم وبنى سويف سنة (٦٠٨ هـ / ١٢١١ م) ، وأمه من دلاص ولهذا كان يسمى نفسه بالدلاصيرى .

وقد اشتهر البـوصيرى بقصيدته المشهورة بـالبردة ، وهى من أرك الشعر وأبعده عن إلهام الشاعرية وصفـائها ولكنها كانت ذبالة أضيئت فى ظـلام دامس فبدت للناس ولا تزال تبدو كأنها مصباح منير وقد سميت بالبردة البوصيرية تشبيهًا لها ببردة كعب ابن زهير التى ألقاها بين يدى الرسول ﷺ فصفح عنه ، وخلع عليه بردته رفقًا بحاله لا إعجابًا بشعره ، وكان الرسول ﷺ واسع الصدر بالناس رحيمًا ، وعلى نسق بردة كعب ابن زهير ومطلعها :

بـانـت سعـاد فقلبى اليـوم متبـول   يكبل أثـرهـا ـــ لم يعـد ـــ مكبـول

سار البوصيرى فى صياغـة بردته فبدأها بأبيات غزليـة ركيكة صعبة على التلاوة لتكلفه فيها :

أمن تـــذكـــر جيران بـــذى سلم   مـزجت دمعهـا جرى من مقلـة بـدم

أم هبت الـريح من تلقـاء كـاظمـة   وأومـق البرق فى الظلماء مـن أصـم

وبعد عشرة أبيات من الشعر الغث يدخل البوصيرى فى مدح الـرسول ﷺ دخولاً ثقيلاً فيه الكثير من عيوب الشعر :

وكيف نـدعـو إلى الـدنيـا ضرورة من   لـولا لم تخرج الـدنيـا من القــدم

محمـد سيـد الكـونين والثقليـــ   ــــن من عــــرب ومن عجـم

نبينــا الآمـر النـاهى ، فـلا أحـد   أبـــر فى قـــول لا منـــة ولا نعم

وعلى هذا الغرار يستمر صاحبنا فى شعره هـذا حتى يتم بردته مائة وثلاثة وستين بيتًا ، وأغرب ما فى هذه القصيـدة سيرها فى آثار بردة كعب بن زهير فكأن ستمائة سنة من الشعر لم تـدخل على هذا الفن تعبيرًا فهل بعد هـذا ركود ، وقد تـوفى البوصيرى فى

سنة (٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) ، وهى سنة سقوط بغداد وخرابها على أيدى المغول .

وأكتفى من شعراء العصر بهذين المثالين فلا معنى لأن أثقل عليك بأمثال صفى الدين الحلى عبد العزيز بن سرايا من أبناء الحلة فى العراق (٦٧٧ ـ ٧٥٠ هـ / ١١٧٨ ـ ١٣٤٩ م) وابن نباتة (٦٨٦ ـ ٧٦٨ هـ / ١٢٨٧ ـ ١٣٦٦ م) وأمثالهم ، فهؤلاء ليسوا شعراء أو مفكرين ، ولكنهم نظامون مولعون بالمحسنات البديعية التى تتنافى مع أى جمال شعرى .

وعلى ذكر المحسنات اللفظية أقف بك عند أشهر ناثرى ذلك العصر وهو القاضى الفاضل عبد الرحمن البيسانى (٥٢٩ ـ ٥٩٦ هـ / ١١٣٤ ـ ١١٩٩ م) الذى لم يكن قاضيًا ولا فاضلاً ، وهو من كُتَّاب الدولة الفاطمية ولكن أمره اشتهر أيام صلاح الدين الأيوبى فقد كان رئيس ديوان الإنشاء عنده ، ونثره كله سجع وزينة وجناس وتورية دون معنى يذكر وهو فى كتاباته أثقل من أبى القاسم الحريرى ، ومن أسف أن هذا الرجل أثقل على النثر الفنى بسجعاته وتورياته وتكلفاته حتى قضى على عنصر الإلهام والإبداع فيه وظل النثر على ذلك الشكل الجامد البارد حتى العصر الحديث .

وقد حدثتك سابقًا عن الحُفاظ ـ أى العلماء الذين حولوا أنفسهم إلى خزائن كتب وأثقلوا رءوسهم بالمحفوظ حتى لم يعد فيها مكان للتفكير ـ ولكننا لا بد أن نستثنى ابن تيمية وهو تقى الدين أحمد بن عبد السلام الحرانى (٦١١ ـ ٨٢٧ هـ / ١٢٦٢ ـ ١٣٢٨ م) وهو شامى من أهل فلسطين وكان حافظًا وفقيهًا جليلاً ذا رأى وفكر ، وقد عاش فى عصر خطر تعرضت فيه الأمة للغزوات فكان يخرج للجهاد ويخوض المعارك ، وكان رجلاً حرًا جريئًا يقول رأيه دون نفاق وكان شديدًا على معاصريه من فقهاء السلطنة لا يزال يختلف معهم فيشكوه إلى السلطان فيدخله السجن ثم يخرج منه ليعود إليه حتى دخل السجن ثلاث مرات توفى فى آخرها ، وكان الرجل حنبليًا متشددًا تصدر منه بين الحين والحين آراء ينكرها أهل عصره مثل قوله : إن زيارة قبر الرسول ﷺ غير واجبة فآذى بذلك مشاعر المسلمين ؛ لأن زيارة الحرم النبوى إن لم تكن واجبة شفاعًا فهى واجبة عاطفة وحبًا .

* * *

بِدَايَـةُ النُّهُـوضِ

بهذا الفصل والفصل القـادم والذى يليه أقـف بهذه الدراسة التى أجهـدت نفسى فيها ـ والقارىء معى ـ وأعتذر له عن ذلك ! فقـد كانت غايتى منذ البداية أن أعيد النظر فى تاريخ الفكـر العربى وأعيـد تقييمه ووزن رجـاله وثمراتـه بالميـزان الصحيح الذى ينبغى أن يـوزن به كل عمل فكـرى ، وهـو ميزان الصـدق والجدوى العائدة منـه على الإنسان ، والاحترام لحقوقه وحرياته وكيانه وكرامته .. ونحن ما زلنا مع الأسف ندرس تاريخنا الفكرى ونقـومه ونزنه بمقاييس وضعها رجـال من أهل القرن الرابع الهجرى وما حـوله ـــ أى قبل ألف سنة ـــ مقاييس هنـدسة الألفـاظ وافتعال المعـانى وتوازن العبارات وعذوبة الكلمات ، وما إلى ذلك مما ابتكـره أئمة الأدب والنقد الأدبى فى تاريخنا من أمثال أبى إسحاق إبراهيم بن هلال الصابىء (ت ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م) ، والصاحب ابن عباد أبـو القـاسم إسماعيل بن عبـاد (ت ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م) وبـديع الـزمـان الهمـذانى أحمد بن الحسين بن يحيى (ت ٣٩٨ هـ / ١٠٠٨ م) ، والثعـالبى أبى منصـور عبد الملك بن محمـد بن إسماعيل صـاحب « يتيمة الـدهر » (ت ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م) ، وأبى الفـرج الأصفهـانى صـاحب كتاب « الأغـانى » (ت ٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م) ، وأبي هلال العسكرى الحسن بن عبـد الله بن سهل بن سعيد صاحب كتاب « الصـناعتين » (ت ٣٩٥ هـ / ١٠٠٤م) ، وابن رشـيق القـيروانى أبى على الحسـن (ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م) ، صـاحب كتـاب « العمـدة » ، وأخيرًا شيخ نقـاد الفكـر والحضارة فى تـاريخ الفكر العـربى وهو عبـد الرحمن بن خلـدون الذى تحدثنـا عنه ، وخـلاصة رأيـه فى الفكر والأدب والإنشـاء الأدبى أن الأفكـار ليست بذات قيمـة لأنها متوارثة وملقاة على الطريق فى متنـاول أى إنسان ، ولكن الإبداع الأدبى كله يتوقف على الأسلوب والألفاظ وهذا ـ مع تقديرنا البالغ لابن خلدون ـ أسوأ مقياس يقاس به الفكر ويقدر على أساسه المفكرون وخاصة إذا صدر عن رجل ميزته الكبرى أنه مفكر ، ولكنه كان ابن عصره لم يتجاوزه إلا فى النادر .

ومن كل أسف أن دراسـاتنا الأدبيـة والفكريـة ما زالت تقـوم على هذه المقـاييس والقواعد التى وضعها رجال عاشوا فى عصور كان الفكر العربى كله فيها فى حالة إغماء

أعقبتها غيبـوبة أو « كومـا » ثم تحجر وقـام الجماعون بتحنيطه ووضعـه فى توابيت استمر فيها حتى العصر الحديث ، ومـا زال مؤرخو الفكر والأدب عندنا يقـولون : قال الثعالبى فى اليتيمة والصفدى فى الخريدة ، وأبـو هلال العسكرى فى الصناعتين ، أو ابن رشيق فى العمـدة ، مع أن هذه كلهـا آراء وأحكـام ولدت ميتـة وتعفنت مع الـزمن ، بل الأعجب من ذلك ما تراه من بعض أساتذة الأدب فى جامعاتنا اليوم من كلام فى نظريات أبى هلال العسكرى أو أبى بكر الصولى وابـن رشيق فى النقد الأدبى ، وهذا فى ذاته يدل على تجمد الـدراسات الجامعية عندنـا اليوم ووقوفها عنـد الماضى وتحولها إلى مدارس وخنقاوات وتكايا ، كتلك التى كثرت فى العصور المملوكية وقد تحدثنا عنها وعن أثرها فى تدهور العلم والعلماء .

وهذا الكلام عن ميلاد عصر النهوض الذى نعيشـه لابد أن يكون موجزًا جدًا ؛ لأن ذلك العصر بـدأ من أقل من قرنين من الـزمـان ، فقد بـدأ بالضبط فى ظهـر أول يوليـو ١٧٩٨ عنـدما هبطت قـوات الجيش الفـرنسى وعـددها ٣٢,٠٠٠ مقـاتل على رأسـها الضـابط الشاب نابليون بونابرت شاطىء العجمى فى الإسكندرية معلنة بذلك بدء نـهاية عصر المماليك وبدء نهايـة العصور الوسطى لعـالم العرب ، أمـا النهاية نفسـهـا فكانت ضحى ١٣ يوليـو ١٧٩٨ عندمـا تمزق جيش المماليك إربًا وفـر الباقـون من بكواتهم وجنودهم إلى القاهرة بعد معركة امبابة التى يسميها الأوروبيون معركة الأهرام ، نحن نسميها باسم المكان الثابت ، وهم يسمونها باسم الزمان المتحرك ، وفر بكوات المماليك إلى القاهرة وحمل كـل منهم ما استطاع من مالـه وجواهره وسلاحه وانطلـق هاربًا على وجهه إما إلى الصـالحية فى محافظة الشرقية فى أثر إبراهيم بك الهارب إلى الشام ، وإما فى أثر مراد بك الذى هرب إلى الصعيد ، وقد كان معظمهم على أى حال قد حملوا معهم أغلى ما يملكون من ثروة ؛ لأنه كما يقول جـ كريستـوفر هيرولد فى كتابه الممتع عن نابليون فى مصر : إن الفـارس المملـوكى لم يكن يعـرف الخوف أو الحب وهو لا يـؤسر أبـدًا فى الأغلب الأعم ، فهـو إما منتصر فى المعركـة وإما مقتـول وإما هـارب بسرعة البرق التى هاجم بها عـدوه ، وقد حمله هذا على أن يـأخذ معه أينما سار ثـروة لا يستهان بها من الثياب والجواهر والنقود فهو يرتـدى فوق قميص من الموسلين عدة صدارات وقفاطين حريريـة زاهية ويضعها كلها فى سراويله الحريريـة الضخمة التى يتسع السروال منها

لرجل كبير ضخم ، وكان المماليك على العموم ضخامًا طوالاً فهم يختارون وهم صبيان بمعرفة خبراء وكانت ملامحهم وسيمة ، وإذا استثنينا نفرًا قليلًا من الزنوج بينهم فإنهم كانوا على حد قول ديفرنوا « رجالاً مليحى الوجوه لبشرتهم لون الزنبق » (ص ٢٧ من ترجمة فؤاد اندراوس) ، وإنما حرصت على إيراد صورة واحدة من هؤلاء المماليك ؛ لأنها تعطينا فكرة عن العسكريين المرتزقين الذين أذلوا أمم العرب والإسلام وحرموا أهلها من الحرية والفكر والرخاء (انظر هنا : جلال كشك : ودخلت الخيل الأزهر ص ١٧٠ وما بعدها) .

وقد قتل فى هذه المعركة أكثر من نصف قوة المماليك ، أما الباقون فقد هربوا بعد أن أشعلوا النار فى المراكب التى انتقلوا فيها من بولاق إلى امبابة وبات أهل القاهرة الذين ملأهم الرعب على ضوء اللهب المتصاعد من السفن المحترقة ، باتوا فى قلق بالغ .

لقد دهيت بلادهم بشىء لم يكونوا ينتظرون أسوأ منه ، فقد هلك سادة البلد والمدافعون عنه وأولياء أموره من المماليك ومن كان معهم من الألبان والأتراك وعليهم أن يبادروا من الغد لمواجهة العدو النصرانى المنتصر الغازى والتفاهم معه على ما يمكن أن يصيب بلادهم على يد هؤلاء الصليبيين الجدد القادمين بأسلحة رهيبة من المدافع والبنادق ، وبعد أيام قابل وفد من مشايخهم رجال نابليون ثم نابليون نفسه ، وتم الاتفاق بصورة مبدئية على تعهد من جانب الفرنسيين باحترام الإسلام وأهل البلد وحرمهم وتقاليدهم ، وأنشىء ديوان أو مجلس حكم مصرى فرنسى للتفاهم على النظام الجديد للبلاد ، وعاد المشايخ ومن معهم من الأعيان إلى بيوتهم والقلق يملأ نفوسهم وهم لا يعلمون أن هذا كان أعظم حادث فى تاريخهم منذ قرون ، فللمرة الأولى يتولون أمور بلادهم بأنفسهم ويتفاوضون على حاضرها ومستقبلها دون وصاية مستبدين غاشمين جبناء من الحكام الأجانب والجند المرتزقة ، حقًا إنهم كانوا يواجهون عدوًا أجنبيًا محتلاً نصرانيًا ، ولكن المصريين الآن يتحدثون باسم بلادهم ، وواحد منهم وهو محمد كريم أقامه الجنرال كليبر حاكمًا للإسكندرية وأراد منه أن يخدم المحتل الغاصب على حساب بلاده وضميره ، فرفض فحكم عليه كليبر بالإعدام وأعدم فى ٦ سبتمبر ١٧٩٨ م ، فكان أول شهيد مصرى فى سبيل حرية وطنه منذ أيام الصليبيات ، وخلفه الشيخ المسيرى وكان ألين عريكة ، وأنشىء الديوان وكان رئيسه

نابليـون ، ومثل الفرنسيين فيـه العالمان مونج ، وبـرتولليـه ، وانتخب الأعضاء الشيخ الشرقـاوى رئيسًا فـرفّض أن يلبس الجوكـار رمـز الثورة الفـرنسيـة وغضب ، وعين الجنـرال ديجا ثم خلفه دوبـوا حـاكمًا على القاهـرة ، وأظهـر الفـرنسيون أقصى مـا استطاعوا من نفاق فى الأسابيع الأولى ليخدعوا المصريين عن حقيقة الاحتلال وبلغ الأمر أن أعلن نابليـون أنه هو وجنوده قد اعتنقـوا الإسلام ، ونابليون لبـس العمامة والجبة والقفطان ولكن أحدًا من المصريين لم يصدق ذلك .

* * *

وهذا الحادث الفاصل ـ غزو الفرنسيين لمصر واحتـلالهم إياها وقيامهم بحكمها ـ هو الذى عبر عنه مؤرخ العصر عبد الرحمن الجبرتى بالعبارات التالية الحافلة بالمعانى والتى استهل بها حـوادث سنـة (١٢١٣ هــ / ١٧٩٨ م) فى مطلع الجزء الثـالث من تـاريخه : وهى أولى سنى الملاحم العظيمـة والحوادث الجسيمة ، والـوقـائع النازلـة ، والنـوازل الهائلة ، وتضـاعف الشرور وترادف الأمـور وتـوالى المحن واختلال الـزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابـع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وحصول التـدمير وعموم الخراب وتواتـر الأسباب ، ﴿ **ومـا كان ربك ليهلك القـرى بظلم وأهلها مصلحون** ﴾ ، واستشهاد الجبرتى فى آخـر هذه العبارة بالآية القرآنيـة (رقم ١١٧ من سورة هود) يؤيد ما سبق أن قلناه أكثر من مرة فى هذا البحث ، وهو أن الله لا يهلك الناس إذا كـانوا مصلحين لأنفسهم ولـلأرض بعمارتها فقد رأينا مـرة بعد أخرى كيف أن المسلمين انحرفوا عن المنهج الإلهى الذى رسمه لهم ليسعدوا فى الدارين ، فحق عليهم العذاب لأنهم مفسدون ، أما نتيجة الظلم والانحـراف فى بلادنا فيصورها أحد ضبـاط الحملة الفرنسية بقـوله : ماذا تجد عنـد دخولك القاهرة ؟ شـوارع ضيقة قذرة غير مـرصوفـة ، وبيوتًـا مظلمة متداعيـة ، وأبنية عـامة تبـدو وكأنها السجون ، وحوانيت أشبـه بمرابط الخيل ، وجوًا عبقًا بـرائحة التراب والقمامة ، وعميانًـا وعورًا ، ورجالاً ملتحين وأشخاصًا يرتدون أسمالاً محشورين فى الشوارع أو قاعدين يدخنون قصباتهم كالقردة أمام مدخل كهفهم ، ونساء قليلات منكرات الصورة مقززات يخفين وجوههن العجفـاء وراء خرق نتنـة ويبدين صدورهن المتهـدلة من أرديتهن الممـزقة ،

وأطفالاً صفر الوجـوه رقاق الأجساد ينتشر الصـديد على جلدهم وينهشهم الـذباب ، ورائحة كريهة منبعثة من الأوساخ داخل البيوت ، ومن التراب فى الهواء ومن قلى الطعام بزيت ردىء فى الأسواق العديمة التهوية ، فإذا فرغت من التفرج على معالم المدينة عدت إلى منزلك فوجدتـه خلواً من كل أسباب الراحة ، ووجدت الـذباب والبعوض وضروبًا لا تحصى من الحشرات فى انتظارك لتتسلط عليك أثناء الليل فتنفق سـاعات الراحة وأنت تسبح فى عرقك وقد نال منك الإعياء ، تهرش وتنتشر البثور فى جلدك وتنهض فى الصباح وقد أخـذ منك السقم كل مأخذ وعشى بصرك وجاشـت نفسك وفسد طعم فمك وغطت جسدك الدمامل أو القروح على الأصح ، ويبدأ يوم جديد هو صورة الأمس (نابليون فى مصر الترجمة العربية ص ١٨٨) .

ولا يظن ظان أن فى هذه العبارات مبالغـة فهى حقيقية ، وهى صورة مجتمع أهلكه الظلم والجهل مدى اثنى عشر قرنًا حتى بيوت الأغنياء فإن نابليون دهش عندما نزل فى دار محمد الألفى بك فى الأزبكيـة ليتخذها مقرًا لـه ، وكان الألفى أغنى المماليك فلم يجد فيها نعمة ولا أشياء لها قيمة ، لا أوانى فاخرة ولا رياشًا غالية سوى بعض السجاجيد الباليـة وأرائك مغطاة بحريـر هالك ، ومهما يكن الألفى قد هـرب به فهذا الـذى وجده نابليون ليس بيت سيد عظيم غنى ، وهـذه أيضًا نتيجة للظلم ، فإن الظلم ينتهى بفقر الحاكم والمحكوم وتعاستهما معـاً ، وأين والله ذهبت ثروة مصر التى كانت مضرب المثل فى العصور القديمة ؟ لقد جبى خراجهـا دون مشقة ـ عمرو بن العاص فكان اثنى عشر مليون دينـار فى العام ، فما زالت تتنـاقص حتى غرق البلـد فى الفقر والتعـاسة . وقبل الغزو التركى لمصر زار مصر سائحًا سفير إيطالى أسبـانى يسمى ماريتردى انجلاريا ، فاندهش من فقر البلاد حتى أن قنصـوة الغورى سلطان مصر كان يستقبل ضيوفه فى رحبة قصره فى القلعة جـالسًا على دكة من الخشب وعليه ملابس كثيرة بـاهتة الألوان ، وهذا هـو سلطان المماليك ، ولكنه كـان سلطانًا لصًـا وليس هذا كـلامى ، بل كلام ابن إياس ؛ لأن الغورى عندما أراد أن يبنى مسجـده المعروف بمسجد الغورى لم يجد مالاً يبنى به ، فصـار يأمر العمال بسرقة الأعمـدة والأحجار من المساجـد الأخرى ، فأطلق ظرفاء المصريين على جامع الغورى اسم المسجد الحرام لأنه بنى كله من الحرام .

* * *

تلك هى بداية العصر الحديث أو عصر النهوض كما نسميه ، عرضتها عليك لكى تكون لديك فكرة عن المشوار الطويل الذى قطعناه فى أقل من قرنين من الزمان ، وما قرنان فى حساب عصورنا الوسطى ؟ ولو لم يدخل الفرنسيون مصر ويحطموا جدران السجن الرهيب الذى كنا نعيش فيه لكنا إلى يومنا هذا نعيش فى حكم مماليك من أمثال مراد وإبراهيم والبرديسى والألفى ولكنا إلى يومنا هذا نرسف فى أغلال الظلم التركى الذى عم كل أهل الدولة العثمانية وأولهم الأتراك ، فقد كانوا وهم السادة أتعس من الرعايا ؛ لأن العقلية التركية بعد عصر سليمان القانونى دخلت فى ركود رهيب ، وسليمان هذا الذى يلقبه الأوروبيون بالفخم هو الذى منح الأجانب الأوروبيين جميعًا تلك الامتيازات الغريبة التى جعلت الأجنبى يعيش فى بلاد الدولة العثمانية السعيدة أسعد من أهل البلد ، ونحن المصريين لم نتخلص من ذلك الوضع المهين إلا سنة ١٩٣٨ فى معاهدات مونتريه بعد معاهدة ١٩٣٦، ولا عجب في هذه الحالة أن نسمع مثلًا يقول : إن الصياد العثماني إذا أراد أن يطارد أرنبًا ركب عربة يجرها ثور ، وهذه هى طريقته فى العمل والتصرف .

***

وتاريخ الفكر العربى خلال عصر النهوض يبدأ من هذه الصورة المخيفة ، فبعد مظالم الأتراك والمماليك والاحتلال الفرنسى القصير المدى الذى تحول بعد هدنة قصيرة إلى استبداد غاشم نهاب وخاصة بعد ثورة القاهرة على الفرنسيين وقتلهم دوبوا حاكم القاهرة الفرنسى فى أكتوبر ١٧٩٨ ، والفرنسيون مضوا على أى حال سنة ١٨٠١ بمقتضى معاهدة إميان مع الإنجليز الذين وضعوا أعينهم من ذلك الحين على مصر ، فرسموا سياساتهم على أساس الاستيلاء عليها وتحويلها إلى مستعمرة إنجليزية ومحطة فى طريق مستعمراتهم فى الهند وبقية آسيا وإفريقية ، وبعد خروج الفرنسيين عادت مصر إلى حكم الأتراك ، والشيخ عبد الرحمن الجبرتى وهو آخر أهل الفكر المصريين فى العصور الوسطى وأولهم فى العصر الحديث يضطر إلى النفاق خوفًا على حياته بعد خروج الفرنسيين شأن معظم رجال الفكر العربى فى عصور الظلم فقد خشى مغبة بعض عبارات أوردها فى تاريخه مدحًا فى بعض مظاهر الحضارة الفرنسية

مثل الديوان ونظم المحاكمة وصدق المعاملات التجارية فألف كتابًا جديدًا إلى جانب تاريخه كله نفاق وكذب وسماه « مظهر التقديس فى خروج الفرنسيس » كال فيه الذم للفرنسيين والمديح للأتراك كيلاً منفرًا وأعلن استبشاره بعودة الأتراك لحكم مصر إعلانًا كاذبًا سمجًا ، ولكننا لا نقسو فى الحكم على عبد الرحمن الجبرتى لهذا السبب فما كان الرجل إلا مفكرًا مصريًا مستضعفًا لا يأمن سيف الجبار التركى ، ولكنه لم ينج من سيف جبار مصر الجديد محمد على الذى أضمر له السوء لعبارات سمع أنه قالها فى تاريخه فى نقد نظامه فدبر اغتياله ، والمسكين سقط تحت سكاكين القتلة وهو عائد إلى بيته من شبرا فى ليلة ظلماء هى ليلة (٢٧ رمضان ١٢٣٧ هـ / ٢٢ يونيو ١٨٢٢ م) .

ومحمد على ذلك الجندى الأرناءوطى الذكى المرتزق الذى دخل مصر فى جملة جنود الأتراك الذين عادوا إلى مصر استطاع استعمال المصريين الطيبين فى الانتقال من قائد فرقة من الجند الألبان الذين كانوا يبدون كالمتسولين إلى مرشح المصريين لولاية مصر على رغم السلطان ، ثم تولى أمور مصر بإرادة شعبها وزعامة شيخها عمر مكرم ، وما كاد يستقر فى الولاية سنة ١٨٠٥ حتى عاد القهقرى بالفكر السياسى ، واتجه إلى استجلاب جند مرتزق من السودانيين ليحكم بهم مصر حتى نبهه إلى خطئه الكولونيل سيف الفرنسى ، الذى قال له : إن خير ما يعتمد عليه هم رجال بلده وإنهم فى فرنسا ينشئون جيوشهم من فلاحى فرنسا الذين يأتون بهم من لافانديه وعسفونيا ونورماندیا وغيرها ، ويدربونهم فيصبحون من أحسن الجنود ، وفعل محمد على ذلك ، وأنشأ الجيش المصرى الذى ثبت عرشه ، وقام بالفتوح العظيمة فى كل اتجاه ، والكولونيل سيف هذا الذى يعتبر بحق من منشئى جيش مصر أثبت أنه من أكثر الناس إخلاصًا لها فأسلم وتسمى بسليمان الفرنساوى ، وهذا الرجل العظيم عدا على ذكراه حاكم جبار هو جمال عبد الناصر الذى أزال اسمه وتمثاله من أحد شوارع العاصمة وقد جرى فى ذلك على تقليد نكران الجميل والعدوان على المخلصين .

وهو تقليد دائم جرى عليه الطغاة المستبدون الذين أشرنا إليهم فيما سلف من هذا الكلام .

وقد جرينا على القول بأن محمد على هو منشىء مصر الحديثة ، وهذا حق وصدق ، ولكنه لم يكن رجلاً عظيمًا لولا شعب مصر الموهوب الذى استجاب بطبعه الحضارى لنداء الحضارة ، وأكبر دليل على ذلك هو أن مصر هو البلد العربى الوحيد

الـذى اتصل فيه تقليـد أهل الفكر رغـم سوء الأحـوال وسلسلة المؤرخين العظـام التى انتهت بـابن إياس الحنـــفى واستمرت بعبـد الرحمن الجبرتـى الذى لم يكن مـؤرخًا فحسب ، بل كان مفكرًا متطلعًا إلى المعرفة بصورة تستوقف النظر ، فقد كان إذا علم أن الفرنسيين علقوا على الحوائط منشورًا خـرج رغم حظر التجول لينقل نص المنشور وفى يده شمعة ، لأن النـاس كانوا يمزقـو ن المنشورات الفرنسية إذا طلـع النهار ، وخلفه فى سلسلة تـواريخ مصر على باشـا مبارك ثم عبـد الرحمن الـرافعى . وهو صـاحب آخر المدونات الكبرى فى تاريخ مصر .

وفى سنــة ١٨٢٦ بـدأ محمد على ــ بتـوجيـه من الفرنسيين ــ فى إنشـاء المدارس النظامية بادئًا بمدرســة أركان الحرب فى أبى زعبل ، ولم يكن من طلابها مصرى واحد ، بل كانــوا من أبناء الترك والمماليك الشركس الذين ورثهم محمـد على من المماليك الذين قضى عليهم ، وكان فيهم أرمن ويونان وكل جنس إلا المصريين ! وعندما شرع فى إرسال البعثـات فى نفس العام كـان معظم المرسلين إلى فرنســا من غير المصريين ، والخوف من أهل البلد تقليد غبى سار عليه حكام المسلمين بكل احترام ، ولكن نصحاء محمد على من الفـرنسيين نصحـوه بأن يبعث معهم أئمـة للصلاة حمايـة لهم من الانحـراف ووقع الاختيار على ثلاثة أئمة كان منهم رفـاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١ ـ ١٨٧٣) وقد عاد معظم المبعوثين إلى مصر وخدموا بصدق وإخلاص وصاروا مصريين مخلصين ، ولكن أنبغهم جميعًا كان الشاب الأزهرى الذى أرسلـوه معهم إمامًا ، فقد تفتح ذكاؤه وذهنه المصرى المتحضر فأتقن الفرنسية وتنبه إلى نواحى القوة فى حضارة الغرب ، وأصبح من أعلام الفكـر ، بل أول المفكرين العـرب المحدثين ، وهـذا المصرى الأزهرى الـذى ولد فى طهطا بمحـافظة جرجـا تعلم ووصل إلى العالميـة الأزهرية ، ثم التحق بخـدمة الجيش واعظًا وإمامًا سنة ١٨٢٤ ، ثم أرسل إلى باريس إمـامًا للبعثة المصرية ، وأثبت أنه مفكر أصيل : أتقن الفرنسية ونبغ فى النقل منها إلى العربية ، وهـو وتلاميذه نقلوا إلى العربية عشرات كتب العلم الأوروبيـة فى كل علم وفـن ، وأنشأ مـدرسـة الألسن سنـة ١٨٣٦ وبفضل رفاعـة وتلاميـذه أصـبحت اللغـة العربيـة لغة مصر الـرسمية ، وحلت محل التركيـة ، وأنشئت مطبعة بـولاق وأخذت تخرج للنـاس ذخائر العلم الحديث ، وبـدأت حركة إحياء التراث أى نقل الماضى إلى الحاضر ونقل العلم الغربى أيضًا .

وكل هذا عظيم ، ولكن الذى يستوقف النظر هـو رفاعة رافع المفكر ، فهذا الأزهرى

النابغ يؤلف كتابًا عظيمًا يسمى « مباهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية» يتحدث فيه عن الحضارة الغربية حديث الفاهم العارف ، فهو يمتدح الحرية والديمقراطية ويعجب بالبرلمان والصحافة ، وحريتها ، وتعجبه عناية الناس بشئون المدن والبلديات ، وتستوقف نظره نظافة المدن وجمال تنسيق شوارعها وأشجارها ورشها بالماء وهى أشياء نسيناها نحن فى مدننا اليوم ، ونرتد بها اليوم إلى الوراء ، فتصبح قرى ضخمة أو تجمعات سكانية بلا نظام ولا هيئة ولا قانون بلديات ؛ لأن الذين يشرفون على شئون المدن عندنا اليوم يقفون عشرات السنين وراء رفاعة الطهطاوى ، وهذا الشيخ الأزهرى يمتدح التمثيل والمسارح والمسرحيات والأوبرات بينما شيوخنا اليوم لا يكادون يحفلون لذلك ، وجامعة الأزهر الجديدة التى استحدثوها أيام عبد الناصر ليس فيها إلا القليل جدًا من الأساتذة من مستوى رفاعة ، لأن هذا الرجل قرأ كتب مفكرى عصر الأنوار ، وتحمس لمونتسكيو ، وقال إنه ابن خلدون الغرب ، ورفاعة رافع الطهطاوى ذلك النابغة الذى كتب هذه المعانى الجليلة عاد فأكدها فى كتاب آخر يعتبر وسام شرف على صدر الفكر المصرى هو « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » وهو بلا شك علامة واضحة جدًا فى طريق نهوض الفكر العربى كله ، فهذا الأزهرى يرى أن أهل باريس أكثر حضارة من غيرهم ؛ لأنهم يعرفون معنى العلم والنظام والفن والجمال ، ويجعلون بلدهم عاصمة النور ، وهو لا ينكر سفور المرأة الفرنسية مع الحشمة والوقار والأدب واحترام الأسرة ، ويدعو إلى خروج المرأة إلى ميدان العمل ، ويرى أن ذلك يشعرها بكرامتها ويخرجها من ظلام حياة الحريم ومؤامراته ، بل هو يؤمن بالحرية والدستور ، ويقف بفكره مع الشعب الفرنسى الذى ثار على الملك شارل العاشر وأسقطه وأتى بملكية لوى فيليب الدستورية ، وتشاء مصادفة سعيدة أن يذهب إلى السودان بعد إغلاق سعيد بن محمد على للمدارس فى مصر ، ويعمل فى المدرسة الابتدائية التى أنشئت فى الخرطوم ، وهذه المصادفة رمز على وحدة وادى النيل ، ثم يعود إلى مصر سنة ١٨٥٤ ويوليه محمد سعيد وكالة مدرسة الجهادية ، وكان ناظرها ذلك الرجل العظيم سليمان الفرنساوى الكولونيل سيف ، وهكذا يلتقى هذان العلمان على بساط العلم وخدمة الوطن المصرى ، بل إن هذا الرجل ينشىء سنة ١٨٧٠ مجلة « روضة المدارس » أول صحيفة ثقافية فى مصر ، وفيها يكتب نفر من أعلام النهضة الفكرية : عبد الله فكرى باشا الشاعر والمسيو بروكش باشا ناظر

مدرسة اللغة المصرية القديمة وطليعة الأجبتولوجيين ومحمد على البقلى باشا طليعة الأطباء فى نهضة مصر الحديثة ، وهو من تلاميذ رفاعة ، ومحمود باشا الفلكى من طلائع أهل العلوم فى مصر ، وصالح مجدى الأديب الذى خلف لنا كتابًا جميلاً عن حياة أستاذه رفاعة اسمه « حلية الزمن بمناقب خادم الوطن » ، وأحمد ندا عالم النبات ، وأبو السعود أفندى محرر جريدة « وادى النيل » والشيخ حمزة فتح الله رائد اللغويين والنحويين العرب فى العصر الحديث ، والخلاصة أن رفاعة رافع بنشاطه المتجدد وذكائه المتوقد وإيمانه العميق ببلاده والعروبة والإسلام كان مدرسة ورائد نهضة وباعث فكر ، وقبل رفاعة لم يكن هناك فكر عربى حى ، وبعده تستطيع أن تتحدث بحق عن ذلك الفكر العربى الذى نهض به رفاعة رافع الطهطاوى وزملاؤه وتلاميذه ، فأكمل بذلك ما كان يحلم به شيخه حسن العطار شيخ الأزهر فى أيامه ، وهو كذلك كان شيخًا عالمًا شاعرًا مجددًا واسع الذهن ، وهو فى تاريخ نهوض الأزهر شعاع الفجر الذى سيصبح على يد محمد عبده وجيله نورًا باهرًا .

ويلى رفاعة الطهطاوى فى قيادة النهضة الفكرية فى مصر على باشا مبارك (١٨٢٤ ١٨٩٣ م) وهو مثله مصرى صميم من الريف ، مثله فى ذلك مثل أحمد عرابى ومحمد عبده وسعد زغلول وغالبية من قام على أيديهم بناء مصر الحديثة ، فإن على مبارك من أبناء قرية برنبال الجديدة مركز دكرنس (محافظة الدقهلية) وهو من أسرة طيبة ، ولكنه لقى فى حياته شقاء بالغًا يرجع معظمه إلى سوء أحوال مصر خلال ذلك العصر ، فهو عصر إسماعيل بما فيه من تطورات وأزمات وتغيرات وشدائد حاسمة ، وقد شق على مبارك طريقه بجهد بالغ وإصرار يدعو إلى الإعجاب ولكن سيرته تقص كذلك جانبًا من شقاء الفلاحين المصريين أيام سعيد باشا وإسماعيل باشا وقد نجح فى النهاية فى دخول كُتَّاب قرية أبى العز ثم انتقل إلى المدرسة الابتدائية بقصر العينى ، ثم مدرسة أبى زعبل ثم مدرسة الهندسة (المهندسخانة) ثم أرسل فى بعثة إلى فرنسا ليدرس الهندسة (١٨٤٤) ثم عاد إلى مصر مهندسًا ، وتعرف بذلك الرجل العظيم سليمان باشا الفرنساوى القائد العام للجيش المصرى إذ ذاك ، ثم أصبح ناظرًا للمهندسخانة وأرسل للاشتراك في حرب القرم ثم عاد واشترك فى مشروعات هندسية كبرى ، وعندما أنشئت الوزارة المصرية الأولى سنة ١٨٦٨ تولى وزارة الأشغال والمعارف ، وهو أول مصرى يصل إلى الوزارة من أيام الفراعنة ، وهنا فى وزارة المعارف قام على مبارك بدور حاسم

فى نهضة مصر العلمية فهو الذى وضع لائحـة قانون التعليم وأنشأ المدارس الابتدائية مايـو ١٨٦٨ وأنشأ مدرسة دار العلوم ١٨٧٢ ، ودار الكتب ١٨٧٠ ، ومجلـة « روضة المدارس » وألف كتاب « الخطط التـوفيقية » على غـرار « خطط المقريزى » وهـو كتاب جليل فى عشرين مجلداً ، وإذا كان دور على مبـارك فى النهضة العلمية عظيمًا فإن دوره فى الكفاح الوطنى كان قليلاً لأن على مبارك كان من رجال السلطان يؤثر الطاعة للحاكم ولهذا كان موقفه من الحركة العرابية غير مشكور ولكنه على أى حال قام بدور عظيم فى الحركة العلميـة والفكرية ، وعنـدما توفى فى (١٤ نـوفمبر ١٨٩٣ م) انتهى دور رجال الدولـة فى النهضة الفكريـة وانتقلت قيادتها إلى الشعب فقد كـانت الثورة العرابيـة قد قامت ونـامت ودخلت البلاد تحت الاحتـلال الإنجليزى وانتقل النشاط كلـه إلى رجال الشعب الـذين كانـوا يكافحـون الاستعمار ، وكـانت المدارس بكل أنواعهـا قد كثـرت وتحطمت جدران عصور الظلام ودخلنا فى عصور الكفاح للحرية .

* * *

خلال النصف الثانـى من القرن التاسع عشر ساءت الأمـور فى مصر نتيجة لسوء سياسـة ولاة مصر بعد محمـد على وتزايـد أطماع دول الغرب فى ذلـك البلد الـذى كان حاكمه من أسرة محمد على عَلى رأس المتـآمرين عليه ، وتبين للمصريين أن لا سبيل لهم إلى الخلاص إلا بـالاعتماد على أنفسهم ومن هنا كـانت الثـورة العرابيـة التى اشتركت أوروبـا كلها مع تـركيـا والخديـوى توفيق فى إجهـاضهـا ، وانتهى الأمـر بالاحتـلال البريطانى لمصر فى سبتمبر ١٨٨٢ .

هنا تدخل الـوطنية المصرية فى صراع الاستقلال الـذى بلغ ذروته مع ثورة ١٩١٩ التى بدأت فى تـاريخ مصر والشرق عصرًا جديـدًا ، الثورة لم تكن مجرد ثورة سيـاسية عسكرية بل كانت بـداية نهضة شعب سبقتها ممهدات سياسية وثقـافية طويلة المدى ألمنا ببعض أطرافها فيما قلنا عن رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك .

* * *

النُّهُـوضُ وَمَغْنَـاهُ

لا يستطيع أى إنسان مفرد ـ مهما بلغت ملكاتـه وقدراته ـ أن يصنع شيئًا كثيرًا ، والأعمال والحركـات الكبيرة كلها جماعيـة ، فالنهضـة لم تكن من صنع رجل واحـد ، والذين يقـولون : إن أرازموس هو باعثهـا مخطئون ؛ لأنه واحد مـن جماعة ، والأفكار العظيمة التى تحدث حركات كبرى تولد فى الغـالب فى أذهان جيل أو أجيال من الرجال ، والجيل كله بل الأجيال المتوالية تصنع التغيير العظيم الحاسم ، وأرازموس Desiderius Erasmas Raterdem Us (١٤٦٩ ـ ١٥٣٦م) لم يكن إلا صاحب الدعوة الأولى .

وهـذه الدعـوة كـانت فى قلوب الكثيرين ، فلم يكـد أرازمـوس يفتح فمه داعيًـا إلى التخلص من قيود الفكر التى فرضتهـا الكنيسة على أهل الغرب حتى تجاوبت الأصداء بل قام اثنـان من البابوات بتبنى الـدعوة هما : يوليـوس الثانى وليو العـاشر ، وتدفق السيل فكتب أريوسطو وميكيافلى ودى بميـو وكاركواتوتاسو ، وظهـر كبار الرسـامين والنحاتين يحاكون أعمال الإغـريق والرومان : دوناتيللو وفرا انجيلـو ورافايلو وميكل أنجلـو ، ثم يظهر فى فـرنسا رايليـه وروفســار ودويابى وجماعـة المجرة (لابليـاد Le Pleiade) ، ويظهر من بين هؤلاء ميكل انجلو رسامًا ومثـالاً يفوق كل ما عمل اليونان والرومان ثم يكـون ليوناردو دافنشى العجيب ، فهو رســام ومثال ومختـرع ورياضى وصـاحب خيال علمى بعيـد يصل به إلى تصميم الطـائرات ، وجاليليـو جاليلى المفكـر الكاتب المجدد ، ويخرج الفكـر الأوروبى من ظلمات العصور الوسطى ويـرتد إلى علوم الإغريق والرومان باحثًا عن الطريق ويجد طريقه فى النهاية ويكون النهوض الشامل .

وكذلك كانت حركة تجديد الفكر الغربى المعروفة بعصر الأنوار فى الفرنسية وعصر الاستنارة أو التنور فى الإنجليزية The Age Of Englkghtemment ابتداء من القرن السابع عشر ، وكـانت عمل سلسلة ضخمة من الـرجال أظهرهم مونتيسكـو وفولتير ، وجان جـاك روسو ، وسـان سيمـون ، وبيكون ، وهيـوم ، وهوبز ، وبـدون هذا العمل الجماعى ويتعاون فيه الرجال من أبناء الجيل الواحد والأجيال المتعاقبة لا تكون حركة فكرية واجتماعية أو سياسية ، وتلك ناحية من أكبر نواحى الضعف فى تاريخنا الفكرى والاجتماعى والسيـاسى ، فإن الفرديـة هى السمة الغـالبة والعمل الجماعى منعـدم ،

ولهذا فقد لاحظت معى فيما حكينا من تاريخ الفكر العربى أنه كله أعمال فردية لا حركات متصلة ، وهذا من أكبر أسباب الركود والتدهور مع أن روح الإسلام تؤيد الجماعة للفرد ، والله سبحانه عندما يخاطب الناس داعيًا لهم إلى الإيمان والخير والعبادة والصلاح يخاطبهم جماعة ﴿ يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بَالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لله ﴾ (النساء ٤ / ١٣٥) فإذا أراد أن يلفت الإنسان إلى نقائصه أو يلومه خاطبه مفردًا : ﴿ يا أيها الإنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الذى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ (الانفطار ٨٢ / ٧) و ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَددْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ (التين ٩٥ / ٤ ، ٥) و ﴿ إنَّ الإنسانَ لَظَلُومٌ كَفَّار ﴾ (إبراهيم ١٤ / ٤) وغير ذلك كثير جدًا .

والذين يؤرخون لنهضة الفكر العربى على أنها من صنع الإمام محمد عبده أو من صنعه مع جمال الدين الأفغانى مخطئون ، فما كان هذان الرجلان ــ مهما بلغت ملكاتهما ــ ليستطيعا شيئًا كثيرًا فإذا كانا قد صنعا فلا بد أنه كانت معهما وقبلهما وبعدهما جماعات على مستواهما عملت وتجاوبت وتعاونت فكانت النهضة الفكرية والسياسية والاجتماعية ، فمحمد عبده سبقه وشارك فى تكوينه الشيخ درويش والشيخ محمد ظافر الطرابلسى ، وهما أول من فتح ذهنه على نور العلم ، والشيخ حسن العطار عالم الأزهر الجليل وشيخه (١٧٧٦ ـ ١٨٣٥ م) وهو الذى اختار رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١ ـ ١٨٧٣ م) ليكون أحد أئمة البعثة المصرية إلى باريس ، وهو الذى أوصاه بدراسة الفرنسية وعلوم الغرب ، وكان كذلك شيخ محمد عبده فقد كان رئيسًا لتحرير الوقائع المصرية ثم خلفه فى ذلك محمد عبده ثم تولى مشيخة الأزهر وهو رائد من رواد النهضة الفكرية العربية ، لم يأخذ حقه من العناية والدراسة بل كان الشيخ محمد المهدى شيخ الأزهر سنة ١٧٩٨ م ، صاحب الفضل الأكبر فى حصول الشيخ محمد عبده على العالمية وكادت لجنة الامتحان ترفضه بسبب علاقته بالشيخ جمال الدين الأفغانى وبسبب مقالاته الحرة فى الوقائع المصرية ؛ وهنا حسم الشيخ المهدى القضية وكان رئيس مجلس الامتحان فقال : لو كنت أعرف درجة فوق العالمية من الدرجة الأولى لمنحتها له ... وانتهى الأمر بنجاح محمد عبده بالعالمية من الدرجة

الثـانية . أقـول ذلك للذين يصرون على الحصـول على الـدكتوراه بـدرجة الامتيـاز ثم يكونون بعد ذلك كالبالون المنتفخ تمسه بدبوس فيصبح لا شيء ..

كان هنـاك جيل إذن من أهل الفكر المتيقظين وهـو الذى استقبل آراء محمـد عبده والأفغانى وسار بها إلى الأمام وجعلها حركة نهوض فكرى اجتماعى سياسى عام لمصر والعالم العربى كله .

وتظهر روح الجماعة هذه فى إنشاء مجلة « العروة الوثقى » فى باريس ، كان جمال الـدين الأفغانى عنـدمـا نفى إلى باريس قـد استـدعى محمد عبـده من بيروت فى (١٣ سبتمبر ١٨٨٣ م) ليؤلفـا جمعية العـروة الوثقى من أعضـاء من شتى أرجاء الـوطن الإسلامى وليصدرا صحيفة باسمها (عبد الحليم الجندى : محمد عبده ٣٩) ، وصدر العدد الأول منهـا فى (١٣ مارس ١٨٨٤ م) ولقيت رواجًـا واسعًا ، ولـو لم يكن هناك جمهور يقبل عليها لما كان لها من رواج .

وإذا أردنا أن نلقى جماعـة الرواد الـذين صنعوا حقًـا النهضة الفكـرية العـربية ونتبين روح الجماعة فى ذلك العمل ، فإننا نلقاهم بعد العروة الوثقى فى الجمعية الخيرية الإسلامية ثم فى صالون الأميرة نازلى فاضل .

ونحن لا نعرف الجمعية الخيرية الإسلامية إلا على أنها هيئة وطنية أنشئت لإقامة مدارس مصرية عربية إسلامية ، تقـدم للطلاب المصريين ما كانت تحرمهم منه مدارس الحكومة التى كـان يشرف عليها الإنجليز ويحرصون على ألا يتخـرج فيها إلا كتاب فى الدواوين ، ولكن الحقيقة أن الجمعيـة كانت تجمعًا فكريًا عظيمًا ؛ فقد دعـا إلى إنشائها محمـد عبده فى « العـروة الـوثقى» فى باريس فلما أتيحت لـه فـرصة العـودة إلى مصر أنشأها مع فـريق كبير من دعاة النهضة الفكـرية السياسية الاجتماعيـة وكان الشيخ محمـد عبـده أول رئيس لها سنـة ١٩٠٠ م ، وقـد استجـابت الأمـة لـدعـوتها فتبرع القادرون من أهـل مصر بالمال الكثير بل اشترك فى العمل والتبرع نفـر من أفراد الأسرة الحاكمة منهـم الأمير حسين كامل بن الخديـوى إسماعيل فقد رأس إدارتها بعـد وفاة الإمام سنة ١٩٠٥ إلى جانب رياسته لمجلس شورى القوانين سنة ١٩٠٩ م ، وظل فيها حتى تولى العرش خلفًا لعباس حلمى سنة ١٩١٤ م ، وكان يقول عن الإمام : (أستاذى الذى شرف علينا روحه الآن ، ولولاه لم أكن أنا مسلمًا) .

وظل يرعى الجمعية طوال حياته وقد أنشأت الجمعية مدارس كثيرة ابتدائية وثانوية ومنها مدرسة بنات ، ولكن الذى يهمنا هنا هو أن مجلس إدارة الجمعية كان يضم نخبة رواد الحركة الفكرية ومنهم سعد زغلول ، وإبراهيم الهلباوى ، وقاسم أمين وحسن عاصم وكان شخصية جليلة مثقفة عظيمة الأثر فى تاريخ النهوض الفكرى ، وقد كان مشرفًا على التعليم فى الجمعية وعين فى نفس الوقت رئيسًا لديوان الخديوى حتى سنة ١٩٠٤ م ، وكان رجلاً مستقيمًا كالسيف مؤمنًا ثابت الإيمان بكل ما يعمل ، وهو الذى أشرف على برنامج التعليم العربى الإسلامى الصحيح فى الجمعية ، وخلفه في هذه الوظيفة بعد وفاته عبد الخالق ثروت باشا وظل يشغلها بعد أن صار رئيسًا للوزراة ثم خلفه الأستاذ محمد خلاف الذى كان من أقطاب منشئى لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وفى هذه الجمعية نلقى على فخرى وكان مستشارًا بالمحكمة المختلطة وعلامة ومفكرًا جليلاً ، وكان من أكبر أنصار مصطفى كامل الذى قال في تأبينه : إن الفقيد كان مؤهلاً بفطرته وعلومه وأخلاقه وآرائه وهمته واقتداره لأن يكون من أكبر قادة الأمم وباعثى روح الحياة والنهوض فيها . (عبد الحليم الجندى : محمد عبده ٦٦) .

وفى الجمعية الخيرية الإسلامية كذلك نلقى محمد فريد وقاسم أمين ولطيف سليم وغيرهم كثيرون ، وكانت الجمعية تجتمع فى مبنى قبة الغورى ثم انتقلت فى سنة ١٩١٤ م إلى سراى وسط أرض مساحتها ١٦٩٤٩ مترًا مربعًا فى درب الجماميز أوقفتها عليها السيدة خديجة برهان ، وحضر حفل افتتاح المقر الجديد السلطان حسين كامل .

وتستوقف نظرنا الجدية التى كانت الجمعية تدير بها أعمالها ، فهى تعمل بجد فى تكوين شباب مثقف وطنى عربى اللسان يعرف كيف يخدم نفسه ووطنه ، وإقبال الأغنياء والأوساط على التبرع لها بالأموال والعقارات دليل على أنها كانت حركة قومية ، وقد كان الإنجليز فى ذلك الحين يعملون جاهدين فى إيذاء مصر وتمكين الاستعمار منها .

ومن أسوأ ما فعلوه فى ذلك هو أن إلدون جورست وهو المندوب السامى الذى خلف كرومر اجتهد فى الإيقاع بين الأقباط والمسلمين ، فأوعز إلى بعض السفهاء بمهاجمة الأقباط وأوعز إلى بعض الأقباط بإقامة المؤتمر القبطى فى مارس سنة ١٩١١ م ، وبدت

فى البلاد طلائع انقسام طائفى تطرف فيه بعض الناس مثل الشيخ عبد العزيز جاويش وهو ليس مصريًا ، واندفع فيه بعض الأقباط مثل توفيق دوس ، ولكن محمد عبده وإخوانه جميعًا تصدوا لإيقاف هذا التفريق الخطر وأظهر زعماء الأقباط من الوطنية والتعقل ما قضى على تلك الفتنة ، وهذا برهان قاطع على ما يتمتع به أقباط مصر من الوطنية والحكمة وبُعْد النظر ، وفى مؤتمر المصالحة الذى عقد فى هليوبوليس نشهد مشهدًا مجيدًا من مشاهد وحدة مصر ووطنية أهلها وسنرى أكبر مظهر لذلك عندما تقوم ثورة ١٩١٩ م ، وينضم إليها إلى جانب سعد زغلول نفر من خيرة أبناء مصر من الأقباط من أمثال : مكرم عبيد ، وواصف غالى ، وسينوت حنا ، وفخرى عبد النور ، وجورج خياط ، وغيرهم ممن يرتفع بهم رأس مصر ، وفصَّلْتُ الكلام فى ذلك فى كتاب سابق لى هو « دراسات فى ثورة سنة ١٩١٩ » .

والمظهر الثانى الذى تتجلى فيه روح جيل النهضة هذا هو صالون الأميرة نازلى فاضل وهى أميرة من فرع الأمير مصطفى فاضل الذى أقصاه إسماعيل عن الحكم بالفرمان الذى حصل عليه بحصر الوراثة فى أبنائه ، مثله فى ذلك مثل فرع حليم ، ومصطفى فاضل خاف على نفسه فرحل إلى الأستانة ثم إلى باريس حيث أصبح يحتل جناحًا من أجنحة أمراء الأتراك المناوئين للسلطان ونشأت بناته نشأة تحرير ، وواحدة منهن هى نازلى أنشأت فى قصرها منتدى أو صالونًا أدبيًا كان يجمع معظم أقطاب الفكر فى مصر من أمثال : سعد زغلول ، وقاسم أمين ، وإبراهيم الهلباوى ، وأحمد فتحى زغلول ، وأحمد حشمت ، وحسن عبد الرازق ، ولطفى السيد ، وحفنى ناصف ، ومحمد طلعت حرب وغيرهم كثيرون ، وكانت الأميرة نازلى قد تزوجت خليل شريف باشا سفير تركيا فى باريس ثم طلقت منه وتزوجت رجلاً من سروات تونس يسمى خليل بوحاجب الذى تولى فيما بعد رياسة وزراء تونس ، وعليه نزل محمد عبده فى زيارته القصيرة لتونس سنة ١٩٠٣ م ، أيام كان منفيًا فى باريس ، وقصر الأمير فاضل هو نواة مبنى دار الكتب المصرية فى باب الخلق التى أصبحت اليوم متحفًا للفن الإسلامى ودار الكتب نفسها من آثار محمد عبده ذلك الرجل الفريد الذى خلف لنا تراثًا فكريًا باهرًا وكان على يديه إصلاح الأزهر وإخراجه من ظلمات الركود والتدهور ، وبفضله صدر أول قانون لإصلاح الأزهر سنة ١٨٩٦ .

إذن فقد كانت النهضة الفكرية فى مصر ثمرة عمل جماعى مشترك وحماسة قومية

عربية عـامة ، وهذا هو الـذى أعطاها تلك القوة العظيمـة التى ظفرت بها ، ويضاف إلى ذلك ميلاد المطابع فى مصر ، وأول مطبعة عرفتهـا مصر كانت تلك التى أتى بها نابليون معه إلى مصر سنة ١٧٩٨ م ، ولكن هذه عادت مع الفرنسيين إلى فرنسا سنة ١٨٠١ م ، ولكن الحادث الحاسم فى تاريخ الطباعة العربية كان إنشاء مطبعة بولاق أيام محمد على سنة ١٨٠٩م ، ولها تاريخ طويل جميل وفيها طبعت إلى جانب مطبوعات الحكومة أولى ذخـائر التراث العربى ثم تـوالت المطـابع إلى مصر وكثر تـداول الكتب مـا بين مؤلفـة ومترجمة أو قديمـة محققة ثـم جاءت الصحافـة ، وسلاح الثقـافة الأمضـى فى عصرنا والبداية عند الحملة الفرنسية بجريدتى « لا يكاد اجيبسيان » وهى مجلة علمية ثقافية كان ينشرهـا المجمع الفرنسى ، والثانيـة يوميـة هى « لوكوريبـه ديجيبت » وكلتاهما بالفرنسية طبعًا ، لكن التاريخ الفاصل فى قصـة الصحافة العربية كان سنة ١٨٢٨ م ، عندما أنشـأ محمد على « الوقائع المصرية » التى حكـى الدكتور إبراهيم عبـده تاريخها وأعمالها فى كتابه القيم عـن تطور الصحافة المصرية ، وفى ص ٣٢٥ ومـا يليها من ذلك الكتـاب القيم ثبت بالصحف التى ظهـرت فى مصر بعـد المطبعة الأميريـة ؛ فنجد فيهـا صحفاً ومجلات كان لها أبعد الأثر فى تطور الفكر العربى مثل وادى النيل (١٨٦٦م) ، ونـــزهـة الأفكـــار (١٨٦٩) ، وروضـة المدارس (١٨٧٠) ، والأهـــرام (١٨٧٥) ، والمحروسة (١٨٨٠) ، والأهالى (١٨٩٤) ، وأبو نظـــارة معظمة (١٨٩٧) ، والمنار (١٨٩٨) ، واللواء (١٩٠٠) ، والأمـة (١٩٠٥) ، والجريدة (١٩٠٧) ، والكشكـول (١٩١٤) ، واللطائف المصـورة (١٩١٥) ، إلى آخر تلك القـائمة التى جعلت الصحـافة جزءًا من حياة الناس وفكرهم فى العالم العربى .

فى هـــذه الصحف ظهرت المقالات ونشأ النثر العربى الجديد الحر ، وفى مجلة مثل « البيان » التى أنشأها عبد الرحمن البرقوقى سمع الناس أصوات عباس محمود العقاد ومصطفى لطفى المنفلوطى ومصطفى صادق الرافعى ، وفى جريـــدة « السياسة » ثـم « السياسة الأسبـوعية » عرف الناس محمـد حسين هيكل وطه حسين ولطفى السيد ، وفيها وفى غيرها ظهرت أسماء: إبراهيم عبد القادر المازنى وسلامة موسى ومحمد عبد القادر حمزة وأحمد حـافظ عوض وقـرأوا أشعار أحمد شـوقى وحافظ إبـراهيم وولى الـدين يكن وخليل مطران وغيرهم كثيرون جـدًا ، وهكـذا تجدد الفكر المصرى العـربى وخرج من الظلمات إلى النور .

قصة الفكـر العربى الحديث طـويلة يعـرف معظم قرائى منهـا أكثر ممـا أعرف ، وسأحاول قـدر المستطاع فى الصفحات التـالية أن أعين المراحل الفاصلـة فى تاريخ ذلك التطور العظيم ، ولكنى قبـل أن أخطو هنا خطـوة لا بد أن أنبـه إلى أن الفرق عظيم بين النهضـة العـربية فى مصر والنهضـة الفكرية فى لبنـان ؛ لأن إخواننـا اللبنانيين وطـائفة معينة منهـم بالذات تصر على أن تنسـب لنفسها فضل النهـوض الفكرى العربـى كله فالأمير فخـر الدين المعنى (١٥٧٢ ـ ١٦٣٥ م) عنـدهم صنو محمـد على مع أن فخر الدين كـان زعيماً دينيًا ذهب إلى الغرب ليستعين بـه على الدولة العثمانية ، والبـاباوات واليسوعيـون (الجزويت) استجابـوا له وأرسلـوا البعثات وفتحـوا أبواب معـاهدهم للمسيحيين وذلك كله صحيح .

ولكنه لم يكن حركة نهوض فكرى عربى ونحن نعرف مكانة رجال من أمثال القس جبرائيل الصهيونى الأهـدانى (١٥٧٧ ـ ١٦٤٨ م) الذى ترجم إلى الـلاتينية مختصر جغرافيـة الإدريسى ، والمطران جـرماتوس فـرحات (١٦٧٠ ـــ ١٧٣٢ م) ، ويوسف سمعان السمعانى (١٦٨٧ ـ ١٧٦٨ م) وأنا شخصيًـا مدين بالكثير لأعمال واحد من هؤلاء وهو الخورى ميخائيل الغزيرى (ت ١٧٩٤ م) أول من قام بفهرسة مخطوطات الاسكوريـال فى إسبانيا ومـا أكثر السـاعـات التى قضيتها مع كتـابه الفريـد « المكتبة العربية الاسكريالية » .

ولكن هـذه كلها كـانت فى الحقيقة خـدمـات للعرب فى المقـام الأول ، أما النهضـة الفكرية فى بـلاد الشام ومنه لبنان فترجع حقًـا إلى ما بين سنتى (١٨٣٠ ـ ١٨٤٠ م) وهى سنوات الحكم المصرى للشام أيـام محمد على وابنه إبراهيم ؛ لأن بعثات البـابوية والجهات الأوروبيـة كان جهـدها مقصـورًا على المسيحيين وحدهم ، فلما جـاء الحكم المصرى ومعه التحرر الكامل من الأتـراك العثمانيين فقد تفتحت أبواب العلم والنهوض لكل أهل الشام من غير تفرقة دينية وأنشئت المدارس والجمعيات العلمية الإسلامية إلى جانب المسيحية ، وهنا يمكن التحدث بحق عن نهضـة فكرية فى بلاد الشام ، والشـيخ ناصيف اليازجى (١٨٠٠ ـ ١٨٧١ م) ، معاصر رفـاعة رافع هو أول عظماء المفكرين العرب من أهل الشام ويعاصر ناصيف الشيخ إبراهيم اليازجى وأحمد فارس الشدياق تحفـة الفكر العـربى المجـدد الجرىء فى القرن الماضـى وسليمان البستانى وبطـرس

البستانى خاصة الذى قام بأضخم عمل تجديدى طليعى فى القرن الماضى بترجمته إلياذة هوميروس ، وهنا مكان فضيحة لإخواننا فى لبنان وهى أن هذه النزعة التى وضعها الفرنسيون والأمريكيون فى أذهان طائفة معينة من أهل لبنان خلاصتها أنهم أفضل أهل لبنان وأولى الناس بحكمه وإدارته ، هذه النزعة أساس نكبة لبنان التى يعيش مأساتها اليوم ، والأب هنرى لانانس اليسوعى الذى كان يتلذذ بمهاجمة الإسلام والمسلمين ومعاصره الأمريكى دانييل يليس الذى أنشأ المدرسة الأمريكية التى تطورت إلى الجامعة الأمريكية لم يكن يخطر ببالهما أن يخدما لبنان بل فرنسا والولايات المتحدة وإلى أن تدرك هذه الطائفة حقيقة أمرها وهى أنها جماعة من مواطنى لبنان مثلهم فى ذلك مثل غيرهم من أهل لبنان وأن ولاءهم الحقيقى ينبغى أن يكون للبنان والعروبة فى جملتها وأن الولاء لباريس أو روما أو واشنطن لن تنشأ عنه إلا الكوارث إلى أن يتبينوا ذلك ويؤمنوا به ويتعرفوا على مقتضاه ؛ فلا أمان ولا سلام لهم فى لبنان وبلاد الشام كلها ، ولا أمان للبنان معهم ، نصيحة أسوقها فى الطريق إلى طائفة لها فى نفوسنا أعمق المكانات ولكن الغرب الأنانى مضلل وخطر ولا ضير عليه فى خدمة بلاده فالحياة معركة ولكن الضير كل الضير فى أن يضعف ولاء عربى لوطنه ولغته ويحسب أن الأجانب سوف يخدمونه أو يطورون وطنه على حساب أوطانهم وهذا وهم وضلال ، والدليل على ذلك أن أهل الفكر فى لبنان الذين تجردوا من هذه النزعة من أمثال ميخائيل نعيمة ، وجبران خليل جبران وأدباء المهجر أصبحوا عندنا من صناع الفكر العربى الحديث وأعلامه .

* * *

هذه التجمعات الفكرية التى أشرنا إليها فى مجالس الشيخ جمال الدين الأفغانى ومجالس الشيخ محمد عبده والعروة الوثقى والجمعية الخيرية الإسلامية وصالون الأميرة نازلى فاضل ، ولنضف هنا جمعية الاقتصاد والتشريع ونادى القضاة ودور صحف أواخر القرن الماضى وخاصة المؤيد (وصاحبها على يوسف) واللواء (جريدة الحزب الوطنى) وبقايا مجلس شورى القوانين ، كل هذه كانت الأوساط التى نشأت وتطورت فيها فكرة ثورة ١٩١٩ م ، حقًا إن تلك الثورة قامت على نحو يبدو كأنه

مفاجأة عقب ذهاب سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى إلى دار المعتمد البريطانى ومطالبته بجلاء بريطانيا عن مصر (١٣ نوفمبر ١٩١٨) ولكنها لم تنشأ من فراغ ، الحكومة البريطانية رفضت الإذن لسعد وأصحابه فى السفر إلى أوروبا لعرض قضية مصر على مؤتمرات الصلح فى فرساى ، ثم رفضت كذلك الإذن لحسين رشدى رئيس الوزراء فى السفر مع عدلى باشا لنفس المهمة واستقال حسين رشدي فى (٢ ديسمبر ١٩١٨) ، ثم رحل السيد ريجينالد وينجت عن مصر (٢١ يناير ١٩١٩) ، وبرحيله أصبحت مصائر مصر بيد قائد القوات البريطانية فى مصر الميجور جنرال واطسن ثم ألقى سعد زغلول خطابه فى جمعية الاقتصاد والتشريع (٧ فبراير ١٩١٩) وفيها أعلن بصراحة بطلان الحماية البريطانية عن مصر وطالب بإلغائها وهذا هو الميلاد الفعلى للثورة ، ثم نشأ الوفد وجمعية التوكيلات ووجهت الزعامة الشعبية خطابًا إلى السلطان أحمد فؤاد ليقف إلى جانب الشعب فى المطالبة بالاستقلال ، وأنذرت السلطة العسكرية الوفد وأمرت رجاله بالانصراف عن مطلبهم وهددتهم بالعقاب ثم اعتقلت سعد زغلول وثلاثة من صحبه (حمد الباسل ، وإسماعيل صدقى ، ومحمد محمود فى ٨ مارس ١٩١٩) ، ثم قبضت عليهم وسجنتهم ثم نفتهم عن مصر ، كل ذلك أدى إلى انفجار الثورة فى (٩ مارس ١٩١٩) كل هذه الحوادث المتلاحقة ـ وقد حرصت على ذكر تواريخها لتتضح للقارىء سرعة تلاحقها ـ ما كانت هذه الحوادث تتم على هذه السرعة إلا إذا كان هناك تمهيد فكرى لها قامت به جماعة من أهل الفكر قادرين على تأييدها ودفعها إلى الأمام ، ولهذا بدأت هذا الفصل بالكلام على هذا التمهيد وكيف تكونت مجموعة الرجال الذين سيحملون عبء الثورة والسير بها ، وفى تطور أحداث الثورة بعد ذلك نلاحظ أن الأمر لم يقتصر على رؤوس الثورة وقادتها بل إن التمهيد الفكرى الطويل الذي سبقها ودعوات جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وزملائهم فى تحرير الوقائع المصرية ومقالاتهم فى تلك الجريدة الرسمية ، كل ذلك كان قد مهد الجو فى البلاد لتلقى الدعوة وتحويلها إلى ثورة شعبية ؛ لأن دعوات رجال الفكر وأفكارهم ومقالاتهم وخطبهم أو كتبهم لا يمكن أن تحرك الحوادث ؛ لأن الحوادث تحركها الجماهير التى تثور وتحطم وتهدم وتهدد النظام القائم وترغمه على رد الفعل ـ سلبًا أو إيجابًا ـ فتتحرك العجلات ويكون الاندفاع الشعبى الذى يحدث التغيير .

ولا يمكن تصور اندلاع ثورة بصورة شاملة لكل طبقات الشعب إلا إذا كانت

العقـول والعـواطف مهيأة لـلاستقبـال والعمـل ، ومن هنـا لا نتعجب من أن طـلائع الجماهير الثائرة كانت من طلبة المدارس العالية وطبقات موظفى الحكومة وطلبة الأزهر وزعـامـات الأقبـاط ثم عمال السكك الحديـديـة ومن إليهم ، ثم بقيـة جماهير الشعب المستجيب الغاضب التى اندفعـت إلى الشوارع تحركها أيديولـوجية الحرية والخلاص من المستعمـر والأمل فى إنشاء الـوطن المصرى المستقل ، وهـذه الجماهير ستصبح من الآن فصاعدًا القوة الدافعة للثورة العاملة على إحداث التغيير وشيئًا فشيئًا ستصبح هى البطل الحقيقى للحركـة كلها وستسير وراء الرجـل الذى فهمها وعـرف كيف يتجاوب معها وهو سعد زغلول ، وسَتُخْرِجُ الثورة من الميدان أولئك الذين لم يفهموها أو يعرفوا كيف يتجاوبون معها .

وما كان عبد العزيز فهمى ، وعدلى يكن ، وعبد الخالق ثروت ، وإسماعيل صدقى ، ومحمد محمود بأقل إيمانًا بحق مصر فى الاستقلال من سعد زغلول ولكنهم عجزوا عن فهم الشعب والاتصال به فتركهم الشعب جانبًـا ومضـى فى طريقه واضطروا إلى البحث عن تأييد لهم من جهات أخرى حتى لا يضيعوا تمامًا فانضموا شيئًا فشيئًا إلى السراى وتكـونت منهم حكومـات القصر والإنجليز التـى كانت تعتبر نفسهـا حكومـات العقل والرزانة والطبقات الرشيدة وأصحاب المصالح الحقيقية وما إلى ذلك من الشعارات التى نادوا بها ، أمـا سعد والوفـد وجماهير الشـعب التى أيدتهم ، فهذه فى نظـر جماعات القصر هي الديماجوجية والسوقية ، والذى غـاب عنهم أن هذه الديماجوجية كانت هى المطلوبة ! فقد طـالما ترفَّع أهل الفكر على السوقة أى أهل الأسـواق والرعاع والعوام كما بيّنا مرة وأخرى على طول هـذا البحث ، فقد انتهى عصر طبقات أهلِ الحكم من الخلفاء أو السلاطين ووزرائهم وحـواشيهم ومماليكهم (الـذين أصبحوا ملوكًـا !) وبدأ عصر الشعب أى جماهير الناس .

* * *

نَحْوَ أَدَبٍ عَرَبِىٍّ جَدِيد

فى الإنجليزية مَثَلٌ يقول Who Pays The Fideler Aske For The Tunes (من يدفع لعـازف الكمان أجره هو الـذى يطلب الألحان) ، والذى كـان يدفع إلى ذلك الحين كان أهل الجاه والسلطان والمال ، فكانت الألحان على هـواهم : مديح وكذب ونفاق وذل أهل الفكر على عتبات الأقوياء وإهمال الجماهير أو « الرعاع » واعتبارهم إما بهائم وإما كالبهائم وإما غير موجودين أصلاً ، وقد ضربنا أمثلة كثيرة جدًا على ذلك .

* * *

أما الآن فقـد انتهى عصر السيد الـذى يدفع وحلَّتْ محلـه جماهير الشعب وهى لا تـدفع إلا لمن تحس أنه ينفعهـا ، إنما هى تقـرأ وتفهم وترضى أو لا تـرضى وتقبل على المفكر الـذى تحس فيه الأصالـة والإخلاص والصدق وتشترى كتبـه أو تقرأ الصحف التى يكتب فيها وترفض الزيف والقشور ، وهذه هى طريقة الدفع الجديدة وتلك عملتها وموازينها فى التقدير .

لهذا انصرف الناس عن مـؤلفات « صـهـاريج اللؤلـؤ » وظهر الفكـر الأصيل الذى يعبر عن أفكار وعواطف ومعان إنسانية ولا عجب والحالة هذه أن نرى الثورة التى قاد صفـوفها سعـد زغلـول فجرت فى نفس الـوقت ينـابيع الإلهام الفكرى والفنى فظهـر العباقـرة من كل نوع ومكـان ، ظهر الجيل الذى نسميـه جيل العمالقة : العقـاد ، وطه حسين ، وإبراهيم عبد القادر المازنى ، وعبد الرحمن شكرى ، وسـلامة موسـى ، وأحمد حسن الزيـات ، ومصطفى صادق الرافعى ومن إليهم ، حتى حافظ إبـراهيم وكان قبل الثورة مداحًا يدور بشعره على أهل المال والجاه حتى قـال شعرًا فى مدح اللورد كرومر تحول إلى الشعب الآن وصـار يقـول شعرًا وطنيـًا إنسـانيـًا عظيمًا يهز القلوب ؛ لأنـه يخاطب الجماهير التى لا تعـرف النفـاق ، وهـو الآن يطلـب رضـاهـا بـالتعبير عن أحاسيسـها ، وأحمد شوقى الذى كان شاعر القصر الذى أوسع لنفسه مكانًا محترمًا فى الفكر العربى بما أدخله من أفكار جديدة اخترع لها لغة جديدة تجمع بين الرقة والجمال والصدق ، ثم أحمد بن القاضى المفكر الذى أصبح أديبـًا ومؤرخًا للفكر دون أن يتنازل

عن ميزان القاضى ومنطقه وحقه فى إصدار الاحكام ، ولعل أعظم أدواره فى تاريخ الفكر العربى هى إدارته الحكيمة للجنة التأليف والترجمة والنشر التى كانت لسنوات طويلة قائدة الفكر العربى الحديث .

يقف بباب ولي النعم والأمراء والأميرات ويقول شعر المناسبات فأصبح شاعر الشعب وشاعر العروبة وشاعر الإسلام وشاعر المدائح النبوية الرفيعة .

ومن حوارى الإسكندرية يطفر سيد درويش منشدًا شعبيًا يتطور مع التيار إلى ملحن عظيم ومؤلف أوبرات ، ومحمود بيرم التونسى شاعرنا نحن الرعاع يصبح الآن شاعرًا جليلاً وأزجاله وكتاباته تهز أفئدة الجماهير وتغضب السلطان والإنجليز فينفى منْ مصر ومن منفاه فى مرسيليا ـ وهو يعيش عيش الكفاف ـ مثله فى ذلك مثل الوهرانى وابن قزمان يرسل إلى مصر أزجاله ومقاماته ومقالاته التى يتهامس بها الناس وتنتقل بينهم كما تنتقل المهربات ، ومن نواحى باب الشعرية يخطو إلى عالم الفن محمد عبد الوهاب حاملاً معه موسيقى جديدة يرحب بها الشعب وينسى معها موسيقى البشارف والأدوار التى تتحول بكل رجالها إلى تراث موسيقى قديم يحفظ فى المتحف ، ويرتقى محمد عبد الوهاب بألحانه إلى مستويات شعر شوقى ومن فى طبقته ويصبح منشد العصر الصداح ، ومن كوم الزهايرة مركز السنبلاوين تأتى إلى القاهرة بنت فلاحة تلبس العقال ـ أم كلثوم ـ لتصبح أعظم مغنية فى تاريخ الموسيقى العربية كلها وإلى جانب إنشادها العظيم تصبح سيدة مجتمع ومفكرة ذات آراء رفيعة وحول أم كلثوم ينشأ جيل عظيم من الموسيقيين يتصدره محمد القصبجى ورياض السنباطى ومن هذا كله تتكون الموسيقى العربية الجديدة المضاهية للفكر الجديد .

ومحمد طلعت حرب الذى كان إلى ذلك الحين يتشاغل بالتاريخ فيؤلف فى تاريخ الدولة العثمانية يتحول إلى اقتصادى ينشىء البنوك والمصانع ؛ لأن الشعب الناهض فى حاجة إلى مصارف قومية ومصانع قومية ، ويظهر محمود مختار مثالاً عجيبًا يرتد إلى مصر القديمة ويستوحى فنها لينشىء فنًا مصريًا فى المثالة جديدًا يبهر الدنيا ، فى الإسكندرية يظهر رسام عبقرى هو محمود سعيد ، ويوسف وهبى يضع قواعد المسرح العربى مع عزيز عيد وروز اليوسف وفاطمة رشدى ورجال فرقة رمسيس ، ونجيب الريحانى الذى بدأ حياته مهرجًا يكسب عيشه بألاعيب كشكش بك يتحول إلى فنان

أصيل وفيلسوف مفكر ، هـذه الحركة كلها لم ينشئها سعد زغلـول وحده إنما أنشأها الشعب المصرى العربى الذى أنشأ سعـد زغلول نفسه واستجاب لنـدائه فتفجرت فيه جوانب العبقرية ، وهنا ـ فى ذلك الجو ـ تنشأ جماعة « الديوان » وهى أول حركة فكرية واعية فى تاريخ الفكـر العربى وخلاصة رأيها : « إن عصر أدب القصـور اللفظى المنافق السطحى قد انتهى وجـاء عصر أدب الصدق والواقعية والإبداع والمعـانى قبل الألفاظ » وكل الذين ظهروا وكتبوا فى عصر النهضـة هذا كانـوا نقلة ، نقلوا الفكر العربى من ركود العصور الوسطى إلى حركة العصر الحديـث ، ومن أبواب السلاطين إلى نوادى الناس ، ونقلوا التراث العـربى القديم ـ وكان قـد نسى تقريبًا ـ إلى العصر الحديث نفضـوا عنه التراب وجعلوا يبعثـون فيه الحياة بما نسميه اليـوم حركة إحياء التراث ، ونقلـوا الفكر الغربـى إلى عالم العرب وزرعـوا أشجاره وغيَّـروا بذلك شكـل بستان الفكر العـربى وأشـجاره وألوانه وزهوره وثماره ، وبعد أن قاموا بهذا الدور الكبير وهو دور لم يقتصر على النقل بل تتجلى فيـه الشخصيـات والملكات ويتميـز كل منهم بمـواهب لا تنكـر فى الإبداع الفكرى المتعدد الألوان ، وكانوا على الجملة أصحاب أساليب أدبية جميلة وأفكار جديدة واطلاع واسع واحتاجوا إلى موضوعات يكتبون فيها فتحولوا فى النهاية إلى كُتَّاب إسـلاميين يكتبون فى العبقـريـات الإسلاميـة أو السيرة أو على هـامش السيرة ، حتى محمد حسين هيكل ـ الذى بدأ حياتـه الأدبية داعية مجددًا للفكر الغربى يكتب عن جان جاك روســو ـ اتجه فى النهايـة إلى السيرة النبوية والخلفـاء الراشدين ، وهنـا فى ميدان الإسلاميات مـائدة واسعة يجلس إليها كل أديب عربى معـاصر فرغت أفكاره فمال إلى الماضى الإسلامى يغترف منه ويـدبج ما يقرأه بأسلوب جـديد ، « على هامش السيرة » لطه حسين صيـاغة جديدة لبعض صفحـات سيرة ابن هشام ، وعبقريات العقـاد كلها كتب أسلوب ، واحد منها يغنيك عن البـاقى ، وفى أسلوب العقاد الفكرى والأدبى القوى الرصين يتساوى أبو بكر وعمر وبلال بن رباح والحسين سيد الشهداء والإمام على ، بل توماس جيفرسـون ، وجيته ؛ لأن عقل العقـاد وقلمه كانا مثل البلدوزر يطحن أى شىء على المائدة الإسلامية الغنية بكل ما يطـرب القارىء المسلم ، جلس نفر من أدباء الجيل التالى : جودة السحار ، وعلى أحمد باكثير ، وخالد محمد خالد ، وطاهر أبو فاشا ، وبقية أولئك المبـدعين وتضخمت بهذا النـوع من المؤلفـات أعداد الكتب دون أن تكـون فيهـا إضافـات حقيقية أو تجديـد لتصميم الفكر العربى ، كلهـا ديكور جـديد لنفس البيت

القديم ، وهنا لا بد من ذكر ثلاثة من مجددى الفكر العربي : جورجي زيدان المؤرخ الأديب الذى كان أول من وضع تاريخًا جديدًا للأدب العربى والحضارة العربية ، وسلامة موسى .

ولكن أعظم الأشجار الجديدة فى حديقة الفكر العربى الحديث هى أشجار القصص : القصة القصيرة والطويلة والرواية والمسرحية ، هذه كلها أشجار جديدة جدًا فى بستان الفكر العربي ، ومن الخطأ الفادح أن نقول : إن الفن القصصى الحديث تطور للحواديت أو المقامات فهذه أنواع أدبية عقيم لا تتطور ، إنها كالأقزام تولد وتعيش وتشيخ وتموت أقزامًا وهذا نوعها ، أما الأدب الروائى الحديث فشىء آخر تمامًا ، شجرة جديدة وإذا كانت الحكايات والمقامات أشجار جميز فإن فن الرواية الجديد شجر تفاح والجميز لا يمكن أن يكون تفاحًا أبدًا فإن القصص بكل أشكاله ـ هو وعاء الإبداع الفكرى ـ لأنه صورة الحياة . حياة الناس بكل ما فيها من واقعية وصدق والقصص الجيد بناء فنى لا مجرد إنشاء وهو لهذا أصعب الأنواع الأدبية وهنا يتجلى لنا حجم الدور الذى يقوم به توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويحيى حقى ويوسف إدريس ومحمد عبد الحليم عبد الله ومحمود تيمور ومن فى طبقتهم من بناة الفن القصصى العربى بشتى أشكاله ، وإن الإنسان ليدهش لذلك التوفيق البالغ الذى وصل إليه توفيق الحكيم فى المسرحية ونجيب محفوظ فى الرواية والقصة القصيرة ولكن دهشتنا تزول عندما نذكر أن هذين العلمين يصدران فى أعمالهما عن إيمان صادق بمسئولية الأديب وأمانة القلم ومعرفة تامة بأصول الفن الذى يكتبون فيه ، وهما إلى جانب ذلك من أصحاب الاطلاع الواسع والمداومة على القراءة مع عمق الفكر والصدق فى القول والحرص الشديد على المحافظة على المستوى والالتزام بالمسئولية أمام النفس أولاً ثم أمام الآخرين .

على أن أهم ناحية فى إنشاء الفكر الجديد هى ناحية اللغة ؛ لأننا معاشر العرب لم ننتبه أبدًا إلى أهمية اللغة أو قيم الألفاظ ، فالألفاظ فى الأدب العربى القديم يرص بعضها إلى جانب بعض كما تنظم اللآلىء فى حفظ ليصير منها عقد ، وهذا هو الأدب فى المفهوم القديم فالألفاظ عندهم كاللآلىء تعطى العقد شكلاً ولكنها لا تعطيه معنى ، وقد بذل زكى نجيب محمود جهدًا شاقًا فى كتاب « تجديد الفكر العربي » لبيان أهمية الألفاظ

وانتهى إلى ما انتهى إليــه المفكرون غداة الثــورة الفرنسيــة من أن الألفاظ ليست مجرد حاملات للمعانى بل هى نفسهـا ينبغى أن تكون معابد حية متحركـة فاعلة ، والألفاظ كما يقولون هى الأدوات التى تصنع الأفكار ، واللفظ الدقيق فى موضعه المحسوب يقطع المعنى قطعًـا كأنه السكين الحاد فإذا لم يكن حـادًا مسنونًا فـإن المعانى تظل غـامضة والفكر كله يصبح خبايا ، ومن أسف أننا أسأنـا استخدام ألفاظ لغتنا وضيعنا قيمها ، وانظر مثـلًا كيف تستعمل أفعال التوقيت : أصبح وأضحى وظل وامسى وبـات فكلها تستعمل دون تدقيق ففقدت حدتها ولم تعد تقطع المعانى ونتيجة ذلك هو ذلك الضباب الفكرى الـذى نعيشه نتيجة لضباب الألفـاظ ، وهنا تأتى المهمة الحقيقيـة لمجمع اللغة العربية فإن وظيفته الأساسية ليست البحث عن معادلات عربية لمصطلحات علمية غير عربيـة ، بل ضبط معانى الألفـاظ ومقاييس اللغـة نفسها وضبط النحـو ونحن نشكو اليوم من هبوط مستوى اللغة وجهل الناس بـالقواعد ولا يرجع ذلك إلى هبوط مستوى تدريـس اللغة فى المدارس والجامعات بـل إلى أن الأفكار الجديـدة تكتسح قواعـد اللغة ونحن الذين نقوم بالكتابة نعانـى هذه المشكلة ونشعر أن دقة التعبير أهم من فصاحة اللفظ ، فإن اللفظ العـامى أو غير العـربى إذا دخل اللغـة وجـرى فى الاستعمال أصبح عربيًا ، ولفظ القلم نفســه ليس عربيًا بل لاتينى الأصل Colamus ولكنه أصبح عربيًا صرفًا ، وهو وارد فى الآيات الخمس الأولى التــى أوحيت لرسول الله ﷺ ، وكما أن القرآن الكريم استعمــل نفس ألفاظ لغة الجاهليين وصنع منهـا لغة جـديدة ، واللغـة الجديدة صنعت حضارة جـديدة ، فنحن نستطيع أن نستشير بذلك المثل الرفيع فى إنشــاء اللغة العربية الجديدة والفكر العربى الحديث .

وفى هذا الميدان لا بد أن نذكر ما يمتاز به يوسـف إدريس من ملكة أصيلة فى الإبداع القصصى والفنى والفكرى ، وغرر رواياته ومسرحياته أصبحت بالفعل معالم واضـحة فى تاريخ الفكر العـربى ، وهنا أيضًا مكان على أحمد باكثير ويـوسف السباعى وثروت أباظة وإحسان عبد القدوس « الـذى يملك ملكة لا تضارع فى سياقه القصصى الجميل المحكم الـذى يستهوى الجماهير » ويتميـز ثروت أبـاظة فى روايـاته بجـدية وأصــالة وطلاوة مع اطلاع واسـع على الأدب العـربى ، وهنا أيضًا مكان عبـد الرحمن الشرقاوى الـذى كتب واحـدة على الأقل من أجمل الـروايـات فى الأدب العـربى الحديث ، والطيب صــالح صاحب الطيـور المهاجـرة وهى من أحسن ما نقـرأ فى أدبنا المعـاصر ، ونعمان

عـاشور وسعـد الدين وهبـة وكل منهم شجـرة جميلة متميـزة بشخصيتها وهيئتهـا وثمرتها ، وهنـا فى ميدان القصص يكمن جـانب كبير جدًا من مستقبل الفكـر العربى ، ومن أعظم أشجار ذلك الفكر الجديد أشجار المفكـرين الخالصين الذين يضاهون بنفاذ أفكارهـم وعمق تفكيرهم أعاظم كُتَّـاب الغرب ، وهنـا مكان زكى نجيب محمـود المفكر المجدد الأمين مع نفسـه ومع الآخرين ، الـذى لا يتملق الجماهير بل يحتفظ دائمًا بدور المعلم القدير والأستاذ الموجه وكاشف الطريق .

وإلى جانب هـذه الاتجاهات الجديدة نجـد بستان الكتابـة الصحفية التى لم تقف عند تجديد الأسلـوب بل ابتكرت طرائق جديدة فى كتـابة العربية حملت معـانى جديدة وغيرت بذلك هيكل الفكـر العربى وقالبه وأنشأت نـوعًا جديدًا من النثـر الفنى الرفيع ، على رأس هذه الجماعة نجـد محمد التابعى بأسلوبه الصحفى الممتع الـذى كان يسحر القراء ونشأت منـه مدرسة أدبية صحفية ، وفكـرى أباظة وأمينة السعيـد من كبريات رائدات النهضة النسائية والأدب الصحفى ، وعلى أمين ومصطفى أمين ومحمد حسنين هيكل وأحمد بهاء الدين ومحمد جلال كشك وأضرابهم من أعلام الكتابة الصحفية .

وبين هؤلاء يقف نـزار قبانى وشعـراء المقاومة الفلسطينيـة الذين اخترعـوا شعرًا عربيًا جديدًا وهـم خطوة بعد إبـراهيم ناجى وعلى محمود طه وزكى أبو شادى وجماعة أبولو الذين شقوا طريقًا جديدًا لكنهم وقفوا فى منتصفه .

وهنا نـجد مدرسـة الأدباء الذين تعلموا فى المدرسة القديمة واستطـاعوا أن يوسعوا لأنفسهم مكـانًا فى النهضة الحديثـة : مصطفى لطفى المنفلوطـى الذى أدخل بنظـراته وعبراتـه عنـاصر العاطفـة الصـادقـة مع الأسلـوب الرصين ، وأحمد حسن الـزيـات الجواهـرجى فى صــورة أديب ، ومصطفى صــادق الـرافعى حكيـم الأدبــاء أو أديب الحكماء . هؤلاء انتهى دورهم فى صنع الأدب العربى الجديد ، وانتهى كذلك دور جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة ومدرستهما التى حاولت أن تكتب الإنجليزية أو الفرنسية بحروف عربية ، ولم يبق حيًا من مدرسة الشام إلا سعيد عقل .

وهنا أيضًا نجد جماعة الأكـاديميين الذين وجدوا أن صفحات المجلات والصحف أقدر على حمل أفكـارهم المتدفقة من كـراسى الجامعة ، هنا نلقى أنيس منصـور وهو يكتب بقلم قوى سريـع النبض وأفكاره تنهمر كـالسيل صادرة عن فكـر عميق واطلاع

واسع وإبـداع أدبى متميز ، وهنا أيضًـا مجال مجددى تاريخ الأدب العـربى ويمثلهم شوقى ضيف بتآليفه الشاسعة فى كل مجالات الأدب العربى ، ومحمد عبد الغنى حسن الغزير الإنتـاج الجيد إلى جانب ملكة فى الشعر جميلة ، ومهـدى علام من أئمة مجددى اللغة ، وعبـد القادر القط ، وطه الحاجـرى ، والمرحوم عبـد العزيز الأهـوانى من أعلام المجددين للغة والنقد الأدبى ، وفى رعيل أولئك المجـددين نجد أهل العلوم ممن يربطون الإبداع الأدبى بـالفكر العلمى ، هنا نجد : سـلامة موسى ، والدكتـور أحمد زكى ، وعبد الفتاح جوهر ، ومصطفى محمود الذى يقنعك كـلامه عن الإعجاز القرآنى ببرهان العلم أكثر مما يرضيك كلام الباقلانى فى نفس الموضوع ببراهين الألفاظ .

وآخر مـا أضيفه فى هـذا التاريخ هو أن الإبـداع الأدبى الجدير بـذلك الاسم يقوم أساسًا على العلم الواسع والصدق وإجادة العربية ، والقصص بالذات من أوعر المطالب لأن القصة بناء متكامل ينبغى أن يكون محكمًا من البـداية إلى النهاية فلا يكفى عنوان يبهر صاحبه فينشىء حوله حكاية يسميها قصة أو رواية ، أو يبدأ الحكاية ثم لا يعرف كيف يختمها ؛ لأن القصصى الجيد فعلاً يبدأ من النهـاية ، أى أن انفراج الحكاية ينبغى أن يكـون واضحًـا فى ذهن القصـــاص قبل أن يكتب العنـوان ، والحوادث ليست عماد القصة بل الفكرة هى الأســاس ، وكل شخصية فى الرواية هى فى الحقيقـة فكرة تتحرك مثال ذلك راستكـولنيكوف فى الجريمـة والعقاب فهو فكـرة تتحرك وتتصرف لا مجرد شـــاب فقير قتل سيدتين عجـوزين بغيضتين فإذا لم يكن للعمل القصصـــى موضـوع وأفكار أو وحدة أو نهايـة تحول إلى مسلسلة مفاجآت أطفال كلهـا سطحية وبعيدة عن الواقعية أو إغراق مذموم فيها ، كما ترى فى مسلسلات التليفزيون التى تحول معظمها إلى حكايات أطفال يقوم بها رجال ونساء بلا شكل أو هيئة أو شخصية .

وأقول فى النهاية : إن تجديد الفكر العربى يقوم أساسًا على تجديد العلم أو توسيع قاعدة المعرفة والاطلاع ، وليس هناك ـ فى الحقيقة ـ كاتب كبير ، بل هناك قارىء كبير ، ومن القارىء الكبير ينشأ الكـاتب الكبير ؛ لأن قدر الكاتب يتوقف على غنى الإنــاء الذى يغترف منه ، والإناء لا بد أن يملأ ويتجدد محتـواه باستمرار حتى لا يخرج فى الدلو فى النهاية إلا الوشل والرمل والرواسب غير المرغوب فيها .

وبعد ، فهـذا ليس تـأريخًا للأدب العربى أو أدبـاء العربية ، إنما هـو تـأريخ للفكر العـربى وقـد عنيت هنـا بتتبـع الأفكـار والحركـات وتطـوراتها واهتممت بـالجوانب الإنسانية والصدق وأمانة الفكر ومسئوليته ، ورأيت أن أساس أى فكر نافع هو الحرية والعدل ؛ لأن النسـور المحلقة لا تعيش فى الأقفـاص ، أما التى تعيش فى الأقفـاص فهى طيـور الزينة ، وهذه ليست طيورًا إنما هى زينة فحسب .

وبعد فهـذا تاريخ طويل بـدأناه من العصر الجاهلى ، وهو فى النهـاية بحث صغير بالنسبـة لموضوعـه ، وأسأل القارىء الصفح عن الهفوات والـزلات والنسيانـات ، فقد طلبت مطلبًـا عسيرًا وأنا رجل مفـرد ، وماذا يبلغ جهـد الرجل المفـرد ؟ فالتقصير هنـا ضرورة وحتم وهذا بـالضبط ما قاله لـودفيج فان بيتهوفن وهو يتصفح السيمفـونية التى لم تتم لفرانز شوبرت ، فقد وقف حيث وقف شـوبرت وقال : أين الباقى ؟ لقد ترك الكثير ، ولكنه قال أيضًا الكثير وهذا يكفيه ويكفينى .

تمت الدراسة بحمد الله



الفهارس العامة

* فهرس الآيات القرآنية
* فهرس الأحاديث النبوية
* فهرس الأشعار
* فهرس الأعلام
* فهرس البلدان والبحار والأنهار والجبال
* فهرس القبائل والفرق والطوائف والجماعات والشعوب
* فهرس الكتب والمجلات والدوريات
* فهرس الموضوعات

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث النبوية

فهرس الأشعار

فهرس الأعـــلام

(ب)

(ت)

(ث)

(جـ)

(حـ)

(خـ)

(ز)

(س)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(هـ)

(ى)

فهرس البلدان والبحار والأنهار والجبال

(ت)

(ث)

(جـ)

فهرس القبائل والفرق والطوائف والجماعات والشعوب

فهرس الكتب والمجلات والدوريات واللوحات

(أ)

(ب)

فهـرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

كتب للمؤلف مِلك للدار

١ ـ معالم تاريخ المغرب والأندلس
٢ ـ تاريخ موجز للفكر العربى
٣ ـ المســـاجد فى العالم
٤ ـ الامبراطورية البيزنطية
٥ ـ الزفاف الدامى
٦ ـ أحاديث عن الإسلام
٧ ـ الشعر الأندلسى
٨ ـ تنقية أصول التاريخ الإسلامى
٩ ـ كتب وكتاب
١٠ ـ الطريق إلى الرسالة والنبوة
١١ ـ دراسات فى ثورة ١٩١٩
١٢ ـ النزاع والتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم
١٣ ـ ابن بطوطة ورحلاته
١٤ ـ الحلة السيراء
١٥ ـ رحلة الأندلس
١٦ ـ فجر الأندلس
١٧ ـ تاريخ قريش
١٨ ـ تاريخ الدولة العربية
١٩ ـ موسوعة تاريخ المغرب العربى
٢٠ ـ ظلمات بعضها فوق بعض
٢١ ـ شيوخ العصر فى الأندلس
٢٢ ـ كيف نفهم اليهود ؟
٢٣ ـ التاريخ والمؤرخون
٢٤ ـ صور من البطولات العربية والأجنبية
٢٥ ـ عصر الفتوات
٢٦ ـ أحاديث منتصف الليل
٢٧ ـ دستور أمة الإسلام
٢٨ ـ الإسلام فى عشرين آية